مكتبة

الساحرة العثمانية

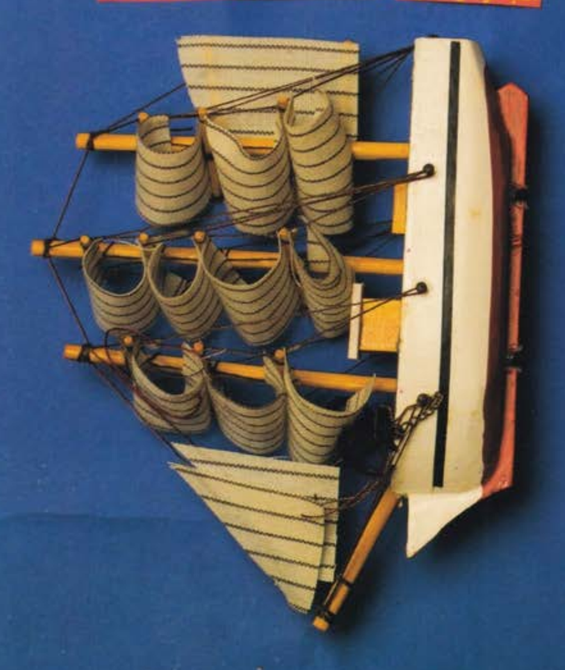
خيال علمي من اسطنبول

رواية

باريش مستجابلي أوغلو

أدب تركي حديث

ترجمة: د. سمير عباس زهران



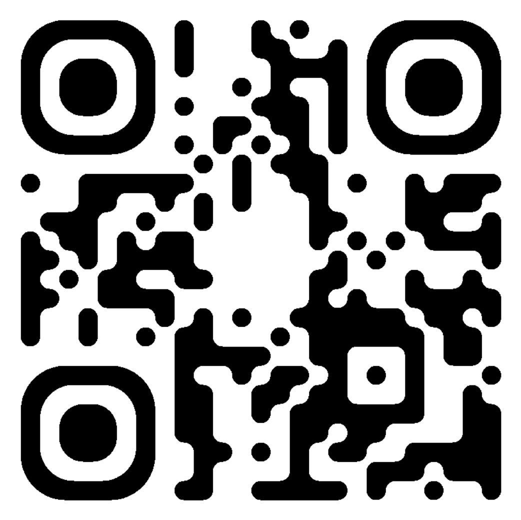
المحروسة

الساحرة العثمانيَّة

خيال علمي من اسطنبول

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!



telegram @soramnqraa

عنوان الكتاب: الساحرة العثمانيّة OSMANLI CADISI
المؤلف: باريش مستجابلي أوغلو Bir İstanbul Bilimkurgusu
ترجمة: د. سمير عباس زهران
مراجعة لغوية: محمود شرف
إخراج داخلي: رشا عبدالله

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
 almahrosacenter
 almahrosacenter
 www.mahrousaeg.com
 info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٠٥٢/ ٢٠٢٢
الترقيم الدولي:1-913-313-977-978

رواية



الساحرة العثمانيَّة

خيال علمي من اسطنبول

باريش مستجابلي أوغلو

ترجمة

د. سمير عباس زهران



الطبعة الأولى 2022





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أوغلو، باريش مستجابلي
الساحرة العثمانيَّة: خيال علمي من اسطنبول: رواية/
باريش مستجابلي أوغلو؛ ترجمة/ سمير عباس زاهر.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2022
319 ص؛ 21.5×14.5 سم
تدمك 978-977-313-914-8
1 - القصص التركية
أ- زاهر، سمير عباس (مترجم)
ب- العنوان
894.353
رقم الإيداع 2022/16052

إلى عزيزتَيَّ طوبا ودينيز

اللَّتَيْن جعلتاني أحبُّ هذا الكوكب...

1

تصــدَّت الســفينة شــاهميران بشــجاعةٍ لموجــة عملاقــة قادمــة مــن الجانــب، ولكــن كل مَــن كان عــلى ظهــر الســفينة قــد وقــع عــلى الأرض، وحتــى البحَّــارة الذيــن كانــوا قــد قضــوا معظــم حياتهــم في البحــر ســقطوا عــلى الأرض في جميــع الاتجاهــات مــع المســاعدين، كان الــشراع الرئيــسي ممزَّقًــا بالفعــل منــذ فــترة، وجــزء كبــير منــه قــد طــار بعيــدًا، ويتحــرَّك في مهــبِّ الريــح مثــل العَلَــم الأبيــض، كــما لــو كان يحــاول أن يقــول لنــا إن الســفينة الشراعيــة قــد استســلمت للعاصفــة، وكانــت تطلــب الرحمــة، لقــد كان هــذا مجهــودًا عديــم الجــدوى؛ فالإعصــار الهائــج ليــس لديــه رحمــة، حيــث كان قــد قــرَّر أن يقــضي عليهــا مــرة واحــدة، مثــل الســفن المجيــدة الأخــرى التــي دفنهــا في قــاع البحــر في نفــس اليــوم، كانــت البراميــل المليئــة بالقطــران، والمســامير، والقــار، والسلاســل، والمــؤن- تتدحــرج مــن مــكان إلى آخــر، بعضهــا يتطايــر عــلى الدرابزيــن المكســور، والباقــي يأخــذ كل مــا جــاء في طريقــه، ومــن وقــت لآخــر، كانــت تنضــمُّ إليهــم قطــع الصــاري التــي

انفصلت عن الأعمدة، والأعمدة، والفوانيس المقلوبة، وقذائف المدفع التي هربت من أماكنها، وأولئك الذين تحطَّمَت أقدامهم سقطوا على الأرض وهم يصرخون.

جاءت موجة جديدة مُستَعِرَة وهاجَمَت مقدِّمة السفينة الشراعية مثل كلب جائع، ونزعت تمثال الأسد الضخم الذي أرهب البحار لسنوات، وأثناء تفكيك التمثال من مكانه، فتح شقًّا كبيرًا في مقدمة السفينة، وبسبب الضوضاء، لم يكن بالإمكان سماع صرخات البحَّارة الأربعة المساكين، الذين سقطوا في البحر من خلال الألواح الخشبية المكسورة.

وطوبجي باشي مرتضى أفندي، الذي كانت إحدى عينيه ضحيَّةً لحجر طائش عندما كان طفلًا، والذي اعتقد أنه تعرَّض لجميع أنواع المشاكل، التي يمكن التعرض لها في البحار بعين واحدة، في السنوات الثلاث والستين التي تركها وراءه، قد عضَّ شفته السُّفلى من الدهشة، وكأنه يقطعها، وهو ينظر إلى عظمة الأمواج الجديدة المتصاعدة من بعيد، لقد قتل الدَّهرَ خبرةً في حياته، التي استمرَّت فترة طوية بالنسبة لجندي بحري مخمور، لكنه لم يسمع من قبل بمثل هذه العاصفة التي يتعرض لها الآن، في معظم أحاديث البحَّارة المبالَغ فيها، ولم يشهد أبدًا ما كان يمر به حتى في أكثر كوابيسه وحشية، غضب الريح الصارخة، التي تهاجم السفينة الشراعية من جميع الاتجاهات، لا يمكن تصوُّره، كان الله تعالى يعاقبهم، حسب قوله، لا يمكن أن يكون هناك تفسير آخر لما حدث لهم، لكنه لم يكن يعرف ما هو الإثم الكبير الذي اقترفوه.

وكان يصرخ في وجه جنود الانكشارية[1] ذوي الأجسام الضخمة، والذين كانوا يركضون دون وعي قائلًا: "أيها القوَّادون... عليكم تأمين

(1) الإنكشارية: هي قوات مشاة و فرسان من النخبة بالجيش العثماني. (المترجم)

الصواري! عليكم تأمين الصواري!"، ولأنهم كانوا ينقلون جنودًا إلى أحد الحصون كان من المتوَقَّع مهاجمته قريبًا، فقد كانت السفينة شاهميران مليئة تمامًا بهؤلاء الرجال الذين لا يعرفون البحر، وعندما هبَّت العاصفة بسرعة فجأة، هرعوا جميعًا من كبائنهم يائسين، وجاء بعضهم بأسلحتهم، وكأنهم يستطيعون قَطْعَ الأمواج المتدفقة بسيوفهم، وضربها ببنادقهم، ومع ذلك، لم يكونوا ذوي فائدة، بل على العكس من ذلك، فقد كانوا عائقًا أمام الطاقم الرئيسي للسفينة الشراعية الذي كان يحاول تصريف المياه وسدَّ الثقوب، مع سنوات من الخبرة، رأى مرتضى أفندي أن الركيزة الأساسية كانت في حالة انهيار، لكنه لم يستَطِع أن يجعل صوته مسموعًا من قبل أي شخص في هذه الضوضاء، كانت موجة قوية قد جعلته يطير منذ قليل -مع البراميل- على بُعد أربعة أمتار على الأقل، ولم يكن قادرًا على النهوض مرَّةً أخرى، كان يحاول الوصول إلى العمود زاحِفًا، من بين الحشد، بسبب ساقه المكسورة، ولكن حتى لو تمكَّن من الوصول إلى هناك، لم يكن يعرف ماذا سيفعل، ومع ذلك، كان يصرخ قدر استطاعته، قائلًا إن الأمل لم يَضِع في الحياة، وكان يحاول لفت انتباه الأشخاص الشجعان، الذين ينشغلون بأشياء عبثية، إلى الخطر القاتل الحقيقي.

"السارية تخرج عن نطاق السيطرة، يا عديمي الشرف! السارية الرئيسية سوف تهبط على رؤوسنا! اركضوا، وساعِدوا البحَّارة! استمعوا إليَّ أيُّها الكافرون! بالله عليكم، توقَّفوا واستمعوا!".

كان سطح السفينة مليئًا بالجُثَث والجرحى، وكاد أن يتحوَّل الموقف إلى النجاة بالنفس، لم يكن هيمانالي سليمان باشا مع رجاله عندما كانوا في مثل هذه المشاكل، وهذه هي المرة الأولى منذ اليوم الذي أصبح فيه قائدًا لشاهميران، كان يجلس القرفصاء في مقصورته، يتلو القرآن من المصحف الموجود في يده، ويصيح بصوت عالٍ قدر استطاعته، قد تعتقد أنهم إذا تمكَّنوا من إسكات صوت العاصفة في

الخارج، فسيصبح البحر هادئًا، وسوف ينتهي هذا الكابوس اللا نهائي فجأة، وسيعودون إلى منازلهم بأمان، وكلَّما كانت شاهميران تقذفها الأمواج من مكان إلى آخر، كان يتأرجح ذهابًا وإيابًا، كما لو كان في حلقة ذِكْر في هذه السفينة التي قضى فيها معظم أيام حياته، ولكنه بدلا من تلاوة الآيات بالترتيب، كما يفعل عادةً، كان يُردِّد الآية 119 من سورة النحل بلا كَلَلٍ ودون مَلَل، كما لو أن القرآن يتكوَّن من هاتين الجملتين فقط:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

بدأ حبُّه للبحر عندما كان خادمًا في سفينة صغيرة، وعندما جرَّهم قائدهم الجريء إلى مياه أكبر من ارتفاعهم، قبض عليه القراصنة مع جميع البحَّارة الموجودين على متن السفينة، ولمدة عامين تمَّ بيعه من سفينة إلى أخرى في أسواق العبيد، وحُكِم عليه بالتجديف، وهو كابوس البحَّارة، كان معتادًا على النوم جالسًا، ويتمُّ جَلدُه صباحًا ومساءً، واعتاد على الرائحة الكريهة الموجودة في جوف المركب، لكن روحه لم تكن تقبل أن تكون مُقيَّدة بالسلاسل إطلاقًا، وأخيرًا، عندما سقطت سفينة شراعية تابعة لجنوة -كان محتجزًا بها- في فخٍّ اثنين من القوادس العثمانية، حدث تمرُّدٌ بين الأسرى المحكوم عليهم بالتجديف، وفاز بحريته وبقوَّته، التعذيب الذي تعرَّض له خلال فترة التجديف، والوحشية التي شهدها لم تقتل شغفه بالبحر، ولكنها أيقظت المحارب بداخله، وجعلت قلبه قاسيًا كالحجر.

قام بكل عمل يمكن تخيُّله، لسنوات، في هذه السفينة التي التحق للعمل بها بصفته بحَّارا مبتدئًا، وأخيرًا، في أحد الأيام، عندما قُتِل

(1) [النحل : 119]

قائدهم بفعل قذيفة مدفعية سقطت عليه، تولَّى القيادة بصفته أكبر مساعديه ولم يتركها أبدًا لأي شخص مرة أخرى، في تلك الأيام، كانت القرصنة مهنةً سيئة السُّمعة، ولفترة طويلة اجتاح البحارَ مع طاقمه، كالرياح، وكان قد أجبر التجار الأثرياء على دفع إتاوة، كانت التحف غير المتناسقة، والتي تُعَدُّ كلٌّ منها ثروة، والتماثيل النصفية المصنوعة من الذهب، وتماثيل النساء شبه العارية، والشمعدانات المُرصَّعة بالماس، والسيوف المُزيَّنة بالزُّمرُّد، التي تُزيِّن قَمرته الآن، تُعدُّ كلٌّ منها ذكرى لتلك الأيام، لدرجة أن السلطان، الذي سئم التعامل مع هذا الذئب العجوز، في النهاية، عرض عليه ضعف ما جناه من الغنيمة، وجذبه لصفِّه، وقام بترقيته إلى منصب رفيع في أسطوله، وقام لسنوات عديدة، بواسطة السفن التي كانت تحت قيادته، بالتضييق على أهل جنوة والبندقية والشبان اللصوص الذين شوَّهوا اسم القرصنة، وكان معروفًا في قصور الكُفَّار باسم القرش البري للعثمانيين، لكن امتلاك مثل هذا الماضي العظيم لم يكن كافيًا بالنسبة له للتغلُّب على الخوف في قلبه، والارتباك في ذهنه الآن، وبينما كان يقرأ القرآن الذي كان يمسكه بإحكام ويتلوه باكيًا، وقال صوتٌ بداخله إن ما فعله لن يُصلح شيئًا، كان الظلام الدامس في قلبه ينمو، كان قد اقترف إثمًا، وكانت هذه خطيئة لا يمكن أن تُغفر أو تُنسى، وقد نزل عليهم غضب الله القدير بحقٍّ، وعلاوة على ذلك، شعر بكل ذرَّة في جسده أن ما حدث كان مجرَّد بداية.

أخذ نَفَسًا عميقًا، وصمت، ووقف ساكنًا لبعض الوقت، وهو منحني الرأس، ثم حدَّق في الباب الحديدي الذي يؤدي إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لقمرته، والتي بَدَت له الآن كأنها مدخل الجحيم، وذهبت يده إلى السيف العريض والقصير الموجود في حزامه، مُمسِكًا بالمقبض بشدَّة، لدرجة أن أظافره تغلغلت في جسده، إذا كان الشيطان، سبب كل هذا، فهو وراء ذلك الباب الحديدي، وإذا سكب دمه الأحمر

على الأرض، وقطع رقبته كضحية، فربما يهدأ غضب الخالق قليلًا، ربما كان الأوان قد فات بالنسبة لهم، لكن على الأقل يمكن أن يمنع ذلك المسيح الدجال من إطفاء الأفران الأخرى في المستقبل، وقف ووضع الكتاب الموجود في حِجره، بعناية، على المكتب الخشبي المنحوت، والذي كان قد اعتبره تذكارًا من إحدى سفن جنوة، واقترب ببطء من الباب وهو يمشي بصعوبة بسبب اهتزاز السفينة التي بدأت تنهار، ومع كل خطوة كان غضبه يزداد قليلًا، ويزداد اللمعان القاتل في عينيه أكثر فأكثر بالتدريج، وكان صوت الرياح والأمواج وهي تضرب السفينة يأتي من الخارج، فيما سُمِعَت صرخات الخوف واليأس من البحَّارة بين وقت وآخر، ترى كم عدد الرجال الذين فقدهم بالفعل، كم عدد الرجال الشُّجعان الذين عمل معهم لسنوات وانطلقوا في نفس الطريق، وكانوا ضحيَّةً لخطاياه؟ وإذا ذهبت كم ذراعًا ستغرق سفينته، التي خاض من أجلها حروبًا لا تُحصى، وسفك الدماء، هكذا؟ كان عليه أن يضع حدًّا لهذا الآن، وكان من واجبه إنقاذ مَن بقي.

وضع راحتيه الضخمتين القاسيتين على سطح الحديد الأملس، وانحنى لأسفل، وجعل رأسه أقرب إلى ثقب المفتاح، بدا الأمر كما لو أن صوت العاصفة، التي ضربت السفينة مثل كرات القطن، توقَّف في لحظة، كل ما كان يسمعه الآن هو أنفاسه، ومع مرور الثواني، انكمش غضبه مثل البالون، وتحوَّلَت كراهيته واستياؤه إلى شغف لرؤية الجَمال الموجود في الداخل مرَّةً أخيرة، قبل أن يستردَّه البحر، كان الشعور الوحيد الذي سيطر على قلبه هو الرغبة الشديدة التي كان يشعر بها، في إمكانية لمس بشرتها الأحلى من العسل مرة أخرى، وعناق خصرها النحيف بشدَّة، واستنشاق رائحة شَعرها مرة أخرى، التفكير في الأمر منحه هدوءًا لا يوصَف، بينما كان يصيبه بالقشعريرة من ناحية أخرى.

هــزَّ الجَــمالُ الــذي لا يُضاهَــى -الــذي كان يشــاهده مــن الثقــب- هيمانــلي ســليمان باشــا تمامًــا، كــما أثــار مشــاعره في المرة الأولى التــي رآهــا فيهــا، أغلــب الظــن أن هــذه الدرجــة مــن الكــمال كانــت معجــزةً مــن اللــه، كانــت أمانــةً مُقدَّســة، ولا يمكــن أن تكــون هــذه النعمــة الإلهيــة هــي مصــدر الكــوارث التــي حلَّــت بهــم، عــلى الرغــم مــن أنــه كان ينظــر بمتعــة إلى النصــف العلــوي مــن الفتــاة الصغــيرة التــي ترقــد عاريــة تمامًــا عــلى الأريكــة، إلا أن هــذا المنظــر الســحري كان كافيًــا لجلــب الدمــوع إلى عينيــه، وتــلاشي النوايــا الشريــرة مــن عقلــه، كان اللــه تعــالى قــادرًا عــلى خلــق كل شيء، وكانــت لديــه قــوة مطلقــة، ولا بُــدَّ أنــه خلــق مثــل هــذا الجَــمال الــذي لا يوصــف، وأرســله إلى عبيــده الجاحديــن، الذيــن نســوا هــذه الحقيقــة الســامية وانغمســوا في العــالم الفــاني؛ مــن أجــل أن يجعلهــم يعيــدون حســاباتهم، وعندمــا فكَّــر في أنــه كان ينــوي فقــط تدمــير معجــزة إلهيــة بيديــه، تَملَّكــه خــوف شــديد، وقطَّــب حاجبيــه الكثيفــين.

صرخ بغضــب في الفضــاء أمامــه "لا! لــن أقــع في فخِّــكَ، أيُّهــا الشــيطان الرجيــم! "، في الضــوء الخافــت للمصابيــح، كان يمكنــه أن يشــعر بوجــود الشــيطان في الغرفــة، وكأنــه بإمكانــه رؤيــة الظــلام المتراكــم في تلــك الزاويــة، والــذي مــن شــأنه أن يلــفَّ كل الجوانــب إذا اســتطاع. كان يســمع أصواتًــا لا تخصُّــه في ذهنــه، وكانــت هنــاك صــور مخيفــة تظهــر وتختفــي في مُخيِّلتــه، كان لديــه كابــوس النهــار هــذا أيضًــا، في اليــوم الــذي أخــذوا فيــه الفتــاة إلى الســفينة، والأصــوات والصــور التــي تهاجــم عقلــه كانــت تثــير رغباتــه، وأدَّت إلى الانقضــاض عــلى المســكينة مثــل الأشــقياء، وبعــد ذلــك هبَّــت مبــاشرة هــذه العاصفــة المنقطعــة النظــير، والتــي لا يمكــن تفســيرها بــشيء ســوى أنــه غضــب اللــه، لــن يــدع الشــيطان يخدعــه مــرة أخــرى، وقــال في نفســه:

"أغلــب الظــن أن هــذا اختبــار! لقــد أرســل اللــه تعــالى هــذا الجَــمال الرائــع الــذي خلقــه، كأمانــة إلهيــة! إنهــا مِلــكٌ لي وأنــا لهــا! خُصلــةٌ مــن شَــعرها أغــلى مــن حيــاتي، اخــرج مــن عقــلي، أيهــا الشــيطان! لا تُربِكْنــي!".

سيحمي تلك الفتاة من كل شيء وكل شخص على حساب حياته، هذا ما كان عليه أن يفعله، كل ذَرَّة من كيانه كانت تصرخ بذلك.

في تلك اللحظة، انفتح باب المقصورة الخشبي ذو الدرفتين، وأحدث ضوضاء، وتمَّ دفعه بقوة لدرجة أن مفصلاته كانت قد خرجت من مكانها، كان ساري إسماعيل من شباب البحَّارة الذين هرعوا إلى الداخل، هذا الشاب القوي الذي خدم الباشا لسنواتٍ كحارس له، وبعد توَلِّيه الحارس الشخصي لعددٍ لا يُحصَى من رجال البلاط، تمَّ نفيه إلى شاهميران بسبب افتراء ابنة الباشا، التي لم يبادلها الحُبَّ، كان يضحك كثيراً، ويجلب البهجة لكل مكان يدخله، وفي وقت قصير اكتسب صداقة الطاقم بأكمله، وأصبح قُرَّةَ عين جميع الرؤساء، من الواضح أنه كان يركض على الدَّرَج، لاهثًا، مبتلًّا من الرأس إلى أخمص القدمين بسبب الأمواج التي كان يستهدفها، في إحدى يديه، كان يحمل فأسًا ضخمة تُستَخدَم في أعمال سطح السفينة، بينما جعل اليد الأخرى على هيئة قبضة، وكانت هناك ندبة جديدة على وجهه بدأت من صدغه، ونزلت إلى منتصف خدِّه، وكان جانبه الأيسر مُغطًّى بالدِّماء حتى ذقنه، ونصف شاربه قد اصطبغ باللون الأحمر.

والشاب الذي اشتهر بسبب قوّته المؤلمة، والذي طرح كل مَن صارعه على متن السفينة أرضًا، نظر في جميع أنحاء الغرفة، وعيناه اللتان في زُرقة السماء تلمعان بغضب، وعندما رأى هيمانلي يقف بينه وبين الباب الحديدي، تقدَّم بضع خطوات في هذا الاتجاه.

وزأر مثل أسدٍ جائع، قائلًا: "أعطني إيَّاها أيها الرئيس!"، "هذا الشيطان هو سبب كل هذا! لقد لوَّث كل مكان بِشَرِّه! نحن نموت واحدًا تلو الآخر أعلاه، والسفينة على وشك الانهيار! دعونا نُلقِ المسيح الدَّجَّال في البحر وننجُ!".

كانــت الكراهيــة والرغبــة تتحــوَّل باســتمرار في نظــرات المحــارب الشــاب، ولم يكــن مــن الواضــح أيهــما ســتنتصر، هــل كان يريــد حقًّــا أن يرمــي الفتــاة مــن الســفينة، أو مــا إذا كان يريــد أن يتنفَّــس أنفاســه الأخــيرة بــين ذراعيهــا، لم يكــن يســتطع الإجابــة إذا ســأله أحدهــم.

صرخ ســليمان باشــا وهــو يُحكِــم قبضتــه، قائــلًا: "لا تقــترب، أيُّهــا الدَّيُّــوث!"، "أَمَــا تعلــم أن هــذه هــي أمانــة الــرب القديــر! ألا تعلــم أنهــا شرف البَحَّــار الــذي أنقذهــا مــن البحــر! أنــت تأخــذ حيــاتي، ولا يمكنــك أن تأخذهــا منــي! عُــدْ وإلَّا ألقيتــك في البحــر!".

امتــلأت عيــون الشــاب بالدمــوع، ومســح الــدم الــذي بــدأ يتدفَّــق مــن شــفتيه ويدخــل إلى فمــه، بكفِّــه، وحــرّك يــده في الهــواء، وكانــت قطــرات حمــراء تتطايــر حولــه، لقــد فهــم أن أيًّــا منهــما لــن ينجــو مــن هــذه القمــرة؛ ســيكون إمَّــا القاتِــلَ أو ضحيَّــةَ الرئيــس الــذي كان يحســبه أبــاه لســنوات، لكنــه لــن يعــود إلى ســطح الســفينة خــالي الوفــاض، ولــن يفعــل ذلــك بــأي ثمــن.

وقــال: "اللعنــة عــلى اليــوم الــذي وجدناهــا فيــه في البحــر..."، قــال وهــو يــصرُّ بأســنانه، وهــو ينفــث الكراهيــة. "اللعنــة عــلى أعيننــا التــي تــرى وجهــك... ملعونــة أيدينــا التــي تمــسُّ بَشرَتَــك... ملعــون أنــت لأنَّــكَ احتفظــت بهــا لنفســك".

اندلــع حريــق في عيــون ســليمان باشــا، وانطفــأ، كان إســماعيل أطــولَ منــه، وكانــت عضلاتــه بطــول الخــصر، وكان ســيطرحه أرضًــا بســهولة في أي وقــت آخــر، ولكــن في مثــل هــذه اللحظــة التــي كانــت تلــزم فيــه وجــود معجــزة إلهيــة لحمايتــه، فإنــه لــن يتراجــع حتــى إذا ظهــر أمامــه الشــيطان نفســه، وبينــما كان يســتقيم ويســحب ســيفه العريــض والقصــير، اختفــى الخــوف واليــأس مــن وجهــه، وحــلَّ مَحلَّهــما تعبــيرٌ لا يتزعــزع، يُذكِّــره بأيــام القرصنــة المجيــدة، عندمــا كان مشــهورًا في البحــار، وحتــى الســلطان

لم يستطع مواجهته، ونظرت عيناه إلى القرآن الموجود على المائدة الخشبية، وإذا كانت لديه فرصة واحدة للتكفير عن خطيئته الكبرى، فقد سنحت له تلك الفرصة.

أطلق صاري إسماعيل صرخة، ورفع فأسه، واندفع إلى الأمام لقتل قبطانه، الذي كان سيضحِّي بحياته من أجله دون تردُّد قبل أيام قليلة.

هايمانالي سليمان باشا، ممسكًا بسيفه بإحكام، ثنى ركبتيه، واستعدَّ لمواجهة هذه الضربة القاسية، واستقرَّت ابتسامة هادئة على وجهه، كأنه يقف على أبواب الجنة.

الصَّاعقة التي سقطت على سطح السفينة، نزعت الصاري الرئيسي، الذي كان متهالكًا بالفعل، من مكانه، وقام طوبجي باشي مرتضى أفندي، بالسباب، وهو يشاهد بلا حول ولا قوة، ما يحدث، وبينما كان الصاري ينهار مع ضجيج عالٍ، تحطَّم كُلُّ ما أمامه، وفتح حفرة كبيرة في مؤخِّرة السفينة، إحدى قطع الخشب التي أُلقِيَت في جميع الاتجاهات، قد انغرزت في بطن طوبجي باشي العجوز؛ ممَّا أدَّى إلى تحريره من مشاهدة ما سيحدث، وعذاب الموت غرقًا، الرجل الذي كرَّس حياته للبحر، حدَّق في السماء المظلمة للمرة الأخيرة بعينٍ واحدة، وظنَّ أن الأبدية تبدو جميلة جدًّا، ثم استغرق في نوم هادئ، بدَّد كلَّ مخاوفه، بدأ البحر يملأ شاهميران بكل ما فيها من مقاومة، ويغطي كل شيء، استلقت السفينة الشراعية الكبيرة ببطء على جانبها، وكانت البراميل تتطاير في الهواء، وتُسْقِط كل البضائع التي كانت تحملها، والبحَّارة اليائسون كانوا يسقطون في الماء واحدًا تلو الآخر، واختلطت اللعنات والصراخ والصلوات مع بعضها البعض.

وبينما كانت القيامة تقوم في الخارج، استدارت الفتاة الصغيرة المستلقية في الغرفة الصغيرة ببطء على ظهرها، وحدَّقَت في السقف

الخشبي الموجود فوقها، كان هناك في عينيها التي تجعل الإنسان يطير من الفرح آثارُ ألَمٍ لا مثيل له، وبضع قطرات من الدموع، وتحرَّكَت شفتاها التي لها لون الكرز الناضج، وتمتمت، بلغة لم يعرفها أحد على متن السفينة، قائلة: "سامحني يا إيفا".

سامحوني كلكم...



2

قـال إيـه آر43 بصـوت هـادئ، وسـاكن، ووَدود: «البروتوكـول 173 سـاري المفعـول، يتـمُّ إجـراء فحـصٍ أمنـيٍّ في المنطقـة المجـاورة، كامـيرات المراقبـة الخاصـة بي تعمـل بشـكل جيـد، مستشـعرات الصـوت وأجهـزة استشـعار الحركـة قَيْـد التشـغيل، وبـدأ نقـل الصـور ثلاثيـة الأبعـاد».

كانـت طريقتـه الهادئـة في التحـدُّث مُناسِـبةً لروبـوت منـزلي مُبَرمَـج لرعايـة طفـل، أكـثرَ مـن آلـة قَتـلٍ مضـادَّة للرصـاص، وأثنـاء الاسـتماع إليـه يمكـن للمـرء الاسـترخاء والتخلُّـص مـن كل متاعبـه، والاسـتمتاع بنـوم مريـح، يمكـن أن يقـال حتـى إن صوتـه لَحْنـيٌّ إلى حَـدٍّ مـا، وبحسـب الضابـط الكبـير بالشرطـة أحمـد دمـير، المتمركـز أسـفل المصاعـد، والـذي يقـوم بالحراسـة في حالـة هـروب شـخص مـا، فـإن هـذا الوضـع كان مثـيراً للأعصـاب بشـكل كبـير؛ مـمَّا يعنـي أن الأشـخاص الذيـن صمَّمـوا الربـوت الآلي الأمنـي، يعانـون مـن مشـاكل نفسـية خطـيرة.

قضى أحمد حياته كلها في قوات الأمن، وكان قد اعتاد على كل مشاق، وقذارة هذه المهنة، وحقيقة أن حياته كانت في خطر في أي لحظة، لكنه لم يستطع أن يأنس إطلاقًا لهذه الأكوام الحديدية، التي كان مضطرًّا للعمل معها في السنوات الأخيرة، لقد جعلوه يشعر بأنه غير ملائم، ولا لزوم له...

تمتم، وقطب جبينه، قائلًا: «سوف يضعوننا جميعًا عند الباب قريبًا، ها أنا أكتب هنا! هذه الروبوتات اللعينة سوف تأخذ وظائفنا، احذروا، ولا تقولوا إننا لن نرى تلك الأيام! في الشهر الماضي، وضعوا هذه الرؤوس المعدنية في الاستقبال في الفندق، حيث يعمل عمِّي، وفصلوا اثنين من الموظفين المساكين، إنهم لا يأخذون استراحات الغداء، ولا يطلبون إجازة سنوية، وبالطبع فإن الرؤساء يحبُّون ذلك، وسرعان ما يمسح هؤلاء الرجال المقرفون حتى مؤخِّرتنا...».

وبَصَقَ في حقدٍ، ونظر إلى صديقه الموجود بجانبه، وكأنه يسعى للحصول على تأكيد.

ضحك مصطفى، وهو يسوِّي شاربه بأصابعه، وقال: «لا تبالغ، أيُّها الصَّبيُّ المجنون»، لم يلاحظ أنه فعل ذلك للمرة الثالثة في الدقائق العشر الماضية، ونظر بشكلٍ أبَويٍّ إلى أحمد، الذي كان أصغر منه بكثير، وفحص مُسدَّس الطاقة المعلَّق في كتفه.

وقال: «هل ترغب في أن تكون أول من يدخل الأماكن المزعجة؟ مَن يدري ما هي القذارة الموجودة بالداخل، والله أنا سعيد بوضعي، هناك بالفعل سنتان حتى تقاعُدي! لا أستطيع التعامُلَ مع السفلة والوضعاء».

لقد كان فاتِرَ الهِمَّة، وهو يُحدِّق في نهاية الممر الخالي والمُحصَّن، كما لو أن عقله قد سافر مؤقَّتًا بعيدًا، أو إلى أوقات بعيدة.

وقال بصوتٍ حزين: «هل تتذكَّر ميرت، لقد مات دون مبرِّر، يا حبيبي»، «كان صبيًّا صغيراً، لقد أحببنا جميعًا هذا الولد الشقي، لقد أدرك أنني سأكون أوَّلَ مَن يدخل هذا المستودع الغامض، لقد تصرَّف بشكل غير مناسب، فأطلقوا النار على جبهته مباشرة، ومن هنا كان وحيدًا لدى أمِّه في الدنيا، وبقيت المسكينة وحيدة تمامًا».

قال الشرطي الأشقر المتمركز على الجدار المقابل للممرِّ: «حسنًا، والله، لقد كانت امرأة مبارَكَة. عندما جاءت لزيارة ميرت، كانت توزِّع الفطائر الرائعة على القسم بأكمله، قالوا إنها فقدت عقلها، عندما فقدت ابنها، لِيُعِنْها الله».

حدَّق أحمد بصمت في الرجل الصغير، الذي كان يضغط بإصبعه بقوة بين حاجبيه، ربما كانت لديه نقاط صحيحة، لكن بينما كان ينتظرهم في الخارج، أصيب ذلك الروبوت، ذو الرأس المعدني، والذي لا روح له بشكل مأساوي، في الداخل، وتساءل بشغف شديد عمَّا كان يحدث خلف هذه الجدران، في الأيام الخوالي كانوا هم مَن حَلُّوا مثل هذه الألغاز، لقد كان يشعر أنه كان يقوم بعمل جيد، وأن وجوده له معنى.

ركَّز على شاشة بحجم كفِّ اليد، موجودة على ذراعه من درعه؛ حتى يتمكَّن على الأقل من رؤية ما كان يحدث من خلال عيون الروبوت، وقام بلمس الشاشة بإصبع واحد، وكبَّر الصورة ثلاثيَّة الأبعاد مرَّتين.

استمرَّ الإنسان في إبلاغ رجال الشرطة عندما اقترب إيه آر43 من باب الشقة دون اندفاع، كانت الفراشات تطير في صوتها، كما لو كان نصفها يتحدَّث، ونصفها الآخر يغني تهويدة، وقال:

"لا يبدو أن هناك أي مدنيين حولنا، لم يتمَّ الكشف عن أي تهديدات، البيئة هادئة وساكنة، لا دماء أو آثار رصاص على الجدران، واحتمال

حدوث اشتباك أقلُّ من ثمانية في المائة، سأدخل المكان المستهدف قريبًا، البروتوكول 81 نَشِط، يتم الاستعداد للاتصال الساخن».

كان روبوت الشرطة -الذي كان يحتوي على أحدث وحدة ذكاء اصطناعي، والذي تمَّ تحديثه العام الماضي- يشبه الإنسان عند النظر إليه من بعيد، وكان من الممكن أن يكون هذا التشابُه أكبر، لو لم يكن لديه كاميرا ضخمةً على وجهه بدلًا من عينيه، وجسمه المعدني لم يتوهَّج عندما يصيبه الضوء، ولكن حتى لو تمَّ تصميمه بشكل بشري بما يكفي لعدم تخويف الجمهور، فمن المهم أيضًا ألَّا يبدو مثل الإنسان تمامًا؛ وبالتالي، لن يحاول أحدٌ قبله إنقاذ مواطن قد يتضرَّر فعلًا في وقت الخطر، تمَّ نقش الأحرف الأولى لقوات شرطة جمهورية اسطنبول على صدره الأيمن، وكُتب «قوَّات الأمن لمدينة اسطنبول» بأحرُفٍ صغيرة منقوشة على معصميه وكاحليه، كان من المرغوب فيه أنه إذا تمَّ تقطيعه، فيمكن فهم أنه كان إنسانًا آليًّا خاصًّا بالشرطة، وذلك من أجزائه المختلفة.

وضع إيه آر43 راحتَيْه على باب الشقة الحديدي، لقد كان بابًا صلبًا مصنوعًا حسب الطلب، ولن ينكسر إذا تمَّ ربطه بسيارة، وسحبه، على الأكثر سوف يخرج من مكانه، دارت الكاميرا ذات الزاوية العريضة على وجهه، على قاعدتها الكروية، مُسجِّلةً بعنايةٍ كلَّ نقطة، ومقارنتها بمسارح الجريمة السابقة في قاعدة البيانات، وقارن التقارير الخاصة بالمنازل التي تمَّ الإبلاغ عنها، والإحصاءات الخاصة بالجرائم التي ثبت وقوعها في هذه المنازل، بملاحظاته الحالية، وعلى الرغم من كل ملامحه المتفوِّقة، فقد كانت قوته التحليلية منخفضةً مقارنةً بالإنسان، وكانت الشرطة الحقيقية سوف تأتي وتفحص الأدِلَّة بالتفصيل، بعد أن يتأكَّد من الأمن، ومع ذلك، لاحظ غرابة أنه يجب عليه الإبلاغ هنا، وفقًا للبيانات المتاحة.

لم يكن الباب مفتوحًا عُنوةً، واحتمال العبث بالقفل أقل من ستة بالمائة، يفترض أن الضحايا فتحوا الباب للمهاجمين بأنفسهم، أو أن الأشخاص الذين جاؤوا يعرفون كلمة المرور، مقارنة بالأحداث المماثلة السابقة، فإن احتمال اختيار الغرفة عشوائيًّا، هو أربعة فاصل اثنان بالمائة.

نقر على الشاشة التي تعمل باللمس بجوار الأجنحة الفولاذية ثماني مرَّات بأصابعه الطويلة النحيلة، وانزلقت لوحات الباب ببطء على الجانبين، عندما أدخل رمز الشرطة الذي قام بتنزيله للتَّوِّ من قاعدة البيانات الحكومية، والتي فتحت جميع الأبواب في البرج العملاق، ونظرًا لما حدث له عدَّةَ مرَّاتٍ من قبل، فقد كان مستعدًّا للرصاص الذي يمكن أن ينهال عليه، ولن تُشكِّل الأسلحة البسيطة أي خطر، ولكن في هذه الأيام يمكن للمسلَّحين أيضًا العثور على بنادق خارقة للدروع، أو قاذفات صواريخ، ظهر طرف البندقية الآلية من خلال الفتحة الموجودة في راحة يده، ومدَّ ذراعه للأمام، وأصبح في وضع القتال، ودخل بخطوات حَذِرَة.

صاح بصوت عالٍ يمكن سماعه في جميع أنحاء المنزل، قائلًا: «روبوت الشرطة إيه آر43 موجود في الغرفة! ارفعوا أيديكم وابقوا في مكانكم، أي هجوم سيُواجَه بردٍّ قاتل، بموجب القانون، الشرطة صديقكم! تعاوَنوا مع قوات أمن مدينة اسطنبول، من أجل سلامتك!».

ألقى نظرة على كل ركن من أركان الشقة، بسرعة أكبر بأربع مرات من قدرة الإنسان. لم يكن هناك خطر في الأفق. كان قد خضع لصيانة إلزامية، مثل جميع أقرانه؛ لأن روبوت مُعطَّلًا من طراز ايه آر، كان قد طلق الرصاص على طفل كان يرمي كوبًا عليه، في مسرح جريمة آخر الشهر الماضي، وقد تمَّ تقليل حساسية إعدادات الأمان الخاصة به بشكل طفيف، ومع ذلك، كان طرف البندقية الآلية مثبَّتًا على

الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة، وكانت حواسُّه تولي اهتمامًا وثيقًا للتهديدات التي قد تأتي من هناك. وفقًا للإحصاءات التي حسبها في ثانيتين، بناءً على مسارح الجريمة القديمة المحفوظة في ذاكرته، كان احتمال وجود شخص يحمل مسدسًا يختبئ في الغرفة أكثر من سبعين بالمائة.

لم تستطع مقاييس الحرارة اكتشاف أي علامات تدلُّ على وجود حياة خلف الجدران، لكنه كان يعلم أن المسلَّحين يمكنهم ارتداء ملابس مقاومة للحرارة لتجنُّب مثل هذا الفحص؛ لهذا اقترب من الباب ببطء، وأخذ حذره، ومن ناحية أخرى، فإن الشخص الذي كان ينتظره في الخارج بشغف، أبلغ الشرطة.

«ليس هناك ما يشير إلى صراع في القاعة، كل الأشياء موجودة في مكانها، لا يوجد دَمٌ أو جزء من الجسم مرئيًّا، ولم يتمَّ الكشف عن قنابل أو شِراك، توجد غرفة واحدة فقط في المنزل مُتَّصِلة بغرفة المعيشة، يذهب إيه آر43 إلى الداخل لفحص الغرفة».

بينما كان أحمد يشاهد الصور التي التقطتها كاميرا الروبوت على الشاشة الموجودة على ذراعه، رأى أن المنزل كان مؤثَّثًا بشكل أنيق للغاية، كانت الشقة الموجودون فيها واحدة من أكثر الأماكن الرائعة في ميجا تاور، حيث يعيش الأثرياء، لقد دخل منازل العديد من الأغنياء في مناسبات مختلفة من قبل، ولم يصادف مثل هذا الذوق الجميل، ألوان الجدران الفاتحة التي تبعث على الهدوء، والزخارف المختارة بعناية، وإطلالة الطبيعة الرائعة على الشاشة التي تغطي الجدران من طرف إلى آخر، تداعب الروح بشكل فرديٍّ وكُلِّيٍّ، وثُريًّا من الكريستال أنيقة معلَّقة من السقف، لا يمكن العثور عليها إلا من قِبَل الأشخاص المهتمِّين بالتاريخ، داخل إطار صورة عتيق مُزَخرَف بالزهور، تتألَّق صور ثلاثية الأبعاد لأصحاب المنزل، رجل وسيم،

وامـرأة مبتسـمة جميلـة، وصبـي لطيـف يعانقهـما بكلتـا ذراعيـه مـن أرجلهـما، انعكـس الإطـار عـلى الشاشـة لبضـع ثـوانٍ فقـط، لكـن لم يكـن مـن الصعـب قـراءة حبِّهـم الصـادق لبعضهـم البعـض، عـلى وجوههـم، كان النـاس الذيـن يعيشـون في هـذا المكان سـعداء، إذا كان التقريـر الـذي تلقَّـوه خاطئًـا، فسـيكون إيـه آر43 سـعيدًا، لـو وجـد تلـك الغرفـة فارغـة عنـد دخولـه إليهـا.

بعـد فتـح البـاب جزئيًّـا، أجـرى الروبـوت الأمنـي مـرَّةً أخـرى تقييـمًا سريعًـا للتهديـد، وبـدا أنـه لا داعـي للبقـاء بالخـارج، أو إطـلاق رصاصـة في الداخـل، دفـع سـاقه الفولاذيـة المقـوَّاة مـن الصُّـلب للداخـل، وضغـط بكتفيـه عـلى البـاب، وفتحـه عـلى مصراعيـه، وبعـد أن انتقلـت كاميرتـه مـن جـدار إلى آخـر، ركَّـز عـلى السريـر الموجـود في منتصـف الغرفـة.

تجمَّـد أحمـد بسـبب المشـهد الـذي رآه عـلى الشاشـة، واتَّسـعَت عينـاه، واسـتقرَّ ثِقَـلٌ في بطنـه، وجشـأ كـما لـو كان يتقيَّـأ، مـلأ الشـعور بـالألم والتمـرُّد كيانـه كلـه، أراد أن يَلكُـمَ شـخصًا مـا، وأبـدى رجـال الشرطـة الآخـرون الموجـودون معـه ردود فعـل مُماثِلـة، وأثنـاء محاولتهـم اسـتيعاب المشـهد الـكارثي الـذي شـاهدوه، بـدأ إيـه آر43 في تسـجيل ونقـل المشـهد الموجـود أمامـه بصـوتٍ هـادئ وسـاكن، كـما لـو كان يصـف كيـف تـمَّ تأثيـث الغرفـة.

«هنـاك ثلاثـة أشـخاص في غرفـة النـوم، ربمـا تكـون الأسرة التـي تعيـش في هـذا المنـزل، يجـب دراسـة هـذه المسـألة مـن قِبَـل خـبراء بشريِّـين، رجـل وامـرأة وربمـا طفـل، أجسـادهم محترقـة بدرجـة كبـيرة للغايـة، ووجوههـم لا يمكـن التعـرُّف عليهـا، الرجـل المقتـول جالـس إلى اليمـين، والمـرأة المقتولة جالسـة عـلى اليسـار، أمَّـا عـن الشـخص المفـترض وجـوده بينهـم، فهـو الطفـل، يبـدو أن المـرأة وكأنهـا تنحنـي عـلى الطفـل، ربمـا لحمايتـه، أمَّـا الرجـل فقـد عانـق الاثنـين الآخريـن، وحـاول أن يحميهـما بجسـده، لا يمكن

تحديد دليل على كيفية حرقهم، احتمال قتلهم بنسبة تسعة وثمانين بالمائة، وفقًا لشكل وقوفهم، فإن احتمال تعرضهم للحرق أحياء هو ثمانية وسبعون بالمائة، لا يبدو أن هناك أي دليل على هوية أو عدد القَتَلَة، ولم يتم إثبات أنه كان هناك عنصر تهديد للموظفين في مكان الحادث، قد يتمُّ انتقال مُحقِّقي مسرح الجريمة ورجال الشرطة إلى الداخل، قام إيه آر43 بتسليم صلاحياته الخاصة بالمهمة لهم».

3

بينـما كان يسـبح بـين السـحاب، قـام كـمال بفتـح ذراعيـه عـلى نطـاق واسـع، وكأنـه يريـد احتضانـه، وأثنـاء قيامـه بذلـك، اعتقـد أنـه لم يعانـق أحـدًا لفـترة طويلـة، وأنـه لم يشـعر بمثـل هـذه الرغبـة تجـاه أي رجـل أو امـرأة لسـنوات، كان يشـعر بالحـزن عندمـا يتذكَّـر مثـل هذه الأشـياء، وكان يتـوق إلى الأوقـات التـي يشـعر فيهـا بأنـه شـخص عـادي، لكنـه لم يُكلِّـف نفسـه عنـاء ذلـك لفـترة طويلـة، يبـدو أن قبـول أنـه سيكون بمفـرده حتـى وفاتـه، يُضعِـف مـن حاجـة المـرء إلى الحـب والمحبَّـة، كان يحـب الريـح البـاردة التـي تداعـب خدَّيْـه، وتُذكِّـره بالذكريـات الجيـدة منـذ زمـن بعيـد، تلـك الأيـام المبهجـة التـي كان لا يـزال يحلـم فيهـا بمشـاركة حياتـه مـع شـخص مـا، ثـم خطـر لـه سـبب ارتفاعـه إلى هـذه الدرجـة، كان يجـب عليـه الابتعـاد عـن الأفـكار السيئة، والتركيـز عـلى اللحظـة التـي يعيشـها؛ فهـو بحاجـة إليهـا مثـل التنفُّـس.

لم يفكـر في أي شيء لبضـع ثـوانٍ، وحـاول تصفيـة ذهنـه تمامًـا، وفي اللحظـة التـي نجـح فيهـا رُفِـع عنـه ثِقَـلٌ، لم يشـعر بهـذا الشـعور الجيـد منـذ وقـت طويـل، بـين الحـين والآخـر، كانـت الطيـور تمـرُّ بجانبـه، طيـور النـورس البيضـاء، والحـمام الأسـود، والعصافـير الصغـيرة، ولا يبـدو أنهـا منزعجـة مـن مشـاركة هـذا الضيـف الدخيـل في السَّـماء معهـم، لقـد طـار عـدة مـرات مـن قبـل، لكنـه لم يصعـد أبـدًا إلى هـذا الارتفـاع، كان قلبـه ينبـض أسرع مـن المعتـاد، كان ذلـك ممتعًـا بالنسـبة لـه، لم تكـن الشـمس في الأفـق، وربمـا كانـت مخبَّـأةً خلـف الغيـوم، مضيفـةً احمـرارًا حلـوًا إلى السـماء في الأفـق، وضرب دفءٌ لطيـف عـلى جبهتـه، عـلى عكـس بـرودة الريـح.

بعـد فـترة، شـدَّ يديـه معًـا، وجـذب ركبتيـه إلى بطنـه، واتَّخَـذ وضعًـا، كـما لـو كان سـيدور في الهـواء، ويغـوص في البحـر، بـدأ في النـزول بسرعـة، وتزايـدَت الإثـارة في قلبـه، مـع زيـادة سرعتـه، وأبنيـة المدينـة الملوَّنـة، والسـيارات التـي تشـبه النَّمـل، والحدائـق الواسـعة المليئـة بأشـجار الدُّلْب، والحدائـق المزيَّنـة بالزهـور، وأحـواض الزينـة التـي تشـبه اللآلـئ الزرقـاء، والتـي وكأنهـا كانـت تـزداد وضوحًـا مـع مـرور كل ثانيـة، يجـب أن يكـون هبوطًـا مثاليًّـا، وإذا انزلـق قليـلًا إلى اليمـين أو اليسـار مـن نقطـة هدفـه، فسـوف يغـوص في الأرض، ومـع ذلـك، لم يشـعر بـأي خـوف، فقـد كانـت روحـه في سلام، كـما لـو كان يسـير في الحديقـة في صبـاح يـوم أحـد هـادئ، تـرى كـم كيلومـترًا في السـاعة كانـت سرعتـه الآن؟ ربمـا يمكنـه التَّنافُـس مـع طائـرة مقاتلـة متوسِّـطة المـدى، التفكـير في الأمـر منحـه السرور، وانتـشرت ابتسـامة عريضـة عـلى وجهـه.

في غضـون ثـوانٍ قليلـة فقـط، نـزل عـبر الغيـوم إلى مسـتوى سـطح البحـر، كان في منطقـة ذات كثافـة عاليـة مـن المنـازل المكوَّنـة مـن ثلاثـة طوابـق مـع الحدائـق، وكان معظمهـم مـن الأزواج الشـباب يجلسـون عـلى مقاعـد في الشـوارع، كان الجميـع مسـتغرقًا في حياتهـم الخاصـة، وفي

هـذه اللحظـة، لم يجـذب الرجـل الـذي ينـزل مـن السـماء مثـل الحَربَـة انتباههـم، أخَـذَ نَفَسًـا عميقًـا، وأغلـق عينيـه بشـكلٍ لا إرادي، قبـل أن يغـوص في بركـة مُحاطَـة بالخُـضرَة، شـعر بجسـده يرتجـف عندمـا ارتطـم بالمـاء، وأغرقـت الميـاه خدَّيـه، لكـن الـبرد الـذي يحيـط بـه مـن كل جانـب فـاق كل المشـاعر الأخـرى، كان يرتجـف مـن رأسـه إلى قدمـه، كـما لـو كان مُحاطًـا بكتلـة مـن الجليـد، واسـتغرق جسـده بضـع دقائـق حتـى يعتـاد عـلى ذلـك، وعندمـا تمكَّـن مـن التنفُّـس بحريـة مـرة أخـرى، فتـح عينيـه، وتعجـب مـن المناظـر الهائلـة المحيطـة بـه.

في قـاع هـذه البِركـة الصغـيرة، كانـت هنـاك نباتـات غنيـة لا يمكـن رؤيتهـا إلا في أعـماق المحيـط، لقـد كان أكـثر بريقًـا مـن العـالم الخارجـي، وكانـت مئـات الأسـماك مـن نفـس التنـوُّع، كبيرهـا وصغيرهـا، تتجـوَّل بـين نباتـات مـن ألـف لـونٍ وشـكل، وبَـدَت الصخـور المطليَّـة باللـون الأصفـر الذهبـي، أو المغطَّـاة بالطحالـب الخـضراء، وقنافـذ البحـر الأرجوانيـة، وشـقائق النعـمان ذات الأوراق الورديـة- وكأنهـا خرجـت مـن قصـة خياليـة، كان مـن المريـح مشـاهدة أسراب سـمك أبي مهـماز، وهـي تنزلـق مثـل البَجَـع فـوق الشِّـعاب المرجانيـة، وبـدا أنهـا تتحـرَّك في حركـة بطيئـة، وكان مـن الواضـح أنهـا لم تكـن في عجلـة مـن أمرهـا مـن أجـل الحيـاة، سبح في الأنحـاء، وتنـاول طعامـه وحـده، ثـم لاحـظ سـمك الحـوت الأبيض الصغـير يتجـوَّل مـن بعيـد، وتوجَّـه إلى هنـاك، لقـد بـدا وكأنـه حيـوان مـرح، سـيكون مـن الممتـع الإمسـاك بذيلـه وجـرُّه، كان عـلى وشـك مـدِّ يـده وحملـه عندمـا تجمَّـدَت الحيـاة مـن حولـه فجـأة، اختفـى الحـوت الصغـير، والأسـماك المتنوِّعـة، والنباتـات الملوَّنـة والشِّـعاب المرجانيـة، والميـاه التـي كان يسـبح فيهـا، واحـدةً تلـو الأخـرى، وكل مـا كان يـراه هـو الوجـه المبتسـم لرجـل عجـوز يرتـدي ربطـة عنـق.

لقـد تدخَّـل الكمبيوتـر المنـزلي الـذي يحمـل علامـة «ناتوكـين»، والـذي أطلـق عليـه كـمال اسـم «محيـي الديـن أفنـدي»، في برنامـج محـاكاة

المضيـف، كـما تـمَّ الترتيـب لـه، وعندمـا رنَّ جـرس البـاب، جـاء ليخـبره أنـه كان لديـه ضيـوف.

قالـت صـورة الرجـل العجـوز بصـوت لطيـف: «أنـا آسـف لإزعاجـك يـا سـيدي... هنـاك أربعـة أشـخاص عنـد البـاب، وقالـوا إنـه مـن طـرف تورامـان، أحـد عملائـك مـن الخاصِّـين المسجَّلين في النظـام، وإلَّا فلـم أُكـن لأقاطـع مرحـك، أعلـم أنـك عـادة لا تقبـل الـزُّوَّار هـذا الشـهر، لكنـك قلـت اسـمح لي أن أعـرف مَـن جـاء مـن خـلال مراجعـي».

تمتـم كـمال قائـلًا: «أعـرف، أعـرف»، وهـو غـير مرتـاح بشـأن العـودة إلى العـالم الحقيقـي، كان لا يـزال يسـبح في الميـاه البـاردة مـع الحيتـان التي انقرضـت منـذ سـنوات، وقـال: «أعطنـي بضـع دقائـق، أُرفِّـه عنهـم».

بتنهيـدة عميقـة، جلـس عـلى سريـره المحـاكي، جالسًـا القرفصـاء، في البدايـة، نـزع الخـوذة الموجـودة فـوق رأسـه، ثـم تخلَّـص مـن الأسـلاك التـي كان قـد وضعهـا في ذراعيـه وسـاقيه، بالـكاد تمَّـت إزاحـة أحـد الأسـلاك الموجـودة في كاحلـه، تـاركًا بقعـة قرمزيَّـة عـلى جلـده، تَمـدَّد وفتح ذراعيـه، وأحدَثَـت رقبتـه صوتًـا مثـل الطقطقـة، وعندمـا وطـأت أقدامـه الأرض الدافئـة، نظـر إلى السـاعة التليفزيونيـة الموجـودة عـلى معصمـه، وكان ذلـك في وقـت الظهـيرة تقريبًـا.

وخاطـب محيـي الديـن أفنـدي قائـلًا: «أعتقـد أنهـم ليسـوا مُسـجَّلين في نظـام «مَـن بالبـاب»... مـا اسـمهم، هـل قالـوا؟ يُرجـى إعـادة توجيـه صورهـم إلى سـاعتي التليفزيونيـة، دعونـا نـرى مـن هـم، ربمـا يمكننـا التخلُّـص منهـم».

لم يعـد بإمكانـه رؤيـة وجـه الرجـل العجـوز؛ لأنـه نـزع الخـوذة، هـذه المـرة جـاء صـوت الحاسـوب مـن مكـبِّرات الصـوت الموجـودة في الغرفـة.

"قَدَّمَـت السـيدة نفسـها عـلى أنهـا السـيدة جـول، ولم يكشـف السـادة عـن أسـمائهم. هـل تريـد منـي أن أسـأل مـرة أخـرى؟».

ابتسـم كـمال قائـلًا: «ربمـا ليـس لديهـم اسـم يسـتحق الذِّكـر. انـسَ الأمـر، لا تقلـق، سـأتعامل معـه».

ألقـى نظـرة خاطفـة عـلى الصـورة التـي تظهـر عـلى سـاعته التليفزيونيـة، وهـو يرتـدي ملابسـه بسرعـة، كانـت السـيدة جـول امـرأة في منتصـف العمـر، ترتـدي ملابـس أنيقـة للغايـة، وكانـت تبـدو جذابـة حتـى عـلى الشاشـة الصغـيرة، بـدا الرجـال، اثنـان عـلى يمينهـا ويسـارها، وواحـد يقـف خلفهـا، يـكادون يبنـون جـدارًا حولهـا، وكأنهـم حُـرَّاسٌ شـخصيُّون محترفـون، كانـوا يرتـدون بـدلات، وستراتهم المنتفخـة أكَّـدت أن هنـاك بندقيـة طاقـة واحـدة عـلى الأقـل تحتهـا، ضغـط عـلى الأزرار الموجـودة عـلى شاشـة سـاعته التليفزيونيـة، ولعـب بالـذراع الصغـيرة، مُغـيِّرًا زاويـة كامـيرا البـاب، فأظهـرت السـيارة «البَرّ جَوِّيَّـة» التـي هبطـت عـلى سـطح بيـت مكتبـه، كانـت مرسـيدس أحـدث طـراز، ذات ثمانيـة مقاعـد، وكانـت كلمـة «بوينـج» مكتوبـة في فتحـات مراوحهـا المطويـة لأعـلى، وقـد اسـتوعبها سـطح البيـت بالـكاد، بأجنحتهـا العريضـة، كان كل هـذا كافيًـا لفهـم أن السـيدة جـول كانـت ثريَّـةً للغايـة، وحقيقـة مجيئهـا بنـاء عـلى مشـورة عـلي تورامـان، محطِّـم الرقـم القيـاسي في دفـع الضرائـب في اسـطنبول خـلال العامـين الماضيـين، جعـل كـمال يتسـاءل عـن حـدود هـذه الـثروة.

قـال لمحيـي الديـن أفنـدي: «مـن فضلـك اصطحـب ضيوفنـا إلى غرفـة الانتظـار وأخبرهـم بأننـي سـأحضر بمجـرَّد أن أكـون جاهـزًا، دَعْ الإنسـان الآلي المنـزلي يُقـدِّم لهـم مـا يريـدون، دعـه يُعـدُّ قهـوةً تركيـة سـادة لي، بسرعـة، ويتركهـا في غرفـة المحـاكاة، وسـأعود إليـك بعـد كل ذلـك».

"تحت أمرك يا سيدي، أتمنَّى لك اجتماعات جيِّدة. طاب يومك».

ضغـط عـلى أزرار السـاعة التليفزيونيـة مـرة أخـرى، وبـدأت سـتائر الغرفـة المظلمـة في الانـزلاق ببـطء، في البدايـة، تفاجـأ كـمال بقِلَّـة الإضـاءة،

ثـم لاحـظ مـرور المنطـاد الإعـلاني بجانـب النوافـذ، تمَّ عـرض مقطـع ڤيديو ترويجـي لكريـم مضـاد للشـيخوخة تـمَّ إصـداره حديثًـا عـلى الشاشـة أسـفل المنطـاد، بـدا وجـه المـرأة في الإعـلان أبيـضَ مثـل الميـت عنـد وضـع الكريـم، لذلـك لا يمكـن القـول إنهـا كانـت جذابـة للغايـة، عندمـا انتهـى الڤيديـو، غُطِّيَـت الشاشـة بالوجـه الوسـيم لحمـزة بوردورلـو، الـذي كان رئيسًـا لجمهوريـة اسـطنبول للفـترات الثلاثـة الأخـيرة، كان السـياسي الشـاب يتحـدث عـن أشـياء بنبرتـه الحماسـية المعتـادة، وربمـا كان يلقـي خطابًـا حـول الانتخابـات المقبلـة، كان عليـه فقـط تشـغيل القنـاة الأولى لجهـاز اسـتقبال الأقـمار الصناعيـة في المنـزل للاسـتماع إلى مـا سـيقوله، ولكـن بالنظـر إلى أن نفـس الحـزب قـد تـولَّى إدارة المدينـة لمـدة خمسـة وسـتين عامًـا، ولم يكـن لديـه منافـسٌ قـويٌّ في هـذه الانتخابـات؛ لم يكـن لديـه الحـماس للقيـام بذلـك.

عندمـا ابتعـد زيبلـين عـن المكتـب، امتـلأ المـكان بضـوء النهـار، زَرَّ كـمال عينيـه، ونظـر إلى الأبـراج الضخمـة الرائعـة، التـي ترتفـع مـن بعيـد، والملوَّنـة باللونـين الرمـادي والأسـود، ومعظمهـا كان لـه نفـس الهندسـة المعماريـة، ومئـات مـن السـيارات «البرّ جَوِّيَّـة» تُحلِّـق بـين هـذه الأكـوام المعدنيـة، لقـد اشـتاق إلى المتنزَّهـات المليئـة بأشـجار الدُّلْـب، والحدائـق الملوَّنـة، والمنـازل، والطيـور الصغـيرة اللطيفـة الموجـودة في المحـاكاة، وأراد أن يمسـك بذيـل هـذا الحـوت الصغـير في أسرع وقـت مُمكِـن.

قـال وهـو يدخـل غرفـة الانتظـار: «آسـف لجعلـكِ تنتظريـن»، كان فحـص الحُـرَّاس لـه بأعـين اسـتجواب، وذهـاب أيديهـم بشـكلٍ لا إرادي إلى مسدسـاتهم الموجـودة تحـت سـتراتهم، هـو رَدُّ الفعـل الـذي توقَّعـه، أمَّـا المـرأة الموجـودة أمـام النافـذة، والتـي تراقـب في الخـارج، وظهرهـا إلى البـاب، لم تُغـيِّر مـن وقفتهـا لبضـع ثـوان، ثـم اسـتدارت بهـدوء، وابتسـمت لكـمال، قائلـة:

"لا يهمُّ، سيد كمال، أنا حقًّا آسفة لإزعاجك، بينما كنت أنتظرك ألقيت نظرة حولي، سمعت أنك شغوف بالماضي، لكنني لم أكن أتوقَّع هذا كثيراً، لديك مجموعة مُذهِلَة هنا».

نظر كمال إلى الزاوية التي كانت المرأة تشير إليها، كان هناك يَطقان[1] من العصر العثماني، وطبق خزفي ملوَّن مُعلَّقَين على الحائط، أسفلهما مباشرة كان هناك إبريق مُطرَّز وصورة قديمة لاسطنبول في إطار خزفي، من القرن العشرين، وفي الصورة كانت تظهر بواخر بيضاء تبحر في مضيق البوسفور، في الزاوية نفسها، كانت هناك طاولة خشبية صغيرة، يصعب العثور عليها هذه الأيام، لا بُدَّ أن عمرها ثلاثة قرون على الأقل، وكان فوق طاولة القهوة جهاز آيفون، تمَّ إيقافه منذ سنوات عديدة، في صندوق زجاجي، كانت أجهزة الآيفون هذه تحظى بشعبية كبيرة، وقد تمَّ تناولها بإسهاب في دروس تاريخ التكنولوچيا، قبل انتشار الساعات الهاتفية والهواتف التي توضع داخل الأذن على نطاق واسع، وبجانبه مباشرة كان هناك كتاب سميك، ومهترئ، كُتبت عليه «الحروب البحرية العثمانية» بأحرُف مُزَخرَفة، وعلى غلافه توجد صورة سفينة بثلاثة أشرعة، مدافعها تزمجر، وهي تتصارع مع الأمواج، والبرق الذي يمزِّق السماء في الأفق.

قال كمال وكأن الأمر لم يكن بالأمر المهم: «أحب أن أجمع أشياء من الماضي»، «أعتقد أن الناس كانوا أكثر سعادة في تلك الأوقات، وربما لم يكن الأمر كذلك، فكل حقبة كانت تعاني من مشاكلها الخاصة، لكني أحب أن أتخيَّل أنه كان هناك في يوم من الأيام أشخاص أكثر سعادة منَّا، هناك عدد قليل أكثر تحت القفل في الداخل، أنا لا أعرض الأشياء الهَشَّة للغاية».

---

(1) اليَطقان: سيف تركي محدَّب. (المترجم)

أومَأَت الآنسة جول بتقدير، قائلة:

"هـذه كلهـا مقتنيـات نـادرة جـدًّا، ولا بُـدَّ أن كلًّا منهـا يسـاوي ثـروة، أنـا أحـب بشـكل خـاص طاولـة القهـوة هـذه! أعتقـد أنك تكسـب جيـدًا».

اعـترف كـمال، قائـلًا: «أكسـب جيـدًا، لكننـي لم أدفـع مقابـل أي منهـا، معظمهـا هدايـا مـن العمـلاء الأثريـاء الذيـن أسـاعدهم، ووصـل عـدد قليـل منهـم إلى يـدي أثنـاء القضايـا التـي كنـتُ أعمـل فيهـا، لـن تضطـرَّ إلى تسـليم كل مـا تجـده، مـا لم تقـدِّم تقريـرًا مبـاشرًا إلى الشرطـة».

ضحكت المرأة، وكأنها مدركة لما يقول، وقالت:

"سـمعت أنـه يمكنـك تعديـل القواعـد، هـذا شيء يجـب أن أفعلـه كثـيرًا، إذا كان لـدى أيٍّ شـخص أحـلام يقدِّرهـا، فعليـه أن يتغلَّـب بطريقـة مـا عـلى العقبـات التـي تعـترض طريقـه».

سـألها كـمال فجـأة، قائـلا: «لمـاذا أنـتِ هنـا، أيتهـا السـيدة جـول؟»، كان قـد شـعر بالحاجـة إلى إنهـاء هـذه المحادثـة بسرعـة، والعـودة إلى غرفـة المحـاكاة.

أجابـت قائلـة: «أنـا بحاجـة إلى مُحقِّـق خـاص، كـما تخيَّلـتَ، وكان عـلي قـد أخـبرني أنـك لا تعمـل في هـذه الأشـهر مـن العـام، لكننـي لا أعـرف شـخصًا آخـر أذهـب إليـه، عَلِمـتُ مـن عـلي، ومصـادر أخـرى، أنـك سـتكون الشـخص المناسـب لهـذه المَهمَّـة، أردتُ فقـط أن أجـرِّب حظـي، فقـط في حالـة موافقتـك عـلى أن تقطـع إجازتـك».

قـال كـمال: «السـيد عـلي هـو أحـد عمـلائي المحترمـين، لقـد سـاعدته في حـلِّ بعـض مشـاكله، أنـا سـعيد لأنـه نصحـك باللجـوء إليَّ، كـما قلتـم، أنـا لا أعمـل مـن حيـث المبـدأ خـلال هـذه الأشـهر، ومـع ذلـك، أودُّ أن أُقـدِّم أفضـل مـا بوسـعي لأصدقـاء السـيد عـلي، دعينـا نجلـس، وأخبرينـي عـن

مشـكلتك، عـلى الأقـل سـأوجِّهُكِ إلى الأشـخاص المناسـبين الذيـن يمكنهـم المسـاعدة».

جلَسَـت السـيدة جـول عـلى كـرسي نصـف كـروي أشـار إليـه الشـاب، ووضعـت سـاقًا عـلى سـاق، كانـت ثقـة المـرأة بنفسـها واضحـة في كل تحرُّكاتهـا، وبـدت وكأنهـا شـخص لا يـتردَّد في مواجهـة العـالم كلـه، كانـت ملامـح وجهها وجسـمها سـاحرة للغايـة، عنـد النظـر إليها عـن قـرب بهـذا الشـكل، لا بُـدَّ أنهـا كانـت جذَّابـةً تمامًـا للرجـال في فئتهـا العمْريـة، خمَّـن كـمال أن زيـر النسـاء العجـوز عـلي تورامـان كان أيضًـا تحـت تأثـير هـذا السـحر.

قالـت السـيدة جـول بابتسـامة جذَّابـة: «لا أريـدك أن تنصحنـي أو تُوجِّهنـي إلى شـخص مـا، أجـد أنـه مـن المفيـد جـدًّا التعامـل مـع هـذه المشـكلة بنفسـك، إنهـا مسـألة شـخصية مهمـة جـدًّا بالنسـبة لي، أنـت فقـط مـن يمكنـه مسـاعدتي... تأكَّـدْ مـن أننـي سـأغطي جميـع نفقاتـك، فقـط قُـلْ لي الرقـم الـذي سـيقنعك».

تنهَّـد كـمال بعمـق، كان موجـودًا في بـرجٍ ضَخـمٍ يُفضِّلـه أغنـى النـاس في اسـطنبول، يكلِّـف إيجـار مكتـب في الطوابـق العليـا ثـروة صغـيرة، كانت مـوارده الماليـة عـلى حافَّـة الهاويـة مؤخَّـرًا، حيـث كان يقـضي حـوالي أربعة أشـهر دون عمـل كل عـام، ولم تسـمح لـه التقاريـر الأسـبوعية لمحيـي الدين أفنـدي بنسـيان هـذه الحقيقـة المقلقـة، قـد تسـاعده المهمَّـة ذات العائـد المرتفـع كثـيراً هـذه الأيـام، ولكـن ليتـه يسـتطيع أن يحـلَّ كل مشـاكله بالمـال.

ابتسم، دون أن يعكس أفكاره في نظرته أو كلماته، وقال:

"أنـا متأكِّـد مـن أنـكِ سـتقدمين عرضًـا سـخيًّا، لكننـي لا أعتقـد كثـيراً أن ذلـك سـيكون مُمكِنًـا، أنـا لا أعمـل مطلقًـا خـلال هـذه الأشـهر، أحـب

أن أعيش وفقًا لمبادئي، ومع ذلك، من فضلِك قولي لي بالتفصيل ما حدث، ثم سنتحدث عمَّا يمكنني فعله من أجلك».

هزَّت السيدة جول رأسها بطريقة يمكن أن تنجذب إلى أي معنى، وفعلت إشارة بيدها إلى أضخم الحُرَّاس الواقفين بجانبها، مشى الرجل ناحية كمال، وسلَّمه جهازًا لوحيًّا بأربعة أضعاف حجم كفِّ اليد، كان قد أخرجه من جيب سُترَته، أخذه كمال مع الشكر وفتحه، جاعِلًا الجهاز اللوحي في حجمه الطبيعي، ولمس زِرَّ اللمس عليه بطرف إصبعه، لقد فزع بسبب الصورة المقزِّزة التي ظهرت فجأة على الشاشة.

تجهَّم، وقال: «ما هذا!»، ووجَّه نظراته المتسائلة، إلى السيدة جول.

قالت المرأة بغضبٍ حاوَلَت كَبْتَه: «هو وعائلته أعزاء عليَّ»، كانت تحتفظ بأصالتها، ولكن نظرة سامَّة استقرَّت في عينيها.

"أخذوهم مني يا سيد كمال، وبأكثر الطُّرُق إيلامًا... أريدك أن تجد المجرمين الذين فعلوا هذا، لن تحتاج إلى أن تلوِّث يديك، لا تقلق، فقط اكتشف أين يختبئون، هذا يكفي، سأعاقبهم شخصيًّا».

نظر كمال إلى الجهاز اللوحي مرة أخرى، ظهرت على الشاشة ثلاث جُثَث تعانق بعضها البعض، ومعظم جُثَثِهم محترقة، بينهم امرأة ورجل وطفل، كانوا جالسين على سرير، انحنى الرجل والمرأة على الطفل كما لو كانا يرغبان في حمايته، وعندما وقفوا هكذا، تمَّ حَرقُهم أحياء، كان الأمر كما لو أنه يشمُّ رائحة الجثث المحترقة التي لا تطاق في الغرفة.

نقر على الزِّرِّ مَرَّةً أخرى، هذه المرة تحوَّلَت الصورة إلى ڤيديو، كانت امرأة طويلة القامة ذات لون قمحي تطهو بمرح، وتمزح مع الشخص الذي يحمل الكاميرا، بدت سعيدة للغاية، ولكن ما يتحدَّثون عنه كان غير مسموع، ثم دخل صبي يبلغ من العمر سبع أو ثماني

سنوات، وشعره إلى كتفيه، إلى المطبخ، وركض، وعانق ساقيها، وبدأ يقول أشياء وهو يصرخ، كانت الكاميرا تصوِّر امرأة وطفلًا يقتربان من حين لآخر من الطعام على الطاولة، ثم مدَّت المرأة يدها، وأمسكت الكاميرا بالقوة، وظهر رجلٌ وسيمٌ على الشاشة، انحنى الرجل، وأخذ الطفل بين ذراعيه، ثم ذهب ليقبِّل المرأة على الأرجح، وانتهى الڤيديو في تلك الثانية.

تمتَمَت السيدة جول بحزن: «لقد كانوا عائلة رائعة... وكانوا مفعمين بالحب، زينب وأورهان وابنهما الوحيد جهان، عملَت زينب معي لسنوات عديدة، تعرَّفتُ عليها عندما كنت لا أزال في الجامعة، كان لديها ذكاء فريد، أعتقد أنها كان عبقرية، وبمرور الوقت، أصبحت ذراعي الأيمن، وكنتُ أستشيرها في جميع القرارات المهمة، كان قلبها أكبر من عقلها، أحببتها مثل ابنتي...

لم يكن لديَّ عائلة يا سيد كمال، توفِّيَت والدتي عندما كان عمري عامين فقط، لقد نشأت وأنا لا أعرف مَن هو والدي، وتجوَّلتُ بين الأُسَر الحاضنة، حتى الكُلِّيَّة، لقد عشت حياة مؤلمة طوال حياتي، وتبنَّيتُ زينب وعائلتها كعائلتي، كنَّا جميعًا معًا في أيام العطلات وأعياد الميلاد، وكنتُ معهم في المستشفى عندما وُلِد جهان، وكنتُ سعيدة كما لو كان حفيدي، كانوا نوري في هذا العالم المظلم.

خطفوهم مني، لا أعرف لماذا، كل ما أعرفه أنهم لم يستحقُّوا هذا، أريد أن يموت، مَن فعلوا ذلك، الصورة التي رأيتها للتَّوِّ هي صورةٌ التقطها أول إنسان آلي للشرطة يقتحم منزلهم، لقد أنفَقتُ ثروة من أجل الحصول عليها، وعلى غيرها من الأدِلَّة التي كانت لدى الشرطة، وأنا مستعدَّة أيضًا لدفع المزيد، مع الأسف، وصل تحقيق الشرطة إلى طريق مسدود، ولم يصلوا إلى أي مكان، وقد فُقِدَت الأدِلَّة في الإجراءات...».

كان صـوت السـيدة جـول يـزداد صلابـة وهـي تتكلـم، وأصبـح التعبـير البـارد والمخيـف عـلى وجههـا، أكـثر قتامـةً.

بمـرور الوقـت، تُمحـى آثـار القتلـة، وإذا تأخَّرنـا قليـلا، فلـن نجدهـم أبـدًا، لقـد جئـت إلى هنـا عندما سـمعت أنـك خبير بهـذه الطُّرُق المختلفة، مـن الآن فصاعـدًا، لا أريـد إضاعـة الوقـت في القوانـين والإجـراءات، لا أحـد يسـتطيع أن يأخـذ أحبَّـائي منـي! إذا أخذهـم منـي، فسـوف يدفـع الثمـن مضاعَفًـا! اعـثُر عـلى هـؤلاء المجرمـين، يـا سـيد كـمال، وسـأعطيك أكـثر مـا تريـده في حياتـك».

نظـر كـمال إلى المـرأة التـي تبَلَّـت عيناهـا بحـزن شـديد، وقليـل مـن القلـق، لقـد أيقـظ مقطـع الفيديـو العائـلي السـعيد هـذا الشـوق الـذي حـاول قمعـه، كان يريـد مـن كل قلبـه أن يدفـع هـؤلاء الشـياطين الذيـن قتلـوا هـؤلاء الأبريـاء وطفـلًا صغـيرًا، بوحشـية، ثَمَـنَ مـا فعلـوه، ومـع ذلـك، كانـت كلـمات المـرأة تتخطَّـى الحـدود، التـي لـن تتجاوزهـا مـا لم تكـن مضطـرَّةً إلى ذلـك.

تمتـم بـلا حـولٍ ولا قُـوَّة وهـو يعيـد الجهـاز اللوحـي إلى الرجـل الضخم، الواقـف بجانبـه، قائلًا:

أنـا آسـف جـدًّا لمـا حـدث، أسـتطيع أن أتفهَّـم غضبـك، أولئـك الذيـن فعلـوا هـذا يجـب أن يُعاقَبـوا... إن حـرق أُسرَةٍ عـلى قيـد الحيـاة أمـر شـنيع، سـأحيلك إلى أفضـل مُحقِّـق خـاص أعرفـه، تيمـور يـاووز، ربمـا سـمعتِ اسـمه، أنـا متأكِّـدٌ مـن أنـه سيسـعد بتـولِّي المَهمَّـة، إنـه بـارعٌ جـدًّا، ودائرتـه واسـعة، وسـيجد هـؤلاء البرابـرة وحتـى لـو بالقانـون، أتمنَّـى أن أكـون أكـثر فائـدة، كنـتُ أرغـب في أن أسـاعدك بشـكلٍ أفضـل، لكننـي كنـتُ جـادًّا فيـما قلتـه للتَّـوِّ، لا يمكنني حقًّـا العمـل خـلال هـذه الأشـهر».

"لا أعتقـد أن السـيد تيمـور يـاووز يمكنـه مسـاعدتي، في الواقـع، إذا اعتقـدتُ أن ذلـك سـيكون مفيـدًا لكُنـتُ قـد كَلَّفـتُ جميـع المحقِّقـين

الخاصِّين في المدينة في نفس اللحظة، ولديَّ ما يكفي من المال لذلك، لكن ذلك لن يفيد يا سيد كمال، أنا بحاجة إليك بشكل خاص، أو بالأحرى، ماضيك الخفي، واتصالاتك».

قطب كمال جبينه بتعبير منزعج، قائلًا:

"إلام تُلَمِّحين؟ لم أفهم؟».

قالت المرأة: "لا تفعل ذلك يا سيد كمال، هل تعتقد أنني شخص لن يحقِّق في كل التفاصيل عنك قبل أن يطرق بابك في مثل هذا الأمر؟ لقد مَحَوتَ آثارك جيدًا، أهنئك، لكن ماضي الشخص لا يُمحَى تمامًا».

نهض كمال من مقعده، وأظهر لها البابَ بإيماءةٍ غاضبة، كان مزاجه مرتبكًا، وشحب وجهه، واستقرَّت نظرة خوف في عينيه، وقال:

"أنا حقًّا لا أستطيع أن أفهم ما تحاولين قوله، الماضي الخاص بي هو عملٌ لا يهمُّ أحدًا سواي! لقد استمعتُ إليكِ بصبر حتى الآن، وأنا آسف حقًّا لخسارتك، لكن الآن أنا مضطرٌّ إلى أن أطلب منك المغادرة، لديَّ جدول أعمال مزدحم ومواعيد أخرى!».

هرع الحُرَّاس لعمل جدار أمام السيدة جول، لكن إيماءة من يد المرأة ثبَّتَتهم جميعًا في أماكنهم.

قالت جول: «لا داعي للقلق، من فضلك حافِظْ على هدوئك، كل شيء على ما يرام، لستَ في خطر، سِرُّكَ هو سِرِّي أيضًا، سيذهب معي إلى القبر، المصادر التي استخدمتها للحصول على هذه المعلومات هي مصادر لا تحبُّها الدولة والشرطة؛ لهذا السبب لا يمكنني مشاركتها مع أي شخص حتى لو أردتُ ذلك، يمكنك التأكُّد من ذلك».

نظر إليها كمال بتردُّد، ثم جلس في يأس.

أمـرت المـرأة حُرَّاسـها بصـوت هـادئ واسـتعادت هدوءهـا السـابق، وقالـت:

"يـا رجـال، مـن فضلكـم اتركـوني وحـدي مـع السـيد كـمال لبعـض الوقـت، أنـا متأكِّـدة تمامًـا أنـه لـن تكـون هنـاك مشـكلة، يمكنكـم الانتظـار أمـام السـيارة «الـبَرّ جَوِّيَّـة» في سـطح البيـت".

غـادر الرجـال الغرفـة واحـدًا تلـو الآخـر دون أي اعـتراض، ولم يتجاهـل آخِـرُ مَـن غـادر إرسـالَ نظـرة تهديـد إلى كـمال، الـذي كان يراقبـه، وهـو يديـر رأسـه.

عندمـا كانـا بمفردهـما، انحنـت المـرأة إلى الأمـام، وأخرجـت صندوقًـا بحجـم كـف اليـد مـن حقيبتهـا الفاخـرة المزخرفـة بالذهـب، ووضعتهـا عـلى طاولـة القهـوة أمامهـا، وقالـت:

"أنـا واثقـة مـن وجـود أنظمـة في مكتبـك تمنـع الاسـتماع مـن الخـارج، ولكـن هـذه أحـدث تقنيـة، هـي موجـودة فقـط لـدى المنظـمات الاسـتخباريَّة، باسـتثناء عـدد قليـل مـن الأشـخاص المحظوظـين مثـلي، كُـنْ مطمئنًـا أنـه لـن يتمكَّـن أحـدٌ مـن سـماعنا أثنـاء وجودنـا معًـا».

تمتـم كـمال، قائـلًا: «أنـتِ مليئـة بالمفاجـآت! لا يبـدو ذلـك مطمئنًـا جـدًّا». مـا الـذي كانـت تفعلـه هـذه الأداة الرائعـة لـدى هـذه المـرأة؟

ابتسَمَت السيدة جول للتو، وقالت:

«أعـرف كل تفاصيـل تاريخـك فيـما يتعلـق بحركـة المسـاواة في اسـطنبول، ولا أشـعر بـأي إزعـاج حيـال ذلـك، نحـن نعيـش في عـالم مجنـون، ومـن الطبيعـي أن يكـون هنـاك متفاعِلـين مـع هـذا العـالم، كان هنـاك رومانسـيون مناهضـون للنظـام في كل فـترة مـن التاريـخ، وسـيظل هنـاك دائمًـا، يمكننـي أن أفهـم، بـل وأحـترم أنـك راوَدَتـكَ هـذه الأفـكار في إحـدى الفـترات، أنـا أحـب الأشـخاص المثاليـين، وأنـا أعيـش أيضًـا مـن

أجل مُثُلي، ربما تكون أحلامنا مختلفة، لكنهم وأنا نريد تغيير العالم الذي نعيش فيه، نحن بحاجة إلى أكثر ممَّا لدينا، السبب الرئيسي في مجيئي إليك، هو ماضيك، هذا، لأنني أعتقد أن أولئك الذين أخذوا أصدقائي مني لديهم صِلَة بحركة المساواة في اسطنبول. لديَّ ما يكفي من الأدِلَّة لتصديق ذلك».

وانحنت إلى الأمام، ونظرت بعُمقٍ في عيني كمال، كان هناك شيء ما في تلك النظرة، يجعل المرء يرتجف، ويعتريه القلق، كان الأمر كما لو كانت تقرأ روحه، وترى مخاوفه وتردُّداته، وقالت:

"لا أعتقد أن قادة حركة المساواة في اسطنبول على دراية بما يجري، فليس من أسلوبهم قتل عائلة بريئة، توجد حلقة مفقودة في المنتصف بشأن المعلومات، أريد منك أن تتواصل مع زملائك المقاتلين، باستخدام صِلاتك القديمة، أعطِهم الأدِلَّة التي وجدتُها، وأخبِرْهم بما حدث، وسيهتمُّون بالباقي بأنفسهم، لا يوجد مُحقِّقٌ خاص آخر في المدينة يمكنه فعل ذلك، ويمكنك أن تدرك أن الشرطة لا تستطيع فعل ذلك أيضًا. أحتاجُكَ حَقًّا».

قال كمال بصوت ضعيف: «وأنا لا يمكنني ذلك أيضًا». أرهَبَته إرادة المرأة الموجودة أمامه، والمصادر الغامضة للمعلومات، كان خائفًا من الألم الذي بدأ يشعر به في منتصف حاجبيه، تُرى هل سيأتي الألم صديقه الوفي اليوم أكثر من أي وقت مضى؟ بشكل عام، لم يكن التعذيب يبدأ قبل ساعات المساء، كان يأمل أن يكون مُخطِئًا.

قال كمال: «لا أعرف مدى علمِكِ، ولكن إذا كنتِ تعرفين كل التفاصيل، كان يجب أن تعلمي أنه لا يمكنني التواصل مع حركة المساواة في الوقت الحالي، وأنني قطعت الاتصال بهم منذ سنوات. إنهم ليسوا أشخاصًا يمكنكِ أن تجديهم في دليل الهاتف، لا أستطيع حتى معرفة ما إذا كان الأشخاص الذين كانوا أصدقائي منذ سنوات

ما زالوا على قيد الحياة اليوم، لا أستطيع حقًّا مساعدتك، يا سيدة جول، أرجوك تفهَّمي موقفي، أنتِ تسبحين في مياه خطيرة للغاية».

قالت المرأة بهدوء مُفزِع: «يمكنك المساعدة، وأنا متأكِّدة أنك ستفعل ذلك»، انحنى إلى الوراء، وضمَّ ذراعيه، وهزَّ رأسه للأمام كما لو كان يجيب على أحد الأسئلة.

وأضافت قائلةً: «لأنني أعرف جيدًا لماذا لا يمكنك العمل خلال هذه الأشهر، سيد كمال، لماذا تركتَ حركة المساواة في اسطنبول على الرغم من أنك لم تتخلَّ عن مُثُلك... الحالة المحزنة لِصحَّتِك، وأن الشيء الذي تريده أكثر في الحياة ليس المال... أنا أعلم كل ما أحتاج إلى معرفته، بطريقة أو بأخرى، الشيء الجيد هو أنني أمتلك القدرة على تلبية أكبر رغباتك في الحياة؛ لذا يمكنك العمل من أجلي أيضًا، سنكون سعداء مع بعضنا البعض، أمَّا هؤلاء السَّفَّاحون فإنهم سينالون ما يستحقونه، إذا سمحتَ لي، فلديَّ قصة ممتعة لأخبرك بها».

نظَرَت المرأة إلى التحف الموجودة في ركن المجموعة، وابتسمت بشكل ضمنيٍّ، وقالت:

«صدِّقني، يمكنني أن أقدِّم لك هدية أكثر نُدرَةً من أيٍّ من عملائك السابقين.

4

كان هيمانـلي سـليمان باشـا مسـتلقيًا عـلى الأرضيـة الخشـبية في القُمـرة، وهـو يلهـث، وعندمـا عـاد تنفُّسـه إلى طبيعتـه، اسـتجمع قوتـه ودفـع صـاري إسـماعيل، الـذي كان مُمـدَّدًا فوقـه ميتًـا، إلى جانبـه، وواجـه صعوبـة أثنـاء القيـام بذلـك، حيـث كان الشـاب يَـزِنُ أكـثر مـن مائـة كيلوجـرام، كان مُغطًّـى بالدمـاء مـن كل مـكان، لكنـه لم يكـن يتألَّـم، وعندمـا أدار رأسـه، رأى أن الفـأس قـد كشـط أذنـه بضـع بوصـات، ودفـن في الأرض، أمَّـا سـيفه فقـد كان مغـروزًا في قلـب الجنـدي البحـري الشـاب، حـدث كل ذلـك بسرعـة كبـيرة، ويبـدو أن هـذه المـرة تغلَّبَـت التجربـة عـلى القـوة الشـديدة.

وقـف وفـرك كاحلـه النابـض، وعندمـا لاحـظ أن الأرض تحـت قدميـه كانـت تميـل ببـطء، أدرك أن الأمـور تـزداد سـوءًا في الطابـق العلـوي، ربمـا كان الأوان قـد فـات، لكنـه لـن يستسـلم دون أن يحـاول، إذا ظهـر أمـام

اللـه قبـل انتهـاء الليـل، يجـب أن يكـون قـادرًا عـلى القـول إنـه بـذل قصـارى جهـده لحمايـة الأمانـة.

تحوَّلَـت عينـاه للمـرة الأخـيرة إلى صـاري إسـماعيل الـذي كان راقـدًا بـلا حـراك عـلى الأرض، لقـد تذكَّـر طبيعتـه المبهجـة والوديـة في اليـوم الأول الـذي جـاء فيـه إلى شـاهميران، لقـد كان يتـصرَّف وكأنـه لم يتـمَّ نَفيُـه إلى هنـا نتيجـة للافـتراء، ولكـن كـما لـو أن العيـش في هـذا السـفينة هـو مـا كان يبحـث عنـه طـوال حياتـه، إذا كان لديـه ولـد، فإنـه يريـده أن يكـون مثلـه، لم يَعُـد إنقـاذ الفتـاة مجـرَّدَ مسـألة بينـه وبـين اللـه، بـل كان عليـه أن ينجـح في ذلـك؛ حتـى لا يمـوت هـذا الشـاب الباسـل عبثًـا.

ذهـب بغضـب وفتـح البـاب الحديـدي عـلى مصراعيـه، نظـرت إليـه الفتـاة المسـتلقية عـلى خشـب الأرز بعيـون بريئـة، وبـدت خائفـة، لم تكـن قـد نطقـت بكلمـة واحـدة منـذ أن وطـأت قدمهـا السـفينة؛ لذلـك لم يكـن يعـرف اسـمها، ولم يكـن بحاجـة إلى مخاطبتهـا بالاسـم مـن قبـل، لكنـه شـعر الآن أنـه مضطـرٌّ إلى ذلـك، وكأنَّ تسـميتها سـتُعزِّز حقيقـة وجودهـا، كان سـيجعل هـذا اليـوم الاسـتثنائي مـن حياتـه أكـثر دنيويـة، تذكَّـر اسـم أول شـفاهورديـة سرَقَـت قلبـه في العشرينـات مـن عمـره، ومـدَّ يـده، ونـادى عـلى الفتـاة بصـوت مطمـئن:

«تعـالَيْ إلى هنـا، يـا عائشـة، بـإذن اللـه سـوف أخرجـك مـن هـذا التابـوت العائـم، أقسـم أني لـن أسـمح لأي شـخص أن يؤذيـك، ومـن الآن فصاعـدًا، أنـتِ أمانـةٌ لـديَّ».

وبعـد أن نظـرت الفتـاة الصغـيرة إليـه بدِقَّـةٍ وإمعـان لبضـع ثـوان، ابتسـمت ابتسـامة خفيفـة، لم يكـن مـن الواضـح مـا إذا كانـت قـد فهِمَـت مـا قالـه، مـن يـدري، مـن أيـن جـاءت، ومـا هـي اللغـة التـي تتحـدث بهـا، ولكـن كان الأمـر كـما لـو أنهـا قـد قـرأت في وجـه القبطـان القديـم أنـه يمكنـه الوثـوق بـه، ونهضـت مـن سريرهـا، ولـفَّ الغطـاء الـذي كانـت

مُمـدَّةً عليـه، حـول خصرهـا، وانزلقـت حبَّـات العَـرَق التـي تراكَمَـت عـلى صدرهـا العـاري إلى أسـفل، خلـع سـليمان باشـا سـترته الملطخـة بالدمـاء ووضعهـا عـلى كتفـي الفتـاة، وأمسـك بمعصمهـا النحيـل، بيـده التـي تشـبه المخلـب، وسـحبها إلى القمـرة، ثـم إلى السـلم، كان المشـهد الـذي رآه عندمـا صعـدوا إلى سـطح السـفينة أسـوأ مـن أسـوأ كوابيسـه، ومـع ذلـك، لم يكـن يجـب أن يتمـرَّد، كل هـذا كان تقديـرًا إلهيًّـا.

مـضى نحـو أقـرب قـارب نجـاة، متجاهِـلًا الصـاري الرئيـسي الـذي قسـم شـاهميران إلى قسـمين، والبراميـل التـي تتدحـرج هنـا وهنـاك، وجنـود الانكشـارية الذيـن كانـوا يحتـضرون مـن جميـع الجهـات، وطاقمـه الـذي مـا زال يحـاول إنقـاذ السـفينة، والأمـواج التـي يعـدُّ كلُّ واحـدٍ منهـا أكـبر مـن الآخـر، واتبعتـه الفتـاة بليونـة، كان هنـاك ثلاثـة بحَّـارة في مُقدِّمـة قـارب النجـاة، لا بُـدَّ أنهـم كانـوا أذكى مـن الآخريـن، والآن أدركـوا أن السـفينة لم تَعُـد قـادرة عـلى الصمـود، وكانـوا يحاولـون الهـروب، كانـت فرصـة القـارب في مثـل هـذا البحـر الهائـج غـير معروفـة، لكنهـا كانـت الطريقـة الوحيـدة التـي يمكنهـم تجربتهـا في الوقـت الحـالي، عندمـا أصبـح سـليمان باشـا فـوق رؤوسـهما مثـل عزرائيـل، لاحـظ الاثنـان التعبـير القاتل عـلى وجـه قبطانهـما، أمـا البحَّـار الأخـير، الـذي لم تكـن عينـاه عـلى شيء سـوى تـرك السـفينة، فقـد صرخ في رعـب عندمـا أمسـكت يـدان قويتـان بياقتـه، وجرفتـه مـن الأرض، وبعـد أن جعـل هيمانـلي الرجـل المسـكين يجتـاز الحافـة العليـا مـن جانـب السـفينة، وألقـاه في أمـواج البحر، سـحب السـكين مـن خـصره، وقطـع الحبـال التـي تُثبِّـت القـارب في مكانـه واحـدًا تلـو الآخـر، وعانـق الفتـاة، وألقـى بهـا في القـارب، وبعـد أن ركـب القـارب، قـام آخـر حبـل بوظيفتـه، وبعـد بضـع ثـوان مـن السـقوط، وجـدوا أنفسـهم في الموجـات الفقاعيـة، وبينـما كان القـارب يتمايـل مـن مـكان إلى آخـر، كـما لـو كان عـلى وشـك الانقـلاب، قفـزت الفتـاة وهـي خائفـة، وعانقـت القبطـان العجـوز بإحـكام، ولـفَّ سـليمان باشـا يـده الضخمـة

بشَـعرها العطـري، وقبَّـل رأسـها بحـب، وفي تلـك اللحظـة لم يشـعر وكأن حياتـه في خطـر، بـل شـعر وكأنـه في بسـاتين الجنـة.

وقـال باقتنـاع مـن قلبـه: «لـن أتـركك أبـدًا يـا عائشـة... وإذا كنَّـا سـنموت، فسـنموت معًـا، لقـد أرسـلك اللـه إليَّ، ولا أشـك في ذلـك، وإذا نجونـا مـن ذلـك، سـأكون بجانبـك لبقيـة حيـاتي، مـن الآن فصاعـدًا، سـيُكتب مصيرنـا معًـا».

ظلَّت الفتاة صامتة، لكنها ابتسمت، وكأنها تفهم.

عندمـا كان سـليمان باشـا يقـول هذه الكلـمات، كان يعتقـد على الأرجح أنهـم لـن يـروا الصبـاح، كانـت الأمـواج هائلـة، ولم تسـتطع شـاهميران الضخمـة مقاومتهـا، فكيـف يمكـن لقـارب صغـير أن يبقـى في البحـر طـوال الليـل؟ لقـد كان يريـد فقـط أن يجـرِّب كل خيـار في حـدود قوتـه، قبـل أن يعـترف بالهزيمـة، كان يتلـو جميـع الأدعيـة التـي خطـرت ببالـه، متوسِّـلًا للشـفاعة، وكان قَلِقًـا عـلى الفتـاة الصغـيرة الموجـودة بـين ذراعيـه، أكـثر من قلقـه عـلى نفسـه، كان عليـه أن يقاتـل، كـما كان عليـه أن يحـارب حتـى أنفاسـه الأخـيرة! كان ينبغـي أن يكـون قـادرًا عـلى القـول إننـي بذلـت قصـارى جهـدي عندمـا يُطلـب منـه تفسـيرٌ عـن سـلوكه! أثنـاء قذفهـم مـع قـارب النجـاة، فَقَـدَ توازنـه للحظـة وارتطمـت رأسـه بحديـد المجـداف، وأصابـه دوار، وكان آخـر مـا رآه قبـل أن يفقـد الوعـي هـو العيـون الكبـيرة الفريـدة مـن نوعهـا للفتـاة التـي انحنـت فوقـه، وقبَّلَـت لحيتـه.

عندمـا عـاد الضـوء مـرة أخـرى إلى عـالم هيمانـلي، كان البحـر هادئًـا، وكانـوا لا يزالـون عـلى قيـد الحيـاة، وعائشـة تجلـس في أحـد طـرفي القـارب، وركبتاهـا مشـدودتان إلى صدرهـا، تنظـر إلى الأفـق وهـي شـاردة الذهـن، بـدا مُتعَبًـا قليـلًا، ولكنـه كان مطمئنًـا، وكانـت سـترته المبتلَّـة تمامًـا، لا تـزال عـلى كتفيـه، لم تكـن شـاهميران ظاهِـرَة، مـن المحتمـل أنهـا غرقـت، لكـن عـلى الأقـلِّ، كان يجـب أن تكـون بقاياهـا طافيـة في الأرجـاء، ولأنـه

لم يستطع رؤية أي شيء، فلا بُدَّ أن الأمواج قد سحبتهما بعيدًا عن السفينة، عندما تذكَّر الأمواج، ارتجف من رأسه إلى أخمص قدميه، وسجد سجدةَ شُكرٍ في القارب، ظلَّ هكذا لفترة طويلة، وبعد أن كرَّر كل الأدعية التي كان يعرفها، جلس متربِّعًا، وحدَّق في الغيوم التي تتحرَّك بهدوء في السماء.

ومهما حدث وهو فاقد للوعي فإن ما حدث كان معجزة جديدة من الله تعالى وعلاوة على ذلك، فإنه لم يكن من المحتمل أن يكونوا على قيد الحياة في تلك الليلة، لقد غفر الله له، وسمح له بالبقاء؛ لحفاظه على أمانته، ولم يخطر بباله أي تفسير آخر، وعانق الفتاة التي اقترَبَت منه، وأدرك أنها كانت مستيقظة، بحنان، ودفن رأسه في رقبتها الرقيقة.

قال والدموع في عينيه: «الحمد لله أننا نجونا يا عائشة... لقد وهَبَكِ رَبِّي لي، ووَهَبَكِ ربي لهذا العالم».

رفعت الفتاة رأس الرجل العجوز عن كتفها، ونظرت بحبٍّ إلى عينيه الدامعتين، وقالت، وهي تضغط بأصابعها الصغيرة على صدرها العاري: «أنا... أنا... عائشة»، ثم وضعت يدها على صدر الرجل الذي كان يؤلمه، فوق قلبه تمامًا، وقالت: «القبطان... قبطان عائشة...». كان صوتها لا تشوبه شائبة مثل مظهرها، وكان يتمتَّع بجَرْسٍ غير عادي، يريح الأذن ويمنح راحة البال، كان الأمر كما لو أن جميع حالات الوجود والحياة المسحورة مُتَّحِدَة في هذا الصوت.

شعر سليمان باشا برغبة تنمو في قلبه، وهو يستنشق رائحة الفتاة، التي تشبه شراب الورد الخاص، وعندما لاحظ الحركة الخفيفة بين ساقيها، كان خائفًا حتى الموت، وفكَّر في أن يفعل شيئًا، قائلًا: يا الله، امنحني القوة للتحمُّل. في اليوم الذي وجد فيه الفتاة وهي تنجرف في البحر، وأخذها إلى السفينة، كانت المشاهد والأصوات التي وضعها

الشيطان في ذهنه قد أزعجت روحه، واقتحم غرفة الفتاة بغضب، لم تقاومه، حتى أنها لم تتنهَّد، وتقبَّلَت الوضع رغم أنفها، وتركته يطفئ نار رغبته فوقها، وكانت خاضعة جدًّا، وغير قادرة على الدفاع عن نفسها، لدرجة أنه خَجَلَ من نفسه، بعد أن أنهى سليمان باشا عمله، وقام من فوق الفتاة، وبمرور الوقت بدأ هذا العار يؤرِّقه، ويزعجه، وعلى الرغم من أنه لم يشعر بذَرَّةٍ من الذنب، عندما ضاجع بالقوة العديدَ من النساء، اللواتي اعتبرَهُنَّ في السابق غنائم حرب، إلا أنه هذه المرة -لسبب ما- شعر بالندم الشديد عندما أدرك أن الجمال الاستثنائي للفتاة كان موضوعَ مُحادَثَةٍ في السفينة، وعندما لاحظ أن بعض المحاربين كانوا يحترقون بشهوةٍ لتذوُّقها، قام بحبسها في زنزانة صغيرة بجوار مقصورته، وفي نفس اليوم، قام اثنان من الانكشارية -كانا يتشاجران حول الفتاة- بإطلاق النار على بعضهما البعض، وألقى أحدُ البحَّارة صبيًّا مُراهِقًا في البحر، وكعقاب له، سلَّم رقبته إلى جلَّاد السفينة، لم تنتهِ المصائب بذلك؛ ففي المساء اندلعت تلك العاصفة الهائلة التي لم يشهدها أيٌّ منهم من قبل، وأخيرًا غرقت السفينة شاهميران بكامل طاقمها في قاع البحر، وكان سليمان باشا على يقين من أنه عوقِبَ على تدنيس هذا المَلاك الذي أرسله الله لاختبارهم، مثل هذه الخطيئة لا يمكن أن تظلَّ دون عقاب، وبما أنه لم يمنع أحدٌ على متن السفينة ذلك، ولكن لأنهم كانوا يحلمون بنفس الشيء، فقد نالوا أيضًا نصيبهم من غضب الخالق، وإذ كان قد جثم فوقها مرة واحدة، وتسبَّب في كل هذه المصائب، فقد كان يفضِّل تحطيم الأداة الإجرامية المتشدِّدة بين رِجْلَيْه ورميها بعيدًا، بدلًا من ارتكاب نفس الذنب مرة أخرى، أبعد الفتاة برفقٍ بعيدًا عنه وابتسم.

قال بحنانٍ: «نعم، أنتِ عائشة، أنتِ عائشتي، أنتِ أمانةٌ مُقدّسة من الله تعالى لديَّ، سأحميك حتى نَفَسي الأخير، لن ألمسك أبدًا

بشهوةٍ مرَّةً أخرى، أقسم بربي العظيم، لن يتمكَّن أحدٌ من لمسك، ستظلِّين طاهِرةً جدًّا بقيَّةَ حياتك».

أومأت الفتاة برأسها كما لو أنها فهمت ما كان يقوله، مَن يدري ربما كانت تفهمه فعلًا، على الرغم من أن الريس هيمانلي كان يتساءل عن هذا الأمر، إلا أنه لم يكن في حالة تسمح له باستجواب الفتاة التي عانت كثيرًا في الأيام الماضية، أدرك بعد ذلك أن لديه مشكلة أكبر يجب أن يفكِّر فيها، لم يستطع رؤية المجاديف، رغم أنه فتَّش في كل ركن من أركان القارب، أثناء الإعصار، كان من الممكن أن يسقطوا، بينما كان قارب النجاة يلعب مثل الراقصة، على الأمواج، كانت هناك قطعة من الأرض، غامضة، يمكن رؤيتها من بعيد، ولكن كيف يمكنهم الوصول إلى هناك بدون مجاديف؟ وبينما اعتقدوا أنهم نجوا من الموت، هل سيتم اختبارهم الآن بالجوع والعطش في هذا القارب؟

أدارت عائشة رأسها وحدَّقَت في المكان الذي كان يبحث فيه القبطان العجوز، ثم ابتعدت عن الرجل وأتت إلى منتصف القارب، وأغمضت عينيها، وشبكت يديها، وبدأت شفتاها في التحرُّك، كما لو كانت تدعو، لاحظ سليمان باشا بدهشة وخوف شديدين أن المركب يتحرَّك، كانوا قد بدؤوا يشقُّون طريقهم ببطء نحو الشاطئ في الأفق، وكان من الواضح أن الفتاة قد فعلت ذلك، لكنه لم يكن يعرف كيف فعَلَت ذلك، ولم يسمع قطُّ بمثل هذا الشيء حتى في حكايات العجائز، في تلك اللحظة، اعتقد أن الفتاة هي التي منعت القارب من الانقلاب في العاصفة الليلية، كان الله سبحانه وتعالى يُظهِر قُوَّته ليس فقط في جماله الرائع، ولكن أيضًا في قدراته الخارقة، كم كان من الرائع مشاهدة ذلك، كل من يعرفه سيخوض تجربة إلهية، وستزهر أزهار الإيمان في قلوبهم، وستغطِّي هذه الأزهارُ كيانَهم بالكامل، تنبت معه القلوب الجافة، وسيسجد الغافلون الذين تبعوا الشيطان، ويؤمنون بالدموع، عندما يرون معجزات عائشة، كان من الممكن أن

ينتهي الشِّركُ والكُفر الذي انتشر بشكل خبيث في الأراضي العثمانية، بفضل هذه الفتاة، لقد اختاره الخالق لهذه المهمَّة الجبَّارة، كانت هذه فرصة للتكفير عن كل ماضيه القذر، والدم الذي سفكه، والنساء اللائي جعَلهُنَّ أرامل، أو ضيَّع شرفَهنَّ، والمدن التي أحرقها، والسفن التي أغرقها، وعندما اقترب المركب من الشاطئ، دفع رأسه للخلف، ونظر إلى الشمس، والسحب الموجودة في السماء، وكرَّر آيات سورة الشعراء عِدَّة مرَّات، وهو يبكي:

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾[1]

إن لم تكن المعجزة المذكورة في هذه الآية، هي الفتاة التي كان يشاهدها وهي تبكي، فما هي إذن؟

تدافَعَت مياه قارب النجاة وهي تُزبِد، وسرعان ما جنح القارب بالقرب من الشاطئ، حملها سليمان باشا بين ذراعيه برفق؛ حتى لا تبتلَّ الفتاة الغارقة في الأمواج، تمامًا، برفق، وقفز للأسفل قائلًا «باسم الله»، كان الماء تحت ركبتيه مباشرة، وكان يشعر بالطحالب تدور حول قدميه، رغم تعب الأيام الصعبة التي عاشها، ولكن قلبه كان مليئًا بالأمل والفرح، وسار متعثِّرًا في الأرض اللَّيِّنة، وعندما وصل إلى الأرض الجافَّة، وضعها برفق على الأرض، وهذه المرة أمسكها من يدها، وسألها بطريقة أبوية، قائلًا:

«يمكنك المشي، أليس كذلك؟ لنَجِدْ لأنفسنا بابًا ميمونًا لاستقبال ضيوف الله، دعينا نتدفَّأ قليلًا، ونملأ بطوننا، وبعد ذلك فالله كريم، وعندما تتعبين، سأحملك».

(1) [الشعراء 1: 4]

وضعت عائشة يدها الأخرى على يد الرجل العجوز الضخمة الخَشِنَة، وأجابت بصعوبة، وهي تعكس في عينيها أنها تثق به من كلِّ قلبها، كان الأمر كما لو كانت ترفع حمولة ثقيلة أثناء القيام بذلك:

"عائشة... تمشي»...

بعد أن استمدَّا قوتهما من بعضهما البعض، سارت الفتاة الصغيرة وسليمان باشا نحو الغابة، في حالة مُنهَكَة، وسرعان ما اختفيا بين الأشجار المتفرِّعة بكثافة، وعلى أحد الأغصان، كان العندليب الكبير يتَّكِئ على ورقة كبيرة، يغني بصوت حزين، كما لو كان يغني أغنية سحرية ليبارك هاتين الروحين الضائعتين.

5

حكَّت الفرس العجوز على لبدة شريكها الضعيف، الذي كان يلهث بجانبها، وصهَلَت بألم، لم يأخذا قسطًا من الراحة منذ وقت طويل، وكانت إحدى حدواتهم القديمة قد ارتخت، وقد دخل حَجَرٌ صغير حادٌّ بين الحديد واللحم، وكان يعذِّبه بكل خطوة يخطوها، لقد كان يجرُّ العربات طوال حياته، عندما كان صغيرًا، لم يكن يمانع في جَرِّ العربات المليئة تمامًا بالحجارة، وعندما بلغ سِنَّ الرُّشد، كان بالكاد قادرًا على تحمُّل تلك المُحمَّلة بالقش، هذه الأيام عندما شعر أنه كان في نهاية حياته، كان يستطيع جرَّ عربات الرُّكَّاب التي تتَّسِع لثلاثة أو خمسة أشخاص بشقٍّ الأنفس، لم يكن الحصان الفحل ذو اللون الأسود الليلي، المرتبط بنفس النِّير، يساعده كثيرًا أيضًا، بالكاد يستطيع الحيوان المسكين أن يحمل نفسه، بل وأحيانًا يُخلُّ بتوازن العربة؛ ممَّا يجعل مَهمَّته صعبة.

ضُرِب سوطٌ فوقه، وشعر بألم فيْ ظهره، لكنه لم يحاول الإسراع، كان القيام بذلك يفوق قوّته، وإرادته، في الوقت الحالي.

«سيروا أيُّها الخَوَنة! سيروا أيها الأوغاد! لو قَيَّدتُ بغلًا سيكون أفضل منكم!».

مسح أكرم أفندي، رئيس القافلة، جبهته بمنديله المتَّسِخ الذي كان مبتلًّا بالعَرَق، وأخذ يسبُّ الخيول، ورفع السوط الجلدي مرة أخرى بغضب، لكنه أنزل يده خوفًا من أن يؤدِّي ذلك إلى إرهاق الخيول -إلى جانب ذلك، حسب قوله- إذا كان هناك أشخاص يستحقون الضرب، فهم الجالسون في العربة، وليس مَن يجرُّونها.

كان يعلم منذ البداية أن تَولِّي مَهمَّة هذه القافلة، كان قرارًا سيئًا، ومع ذلك لم يستطع أن يقول لا لكيس الذهب الضخم الذي أعطوه له، وهو الآن يعاني من وطأة هذا الجشع، عندما انطلقوا، لم يكن يدرك أنه متورِّطٌ في مثل هذه الأعمال المزعجة، فقال له الرُّكَّاب -الذين يمكن استيعابهم بالكاد في ثلاث عربات- إنهم يريدون الابتعاد عن القرية التي يعيشون فيها؛ لأنهم شعروا بالعداء، لكنهم لم يتحدثوا أبدًا عن أولئك الذين يتعقَّبونهم بسبب قضية ثأر، سيارته النظيفة تمامًا، والتي لم يبخل عليها بالمال، والمصنوعة من خشب الدردار، وتمَّت قيادتها ثلاث مرات فقط، عومِلَت بخشونة شديدة أثناء هذه المطاردة، وكان سيؤذي رُكَّابَها بشدَّة إذا لم يعطوه كيسًا من الذهب قيمته أكثر من نفقات إصلاحها، لقد طارد أولئك الذين قطعوا طريقهم مع رجاله، وبعد انطلاق القافلة، كان ذلك شرفه الآن، لكن من ناحية أخرى، لم يكن لديه نيَّة في التوقُّف حتى يصل الركاب إلى الهدف؛ خوفًا من قدومهم مرة أخرى، أراد لمَّ شمله بزوجته، وابنه المولود حديثًا ذي العيون السماوية، واللذين ينتظرانه في المنزل، وهو حيٌّ يُرزَق.

لذلك، عندما رأى الرجل الذي خرج فجأة من بين الأشجار، ووقف أمامه؛ سحب مسدسه بشكلٍ غير إرادي، واستعدَّ لإطلاق النار، وعندما لاحظ رداء القبطان على الرجل أنزل سلاحه بدهشة وعلَّقه في اللجام، وقال:

«توقَّفوا أيُّها القَوَّادون، توقَّفوا!».

سار هيمانلي سليمان باشا بشكل متغطرس، عندما بقيت العربة التي تجرُّها الخيول -والتي قطع عليها الطريق- ثابتةً، وجاء على بُعد خطوات قليلة من السائق، وتجاهل النظرات المتعجبة للرَّجُل قوي البنية، مدركًا أنه يبدو، وكأنه قد خرج للتو من معركة، كانت لا تزال هناك دماء صاري إسماعيل على ملابسه، وقد نظَّفَت الأمواج جزءًا كبيرًا منها، لكنها لم تمسحها تمامًا، ورداءه يحمل كل آثار الأيام الشاقة التي قضاها، كان يجب أن يكون شَعرُه ولحيته متماثِلَيْن، ومع ذلك، كان بإمكانه أن يقرأ من التعبير المحترم في عيني الرَّجُل، أنه عرف معنى هذا الثوب.

قال بصوتٍ قويٍّ: «إلى أين الرحلة يا رئيس القافلة؟»، رؤية شخص آخر غير عائشة بعد فترة طويلة جعلته سعيدًا، «من أين أتيت، وإلى أين تذهب؟ آسف، لقد عطَّلتُكَ عن مسارك».

قال أكرم أفندي بنظرة متردِّدة: «أخي الأكبر استَغفِرْ الله»، هل يمكن لهذا الرجل ذو المظهر المتشرد أن يكون قبطانًا عثمانيًّا حقًّا؟ أم أنه كان حطَّابًا وجد هذا الرداء بطريقة ما وارتداه؟

«نحن ذاهبون إلى قرية أيدوغان بإذن الله، لدينا ركاب في العربات، أين اتجاهك يا سيدي؟ ما الذي تبحث عنه في هذا المكان المقفر؟».

قال سليمان باشا بهدوء وثقة: «غَرَقَت سفينتنا منذ أيام قليلة»، وكان واثقًا من نفسه وهادئًا، وكأنه يقول خبرًا عاديًّا، «بالكاد وصلنا إلى الشاطئ، ومنذ أيام كُنَّا نتجوَّل بحثًا عن سقف نحتمي به، إذا

كنَّا قريبين من قرية أيدوغان، فلا بُدَّ أن يكون هناك تكية مولوية[1]، أليس كذلك؟ إذا كنتَ تعرف مكانها، هل يمكنك أن تصفها لي؟ قبل العودة إلى اسطنبول، دعنا نتوقَّف ونصلِّي».

اتَّسَعَت عيون أكرم أفندي، واحمرَّت وجنتاه، وضرب يده على ركبته بتعبير إعجاب غَطَّى وجهه، وقال:

«كنتُ أعرف تلك السفينة! أليست هي شاهميران؟ القرش العثماني! قالوا إن عاصفة غير مسبوقة اندلعت في هذه المنطقة مؤخَّرًا، وأغرقت شاهميران... أم أنَّك... هل أنت سليمان باشا الذي غنَّينا باسمه الأغاني الشعبية يا سيدي؟ قل لي، هل هذا أنت؟».

ابتسم الرجلُ الرَّثُّ الهيئة بفخرٍ وهزَّ رأسه، مبتسمًا، وسحب الشِّعارَ الذي في حجم كف اليد، من تحت ياقته، والموجود في طرف السلسلة المعلَّقة في رقبته، ورفعه، وعندما رأى رئيس القافلة العجوز توقيع السلطان العثماني على الشِّعار الذهبي المتلألئ، قفز بسرعة من العربة، متشبِّثًا بيدي الرئيس العظيم، وقبَّل هاتين اليدين المتَّسِخَتَيْن والملطَّخَتيْن بالدماء، وبعد لحظةٍ من التردُّد، عانقه بشدَّة، كما لو كان صديقه البالغ من العمر أربعين عامًا، وقال:

«حفظكم الله لنا... وحفظكم الله لبلادنا... الحمد لله رب العالمين! ماذا عساي أن أفعل، وكيف يمكنني مساعدتك؟ يسمُّونني قيليتشباز أكرم أفندي، أنا أقدَمُ قائد قافلة في هذه المنطقة، إذا كنت ترغب في العودة إلى اسطنبول، سأقوم بإلقاء الركاب من العربات، وسأُخصِّص القافلة لك، كلمة واحدة منك تكفي! إذا كنتَ سوف تذهب إلى التكية، فسوف آخذك إلى هناك شخصيًّا، إنها قريبة من هنا، مسافة يوم...».

---

(1) الطريقة المولوية: طريقة صوفية تُنسَب إلى شيخها جلال الدين الرومي المعروف بمولانا، والمتوفَّى سنة683 هـ بمدينة قونية بتركيا. (المترجم)

ابتسم سليمان باشا بامتنانٍ للرجل الذي بدا صدقه من عينيه وكلامه، وربَّت على كتفه بطريقة ودية، وابتعد برفق بعيدًا عنه، خصَّص له مكانًا للجلوس في مقعد مريح في العربة التي تجرُّها الخيول لكي يأخذ قيلولة لبضع ساعات، لكن لا يزال يتعيَّن عليه إبعاد عائشة عن أعين الناس، لم يستطع أن يظهر معجزة الله إلا لمن يثق به دون تردُّد، يمكن لأرواح الناس العاديين أن تضلَّ بسهولة في وجه هذا الجمال، لا يستطيع أن يخاطر بتكرار الكوارث التي وقعت في شاهميران، وقال:

«بارك الله فيك أكرم أفندي، أنتَ عليك توصيل رُكَّابِكَ إلى قراهم بأمان، دعنا لا نسلب أحدًا حَقَّه، لقد وصلنا إلى هذا الحد بإذن ربنا، وسنفعل الباقي بأنفسنا، إذا أعطيتني بعض الماء وبعض الطعام، فلن أكُفَّ عن الدعاء من أجلك، وعندما أعود إلى اسطنبول سأرسلها لكم مهما كان الثمن، صِفْ لي الطريق إلى تلك التكية المولوية، وكيف نذهب إليها بأقصر طريق؟».

فهم رئيس القافلة من طبقة صوت سليمان باشا أنه لا يريد أي اعتراض، فتراجع بضع خطوات إلى الوراء، بإذعان، وطلب من رجاله الذين كانوا في العربتين الأخريَيْن، ويشاهدون ما يحدث بفضول، إحضارَ المؤن، بعد أن أخبره بالتفصيل كيف يذهب إلى التكية، لم يتحمَّل، وعانقه مرة أخرى ليودعه.

وقال: «سامحنا يا سليمان باشا! لم نفعل الكثير من أجلك! أطلق الكثيرون في قريتنا اسمَكَ على أطفالهم، ونحن نُقدِّر ما فعلته للعثمانيين».

قال الكابتن العجوز: «سامحتك، يا أكرم أفندي»، وتأثَّر، وقال: «سامحني أنت، ما الذي ستفعله أيضًا... طلبي الأخير هو أن هناك فتاة صغيرة من بين الناجين من العاصفة، فستانها مُمزَّق، وأوَدُّ إحضار

رداء لهـا، فهـل هـذا متواجـد مـع الـرُّكَّاب؟ ومهـما كان ثمنـه، سأرسـله إليهـم عندمـا أعـود إلى اسـطنبول».

أزهَـرَت الـورود عـلى وجـه ڤيليتشـباز، كان سـعيدًا لأنه سـوف يسـتطيع مسـاعدة هـذا البطـل الـذي كان معجبًـا بـه، بشـكل أفضـل، وذهـب إلى السـيارة بغضـب، وفتـح البـاب، وتحـدَّث مـع الموجوديـن بالداخـل لبضـع لحظـات، ثـم عـاد وفي يـده عبـاءة حريريـة ورديـة اللـون ولثـامٌ أبيـض ونقـاب، كان زيًّـا باهـظ الثمـن وأنيقًـا، وياقتـه مُزيَّنـة بشـكل متقـن، كـما أحـضر زوجًـا مـن الأحذيـة النسـائية المسـطَّحة.

ابتسـم، قائـلًا: «العائلـة الموجـودة بالداخـل لديهـا أيضًـا فتـاة صغـيرة، لم تكـن قـد ارتـدت تلـك الملابـس مـن قبـل، كانـت تحتفـظ بهـا مـن أجـل جهازهـا، لقـد أعطتهـا لي طفلتـي، بـكل سرور؛ فهـم مدينـون لي ليـس بالذهـب فحسـب، بـل بحياتهـم أيضًـا. لا تتحـدَّث عـن إرسـال أموالـك يـا باشـا، إنـك بذلـك تكـسر قلبـي، أتمنـى أن أفعـل المزيـد إذا سـمحتَ لي بذلـك، عندمـا أعـود إلى القريـة، سـأقول إننـي تعرَّفـتُ عـلى هيمانـالي سـليمان باشـا، ورأيـت بـأمِّ عينـي أنـه عـلى قيـد الحيـاة، هـل يمكـن أن تكـون هنـاك سـعادة أكـبر مـن ذلـك!».

قـال سـليمان باشـا وعينـاه مغرورقتـان بالدمـوع: «شـكرًا لـك أكـرم أفنـدي، لقـد أسـعدتني»، لقـد أدرك للتَّـوِّ قيمـة مـا فعلـه حتـى الآن في نظـر النـاس، وأصبـح مـن الأفضـل أن يُفسِّر الآن، لمـاذا عهـد اللـه تعـالى إليـه بأمانتـه الإلهيـة لحمايتهـا.

«بلِّـغْ تحيـاتي للموجوديـن في القريـة، دَعهُـم لا يَكفُّـوا دعاءهـم مـن أجلنـا، هيـا، ليكـن طريقـا مُيَسَّرًا! اذهبـوا مـع السـلامة».

بعـد أن انطلقـت القافلـة مـرة أخـرى، لم يغـادر مكانـه حتـى غابـت عـن الأنظـار مـن بعيـد، وكان يلـوِّح مـن وقـت لآخـر لڤيليتشـباز أكـرم أفنـدي، الـذي اسـتدار ونظـر خلفـه، وبعـد ذلـك دخـل سـليمان باشـا بـين

الأشجار بخطوات سريعة، وسار لبضع دقائق، ثم جاء إلى المكان الذي كانت الفتاة تنتظره فيه، وتنفَّس الصُّعَداء عندما وجد عائشة جالسة القرفصاء على الأرض، وظهرها إلى جذع شجرة الحور، سلَّمها الرداء الموجود معه، وابتسم، وعندما خلعت الفتاة ثيابها قطعةً فقطعةً، وبقِيَت عارية تمامًا، خاف للحظة، وأبعد عينيه، لكنه أدرك بعد ذلك أنه لم يَعُد ينظر إليها على أنها امرأة ستغضبه، بل باعتبارها معجزة من الله العظيم، وكان جمالها يثير المشاعر الإلهية في قلبه، بدلًا من الشهوات الفانية، وكان يراقبها برهبةٍ كبيرة، وهي ترتدي ملابسها، معجبًا بها وبكمالها، كانت الملابس كبيرة قليلًا بالنسبة لها، لكنها لم تكن سيئة على الإطلاق.

وعندما أصبحت جاهزة، أمسك الفتاة من يدها بحنان، وانحنى على أذنها، قائلًا:

«سآخُذُكِ إلى مكانٍ تكونين فيه بأمان، يا عائشة، ولن يؤذيك أحد هناك، لم يتبقَّ أمامنا سوى القليل من الطريق، تحمَّلي لفترة أطول قليلًا».

قامت الفتاة بمداعبة لحية الرجل العجوز، وابتسمت بابتسامة مُشرِقَة، وقالت بلغة تركية أنظف وأوضح من ذي قبل بنبرتها السحرية المعتادة: «عائشة تَثِقُ بك»، وكان لديها صعوبة قليلة في الكلمة الأخيرة فقط، ولكن إن لم يكن التطوُّر الذي أظهرته في مثل هذا الوقت القصير مُعجِزةً جديدة، فماذا يكون إذن؟ أمسك بيد الفتاة، وكان من الرائع أن يشعر بدفء بشرتها.

سارا بهدوء وبدون عجلة بين الأشجار، وكان سليمان باشا يعلم أنه عند وصولهما إلى المولوية، سيضطر لترك الفتاة، فحاول إطالة هذه الفترة عَمْدًا، وأحيانًا يتحايل على الطريق، ويتوقَّف أحيانًا لأسباب غير ضرورية، ويُعَرِّفها على المكان، وكان يُعلِّمها أسماء الطيور الموجودة

على الأغصان، والأشجار المختلفة، والحيوانات التي تتجوَّل، والأسماك في الجداول واحِدةً تلو الأخرى، بصبرٍ، وكان يشاهد بسعادةٍ ابتسامةَ عائشة على وجهها، مع كل كلمة كانت قد تعلَّمَتها.

بعد سَيرٍ لم يستغرق يومًا، مع أنه كان بطيئًا، أصبحت الأشجار متناثرة، ووجَدَا أنفسهما أخيرًا في أرض جرداء، وشاهدا التكية أمامهما، كانت تتألَّف من مبنى كبير مستطيل الشكل، والعديد من الأكواخ مصطفَّة حوله، وحظيرة، وبئر، وكان كلب الراعي النظيف، والمُعتَنى به جيدًا، ينام في قاع البئر، وذيله بين ساقيه، وعندما لاحظهما، نظر إلى الأعلى، بعينيه نصف مفتوحتين، وحاول معرفة ما إذا كان هناك أي شخص يستحقُّ النباح، ثم وضع رأسه على الأرض مرة أخرى، واستأنف من حيث توقَّف في حلمه.

لم يكن كلب الراعي فقط هو الذي لاحظ وصولهما، حيث خرج من أحد الأكواخ الصغيرة رجلٌ عجوز ذو لحية بيضاء، يرتدي سروالًا أبيض اللون، وسترة من الصوف، يسحب قباقيبه، وهو يلهث في كل خطوة، وسار نحوهما، وكان يرتدي جبَّة المولوية ناصعة البياض، مفكوكة الأزرار، وجزء منها بدون أزرار، فوق تنُّورة في غاية النظافة، وبعد ذلك مباشرة خرج اثنان من الدراويش المولوية من الشباب الصغار بقلانسهما[1] على رأسيهما، إلى الفناء، وركضا وأمسكا ذراعي چلبي[2] العجوز، ورفعاه مثل طائر، وحملاه إلى ضيوف الله.

وبعد بضعة خطوات، أمر الشيخُ الدراويشَ بالتوقُّف، ووضعه على الأرض، وقام الشَّابَّان الجريئان -اللذان كانا قد أنهيا للتَّوِّ فترة رياضة الأربعين[3]، وخرجا للتَّوِّ- بتنفيذ الأمر على الفور، لقد ألقيا نظرة لا

---

(1) قلانس: جمع قَلَنْسُوَة، وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال. (المترجم)

(2) چلبي: لقب كان يطلق على كبار الصوفية من أتباع الطريقة المولوية والبكداشية. (المترجم)

(3) فترة رياضة الأربعين: هي فترة الصيام والمشقَّة التي يفرضها الصوفية على أنفسهم لمدة أربعين يومًا، ويقضون وقتهم فيها بالصلاة والعبادة فقط. (المترجم)

إرادية على الشخصين اللذين أتيا لزيارة التكية، وقد تأثَّرَا لبضع ثوان بجمال عائشة الساحر، ثم عادا إلى رُشدهما، وقالا التوبة «أستغفر الله»، وأدارا أعينهما على الأرض.

قال سليمان باشا بابتسامة عريضة على وجهه: «تحية طيبة يا أعزائي»، «لقد قطعنا مشوارًا طويلًا، أيها السادة، ونحن مُتعَبون وجَوعَى، هل عندكم قطعة خُبز جافٍّ تعطونها لضيف الله، وفراش نستريح عليه؟».

زرَّ شيخ المولوية عينيه، وأطال النظر إلى القبطان العثماني لفترة طويلة، وفحص توقيع السلطان المعلَّق على رقبته، ثم ظهرت ابتسامة على وجهه، وقال:

«أعرف مَن أنت يا سليمان باشا، عندما رأيتك لأول مرة، كنتُ درويشًا في التكيَّة الموجودة في قرية ديميرجيلر، كلَّما أتيتَ إلى تلك المنطقة، كنتَ تمرُّ دائمًا على تلك النواحي، وتطلب من شيخي أن يسامحك، وتطلب منه الدعاء، كيف أنسى أسد البحار الذي يحمينا دائمًا، ويعرف المولويِّين كأصدقاء! يطلقون عليَّ اسم حسام الدين چلبي، تكيَّتنا هي منزلك، اختَرْ الكوخ الذي تريده، واستَقِرَّ فيه، باستثناء ذلك الذي له سقف قُبَّة، حيث إنه سماعخانة[1] الخاص بنا، حيث نقوم بالذِّكْر، ونؤدِّي رقصة السماع[2] المولوية، خُذْ قسطًا من

(1) سماعخانة: أي بيت السماع، وهو بهوٌ متراحِبُ الأرجاء، يجلس الشيخ في صدره، ويدخل الدراويش بالطويل من قلانسهم فيسلِّمون على الشيخ، ثم ينفخ في الناي وتقرع الطبول، ويصطفُّ هؤلاء الدراويش في دائرة يدورون فيها، ويدور الواحد منهم حول نفسه، وهو يدور مع رفاقه في دائرة، ويرفع الواحد منهم يده اليمنى، وقد اتَّجَهَت راحتها لأعلى، وراحة يده اليسرى لأسفل، ثم يدورون في هذه الرقصة على أطراف أصابعهم دوران الرحى حول قطبها ثم يصلُّون على النبي ﷺ.واضعين أيديهم على صدورهم، ويحنون قامتهم، وبذلك تنتهي رقصتهم. (المترجم)

(2) السَّماع: هو إثارة الوجد، وجذبات العشق الإلهي في النفس، بإلقاء السمع إلى النفخ في الناي، وقرع الطبول، ورقص الدراويش. (المترجم)

الراحة الآن، وعندما يكون العشاء جاهزًا سوف يَطرُق الإخوة بابك، هل يلزم أن أعدَّ كوخًا منفصلًا لابنتنا السيدة؟».

أجابه قائلًا: «بارك الله فيك يا حسام الدين چلبي، اسم رفيقتي في السَّفر هو عائشة، حياتها وشرفها أمانة في رقبتي، سيكون من الأنسب لنا أن ننام تحت نفس السقف، ذهني لا يتعلَّق بها، لكني أرجو وضع مرتبتين في الغرفة، ونضع ستارة سميكة داكنة بين الأفْرِشة».

نظر العجوز چلبي إلى الفتاة بعيون مُتفهِّمة، ثم التفت إلى الدراويش، الذين كانوا يقفون خلفه وهم يظهرون احترامًا كبيرًا له، وأمَرَهم بإعداد الكوخ الأكثر عناية على وجه السرعة.

على الرغم من كونهما في مأوى آمن في التكية، أمضى المسافران المرهقان الليل ينقلبان على أسِرَّتهما، مضطربين وقلقين، وكانت عائشة خائفة من وجودها في هذا المكان الغريب، وسط أناس لا تعرفهم، وتخشى ما قد يحدث لها، ومن ناحية أخرى، كان سليمان باشا ينجرف من حلم إلى آخر في قلب الظلام، وفي معظم هذه الأحلام كان يمسك عائشة بين ذراعيه، ويجول بشفتيه على بشرتها الأكثر حلاوة من العسل، ويستمع إلى أنينها الممتلئ باللَّذَّة كالشِّعر، يحضن خصرها النحيف بإحكام، ويسقط من خطيئة إلى أخرى، وعندما استيقظ في المساء على صوت الدراويش يدقُّون على الباب، كان يتصبَّب عَرَقًا وعيناه مملوءتان بالدموع، وقلبه العجوز ينبض بالخجل والخوف وكأنه سوف يخرج من مكانه.

أدار رأسه ونظر إلى الستارة التي كانت تفصل بينه وبين الفتاة الصغيرة، مدركًا أنها ترقد خلف هذا الغطاء الرقيق، وكان من السهل لمسها، كان اختبارًا للروح لا يطاق، مد يده، ولمس القماش بأصابعه، فتحركت الستارة قليلا، كان يكافح حتى لا يخفض الحاجز الفاصل بينهما دفعة واحدة، شعر بضيق في التنفس، وقفز من السرير خوفا

مـن الاستسـلام، في معركتـه ضـد الشـيطان، ولبـس رداءه عـلى عجـل، وغـادر الغرفـة.

أرخـى الليـل سـدوله، والنسـيم البـارد المنبعـث مـن ياقتـه جعله يشـعر ببعـض الراحـة، رفـع رأسـه، ونظـر إلى السـماء، وإلى النجـوم السـاطعة، لقـد كانـت علامـة جيـدة عـلى أن رغباتـه بـدأت تهـدأ في اللحظـة التـي كان فيهـا بمفـرده، لقـد أدرك بـكل وضـوح مـا كان عليـه أن يفعلـه في تلـك اللحظـة، بـدا أن هـذا هـو الحـل الوحيـد، حتـى لـو تسـبَّب لـه في ألم شـديد، وربمـا اسـتياء، كان مـن واجبـه حمايـة عائشـة حتـى نفسـه الأخير، لكـن كان عليـه أن يفعـل ذلـك بعيـدًا عنهـا، وهـذا مـا يقتضيـه الواجـب الإلهـي الـذي كلَّفـه اللـه بـه، خـلاف ذلـك، كان عليـه أن يتصـارع مـع نفسـه التـي كانـت تلـحُّ عليـه، كل يـوم وكل ليلـة، في أن يأخـذ الفتـاة بـين ذراعيـه، وعاجِـلًا أم آجِـلًا سـيصبح منهَـكًا، ويخـسر هـذه المعركـة، كانـت عينـاه مثبَّتَتَـيْن عـلى السـماعخانة، الموجـودة في الأمـام مبـاشرة، وكان يتخيَّـل النفـوس هنـاك ترتجـف منتشـية، وهـدأ عقلـه وروحـه تدريجيًّـا.

ذهـب إلى الدراويـش الذيـن وضعـوا مائـدة أرضيـة في الفنـاء، واحتضـن شـيخ المولويـة الـذي اسـتقبله باحـترام ومحبَّـة، وكأنـه صديقـه منـذ أربعـين سـنة، ثـم أخـذ الرجـل العجـوز مـن ذراعـه، وابتعـد بـه بعيـدًا عـن الزحـام، وقـال لـه:

«حسـام الديـن چلبـي، لـديَّ طلـبٌ مُهـمٌّ منـك، صدِّقنـي أننـي أفعـل هـذا مـن أجـل اللـه، يمكـن للفتـاة التـي أحضرتهـا معـي البقـاء في تكيـة الدراويـش لفـترة، إذا سـمحتَ بذلـك؟ يجـب أن أعـود إلى اسـطنبول، ولكـن بمجـرد أن أعـود، سأرسـل لـك الكثـير مـن المـؤن والملابـس والذهـب أكـثر مـمَّا تحتـاج، مـا سأرسـله سـيكون كافيًـا للنفقـات التـي سـتتحمَّلها مـن أجـل الفتـاة، وأنفِـقْ الباقـي عـلى التكيـة، واذا زاد وزِّعهـا عـلى الفقـراء، ومـن الآن فصاعـدًا، تكيَّتُـك سـتكون تحـت حمايتـي، إذا كان هنـاك

لصًّا جشعًا، أو وَقِحًا مُشاكِسًا، وأي مشكلة تقعون فيها، أخبِرْني بها وسأعتني بذلك.

عائشة هدية من الله لي، لا أستطيع أن أجد مكانًا أكثر أمانًا لها، للبقاء فيه، حتى أقرِّر أين وكيف أعتني بها، إنها تعرف لغتنا قليلًا جدًّا، قوموا بتعليمها القراءة والكتابة حتى أعود، ودعها تحضر دروسك، وتستمع إلى نصائح مولانا، سأعود قريبًا دون أن أدعكم تنتظرون كثيرًا، على أي حال، وسأسترد وديعتي منك، ستفعل هذا ليس فقط من أجلي، ولكن أيضًا لحماية معجزة من الله، ستفهم ما أعنيه عندما تتعرَّف على عائشة.

لديَّ شرطٌ واحد فقط، سوف تعاملها على أنها ابنتك، لن تتركها خارج هذه الجدران، ولن تظهر وجهها لمن يأتون للزيارة، إذا أعجب بها أحد الدراويش أو اقترب منه بنوايا سيئة، فسوف تطرد هذا الخائن بعيدًا، دون انتظار يوم واحد، عِدني بهذا يا حسام الدين چلبي، واسمحوا لي أن أكون عبدًا في التكيَّة الخاصة بكم».

وأثناء قول هذه الكلمات، أذهل الشيخ العجوز التعبير الدامع على وجه القبطان العثماني العظيم، والإيمان اللا مُتناهي في عينيه، وصوته المتوسِّل، كان هذا طلبًا غير متوقَّع، فقد يشكل حماية فتاة لم يعرفوها مخاطر جسيمة بالنسبة له، وللتكية، لكنه ظنَّ أن طلب الرجل هو اختبار من لله تعالى، فلا يليق بهم أن يرفضوا صديق الله الذي كان في ورطة؛ ففي هذا العالم الفاني كان من الضروري اختيار الطريق الصحيح، وليس الطريق الآمن، نظر إلى الأفق البعيد كما لو كان مستغرقًا في عالم إلهي، يُتَمتِمُ بمصاريع قصيدته المفضلة بصوت هادئ:

أقدِمْ، أقْدِمْ، أيًّا كُنتَ، أقدِمْ أيضًا،

سواء كنتَ كافِرًا أو مجوسيًّا،



وسواء كنتَ من عابِدي الأوثان، أقدِمْ،

تكيَّتُنا ليست مأوى لليأس

حتى لو فسَدَت تَوبَتُكَ مائة مرَّة، أقدِمْ مرَّةً أخرى...

لا نزرع في هذه التربة بذرةً غير الحُبِّ.

لا نزرع بذورًا غير الحب في هذا الحقل النظيف.

«ليكن العشق يا صديقي! إذا كان هذا ما تريده منًّا، فسنقوم بذلك بالطبع دون طرح سؤال واحد، بابنا ليس بابَ اليأس! لم نرفض أيَّ ضيف لله حتى اليوم! طالما تعيش هنا، عائشة هي ابنتي، لا أسمح بأن يُنظَر إليها بشكل مختلف، لا تشغل بالك بها وهي هنا، اذهب وافعل ما عليك القيام به في اسطنبول، وقُمْ بحماية بحارنا وأرضنا من قُطَّاع الطُّرُق، وعندما تعود إلى التكية الخاصة بنا في اليوم الذي يكون فيه ذلك ممكنًا، ستجدها طاهرة وآمنة كما تركتها، تعال الآن، لنوقظ ابنتنا، دعنا نقدِّمها إلى الدراويش، قبل أن تغادر هذا المكان، املأ معدتك، واستمتع معنا، وعندما تشرق الشمس، تأخذ أقوى حصان في الاسطبل وتنطلق».

نظر سليمان باشا بامتنانٍ إلى چلبي ذي الوجه المضيء، كما لو أنه أعطى العالم له، عانقه بشدَّة، ودفن رأسه في كتفه، وبقي هكذا لفترة، ثم دخل الصديقان متشابكي الأيدي، وسارا بسلام نحو الكوخ حيث كانت عائشة نائمة.

6

كان يحب هذه المدينة منذ القِدَم، وفي شبابه، عندما رأى كل شيء ورديًّا، وفي الأيام التي لم يكن يعلم فيها أنه من الممكن أن تكون هناك حياة أفضل، ارتفعت ناطحات السحاب الضخمة المكوَّنة من مائتي طابق في جميع أنحاء اسطنبول، والسماء الرمادية والأرض، أي على عمق ألف متر، الناس الذين يشبهون النمل لم يكونوا يزعجونه على الإطلاق، كان يتابع الشاشات على المناطيد الإعلانية باهتمام، ويشاهد أخبار الساعات الجديدة والروبوتات المنزلية، وينظر إلى السيارات «البَرّ جوِّيَّة» التي تطير من ناطحة سحابٍ إلى أخرى على أنها أمجاد مُشرِقة للذكاء البشري والإبداع، قضى طفولته في الطابق الحادي عشر بعد المائة من برج يلديزلار على الجانب الآخر من المدينة، ولم يضطر أبدًا تقريبًا لمغادرة هذا البرج الضخم على مَرِّ السنين، كان قد التحق بالجامعة في أفضل أكاديمية علوم للجريمة في المدينة، والتي امتدَّت من الطابق التاسع والسبعين، إلى الطابق

الرابع والثمانين من نفس ناطحة السحاب، وفي الحديقة الاصطناعية في الطابق التاسع والأربعين، قبَّل فتاة لأول مرَّة في ظلال أشجار الصنوبر الاصطناعية، وعندما يمرض، تنقله أُسرَتُه إلى المستشفى الخاص، الذي يشغل عادةً الطابقين الثالث والتسعين والرابع والتسعين، أو إلى عيادة خاصة في الطابق المائة والثالث والأربعين، كان يستمتع أحيانًا بالعُزلة في المقاهي ودور السينما والمراكز الثقافية في أجزاء كثيرة من المبنى، وأحيانًا يُكوِّن صداقات جديدة، أمَّا مكتب التحريات الخاص به، فقد افتتحه في برج كريستال في الطرف الشمالي من المدينة، والذي يُفضِّله الأثرياء، وحيث يمكن للعملاء الذين لديهم محافظ منتفخة العثور عليه.

يقيم أصحاب الشركات الكبيرة والقائمون على إدارة الدولة في الطوابق العليا من الأبراج الضخمة، في شقق فسيحة بها حمَّامات سباحة داخلية، وفي الطوابق السفلية يقيم المديرون والبيروقراطيُّون العاملون في تلك الشركات، وفقًا لأهميتهم، وفي الطوابق الأرضية المنخفضة يسكن رجال شرطة الذين بدون رُتَب، والجنود، وملايين من الناس العاديِّين يقيمون في القاع، في مبانٍ مُهمَلَة، كقانون من قوانين الطبيعة، مثل شروق الشمس كل صباح؛ فهم يواجهون صعوبة في العيش، ويضطرُّون للسير على الطريق بسبب الحشد، لم يفكر في استجوابهم، كان يرى أنه من المنطقيِّ تمامًا أن لكل شخص الحق في التصويت في الانتخابات بما يتناسب مع الضريبة التي يدفعها، وأن شخصًا واحدًا يعيش في الطوابق العليا يمكن أن يؤثِّر على نتائج الانتخابات أكثر من عشرات الآلاف من الأشخاص على وجه الأرض، ويعتقد أنه إذا كنتَ تساهم في الدولة أكثر من أي شخص آخر، فيجب أن يكون لك رأي أكبر في الحكومة.

في بعض الأحيان تزعجه حياة الطبقات الدنيا، بالطبع، وكان يشعر بالأسف تجاههم، لكن لم يكن هناك شعور بالتمرُّد في قلبه، لأنه لم

يكـن يعلـم أن العـالم كان مختلفًـا فيـما مـضى، فكـما أنـه مـن الطبيعـي أن يعيـش البعـض طويـلًا وبصحَّـةٍ جيـدة، يمـوت آخـرون في سِـنٍّ مُبكِّـرة، وبعـض النـاس يولـدون جميلـين، والبعـض الآخـر قُبَحـاء، فـإن وجـود مثـل هـذه الـلا مسـاواة سـيكون طبيعيًّـا بالنسـبة لـه.

كان يتِـمُّ شرح التغيـيرات في التكنولوچيـا مـن المـاضي إلى الحـاضر فقـط في دروس التاريـخ في المـدارس، ولم يتـم ذِكـرُ كيـف كان النظـام السـياسي والاجتماعـي في القـرون القديمـة عـلى الإطـلاق، لم تتِـمَّ كتابـة أي كتـاب أو مقـال صحفـي حـول أنمـاط الحيـاة المختلفـة، وكان مـن المسـتحيل الوصـول إلى أي مصـدر عـلى شاشـة التلفزيـون المملوكـة جميـع قنواتـه لشركـة عملاقـة واحـدة، أو عـبر الإنترنـت الخاضـع لسـيطرة مُشـدَّدة، كانت مثـل هـذه الأمـور مـن المُحرَّمـات، وكان المسـتجوبون يختفـون عـلى الفـور، ولم يبحـث عنهـم أحـد، وكان معروفًـا أنـه لـن يتِـمَّ العثـور عليهـم، كان الأمـر كـما لـو أن الإنسـان قـد عـاش في ناطحـات السـحاب هـذه، بترتيـبٍ ثابـت منـذ اليـوم الأول الـذي وطـأت قدمـه عـلى هـذا الكوكـب، والتفكـير والقـول بعكـس ذلـك يعنـي تعكـير صفـو المجتمـع وارتـكاب الخيانـة.

كلـما اضطـرَّ إلى التسـلُّل إلى حركـة المسـاواة في اسـطنبول للحصـول عـلى وظيفـة، أمـضى وقتًـا معهـم، وأُتيحَـت لـه الفرصـة لمعرفـة مـا كان عليـه العـالم مـع هـؤلاء الأشـخاص الذيـن وصفتهـم الدولـة بــ «المسـلَّحين»، ومنذ ذلـك اليـوم، يقـوم بتنزيـل نمـاذج محـاكاة ممنوعـة مـن السـوق السـوداء في كل فرصـة، ويتجـوَّل في أماكـن خياليـة تنتمـي إلى المـاضي، ويجمـع بدقَّـةٍ الأشـياءَ التـي تحمـل روح تلـك الأوقـات، كـما لـو كانـت كل واحـدة منهـا مـن الذهـب، قـرأ بشـغف كل وثيقـة تاريخيـة وروايـة يمكـن أن يجدهـا في المكتبـات غـير القانونيـة حـول العـالم، وشـاهد الأفـلام التـي تعـود إلى قـرون، والتـي نقلتـه إلى عصـور مختلفـة؛ خوفًـا مـن اقتحـام شرطـة قـوات الأمـن لمدينـة اسـطنبول، للبـاب في أي لحظـة.

نظر خلف سيارة أجرة «بَر جويَّة» صفراء كانت تُحلِّق بالقرب من نافذته، وعيناه تتبعان السحب المظلمة للعاصفة الحمضية البعيدة.

كانت إحدى دول المدن المجاورة على وشك أن تصبح غير صالحة للسكن بسبب طبقة الأوزون المثقوبة والاحترار العالمي، والأخبار المتعلِّقة بها، مثلها مثل جميع التطوُّرات الأخرى التي لم تعجب جمهورية اسطنبول، لم تنعكس على التلفزيون والإنترنت، لكنها انتشرت عل هيئة همسات في كل شارع، وأصبحت الموضوع الرئيسي للحديث في كل مكان يُعتَقد أنه آمن، في المستقبل القريب، سيتدفَّق سُكَّان تلك المدينة أيضًا إلى اسطنبول، ويحاولون عبور الجدران، كما فعلوا في مدن أخرى عندما وقعت مثل هذه الأحداث، ومن المحتمل أن قوات الشرطة ستصدُّ العديد منهم، لكن على الأقل، سيتمكَّن بعضهم من أن يصبحوا مواطنين في المدينة بوسائل مُظلِمة من خلال تقديم عملهم أو أجسادهم للأثرياء والأقوياء، وستتمُّ إضافة الآلاف من الناس إلى سُكَّان اسطنبول مرة أخرى، وبحسب الشائعات، فإن الشرطة سمحت لبعض المهاجرين بالتسلُّل إلى المدينة من الأسوار؛ من أجل زيادة الأيدي العاملة الرخيصة.

نظر إلى مبنى رئاسة الوزراء، الذي يرتفع في مكانٍ بالقُرب من ناطحة السحاب حيث كان يعيش، وهو يصرف نظره عن السحب الحمضية التي ظهرت كنقاط سوداء بعيدة، تتوهَّج أحيانًا مثل أضواء الليل، كانت هناك أربعة مبانٍ يبلغ ارتفاعها نصف ارتفاع البرج الضخم المكوَّن من مائتين وعشرين طابقًا، مع قمَّةٍ تعلوها قُبَّة، وكلها تربط البرج الضخم بجسور عريضة مزدوجة في الطابق العاشر، كان البرج الرئيسي ملكًا لرئاسة الوزراء، أما الأبراج الأقصر فكانت مباني الوزارة، وتمَّ بناء الكثير من الأسطح للسيارات «البرّ جَوِّيَّة» الخاصة بالإسعاف في الطوابق التابعة لوزارة الصحة، ولأن وزارة الشؤون الدينية

تقع أعلى نفس المبنى؛ فقد كانت هناك مئذنة رائعة ترتفع على السطح، وهي غير موجودة في المباني الأخرى، أما المبنى الذي توجد فيه وزارة الأمن، فهو مُجهَّز بالعديد من الأنظمة المضادة للصواريخ، والمضادة للطائرات لحماية نفسه -والأجزاء أخرى من رئاسة الوزراء- من الهجمات الجوية، وقد تم تجهيزه بحظائر مليئة بالسيارات «البر جوية» التابعة للشرطة، تُرى ما الذي يتمُّ الحديث عنه، وما نوع الخطط التي يتم وضعها في هذا المبنى الضخم، حيث يعيش ويعمل أولئك الذين يحملون مصير المدينة؟ وتوقَّع أن تكون الانتخابات القادمة البندَ الأول على جدول أعمال البرلمان، لكنه كان يعلم جيدًا أن هناك قضية أخرى لم تسقط من جدول الأعمال في أي وقت قطُّ.

حركة مساواة اسطنبول...

تمتم بصوتٍ مُنخَفضٍ: «محيي الدين أفندي، أرِني مَلفَّ الذي يحمل الرمز «TP41S»»، كانت أجهزة استقبال الكمبيوتر المنزلي حسَّاسةً بدرجة كافية لاكتشاف الأصوات المنخفضة، اختفت فجأة مقاطع ڤيديو مشاهد الطبيعة التي تدور على الشاشة العريضة على الجدار الأيسر للغرفة، وحلَّ مَحلَّها وجه محيي الدين أفندي الواضح جدًّا، والهادئ.

وقال: «يوم سعيد سيدي، يشرفني أن أقدِّم الملف إلى شخصكم المُوقَّر، وفقًا لبروتوكول أمان مصادر المعلومات الخاصة بي، سأطلب منك إخباري بكلمة المرور».

«هل أنظمة التنبيه الخارجية نَشِطَة؟».

«جميعها تعمل بكامل طاقتها، سيدي، لم يتم الكشف عن أي خَلَلٍ أو اقتحام النظام، يمكنك الوثوق في أننا بأمان».

ضحك كمال، قائلًا: «أتمنَّى ذلك... أنا أدفع ثروة من أجل هذه الأنظمة، دعهم يعملون مرة واحدة على الأقل كل أربعين عامًا... كلمة المرور هي «Nese1738NeseX»».

«شكرًا سيدي، لقد أكَّد نظام الأمان الخاص بي كلمة المرور وخريطة الصوت، آسف على المتاعب التي سبَّبتُها لك، بالنسبة للمرحلة النهائية، يُرجَى توجيه وجهك إلى كاميرا الشاشة التي أعمل عليها».

شعر الشاب بالمَلَل، وسار بضع خطوات باتجاه الحائط، وانتظر الكاميرا في الجزء العلوي من الشاشة لمقارنة جميع ملامح وجهه مع خريطة الوجه المحفوظة في نظامه، لقد جهَّز هذه المرحلة الثانية من الأمن حتى لا يتمكَّن أحد القراصنة الذي يُسجِّل صوته، أو الأسوأ من ذلك، الشرطي في ثيابٍ مَدنيَّة، من الوصول إلى ملفَّاته دون علمه، بعد بضع ثوانٍ، تمَّ سماع الصوت الهادئ المريح لجهاز الكمبيوتر المنزلي مرة أخرى.

قال محي الدين: «جميع المعاملات كاملة، سيدي، أنا أقوم بفتح ملفٍ للوصول الخاص بك على الفور، هل لديكَ أي طلبات أخرى مني؟ على سبيل المثال، قهوة تركية رغويَّة، أم غداء خفيف ولذيذ؟ يمكنني أن أجعل الإنسان الآلي الخاص بالمطبخ يحضِّر لك سَلَطة رائعة».

«شكرًا محيي الدين أفندي، ليس لديَّ شهيَّة، سأتصل بك لاحقًا، يمكنك الانسحاب الآن».

قال الرجل العجوز بابتسامة متفهِّمة: «أمرك على رأسي»، ونظر إليه بتعبير أبٍ مُحبٍّ يستمتع برعاية ابنه، ثم تلاشى واختفى من الشاشة، تمَّ استبداله بألبوم صور ظهر واختفى على فترات من بضع ثوان، أعطى كمال الملفَّ اسمًا غير ذي صِلَة؛ لزيادة الأمان، ولكن في

الواقـع، كان الملـف يتكـوَّن مـن عـدد قليـل مـن الصـور مـن تلـك الأيـام الجميلـة التـي قضاهـا في حركـة المسـاواة في اسـطنبول.

بالنسـبة لشـخصٍ آخـر، كانـت الصـور تبـدو عاديـة للغايـة، حيـث تـمَّ التقاطهـا أثنـاء الدردشـة، والأكل، والضحـك، والاسـتمتاع مـع الرجـال والنسـاء مـن نفـس العمـر، كانـت مواقـف يوميـة، دون أي علامـة عـلى تشـدُّدِهم أو أي اسـتعداد للعمـل، كانـوا شـبابًا وفتيـاتٍ مفعمـين بالأمـل، ذوي عيـون مُشرِقـة، متفائلـة، يمكـن رؤيـة ثقتهـم وإخلاصهـم لبعضهـم البعـض عـلى وجوههـم، كان كـمال يضحـك بصـوت عـالٍ في كل صـورة، ولم يتذكَّـر أنـه رأى نفسـه سـعيدًا في صـورة أو مـرآة أخـرى لفـترة طويلـة جـدًّا.

في البدايـة، تسـلَّل إلى حركـة المسـاواة في اسـطنبول فقـط ليجـد وينقـذ طفـلًا متمـرِّدًا لعائلـة ثريـة -كان يحـاول أن يكـون مناضـلًا- مـن هـذه المنظَّمـة غـير القانونيـة، كان يـدرك المخاطـر، لكنـه كان في سِـنٍّ لا يعبـأ فيهـا بالمخاطـر، وعرَضَـت عليـه أُسرةُ الصبـي ثـروةً، في البدايـة، كان ينـوي الانفصـال عـن المنظمـة بمجـرد أن ينتهـي مـن عملـه، لكنـه لم يعـثر عـلى الطفـل هنـاك فحسـب، بـل اكتشـف أيضًـا عالَـمًا جديـدًا بالكامـل، أنظـف بكثـير مـن حياتـه السـابقة، حيـث كان سـعيدًا بالعيـش فيـه، كان يعـرف الأشـخاص المثاليـين الذيـن يفكِّـرون في الآخريـن أكـثر منـه، ويؤمنـون بالقيم الأكـثر أهميـة مـن المـال، ويحلـم بعـالم حيـث يمكـن للأغلبيـة، وليـس قِلَّـةً مختـارة، أن تعيـش بشـكل مريـح، بـل إنـه وقـع في حُـبِّ أحدهـم.

عندمـا رأى نيشـه في الصـورة الأخـيرة، بشَـعْرِها الأسـود القصـير، وابتسـامتها الدافئـة، وعينيهـا الثاقبتـين، وقلبهـا الكبـير الـذي ينعكـس في نظرتهـا- دَقَّ قلبـه فجـأة، لم يفتـح هـذا الملـف منـذ سـنوات، وكاد أن ينـسى كـم كانـت لطيفـة، وصرخ في جهـاز الكمبيوتـر الموجـود في المنـزل، قائـلًا: «توقَّـفْ هنـا!»، كـما لـو أن الصـورة إذا اختفـت، لـن تعـود أبـدًا، أطـاع الكمبيوتـر الأمـر عـلى الفـور، وتجمَّـدَت الشاشـة في تلـك الصـورة.

شاهد ذلك المشهد حيث ظهر على انفرادٍ مع نيشه لبضع دقائق دون التفكير في أي شيء، كانت هناك علامات لحُبٍّ عميق في نظراتهما لبعضهما البعض، بالنسبة له، كان هذا حبًّا كبيرًا، أمَّا في قلبها، فإنه لم يتجاوز الصداقة أبدًا، لقد عانى كثيرًا خلال السنوات التي انفصل عنها، وافتقدها بشدَّة، وبعد ذلك، مع مرور الوقت، اعتاد على غيابها، على الأقل قبل ذلك، وعندما نظر إلى وجهها الآن، شعر برغبات وعواطف قديمة توقَظُ فيه، وكان هذا الأمر يُخيفه بسبب الأخطار التي قد تُشكِّلها بالنسبة له، ويجب عليه أن يعترف أنه يُسعِدُه أيضًا، كان من الجيد أن ندرك أنه على الرغم من كل ما مر به، والألم الذي عانى منه، لا يزال بإمكانه الشعور بمشاعر إنسانية.

خاطب محيي الدين أفندي، قائلًا: «أغلِقْ الملفَّ»، وتحوَّلَت الشاشة إلى اللون الأسود للحظة، ثم تحوَّلَت إلى مقطع ڤيديو لنهرٍ يتدفَّق برفقٍ عِبر الغابة، مصحوبًا بموسيقى هادئة.

أصبح الحب من جانب واحد، الذي نما بداخله تجاه نيشه شيئًا لا يستطيع السيطرة عليه يومًا بعد يوم، لم يستطع الاستغناء عن رؤيتها؛ فقد كان يشعر بالغيرة من الجميع بأسرع ما يمكن، وكان يحاول القيام بأشياء مستحيلة ليكون قريبًا منها، عندما بدأ تطرُّفه يُهدِّد سلامة نفسه وأصدقائه في حركة المساواة في اسطنبول، اضطرَّ إلى تركهم بناءً على طلب نيشه، لم يكن من السهل عليه تقبُّل هذا، ولكن عندما قالت الفتاة الشابة: «إمَّا أنَّك ستذهب أو أنا»، لم يستطع المخاطرة بعذاب الضمير لفصل المرأة التي أحبَّها عن قضيتها، والتي رأت أنها معنى حياتها، كان سيفقدها على أي حال، على الأقل لم يكن يريدها أن تكرهه.

كل ما استطاع فعله لنسيانها هو العودة إلى حياته القديمة في برج كريستال، وكان عليه أن يمحو كل آثار الأيام التي عاش فيها مع

المسلَّحين، كانت الرشاوى التي قدَّمها للشرطة والمسؤولين الحكوميين لا تُحصى حتى نجح في ذلك، ولفترة طويلة كان يعطي كل قرش يجنيه للآخرين، لكن الأهم من ذلك، أنه عمل في عشرات القضايا لكلٍّ من قوات الأمن وأعيان المدينة لسنوات، وكوَّن صداقات قوية لا حصر لها، يمكن أن تحميه، وأصبح على دراية بالأسرار القذرة لهؤلاء الأشخاص، بعد كل هذا، فإن حديث المرأة التي تُدعَى السيدة جول عن ماضيه في حركة المساواة في اسطنبول، بتهوُّرٍ شديد هكذا، وتَمَكُّنها من الوصول إلى هذه المعلومات بسهولة- ليس أمرًا سهلًا، خاصَّةً عندما طلبت منه الاتصال بالمُسلَّحين مرة أخرى، وكأنه عمل عادي... هل هذه المرأة مجنونة!

إذا لم تَقُل إنها يمكنها أن تجد علاجًا لمرضه، لكان قد سخر من هذا الطلب منذ فترة طويلة، ونسي محادثتهما، ومع ذلك، في الوقت الحالي، استمر في إدارة عمل الشاشة الموجودة في يده بشكل مضطرب، ولم يستطع التخلُّص منها إطلاقًا.

قرأ مرة أخرى ما كُتِب على الشاشة التي يبلغ عرضها إصبعين، دون أن يعرف ما يفكِّر فيه.

الأستاذة الدكتورة جول توزلو

ألماس للخدمات الصحية

حلول إبداعية لحياة طويلة وصحِّيَّة.

لا شيء مستحيل هنا.

الضغط الغامض الذي بدأ يشعر به بين حاجبيه جعله يبتسم بمرارة، كان خدُّه مشدودًا، وتضخَّمَت أنفه تلقائيًّا، وإذا حكمنا من خلال الأعراض، فإن الألم الذي لا يُحتَمل، والذي أحال حياته إلى جحيمٍ منذ سنوات سيأتي اليوم، في وقتٍ أقرب من المعتاد، لم يبدأ عادة

قبـل حلـول الظـلام، ولم يزعـج روتينـه حقًّـا، لكـن حقيقـة أنـه اسـتغرق في الأفـكار لسـاعات، وأجهـد ذهنـه، قـد تسـبَّبَت في مرضـه عـلى مـا يبـدو.

التسـلل إلى حركـة المسـاواة في اسـطنبول مـرة أخـرى سـيكون انتحـارًا.. لا يمكـن أن تنقـذني رشـوة، أو أحـد المعـارف هـذه المـرة، إذا تـمَّ القبـض عـليَّ، فسـوف يتـمُّ اسـتجوابي مثـل أي مقاتِـلٍ، فقـوات الأمـن تراقـب كل تحركاتهـم، وليـس مـن السـهل أن تأخـذ ذلـك في الحسـبان...

كان الضغـط يتحـوَّل ببـطء إلى ألم، وكان الأمـر كـما لـو أن أحـدًا يضغـط بإصبعـه بـكل قوتـه في منتصـف حاجبيـه، كانـت المشـكلة التـي نَمَـت في قلبـه أنـه يعـرف جيـدًا مـا سـيحدث بعـد ذلـك، وأصبـح الإصبـع أرقَّ مـع مـرور كل ثانيـة، وسرعـان مـا تحوَّلـت إلى رأس مسـمارٍ وَهمـيٍّ، وبـدأت يـداه التـي وضعهـا عـلى إطـار النافـذة ترتجـف مـن الألم.

لنفـترض أننـي فعلـت هـذا.. لنفـترض أننـي تمكَّنـتُ مـرة أخـرى مـن الدخـول في صفـوف المسـلحين، مَـن سيسـاعدني هنـاك؟ مَـن الـذي سيزوِّدني بالمعلومـات التـي تريدهـا هـذه المـرأة اللعينـة؟ هـل نيشـه؟ بعد كل شيء، هـل تُحـرِّك نيشـه إصبعهـا مـن أجـلي؟ حسـنًا، مـاذا عنـي... هـل يمكننـي تَحمُّـل رؤيـة نيشـه مـرة أخـرى؟ يـا إلهـي، هـل مـن الممكـن أن أحتمـل هـذا؟

بـدأ المسـمار الموجـود بـين حاجبيـه يخـترق جسـده ببـطء، كان الأمـر كـما لـو كان يـدور حولـه، يمـزِّق كل الخلايـا العصبيـة واحـدة تلـو الأخـرى، اليـد الخفيـة التـي دفعتـه في جبهتـه لم ترحـم، ولـن تتوقَّـف حتـى لـو توَسَّـل، كانـت الدمـوع تنهمـر عـلى خديـه، وكانـت شـفتاه وذقنـه ترتعشـان كـما لـو كان مصابًـا بنوبـة صَرَع، وكان صـدره متعرِّقًـا، كان مـن المسـتحيل التعـوُّد عـلى هـذه الدرجـة مـن المعانـاة، رغـم أنـه عـانى نفـس الألم كل ليلـة، دون اسـتثناء لمـدة ثلاثـة أو أربعـة أشـهر كل عـام، في هـذا

الموسم لفترة طويلة جدًّا، عندما تفاقم الألم، لم يَعُد قادرًا على أن يفكر في أي شيء أبدًا، وسقط على ركبتيه.

كان يشعر أن المسمار الذي دخل رأسه يتحرَّك الآن نحو عينه اليمنى، في الأيام الأولى من مرضه، خدش وجهه بأظافر أصابعه لانتزاع وإزالة هذا المسمار الوهمي، وفي إحدى المرات كانت عيناه على وشك أن تبرزا، وكان قد تبوَّل عدَّة أيَّامٍ تَبوُّلًا لا إراديًّا، من الخوف والألم، وبدأ في تقييد يديه لتجنُّب الضرر الدائم في الرحلات الاستكشافية اللاحقة، على الأقل كان قد جعل عقله يعترف بأنه لم يَعُد هناك فائدة الآن، يمكنه أن يرفع يديه عن وجهه، وينتظر حتى ينتهي التعذيب من تلقاء نفسه.

اشتدَّ الألم عندما وصل المسمار الوهمي إلى العين، الآن شعر كما لو أن شخصًا ما قد استهدف عينه بآلة أظافر، ويقود المسامير ذهابًا وإيابًا هناك، حيث انهار، وصرخ، ولَكَمَ الأرض وصدره، وضرب رأسه بالحائط الذي كان يتَّكِئ عليه، وتدحرج دون وعي على الأرض، وبصق ونثر الشتائم الموجودة على لسانه، حوله، وكان قلبه ينبض بسرعة كبيرة، لدرجة أنه شعر وكأنه سينفجر بعد قليل، ومع ذلك، لم يكن يصرخ طالِبًا المساعدة، وكان يعلم أنه لن يأتي أحدٌ لمساعدته.

استمرَّ الألم قرابة الساعة، ولكن كالعادة، شعر كمال بأنه مدى الحياة، ثم انتهى الأمر تدريجيًّا، على مهل، كما بدأ، وعندما اختفت آخر ذَرَّة من الألم، استلقى الشاب ساكِنًا، ووجهه لأسفل على الأرض، ويتنفَّس بصعوبة كما لو كان قد عاد للتو من حافة الاختناق، كان غارقًا في العَرَق من رأسه حتى أخمص قدميه، وكان محيط عينه اليمنى أحمر على شكل حلقة، ومنتفخًا بشكل ملحوظ، كان يعلم أنه بعد بضع ساعات سيختفي هذا التورم والاحمرار، لكن الألم الذي عانى منه سيحمل الندوب على روحه طوال اليوم، والأسوأ من ذلك

كلـه، أن الأزمـة القادمـة سـتأتي قبـل أن يتمكَّـن مـن التغلُّـب عـلى آثـار مـا مـرَّ بـه.

بقـي عـلى هـذا الحـال لفـترة طويلـة، نوبـات الصـداع العنقـودي مرتـين في اليـوم، جعلـت حياتـه بائسـة في هـذا الوقـت مـن العـام، لم يكـن وقـت الزائـر واضحًـا عنـد الظهـيرة، لكنـه كان دائمًـا يَطـرُق بابـه في نفـس الوقـت في المسـاء، وبعـد أن اسـتردَّ بعـض القـوة، نهـض مـن الأرض وهـو يرتجـف، ومـشى بثبـات، ووصـل إلى أقـرب كـرسي، وألقـى نفسـه مثـل كتلـة صُلبـة عـلى وسـادة ناعمـة، لدقائـق جلـس كالميـت، دون أن يفكـر في أي شيء، وحتـى دون أن يُحـرِّك إصبعـه، ثـم أدار رأسـه بضجـر، ونظـر مـن النافـذة إلى السـيارات «الـبَر جوِّيَّـة» التـي تطـير في نقـاط بعيـدة، ومـا وراءهـا.

سـوف أذهـب إليهـا... سـأذهب إلى السـيدة جـول... سـأعرف مـا هـو العـرض... مـا الـذي يمكـن أن أخـسره؟ بحـق اللـه، مـاذا يمكـن أن يكـون أسـوأ مـن ذلـك؟ مـاذا لـو كان هنـاك احتـمال حقيقـي؟ مـاذا لـو كانـت تسـتطيع حقًّـا أن تنقـذني مـن هـذا الألم... حتـى إنـني أسـتطيع أن أقتـل شـخصًا مـن أجلهـا.

7

أخذ كمال نفَسًا عميقًا من الهواء البارد الذي لفح وجهه عندما صعد إلى السطح، لقد مرَّت بضع ساعات منذ أن اختفى الألم في عينه، وانحسر التورُّم من حوله بشكل كبير بفضل قالب الثلج الذي وضعه عليه، استراحت روحه من خلال الاستلقاء في آلة المحاكاة لمدة نصف ساعة، وتمشَّى بشكلٍ خيالي بجانب بحيرة في المساحات الخضراء والاستماع إلى الطيور، لا يزال يشعر بالتعب، توقَّف لبعض الوقت للاسترخاء، ولكي يستطع أن يفكِّر جيدًا، وغسل ذهنه بالهواء النقي، رفع رأسه، ونظر إلى الطوابق العليا من البرج الذي اخترقت السحب سقفه، إذا كانت الرياح تهبُّ بهذه القوة في الطابق الثمانين، فمَن يدري أي نوع من العاصفة كانت تثور في الطوابق الأعلى؟ كان يتردَّد على شُقَق العملاء الأثرياء الموجودة بالقرب من القمة، ولكنه كان يصل إليها دائمًا بواسطة المصاعد فائقة السرعة، ولم يتمكَّن من العثور على مكان لسيارته لأن سطح الأثرياء كان مليئًا بأحدث

طـرازات السـيارات «الـبر جويـة» الخاصـة بهـم وعائلاتهـم، كان يجـب أن يكـون مهندسـو المدينـة لديهـم بُعـدُ نَظَـر، وكان يجـب عليهـم أن يجعلـوا أسـطح مواقـف السـيارات أوسـع، حسـنًا، ربمـا اقترحـوا ذلـك، لكـن مديـري الـبرج الضخـم تجاهلـوه، حتـى تتمكَّـن مواقـف السـيارات، التـي تقـع في الطابـق العشريـن، مـن جنـي الأمـوال.

في العـام المـاضي، أعطـاه صاحـب مصنـع كبـير للروبوتـات شـيئًا ضخـمًا لمراقبـة زوجتـه الشـابة، التـي كان يشـكُّ في خيانتهـا، كان الرجـل عـلى حـق، حتـى إن المـرأة كان لديهـا عـشرات العُشَّـاق، وليـس واحـدًا فقـط، ولكـن حقيقـة أن أيًّـا منهـم لم يكـن بـشرًا كان يزيـد الوضـع تعقيـدًا، وعندمـا أثبـت بالصـور أن زوجتـه كانـت ميكاڤيلِّيَّـة، وأنهـا مارَسَـت الجنـس مـع كل جهـاز ميكانيـكي كان يـروق لهـا، مـن الروبوتـات إلى السـيارات «الـبَر جوِّيَّـة»، لم يَقُـم رجُـلُ الأعـمال المحافـظ بتطليقهـا فحسـب، بـل أعطـى كـمال أيضًـا سـيارة «بَـرّ جوِّيَّـة» جديـدة في مقابـل التَّسـتُّر عـلى هـذه الفضيحـة، وعـدم تسريبهـا لأي شـخص؛ لـذا فبـدلًا مـن السـيارة «الـبر جويـة» القديمـة المخضرمـة التـي اشـتراها مسـتعملة منـذ عـشر سـنوات، كانـت هنـاك الآن سـيارة ڤولڤـو مُذهِلَـة، مُـزوَّدة بأحـدث مـراوح چـنرال موتـورز موجـودة عـلى السـطح، إذا حـاول شراءهـا بالمـال، فسـيتعيَّن عليـه دفـع كل مـا يدَّخـره طـوال حياتـه، مـن أجـل أقسـاط هـذه السـيارة.

قـام بتوصيـل الشاشـة الموجـودة في يـده بكمبيوتـر السـيارة، وسـجَّل العنـوان الـذي سـوف يذهـب إليـه عـلى النظـام، في الواقـع، لم يكـن سـائق طيـار سـيئًا عـلى الإطـلاق، كان بإمكانـه الطـيران بسـهولة حتـى الـبرج الأحمـر، حيـث يوجـد مكتـب السـيدة جـول، لكنـه كان يشـعر باحتياجـه عاجـلًا أو آجِـلًا إلى طيَّـارٍ آليٍّ للهبـوط بأمـان عـلى سـطح الطابـق الصحيـح.

تـمَّ فصـل الأجنحـة التـي تحمـل المـراوح الرأسـية عـن فتحاتهـا عـلى جوانـب السـيارة «الـبر جوِّيَّـة» بضغطـة زر، وكلـما تكشَّـفَت ثناياهـا،

تمـدَّدَت بشـكل أطـول وأعـلى، وعندمـا بـدأت المروحـة الكبـيرة الموجـودة في الجـزء الخلفـي مـن السـيارة في الـدوران، تحرَّكَـت ڤولڤـو ببـطء إلى الأمـام، وعندمـا وصَلَـت إلى منطقـة الإقـلاع في السـطح، ضغـط كـمال عـلى زرٍّ جديـد، وقـام بتشـغيل المـراوح العموديـة، وبعـد ثـوانٍ قليلـة، رُفِعَـت عجـلات السـيارة «الـبر جويـة» عـن الأرض، ومـع إمالـة المـراوح قليـلًا للأمـام، بـدأت في التحليـق إلى الأمـام.

كانـت هنـاك حركـة مـرور كثيفـة للغايـة في السـماء اليـوم، وكان الأشـخاص الذيـن تـمَّ حبسـهم في منازلهـم، بسـبب الأمطـار الغزيـرة الأسـبوع الماضي قـد انتهـزوا الفرصـة وخرجـوا للاسـتمتاع بجـمال الطقـس، تومـض عينـا كـمال للحظـة عـلى النظـارة الإليكترونيـة الموجودة في مقبسـها بجـوار عجلـة القيـادة مبـاشرة، حيـث يـؤدِّي ارتـداؤه لتلـك النظـارة أثنـاء تحليـق هـذه السـيارة إلى تقليـل خطـر وقـوع حـادثٍ إلى الصفـر تقريبًـا، بطريقـة مـا كانـت ڤولڤـو تـرى مـا أمامهـا مـن خـلال عينيهـا، وتقـوم بتعديـل سرعتهـا وزاويـة طيرانهـا لتقليـل المخاطـر، لكنـه لم يجـرؤ عـلى ارتـداء النظـارة الإلكترونيـة لأنهـا سـتجهد عينيـه، كـما لـو كان يشـاهد فيلـمًا ثـلاثيَّ الأبعـاد، كان مـن الأفضـل الابتعـاد عـن أي شيء قـد يتسـبَّب في صداعـه مـرة أخـرى، وعـلاوة عـلى ذلـك، بعـد تـرك حركـة المـرور في هـذا الجـزء مـن المدينـة، لـن يكـون هنـاك زحـام كبـير في الهـواء حتـى الـبرج الأحمـر، كان يكفـي أن يزيـد مـن انتباهـه قليـلًا لطـيران سَـلِس.

نقـر عـلى زر الهاتـف الموجـود عـلى عجلـة القيـادة، هاتَـفَ أوَّلَ رقـم مـن الأرقـام المسـجَّلة، بعـد أربـع دَقَّـاتِ رنـين مزعجـة، سُـمع صـوتٌ غاضـب لامـرأة شـابة، قائلـة:

«في الوقـت المحـدد! في الوقـت المناسـب كالعـادة! قبـل بضـع ثـوانٍ، كنـتُ عـلى وشـك ابتـكار اخـتراع مـن شـأنه أن يغـيِّر العـالم، لكـن السـيد كـمال صديقنـا، بتوقيتـه المثـالي، منعنـي مـن الدخـول في التاريـخ مـرة

أخـرى! هـل وضعـت كامـيرا أو شـيئًا مـا في مسـتودعي يـا عزيـزي؟ هـل تفعـل ذلـك عـن قصـد؟ يقـول الشـيطان لا تـرُدِّي عـلى هاتـف ذلـك الرجل اللعـين، دعيـه يـرِنُّ حتـى ينفلـق، حتـى ضعيـه في قائمـة المرفوضـين، بحيـث لا يتمكَّـن مـن الوصـول إليـكِ!».

سـخر كـمال، قائـلًا: «يبـدو أنَّـكِ نَهَضـتِ في الجانـب الخطـأ مـرة أخـرى، يـا أوقيانـوس... آسـف، لم أكـن أعلـم أنـكِ حريصـة جـدًّا عـلى تغيـير العـالم! لا تجعـلي الأشـياء تذهـب سُـدًى كـما كان مـن قبـل! ليتـكِ لم تتكلَّمـي بـدلًا مـن الحديـث كثـيرًا، يـا عزيـزتي، هـل وضعنا مسدسًـا في رأسـك؟».

بينـما كان كـمال يبتسـم بسـعادة، كان يشـاهد شـاحنة «بَـرّ جوِّيَّـة» تطـير بالقـرب منـه، كانـت مَركَبـةً ضخمـة بثـماني مـراوح، ولهـا عجـلات من أجـل الأرض، وكان مكتوبًـا عـلى جسـمها الأزرق الداكـن «دمـير أوغلـو»، بأحـرف ضخمـة ولامعـة، كان يعتقـد أنـه مـن الأفضـل أن يرتفـع قليـلًا لتجنُّـب هـذه السـيارة الكبـيرة، وسـحب عجلـة القيـادة نحـوه، وارتفـع.

قالـت: «انظـر إلى المغـرور! انظـر إلى المغـرور! لقـد كِـدتَ أن تمـوت عندمـا لم ألتقـط هاتفـك للمـرة الأخـيرة، كـم نسـيتَ ذلـك بسرعـة! لقـد أخرجتُـكَ مـن القـبر! انتظـر، دعنـي أُذكِّـرْكَ بمَهمَّتِـك السـابقة! كنـتَ بالـكاد تمسـك بإطـار خشـبي حتـى لا تسـقط في بِركـةٍ مـن النفايـات السـامة، لقـد أنقـذتُ مُؤخِّرتَـكَ القبيحـة في اللحظـة الأخـيرة! دعنـا نتكلـم بصراحـة دون إطالـة، مـا نـوع المشـكلة التـي تواجههـا هـذه المـرة؟ يجـب أن يكـون هنـاك مُـبرِّر قـوي لإعاقـة عمـلي، الـذي يسـتحق جائـزة «كيتـارو»!».

أصبـح صـوت المـرأة الشـابة هادئًـا، وكانـت تتمتـم وكأنهـا تتحـدَّث إلى نفسـها، وقالـت:

«الـشيء الوحيـد الأسـوأ مـن عـدم وجـود أصدقـاء هـو أن يكـون لديـك صديـق! كلمـة حسـين جوربـوز إنـه ليـس أنبوبًـا! إنـه سِـكِّير، لكنـه شـاعر حكيم!».

ابتسم كمال، لقد استمتعوا كثيراً باختيار هذا الخَطِّ المُشفَّر مع أوقيانوس، إذا كان لديه مسدس على رقبته عندما اتَّصَلَت به، أو إذا كان في أيدي أعدائه، فيجب على حسين جوربوز أن يَرُدَّ بسَطرٍ آخر في هذه المرحلة، بعد ذلك، ستستمع أوقيانوس إلى ما سيقوله لاحقًا بهذا الإدراك، وتتحدَّث وفقًا لذلك، كان يتمنى ألَّا يحتاج أبدًا إلى نظام الإنذار هذا الذي أقاموه حفاظًا على سلامتهم.

«كل شيء على ما يرام، يا أوقيانوس، يمكنك ترك اللعبة، حوض تجمع مليء بالنفايات السامة! كان ذلك مبدعًا جدًّا! لا يوجد أي خطر، أنا آمِنٌ تمامًا، أنا ذاهب إلى مقابلة عميل جديد، إنها حالة مُعقَّدة لا يمكنني التعامل معها بمفردي... هل يمكنني المرور عليكِ، إذا كان ذلك مناسبًا لكِ اليوم؟ هل أنت مستعدَّة للعمل معي مرة أخرى؟».

كان هناك صمتٌ قصير على الطرف الآخر من الهاتف، ثم سمع صوت الفتاة المتردِّد اللين.

«كنتُ أعتقد أنك لم تكن تعمل هذه الأشهر... لدرجة أنَّكَ لم تغادر المنزل دون داعٍ؟ بسبب مرضك المثير... ما الذي يحدث يا كمال؟ كيف يمكنك العمل في القضية بالطريقة التي أنتَ عليها؟ ماذا لو كان لديكَ أزمة غير مُتوقَّعة في الخارج؟ هل أنت واثق من أنَّكَ بأمان؟».

توقَّف كمال للحظة، وهو يمر بسيارته «البَرّ جوِّيَّة» من بين منطادين متجاورين مخصَّصَيْن للإعلانات، مُرَكِّزًا انتباهه على الطيران، ثم أجاب بصوتٍ هادئ، قائلًا:

«سأخبركِ بكل شيء، تحَلَّيْ ببعض الصبر من فضلك، أوَّلًا، أحتاج إلى مقابلة هذا العميل، والتحدُّث إليه بالتفصيل، إذا أخذتُ القضية، هل ستساعدينني، هل لديك عمل لا يمكنك تركه؟ سيكون من الأفضل إذا

علمتُ ذلك قبل أن أَعِدَكِ بشيء، سأحتاج لك ولمهاراتك لحل هذه القضية».

قالت المرأة بصوت صادق: «إذا كان ذلك يعني لك الكثير...»، كان يروق لها شعور كمال بأنه بحاجة إليها، انتشر دفءٌ في قلبها.

«بالطبع سأبذل قصارى جهدي للمساعدة، متى خذَلتُكَ؟ كان لديَّ عَددٌ قليل من المهام الصغيرة، لكننا سنهتم بها، تعال عندما تكون متاحًا، ولنتحدث».

شعر كمال بأنه محظوظ لوجود مثل هذه الصديقة على الرغم من كل المصاعب والألم الذي مرَّ به، إن وجود شخص ما سيكون بجانبه في كل الظروف يُعَدُّ أمرًا مريحًا، وضغط على الزر لإنهاء المكالمة.

وقال: «شكرًا لك يا أوقيانوس، لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل بدونكِ... أكملي هذا الاختراع الذي سيُغيِّر العالم بحلول المساء، على الأقل دعينا نختبره عندما أصل، أنا متأكِّدٌ من أنك قُمتِ بعمل رائع مرة أخرى».

قالت المرأة: «سأنتظر بالتأكيد عندما ينتهي اجتماعك، سيكون من الجيد بالنسبة لي أن أراك أيضًا، لقد اشتقتُ إليك، لم أرَ وَجهًا بشريًّا واحدًا منذ شهور، أخبِرني قليلًا عمًّا يحدث في المدينة».

ضحك كمال، قائلًا: «لا يوجد شيء تفتقدينه، ومع ذلك، سأخبرك بكل ما تريدين، بالطبع، أراكم قريبًا، لا تقومي بأي حماقة حتى آتي!».

بعد إغلاق الهاتف، نظر إلى السماء أمامه وهو سعيد، لفترة من الوقت، كان معتادًا على طريقة تَحَدُّث أوقيانوس التي تسخر من كل شيء في الحياة، يجب أن تكون مُمتَنًّا لذلك، مع الأخذ في الاعتبار أنها لم

تخرج من منزلها إلا إذا اضطرَّت إلى ذلك، وأنها لم تتحدث وجهًا لوجه مع أي شخص، غير كمال، لقد فكَّر في تلك الأيام الممتعة عندما كانت الفتاة الصغيرة تصبح جزءًا من حياته ببطء، بعد أن أدرَكَت عائلة أوقيانوس أن ابنتهم كانت موهوبة، لكنها أيضًا ضعيفة في المهارات الاجتماعية وهَشَّة الروح، أصبحت العائلة مهووسة بحمايتها من العالم الخارجي، ولم تغادر أوقيانوس المنزل ليوم واحد حتى سِنٍّ السابعة عشرة، وتلقَّت تعليمها من مُعلِّمين افتراضيين، وقضت كل وقتها مع الكتب والدراسات العلمية، ولم يكن لديها أصدقاء سوى الخَدَم الآليين، ولم تشكُ من ذلك مطلقًا، لقد كانت طفلة سعيدة، ولديها عائلة مُحِبَّة تعاملها دائمًا بتفَهُّم ورحمة، لقد أنشؤوا جَنَّةً افتراضية حيث شعروا بالهدوء في منزلهم الكبير والواسع، واعتقد والدها أنها ستحقق اكتشافات من شأنها أن تُغيِّر العالم عندما تكبر، وأنها ستكون شخصًا مُهمًّا للغاية، وكان يؤمن من كل قلبه أنها يجب أن تبتعد عن أي شيء من شأنه أن يصرف انتباهها عن عملها، حتى تلك اللحظة، فقدت الفتاة التي كانت تتواصل فقط مع أسرتها والأطباء الذين كانوا يزورونها من حين لآخر، والتي لم تعرف الحياة خلف الباب على الإطلاق والديها وذراعها وساقها في الحريق الذي اندلع في منزلهم، وسقَطَت في ظلام يصعب وصفه، عندما تُرِكَت وحيدة في العالم كله بنصف جسد، في دار الأيتام حيث واصَلَت حياتها، ظلَّت دائمًا بعيدة عن الناس، وكرَّسَت كل وقتها للروبوتات وبرامج الكمبيوتر، وخلقت عالمًا آمِنًا، ولكن مقفرًا، يمكن التنبُّؤ به كآلة.

عندما ناشدها كمال في قضية ما، تألفت محادثتهما الأولية من بضع كلمات بنعم ولا، وأصرت أوقيانوس على إجراء جميع مقابلاتها عبر الإنترنت، كما فعلت مع عملائها الآخرين، وعندما تعقَّدَت الأمور، واضطرَّا للالتقاء، أدرك كمال على الفور كيف كان ينساق مع التيار عندما كان يتحدَّث وجهًا لوجه مع شخص ما، لم يجد الشاب صعوبة

في إدراك أن هـذه الفتـاة كانـت تعـاني مـن آلامٍ تُميِّزهـا عـن أي شـخص آخـر، تمامًـا كـما كان يعـاني مـن صـداعٍ غـير عـادي، لم يكـن مـن السـهل عليـه تكويـن صداقـات معهـا، ولكـن بعـد أن وثقَـت بـه أوقيانـوس، ارتبطا ببعضهـما البعـض أكـثر مـمَّا توَقَّعَـا، جهـود كـمال للتقـرُّب منهـا أكـثر مـن أي شـخص آخـر، وقبولـه كـما هـو، وعـدم قدرتـه عـلى مغـادرة المنـزل مثلهـا خـلال الأشـهر التـي كان يعـاني فيهـا مـن الصـداع العنقـودي- جعـل للفتـاة مكانـةً خاصـة في قلبـه، الآن كانـا يطرقـان بـاب بعضهـما البعـض براحـة؛ لعلمهـما أنهـما كلَّـما كانـا في مـأزق لـن يتِـمَّ رفضهـما أو الحكـم عليهـما.

انخفـض عـدد السـيارات «البر جويـة» ومناطيـد الإعلانـات بشـكل ملحـوظ، مـع خـروج ڤولڤـو مـن الـبرج العمـلاق، كان وزن المبـاني التـي يزيـد ارتفاعهـا عـن ألـف مـتر متناسـبًا مـع حجمهـا، ولم تسـتطع الأرض تحمُّـل مثـل هـذا الحمـل في معظـم النقـاط وانهـارت، وهـذا هـو السـبب في أن المهندسـين المعماريـين في المدينـة جعلـوا أكـبر عـدد مُمكِـن مـن الأبـراج العملاقـة في هـذه المنطقـة، حيـث وجـدوا الأرض صُلبـةً بدرجـة كافيـة، بالطبـع، كانـت حقيقـة أن الأغنيـاء يريـدون العيـش بالقـرب مـن بعضهـم البعـض أحـد الأسـباب المهمـة لذلـك.

وبينـما كان يطـير بهـدوء في السـماء الفارغـة أمامـه، لم يسـتطع التخلُّص مـن الفضـول الـذي كان يتملَّكـه، وقـام بتشـغيل الكامـيرا الموجـودة أسـفل السـيارة، لم يهبـط عـلى الأرض لفـترة طويلـة، ولم يعتقـد أن شـيئًا قـد تغـيَّر هنـاك، لكنـه أراد أن يراهـا بـأُمِّ عينيـه.

لا يمكـن تمييـز التفاصيـل مـن هـذا الارتفـاع، لكـن الحشـد في المدينـة بـدا أكـثر مـن آخـر مـرة شـاهده، والطـرق التـي اتَّسَـعَت بابتـلاع كل المتنزَّهـات والحدائـق وبِـرَك الميـاه في المـاضي، كانـت مزدحمـة بعـدد لا يحـصى مـن السـيارات والشـاحنات والحافـلات التـي لا يمكـن أن تـترك

سـوى أمتـار قليلـة بينهـا، لـن يكـون مـن الممكـن السـير بـأسرع مـن عـشرة كيلومـترات في السـاعة في المدينـة إلا في وقـت متأخِّـر مـن الليـل، حتـى المـشي عـلى الأرصفـة سـيتحوَّل إلى صراع كبـير.

عندمـا أعيـد بنـاء آيـا صوفيـا وجامـع السـليمانية، اللذيـن دُمِّـر معظمهـما في إحـدى الحـروب الأهليـة، وفقًـا لأصولهـما الأصليـة، تـمَّ وضعهـما عـلى منصَّـاتٍ فولاذيـة تُدعِّمهـا أعمـدة يبلـغ ارتفاعهـا مئـات الأمتـار، وهكـذا، تمَّـت زيـادة مستوى الأمـن لديهـما، وتـم إنشـاء طـرق جديـدة بـين الأعمـدة، كان مـن المأمـول أن تُخفِّـف حركـة المـرور في تلـك المنطقـة قليـلًا، وأولئـك الذيـن أرادوا الصـلاة يمكنهـم الوصـول إلى هـذه المنصَّـات العاليـة بواسـطة المصاعـد الموجـودة عـلى الأعمـدة، وتـمَّ رفـع معظـم الهيـاكل التاريخيـة ذات القاعـدة العريضـة فـوق الأرض بنفـس الطريقـة عـلى مَـرِّ السـنين.

عنـد النظـر مـن هـذه المسـافة، بـدا أن حشـود النـاس المنتظريـن في محطـات المـترو والحافـلات السريعـة متشـابكة، وعندمـا زادت المعـارك المميتـة في المحطـات، تَـمَّ إدخـال نظـام الترقيـم منـذ سـنوات، ولم يكـن بإمـكان غالبيـة المنتظريـن ركـوب مركبـة إلا بعـد عـشر حافـلات سريعـة أو أكـثر، ومـع ذلـك، إذا غـادروا المحطـة، فإنهـم ينتظـرون مكانهـم، خائفـين مـن ألَّا يتمكَّنـوا مـن العـودة في هـذا الاضطـراب، تمَّـت الإشـادة بالتطـوُّرات في مركبـات النقـل في دروس تاريـخ التكنولوچيـا، ولكـن حتـى هـذه التطـوُّرات لم تكـن كافيـة للتعامـل مـع النمـو السـكاني في المدينـة، وأدَّى التَّـسرُّب مـن إحـدى محطَّتَـيْ الطاقـة النوويـة اللتـين تـم بناؤهـما لتلبيـة احتياجـات الطاقـة المتزايـدة في اسـطنبول وجعـل جـزء كبـير مـن المدينـة غـير صالـح للسـكن، إلى تضييـق المناطـق السـكنية غـير الملائمـة بالفعـل، ومـع ذلـك، فـإن المبـاني، التـي لا يزيـد معظمهـا عـن عشريـن طابقًـا، تـمَّ بناؤهـا بجـودة يمكـن للنـاس العاديـين دفـع ثمنهـا، وقـد تـمَّ

بناؤها بالقرب من بعضها البعض لدرجة أنه لم يكن هناك طريق للمرور بينها في بعض الأحياء.

في البداية، أنشأ المهندسون المعماريون والمختَرِعون العديد من المشاريع لجعل اسطنبول أكثر مُلاءمةً للعيش، وتم تنظيم مسابقات لهذا الغرض، ومع ذلك، عندما بَدَت الحلول الدائمة مستحيلة أو باهظة الثمن، أنشأ رجال الدولة والأثرياء مدنًا عمودية أطلقوا عليها الأبراج الضخمة، ولم يكن الاستثمار في المشاريع التي يمكن أن يستخدمها الجمهور بنفس القدر من قبل، بينما كانت تتطوَّر تقنية السيارات «البر جوِّيَّة» كل عام، كان يتم استخدام نفس الحافلات السريعة على الأرض لعدَّة قرون، بالطبع، لم يتم ذِكرُ هذا مطلقًا في دروس تاريخ التكنولوچيا أو في أي وسيلة رسمية أخرى، فقد اتُّهم هؤلاء بتسميم المجتمع، وسرعان ما اختفوا، ولم يُذكَر أي خبر عنهم مرة أخرى، إذا لم يكن لدى كمال الفرصة للقاء ميليشيات حركة المساواة في اسطنبول، والتعرف على الماضي من مصادر مختلفة، لكان قد اعتبر أن مثل هذه الأفكار تُعَدُّ مُغالطات ومؤامرات القوى الأجنبية التي تحاول تعطيل النظام والسلام في اسطنبول.

عندما أفسد المشهد أدناه مزاجَه المُحبَط بالفعل، قام بالضغط على زر إيقاف تشغيل الكاميرا، وتحوَّلَت الشاشة الصغيرة الموجودة في وسط عجلة القيادة إلى اللون الأسود، وتمَّ استبدال صورة المدينة بشعار ڤولڤو الأحمر، وتحت الشعار، كان عَلَم جمهورية مدينة شنغهاي المبرقش، يومض، وينطفئ، ويغمز بفخر كما لو كنَّا قد صنعنا هذه السيارة الأنيقة المظهر.

وعندما أدارت السيارة «البر جوية» مُقدِّمتها إلى الشمال، كان البرج الأحمر المدهش، الذي يرتفع ويدقق في السحب مرئيًّا من بعيد، ممَّا لا شك فيه أنه كان الأكثر جمالية من الأبراج الضخمة

في اسطنبول، وكان له نفس الهندسة المعمارية تمامًا مثل إخوانه في جمهوريات نيويورك ولندن، ولونه الأحمر، الذي يصبح أكثر قتامة مع ارتفاعه، قد جعل المبنى يبدو كما لو كان مشتعلًا عند شروق الشمس، وكان مكانًا للعيش مُفضَّلًا بشكل خاص من قِبَل المطربين المشهورين، وصانعي الأفلام والأثرياء الذين يحبون الحياة البوهيمية، كانت الحفلات المجنونة تُقام كل ليلة في النوادي الليلية في الطوابق العليا، وكانت السيارات «البر جوية» تطير إلى هنا أفواجًا من الأبراج العملاقة الأخرى عندما يحِلُّ الظلام، ولكنها كانت لا تزال هادئة.

عندما اقتربت ڤولڤو بقدرٍ كافٍ من العنوان المحفوظ في ذاكرتها، سيطر عليها لضمان هبوط آمن، وكانت عجلة القيادة مقفلة، وظهر حولها ضوء تحذير أزرق، وانحنى كمال، الذي كان يعلم أن كل ما عليه فعله الآن هو الانتظار، إلى الوراء، وتأمُّل جمال المبنى الهائل، الذي كانت تفاصيله تظهر بشكل أكثر وضوحًا، مع تضييق المسافة الموجودة بينهما.

بعد ثوانٍ قليلة، دوَّى صوتٌ معدني مرتفع داخل السيارة، كان من السهل فهم أن هذا الصوت ليس صوت إنسان:

«ڤولڤو مع لوحة ترخيص 114TKHR، هذا هو أمن مبنى البرج الأحمر، يُرجَى تقديم نفسك، نرجو منك عدم المضيِّ قُدُمًا قبل أن تتمَّ الموافقة على الاقتراب من البرج، خلاف ذلك، سيتم إطلاق النار، من واجبنا ضمان سلامتك».

عندما أتى الطيار الآلي للتحكُّم في المسافة، كان قد أوقف السيارة بالفعل في الهواء وفقًا للإجراء المتَّبع في نظامه، وفحص الكمبيوتر الأمني للمبنى أوَّلًا ما إذا كان هناك تحذير أمان حول السيارة في إعلانات الشرطة، من عدمه، ثم تمَّ توصيله بالكاميرا الداخلية، وفحص مقعد السائق ومقاعد الركاب، ونظر بواسطة الأشعَّة السينية

المضخِّمة، للبحث عن وجود قنبلة موجودة في السيارة «البر جوية» أو نظام سلاح مختلف، من عدمه، وتبعًا للتعليمات الموجودة على عجلة القيادة، حدَّق كمال في الكاميرا، وظلَّ ساكنًا حتى انتهاء فحص قزحية العين، وبعد الانتهاء من جميع عمليات التفتيش التي يمكنه القيام بها على هذه المسافة، سأل الكمبيوتر كمال بأدب، قائلًا:

«لمن أتيتَ؟».

قال كمال: «ألماس للخدمات الصحية، لديَّ موعد مع السيدة جول، هلَّا قُلتَ لها إن السيد كمال قد وصل».

أجابه الكمبيوتر، قائلًا: «زيارتُكَ مُسجَّلة لدينا، يا سيد كمال، لقد كُنَّا بانتظارك، مرحبًا بكم في البرج الأحمر، ونتمنى لكم هبوطًا آمنًا، لجميع احتياجاتك يمكنك الوصول إلى إدارة المبنى من خلال قناة الاتصال برقم أربعة، رمز إنذار الطوارئ هو ستة- ثلاثة- ثمانية».

استدارت إحدى المدفعيات المضادة للطائرات ذات الأربع فوهات مُوجَّهة نحو السيارة «البر جوية» في هذا الاتجاه، من أجل تَفَقُّد مركبة أخرى تقترب، لكن كمال كان يعلم أن المدفع الآخر سيتتبَّع كلَّ حركاته حتى تهبط ڤولڤو بهدوء على السطح، لقد اعتاد على نظام الأمان القياسي هذا، مثل كل من يعيش في الأبراج الضخمة.

بعد وضع العجلات على السطح الواسع والمزَيَّن بالزهور الاصطناعية، انطلق كمال متحمِّسًا للعثور على إجابات لأسئلته في أسرع وقت ممكن، وعندما شاهد الابتسامة الضخمة على وجه السيدة جول، التي كانت تسير نحو السيارة «البر جوية» مع حرَّاسها خلفها، شعر بعدم الارتياح، رغمًا عنه، وكان الأمر كما لو أن المرأة كانت سعيدة بمجيئه إلى هنا، وكأنها انتصرت.

قالت: «مرحبًا سيد كمال، كنت سأحضر عشاء عمل مُهمًا الليلة، ولكن عندما أخبرني مساعدي بأنك قادم لزيارتي، ألغيت جميع

خُطَطي، ولم أرغب في تفويت فرصة التحدُّث إليكم مرة أخرى، أتمنى أن تكون قد استمتعت برحلة مريحة، تبدو السماء مزدحمة جدًّا اليوم».

قال الشاب بقلق: «شكرًا لكِ»، أثناء مروره من السطح إلى الشقة، أدرك أن الكاميرات الموجودة فوق الباب كانت تتعقَّب وتُسجِّل كل خطواته.

«نعم، كانت حركة المرور مزدحمة بعض الشيء، لقد كانت كذلك مؤخَّرًا، لن أمكث فترة طويلة لديكِ، ربما يمكنك حضور ذلك العشاء الذي تتحدَّثين عنه».

قالت المرأة: «لا يهم، يا سيد كمال، الأمر ثانوي بالنسبة لي الآن، ما حدث لزينب وعائلتها صدمني كثيرًا، لن أتمكَّن من تكريس نفسي لأبحاثي حتى يتمَّ حَلُّ مشكلة هذه الحادثة، أنا أفكر في الأمر طوال الوقت، ولا أستطيع النوم في الليل، يجب أن ينال قَتَلَتُهم العقوبة التي يستحقونها، من أجل إغلاق هذا الحادث في ذهني، وأتمنى أن تكون قد قرَّرتَ قبول عرضي بعد أن فكَّرتَ فيه».

قال كمال: «في الواقع، لقد جئتُ للحصول على بعض المعلومات حول العلاج الجديد الذي كنتِ تتحدَّثين عنه. كنتِ قد قلتِ إنه يمكنكِ العثور على علاج لمرضي، أوَّلًا وقبل كل شيء أريد أن أتحدَّث عنه، ربما يمكننا إيجاد حلٍّ وَسَط يجعل كِلَينا سعيدين، إذا كان ما تقولينه صحيحًا، فأنا على استعداد لدفع ثمن باهظ لك، كما تعلمين، أنا أكسب جيدًا، ولن أبخل بأي نفقات للتخلُّص من هذه الآلام».

وقفت السيدة جول في منتصف الشقة التي تفوح منها رائحة الثراء الشديد، والمجهَّزة بأثاث أنيق للغاية وباهظ الثمن، مع أعمال ثلاثية الأبعاد لفنانين رسامين مشهورين بالكمبيوتر مُعلَّقة على الجدران،

ونظـرت إلى كـمال نظـرة شـفقة، ثـم اسـتبدلت تلـك النظـرة بنظـرة ودٍّ وتفاهُـم.

«كانـت أزمـة اليـوم قاسـية جـدًّا، أليـس كذلـك؟ لا يـزال بإمـكاني تمييـز التـورُّم حـول عينيـك، أعتقـد أنـك وضَعـتَ الثلـج عليـه، لكنـه لم يكـن كافيًـا، لا بُـدَّ أن يكـون مـا مـرَرتَ بـه مـن الصعـب تحمُّلـه...».

هـزَّ كـمال كتفيـه، وهـو في حالـة عجـز، قائـلًا: «بعـض الأيـام عـلى هـذا النحو».

قالـت السـيدة جـول، وهـي تشـير إلى كـرسي جلـدي ضخـم: «مـن فضلـك اجلـس، يـا سـيد كـمال، هـذه قضايـا حسَّاسـة، دعنـا لا نتـسرع، أنـا واثقـة مـن أننـا سـنتفاهم عاجِـلًا أم آجـلًا، كلانـا بحاجـة إلى المسـاعدة، نحتـاج فقـط إلى التعـرُّف عـلى بعضنـا البعـض بشـكل أفضـل».

لم يعـترض الشـاب، فاحتـمال أن تتمكـن المـرأة مـن علاجـه جعـل قلبـه يرتجـف، مهـما حـاول جاهِـدًا لإخفائـه، ومـن أجـل أن يكـون قـادرًا عـلى التفـاوض، قـال في البدايـة إنـه لـن يبخـل بـأي نفقـات، في الواقـع كان سـيُقدِّم أي شيء لديـه لتجنُّـب التعـرُّض لهـذا الألم مـرة أخـرى.

قـدَّم روبـوت منـزلي اقـترب بصمـت عـلى عجلاتـه الكرويـة الثمانيـة قهـوةً تركيـة ذات رغـوة إلى كـمال، وعندمـا تـذوَّق الشـاب القهـوة، أدرك أنهـا حلـوة بالطريقـة التـي أحبَّهـا، حقيقـة أن السـيدة جـول قـد قامـت بإجـراء تحرِّيـات عنـه، لدرجـة أنهـا عرفـت عاداتـه وأذواقـه، كان أمـرًا مرعبًـا بالنسـبة لـه، ولهـذا السـبب لم يتنـاول الحبـوب بنكهـة الملـبن التـي أحضرهـا الروبـوت مـع القهـوة، عـلى الرغـم مـن أنـه يحـب ذلـك في العـادة.

ابتسمت المرأة، ونظرت مباشرة في عينيه، وقالت:

«بادئ ذي بدء، أشكرك مرة أخرى على حضورك إلى هنا، أنا سعيدة لأنك تثق بي، قبل كل شيء، دعنا نوضِّح شيئًا واحدًا، للأسف، ليس لدينا منتج في مركزنا يمكنك شراؤه بالمال، بصراحة، إذا كنتَ تعمل بلا توقُّف طوال حياتك، وإذا ادَّخَرتَ كل قرش تكسبه، فلا يمكنك تحمُّل تكاليف الأدوية التي ننتجها، نحن لا نصنع حبوبًا أو شَرابًا يا سيد كمال، ألماس للخدمات الصحية تعمل على طُرُق علاج مختلفة جدًّا، نحن نصنع أدوية أغلى ممَّا تَتخيَّل، ومتاحة فقط للأثرياء في العالم».

تحرَّك كمال بعصبية في مقعده، وبدأ يتساءل إلى أين تتجه المحادثة:

«لم أسمع عنك من قبل، لا يوجد مقال صحفي ولا شائعة عنك، إذا كنتِ تقومين بمثل هذا العمل المهم، فكيف يمكنك البقاء سرًّا بهذا الشكل؟».

استقبَلَت المرأةُ الشَّكَّ الموجود في صوت الشاب بتفهُّم، وأجابت بابتسامة لطيفة، قائلة: «لن يسمعنا إلا مَن هم أثرياء بما يكفي لدفع أجورنا، عملاؤنا يأخذون الخصوصية على محمل الجد، لدينا أربع منشآت فقط في جميع أنحاء العالم، إحداها في اسطنبول، لا أستطيع أن أخبرك عن مكان المنشآت الأخرى، نصل إلى الأشخاص بالملف الشخصي المناسب، ونُروِّج لمنتجاتنا، أما الآخرون فيجدوننا من خلال عُمَلائنا الحاليين، ويقوم أكثر الأشخاص ثراء في العالم بتمويل أعمالنا وأبحاثنا الطبية، ونحن نضمن أنهم وعائلاتهم يعيشون حياة أكثر صِحَّةً وسعادة من الناس العاديين، لسنوات عديدة قادمة، يمكنك أن تقول عنَّا إننا مركز بحوث طبية حديث، تم إنشاؤه بالاشتراك مع النخبة».

وضع كمال فنجان القهوة على الصينية التي مدَّها روبوت المنزل الذي جاء بجانبه، وأخذ كأس الصودا وشربه في جرعة واحدة.

وابتسم قائلًا: «كأنني أستمع إلى قصة من الخيال العلمي! من الصعب جدًّا تصديق ما تقولينه؛ لذا، حتى لو كان كل هذا صحيحًا، فما علاقة هذا بمرضي؟ الصداع العنقودي مرَضٌ لم يُعرف سببه بعد، ولم يتمكَّن أحدٌ من إيجاد علاج له لعدة قرون، أنا متأكِّد؛ لأنني بحثت في هذا طوال حياتي، ليس فقط في اسطنبول، ولكن أيضًا في جمهوريات المدن الأخرى، سافرتُ حول العالم من أجل هذه المشكلة، لسنوات، والتقيتُ بعدد لا يُحصَى من الأطباء ومراكز العلاج، هل تدَّعين أنكِ وجدتِ حلًّا دائمًا؟».

قالت السيدة جول: «إذا كان الصداع العنقودي مرضًا شائعًا جدًّا، فكُنْ واثقًا من أنه يوجد علاج بسيط له، يمكن أن يتوصَّل الناس إليه، وللأسف، فإنه مرض نادر جدًّا، لدرجة أنه لم يكن أبدًا له أولوية بالنسبة للمجتمع، ولم تستثمر أيُّ دولة بشكل كبير لإنتاج علاج له».

معظم الناس لا يعرفون حتى بوجود مثل هذا المرض، وإذا كان عدد قليل فقط من الناس يعانون من مرض ما، فإن المجتمع يُفضِّل تَجاهُله على تكبُّد نفقات باهظة لعلاجه، ويديرون رؤوسهم، ويتصرَّفون وكأنه غير موجود، قد يعتقد المرء أن الألم الذي لا يوصف، مثل نوعٍ من المُنبِّه، يحدث في نفس الأشهر من كل عام، وفي نفس الوقت كل يوم، هو مرض مُختَلَق، لكن أنا وأنت نعلم أنه ليس كذلك، أعلى مستوى من الألم يمكن أن يتحمَّله الإنسان، إنه عذاب كبير...».

تمتم كمال بحزن، قائلًا: «لا يستطيع كل شخص تحمُّل ذلك»، وكان قد تذكَّر الأشخاص الذين لم يتمكَّنوا من تحَمُّل الألم، وانتحروا في العيادات، في السنوات الماضية، بينما كان يحاول يائسًا الحصول على علاج.

وأكَّدَت السيدة جول: «نعم، هذا صحيح، لا يستطيع الجميع تَحمُّله»، كان في صوتها حزن حقيقي، ولمحة من الاحترام، إذا جاز التعبير، «أنت شخص قوي حقًّا، حتى تستطيع أن تغادر منزلك، وتأتي إلى هنا بعد أزمَتِكَ، ذلك يُعَدُّ نجاحًا كبيرًا، أما عميلي فلم رَجُلًا قويَّ الإرادة، كان رَجُل أعمالٍ ألمانيًا، وكان يمتلك عددًا لا يحصى من المصانع في جميع أنحاء العالم لإنتاج أجزاء الكمبيوتر، وكان أكثر ثراءً مما تتخيَّل، لكن منذ أن أصيب بصداع عنقودي، كان يشعر بالضجر من الحياة، وأول ما قاله عندما جاء إلينا هو أنه إذا لم نتمكَّن من علاجه، فسوف ينتحر، وبسبب الألم الذي عانى منه، فقد كان كل ما يملكه من أموال وأملاك ليس له أهمية بالنسبة له، ووضع أموال غير محدودة أمامنا، وقمنا بتكوين فريق من أفضل العلماء والأطبَّاء وعباقرة التكنولوچيا في العالم، لقد قمنا بتعبئة التقنيات والأدوات الخاصة بنا، والتي لا تتوفَّر في أي مستشفى، وما أنتجناه لعملاء آخرين، على مَرِّ السنين لهذا العمل، وبعد العديد من المحاولات الفاشلة، تَمَكَّنَّا من علاجه بتقنية جديدة تمامًا لجراحة المخ، لم يكن هناك حَدٌّ للأموال التي يتمُّ إنفاقها، ولكن مريضنا كان سعيدًا جدًّا، لدرجة أنه لم يحسب أي بنس عندما غادرنا، وفي هذه العملية، اضطرَّ إلى بيع عدد قليل من مصانعه، لكنه لم يتحدَّث حتى عن ذلك، يمكن أن تكون أولويات الناس متغيِّرة للغاية».

سأل كمال بدهشة، قائلًا: «إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا لم تنقله الأخبار التلفزيونية، لماذا لم تخبري الأطِبَّاء الآخرين؟ نحن نتحدَّث عن مرض لم يعرف سببه وعلاجه منذ قرون! يمكنكِ حتى الفوز بجائزة أكرم طاشجي! ستكونين أشهر عيادة في اسطنبول...».

هزَّت السيدة جول رأسها، قائلةً: «لا علاقة لنا بالجوائز والشُّهرَة. ما يجعل شيئًا ذا قيمة هو نُدرَتُه، يا سيد كمال، إذا كان بإمكان الجميع الوصول إليه بسهولة، فلن يكون له أيَّة قيمة، اعتدنا على الإعلان

عـن المنتجـات التـي اكتشـفناها في شـبابي وبيعهـا، ولكـن بعـد بضعـة أشـهر، تـمَّ عمـل نُسَـخ لهـا في عيـادات أخـرى، ومستشـفيات جامعيـة، وأصبحـت اختراعاتنـا شـائِعةً، وفقَـدَت قيمتهـا، نحـن الآن نشـارك نجاحاتنـا فقـط مـع أولئـك الذيـن يمكنهـم أن يقدِّمـوا المقابـل، كُـنْ مُطمَئنًّـا، نحـن نكسـب أكـثر مـن ذي قبـل».

شرب كـمال مـا تبقَّـى مـن الصـودا، واشـتدَّ اضطرابـه بشـكل أكـثر، ووضـع الـكأس عـلى المنضـدة الكريسـتالية المجـاورة لـه، وقامـت طاولـة القهـوة الذكيـة بقيـاس الـوزن الموجـود فوقهـا، وأرسـلت المعلومـات بـأن الـكأس أصبـح فارغًـا تمامًـا، إلى الروبـوت المنـزلي، لم يسـتغرق الروبـوت سـوى بضـع ثـوانٍ، ليـأتي مثـل الريـح بعجلاتـه الكرويـة، ويأخـذ الـكأس.

وقـال كـمال: «أريـد أن أصدِّقـكِ، يـا سـيدة جـول، لا يمكنـكِ أن تتخيَّـلي كـم أريـد أن أصدِّقـكِ، يمكننـي تجـاوز الحـدود التـي لـن أتجاوزهـا في العـادة للتَّخلُّـص مـن هـذا الألم، ويمكننـي القيـام بأشـياء لـن أفعلهـا في أي وقـت آخـر، ولكـن فجـأة تظهريـن أمامـي، وتقولـين إنـكِ تسـتطيعين عـلاج مـرض عُضـال، لا أعـرف كيـف يمكننـي تصديقـك... هـل لـديَّ فرصـة لرؤيـة منشـأتك؟ هـل يمكنـك إخبـاري بتفاصيـل هـذه الجراحـة؟ هـل مـن الممكـن أن تجعلينـي ألتقـي مـع الشـخص الـذي قُمـتِ بعلاجـه؟».

تنهَّـدَت المـرأة قائلـة: «يمكنـك أن تُخمِّـن أننـي لا أسـتطيع فِعـل هـذه الأشـياء، أعتقـد أنـه يمكننـي شرح مـدى اهتمامنـا بالخصوصيـة، لكننـي أتَّفِـقُ معـكَ، بالطبـع تريـد أن تقتنـع قبـل اتِّخـاذ القـرار، مـا أريـده منـك ليـس القليـل مـن الجليـد، سـوف تخاطـر بحياتـك المهنيـة، وربمـا حتـى بحياتـك، مـن خـلال لقـاء حركـة المسـاواة في اسـطنبول مـرة أخـرى، لا تقلـق، لقـد فكَّـرتُ في الأمـر، وقمـتُ ببعـض الاسـتعدادات».

رفَعَـت المـرأة يدهـا، ونـادت الحـارس الأشـقر، وهـو أحـد الحـراس الواقفـين عـلى بعـد بضعـة أقـدام، وعندمـا اقـترب الرجـل، أخـرج صندوقًـا

أسود صغيراً من داخل سُترَتِه، مُحاطًا بخيط ذهبي، أخذ كمال الصندوق الذي سلَّمه إليه الرجل، وفتحه بفضول، كان يحتوي على مسدس إبر، وعشر كبسولات.

قالت السيدة جول بصوت فيه ثقة: «خُذ هذه الكبسولات وجرِّبها لبضع أيام. ستحقنها في صدغك عندما يبدأ الألم، لا يهمُّ اليمين أو اليسار، مرَّتين على الأكثر في اليوم، من فضلك لا تحاول أن تجرِّب المرة الثالثة إطلاقًا، يمكن أن يكون للجرعة الزائدة آثار جانبية خطيرة، لسوء الحظ، هذا ليس حلًّا دائمًا، ولكنه سيُخفِّف ألمك، آمل أن يجعلك تعتقد أن حديثي ليس هراء، لقد زُرتَ العديد من الأطباء، حتى الآن، وجرَّبتَ كلَّ مُسكِّن للآلام، ولم يكن أيٌّ منهم مفيدًا، أليس كذلك؟ لكنك سترى، هذه الإبر سوف يكون لها تأثير؛ لأننا نستطيع أن نفعل ما لا تستطيع المستشفيات العادية أن تفعله، يا سيد كمال».

انحنت المرأة إلى الأمام كأنها تكشف سرًّا، وقرَّبَت وجهها من كمال.

«ولكي تفي بطلبي، يجب أن نقضي على مرضك! كيف يمكنك مطاردة المجرمين وأنت مشلول بالألم مرتين في اليوم؟ يجب أن تكون قادرًا على التجوُّل بالخارج، وأنت مرتاح البال، يكفيك أن تساعدني في العثور على القَتَلة الذين قتلوا أصدقائي، فاتَّصِلْ بأصدقائك في حركة المساواة في اسطنبول، وقُمْ بحلِّ هذه القضية من أجلي... واسمح لي بالانتقام للأشخاص الذين أحببتهم... ثم سأصطحبك شخصيًّا إلى منشأتنا، وأطلب إجراء الجراحة التي ذكرتها من أجل علاج دائم، أعِدُكَ بهذا من كل قلبي، وحتى ذلك الحين، خُذ هذا كدفعة أولى مني، حتى لو لم تنجح، ستأخذ على الأقل استراحة من معاناتك لمدة عشرة أيام، ألا يستحق الأمر المحاولة؟».

انحنت مرة أخرى،وابتسمت بلطف، قائلة:

«لا أعتقد أنني بحاجة لتذكيرك بأن هذه الإبر هي مُنتَجٌ خاصٌ، ومثل جميع منتجاتنا، يجب أن تظلَّ سِرِّيَّةً، إذا ذكرتَ ذلك لشخص ما، مهما كان السبب، فلن أتمكَّن من إعطائك واحدة جديدة».

نظر كمال إلى الصندوق الموجود في يده، وفحص الإبر الموجودة فيه بتردُّد، ثم أغلق غطاء الصندوق، وربطه في حزامه بخُطَّاف على ظهره، وقف وخَطا خطوات قليلة تجاهها، وتوقَّف أمامها مباشرة، ونظر باهتمام في وجهها، وقال:

«سوف أفكر في الأمر، يا سيدة جول، سأخبرك بقراري في غضون أيام قليلة، ما تطلبينه مني ليس بالمَهمَّة السهلة، لست متأكِّدًا من أنني أستطيع القيام بذلك، حتى لو أردتُ ذلك، فقد مرَّ وقت طويل منذ أن غادَرتُ حركة المساواة في اسطنبول، لم أتواصل مع جهات الاتصال الخاصة بي منذ سنوات، لا أعرف ما إذا كانوا على قيد الحياة، أو ما إذا كان بإمكاني الوصول إليهم، لكنني أعِدُكِ أنني سأفكِّر في الأمر».

قالت المرأة بنبرة موحية: «أنا متأكِّدة أنك ستفعل ذلك يا سيد كمال»، وترَكَّزَت نظراتها على عين الشاب المنتفخة.

«سوف نلتقي مرة أخرى قريبًا جدًّا، ليس لديَّ شَكٌّ في ذلك...».

8

نظـر حسـام الديـن چلبـي إلى الدراويـش الذيـن جلسـوا القرفصـاء علـى السـجادة الحمـراء الباهتـة، مُصطَفِّـين حولـه عـلى شـكل هـلال، بـودٍّ، وكأنهـم أبنـاؤه، وكانـت عينـاه السـوداوان شـاردتين، الهـدوء والحـب عـلى الوجـوه جعـلاه سـعيدًا، وقـام بمسـح لحيتـه البيضـاء التـي نزلـت إلى صـدره، ونظـر بعيـدًا، كـما لـو كان يحـاول عبـور الزمـان والمـكان، لـيرى الوجـه المـضيء لمولانـا، صديـق اللـه، في حضـن الخلـود.

أعـاد انتباهـه إلى الكتـاب القديـم البـالي في يـده، وتابـع القـراءة مـن حيـث توقَّـف، قائـلًا: «يـا عزيـزي، عُـدْ إلى رُشـدِكَ.

أنت تخاف وتهرب من الموت، في الواقع، أنت تخاف من نفسك.

ما تراه ويخيفك ليس وجهَ الموت، بل وجهك القبيح.

روحـك تشـبه الشـجرة، أمـا المـوت فهـو ورقـة لهـا، سـواء كان ذلـك جيـدًا أو سـيئًا، فقـد نمـا منـك.

نحـن لا نحـب أن يتـمَّ قطعنـا أو اقتطاعنـا، والتفكـير في المـوت يجعلنـا نشـعر بالقشـعريرة.

ومـع ذلـك، فـإن الأشـياء التـي لا نحبهـا ربمـا تكـون الأفضـل بالنسـبة لنـا».

رفـع رأسـه مـن عـلى الكتـاب، وابتسـم للدراويـش مـن جميـع الأعـمار، الذيـن كانـوا يراقبونـه وكأنهـم مفتونـون بـه، وقـال:

«دعونـا لا ننـسى يـا أعـزائي الهدفَ مـن ضرب البسـاط بالعصـا... النقطة المهمَّـة ليسـت هـي ضرب البسـاط في الواقـع، بـل هـي دفـع الغبـار، يجـب أن تكـون نصائـح مولانـا هـذه دائمًـا في آذاننـا، يجـذب العـالم الفـاني النـاس، والذيـن يضلُّـون يظلمـون الآخريـن مـن أجـل أموالهـم وأملاكهـم، ومـع ذلـك، فـإن معرفـة أن هـذه الحيـاة مؤقَّتـة يجعلنـا أقويـاء ضـد أنفسـنا.

يجـب ألَّا تخـاف مـن المـوت، بـل تخـاف مـن التلـوُّث بالـشر أثنـاء الحيـاة، سـوف نمـوت جميعًـا عاجـلًا أم آجِـلًا، ولا يمكننـا تغيـير هـذه الحقيقـة، لكـن كيـف سـنصل إلى الهـدف، كإنسـان، ومـاذا سـيُقال مـن وراء ظهورنـا، فالأمـر مـتروك لنـا لاختيـاره، إن أصحـاب الأراضي التـي لا نهايـة لهـا، والذيـن يعملـون فيهـا هُـم أيضًـا أجـزاء مـن الـروح التـي وُلِـدَت مـن طفـلٍ بَـشريٍّ، وهـي قطـع مـن الـروح التـي هـي انعـكاس اللـه في هـذه الدنيـا، إن أحدهـم ليـس أكـثرَ قيمـة مـن الآخـر؛ بعـد وفاتهـم، يدخـل كلاهـما نفـس الأرض، ويتـم اسـتجوابهم بنفـس الطريقـة، بالنسـبة لطفلـه، كلاهـما أب وأم، بالنسـبة لأمـه، كلاهـما ابـن، ولحبيبتـه كلاهـما حبيـب، في نظـر عشـاقهم، كلاهـما هـو مركـز هـذا العـالم، معنـى الحيـاة.

هـذا العـالم الـذي نعيـش فيـه، والـذي مـن أجلـه نـؤذي بعضنـا البعض، هـو ذَرَّةٌ مـن الغبـار في عـالم لا يمكننـا فهـم حـدوده، مَـن مِنَّـا يسـتطيع الوصـول إلى النجـوم التـي تلمـع في السـماء بالليـل؟ مـا يجعـل الإنسـان ذا قيمـة ليسـت الخاصِّيَّـة التـي سـتتحوَّل إلى غُبـارٍ عاجِـلًا أم آجِـلًا في ذَرَّة

الغبار هذه، كم من الناس خفَّفوا آلامهم، وكم من النفوس قاموا بتهدئتها، دعونا لا ننسى هذا، دعونا دائمًا نذكر أولئك الذين انزلقت أقدامهم، وهم يسيرون على طريق الحق».

أخَذَ نَفَسًا عميقًا، ووضع يديه على ركبتيه، وانحنى إلى الأمام، ونظر إلى المولويِّين، وقال:

«هذا الكلام كافيًا لهذا اليوم، حتى لو لم تكن مُتعَبًا، فإن هذا الرجل العجوز مُتعَبٌ الآن، دعنا نذهب إلى السماع الآن، لننظف أرواحنا معًا، دعونا نتخلَّص من الغبار الموجود فوقنا، بشكلٍ جيد».

واحدًا تلو الآخر، نهض الدراويش بوجه مبتسم، وأخذوا أماكنهم وسط الكوخ، وبدأوا يستديرون حولهم ببطء، كانت أذرعهم ملفوفةً حول أجسادهم، ورؤوسهم مائلة إلى جانب واحد، وكلَّما كانوا يتسارعون كانت أذرعتهم تُفتَح على نطاق واسع، وكانت تنانيرهم البيضاء قد بدأت تهبُّ مثل الريح، وتموج مثل البحر، لقد كانوا هادئين ومسالمين لدرجة أنهم كانوا وكأنهم جزء من وحدة رائعة يتناغم فيها كل كائن في العالم.

بعد عودة حسام الدين چلبي إليهم لفترة، سرعان ما سئم من الآخرين بسبب التأثير الطبيعي للشيخوخة، وانسلخ عنهم بهدوء، دون أن يلاحظ أحد، حتى لا يمنع الأرواح من الرقص الإلهي، وسار إلى باب الكوخ على أطراف أصابعه، ووقف هناك لفترة، يشاهد السماع بالحبِّ، وشعر بأنه سعيد، وأنه بين أصدقائه، ولما زادت حاجته إلى الهواء النقي دخل ساحة التكية التي أصبحت أجمل بالزهور الموسمية، وتحوَّلَت إلى ساحةٍ مُلوَّنة.

عندما تمَّ تعيينه في منصب چلبي لهذه التكية المولوية، لم يكن متأكِّدًا ممَّا إذا كان مستعدًّا لمثل هذه المَهمَّة الهامة، لم يكن أبدًا شخصًا طموحًا، منذ أن كان طفلًا كان يحلم بحياة هادئة وبسيطة،

حتى إنه لم يكن له هدف إلهي مثل الترقية في الطريقة، في البداية، كان من الصعب جدًّا تحمُّل المسؤولية تجاه الكثير من الأشخاص وإدارة التكية، وبدلًا من تكريس نفسه بالكامل للسماع والصلاة، كانت إدارة التكية مسألة شاقَّةً بالنسبة له، وكان على الدراويش أن ينشغلوا بالكثير من الأعمال المُمِلَّة، من العشاء إلى النوم، ومن استقبال الوافدين الجدد، إلى إبعاد أولئك الذين ضلُّوا الطريق، عدَّة مرَّاتٍ كان يفكر بجدية في الهروب، والذهاب بعيدًا، وضرب الجبال، والعيش بمفرده في الكهوف والتفكير، ومع ذلك، لم يستطع التخلِّي عن النفوس التي اعتمدت عليه، ولا يمكن أن يتحمل مسؤولية تفَكُّك التكية. الآن، بالنظر إلى السنوات التي تركها وراءه، يمكنه أن يرى أنه على الرغم من كل مشاكله، كان يعيش حياة سعيدة في هذا المكان الجميل المليء بأصدقائه في الله، كان يشعر أنه وجد عائلة لنفسه، وأنه كان يمكنه رؤية الاختيار الصحيح.

كان كلب الحراسة الخاص بهم، يلدريم، يرقد كالميت في ظلِّ البئر، لكن لم يكن لديه شك في أنه إذا سمع صوتًا غريبًا، أو شمَّ رائحة غريبة، فسوف يقفز على الفور لحماية أولئك الموجودين في التكية، مشى نحوه وانحنى، وهو يداعب شَعره بحنان، كان هناك يرى أنه من الغريب أنه يطلق اسم يلدريم على هذا الحيوان الذي كانوا يحبُّونه من صميم قلوبهم، فقالوا له كيف يمكنك تسمية كلب بلقب أحد السلاطين، كم كان هذا الإنسان غريبًا، وكم كان فضوليًّا أن يخلق أصنامًا جديدة لنفسه، وأن يبحث عن دوافع خفيَّة تحت كل حجر، ومع ذلك، فإن السبب الوحيد الذي جعله يطلق عليه هذا الاسم هو أنه كان بجانبك عندما كنتَ في حاجة إليه، لم يكن ينوي حذف كلمة كان يحبها، من القاموس، لمجرد أن سُلطانًا ورد ذكره بهذه الطريقة في زمانه! ثم ما الذي جعل السلطان أكثر قيمة من العباد الآخرين، والكائنات الحية التي خلقها الله؟

وبينـما كان يقـف عـلى رُكبَتَيْـه هكـذا، وهـو يداعـب رأس الكلـب، صـدر صـوت مُبهَـمٌ مـن خلـف الكـوخ عـلى مسـافة قصـيرة، كان الأمـر كـما لـو أن حجـرًا قـد أُلقِـيَ عـلى شـجرة، وسرعـان مـا سُـمِعَ الصـوت مـرة أخـرى، قـام، واعتـدل، قائـلًا: «هيـا، ليَكُـن خـيرًا»، ومـشى نحـوه بخطـوات هادئـة، وخاليـة مـن الهمـوم.

وعندمـا مـدَّ بـصره، ونظـر نظـرة خاطفـة مـن جـدار الكـوخ الحجـري، واجـه مشـهدًا رائعًـا كان يبـكي في كل مـرة يـراه، كانـت عائشـة هنـاك، وحيـدة، وقـد ارتـدت سـترة صوفيـة صفـراء شـاحبة وتنُّـورة ناصعـة البياض تصـل إلى كاحليهـا، وربطـت وشـاحًا أرجوانيًّـا حـول خصرهـا، وذراعاهـا ممدودتـان، وكانـت تقـوم بالسـماع وكأنهـا فقـدت شـعورها، وألقت رأسـها إلى الـوراء، وعيناهـا مغمضتـان، ووجههـا الجميـل بشـكلٍ لا يوصـف، كأنـه منيرٌ بنـور إلهـي، حتـى هـذا المشـهد وحـده كان كافيًـا لجعـل قلب حسـام الديـن چلبـي الحسَّـاس يرتجـف، لكـن مـا حـدث هنـاك كان أكـثر مـن ذلـك بكثـير: بينـما كانـت عائشـة تُحلِّـق عـلى أطـراف أصابعهـا، وكأنهـا تطـير، وقفـت في السـماع مـع كل شيء حولهـا، وارتفعـت الحجـارة الصغيرة، والأغصـان والأوراق والزهـور الموجـودة عـلى الأرض عـلى بُعـد أمتـار قليلـة مـن الأرض، لتُشـكِّل حلقـة ملوَّنـة حـول الفتـاة الصغـيرة، وكانـت تـدور بنفـس سرعتهـا واتجاههـا، وتشَـكَّلَت حـول عائشـة هالـة مـن كل ألـوان الطبيعـة، لقـد كان هـذا مشـهدًا سـحريًّا، ولا بُـدَّ أنـه ينتمـي إلى حكايـة خرافيـة أكـثر مـن العـالم الحقيقـي، ولكـن، بمـا أن حسـام الديـن چلبـي قـد شـهد العديـد مـن التصرُّفـات الخارقـة للفتـاة الصغـيرة في الأشـهر الماضيـة، لم يَعُـد يشـاهد مثـل هـذه المَشـاهِد بخـوف أو اندهـاش، بـل بحُـبٍّ إلهـي، وأسـند كتفـه إلى الحائـط، ولم يُحـرِّك سـاكِنًا، حتـى انتهـت عائشـة مـن السـماع، راقبهـا بابتهاجَـةِ مَـنْ يشـهد معجـزة مـن اللـه، وتدحرَجَـت الدمـوع ببـطء عـلى خدَّيْـه، وبلَّلَـت لحيتـه البيضـاء، وتمتـم بهـدوء بكلـمات مولانـا التـي تَـردَّد صداهـا في ذهنـه في تلـك اللحظـة:

«حُبُّكَ لا يستوعبه أي مكان، إن قلبي فقط هو الذي يستوعبه، والآن لا يستوعبه قلبي أيضًا، إنه يتسرَّب من عيني...».

مرَّت الدقائق وكأن الوقت قد توقَّف، وبينما كانت الفتاة تقف مكتوفة الأيدي، وتُنزِل ذراعيها، سقَطَت الحجارة والأوراق والأزهار التي تدور في الهواء على الأرض مثل المطر، وفي اللحظة التي فتحت فيها عينيها، رأت چلبي يراقبها بحُبٍّ وخشوع، فركضت بابتسامة كبيرة، وعانَقَت يدي الرجل العجوز المتجعِّدَتَيْن، وقالت:

«أهلًا بك يا شيخي! منذ متى وأنت هنا؟ أردتُ أن أكون وحدي لبعض الوقت، وآمل ألَّا أكون قد أخطأتُ، كم هو جميل، وكم هو ساحر الاستماعُ إلى أصوات الطبيعة في صمت! وبينما أقوم بالدوران في هذه الزاوية، يبدو أن الطيور والحشرات والرياح تشاركني النشوة، يمكنني سماع كل واحد على حدة، أشعر بشعور رائع».

ضحك حسام الدين چلبي بشكل أبويٍّ، قائلا: «هل يمكنكِ أن ترتكبي ذنبًا أيَّتها الفتاة المجنونة!»، ونظر إلى عائشة بإعجاب، إذا لم تكن معجزة في حدِّ ذاتها، أنها يمكنها أن تتعلم لغتهم، وتُعبِّر عن نفسها بشكل جميل في مثل هذا الوقت القصير، بينما كانت لا تستطيع نُطقَ كلمتين عندما دخلت إلى الكوخ، فما هي المعجزة إذن؟

«ما يُسميِّه الآخرون ذنبًا يتحوَّل إلى حكمة من الله عندما تفعلينه، أنتِ أمانة الله لدينا، ونحن نحدِّق في عينيك، وكلامك في كل لحظة، الشيء الوحيد الذي يُقلِقني هو أن يأتي دخيل إلى التكيَّة، ويراك في هذه الحالة... يمكن أن يكون الناس في الخارج شرِّيرين للغاية، أيتها الفتاة الملاك، إن مَن يبيعون أرواحهم للشيطان ليسوا قِلَّةً، يجب ألَّا تفقدي أعصابك».

لقد فهمت عائشة جيدًا ما يعنيه چلبي العجوز، ونظرت إلى الأرض بحزن، وقالت:

«لم يكن من المقبول بالنسبة لي الظهور أمام مَن قاموا بزيارتك مؤخرًا، أليس كذلك يا شيخ... لقد اعتقدتُ أنهم أصدقاء لك في الله مثلك، لم أكن أعرف...».

قال الشيخ: «للأسف لا، أيتها الفتاة الملاك، لا تتوقَّعي أن يتمكَّن الجميع من رؤية المعجزات فيكِ، تصاب عيون بعض الناس بالعمى مع مرور الوقت؛ بسبب الظلام الذي بداخلها، إنهم يسيئون استخدام الحكمة التي شهدوها، والأسوأ مَن يقول إنهم يفعلون هذا في سبيل الله... يستخدمون الرب القدير لغضبهم! لا يُسمح في عالمهم الخاطئ أن تعيش فتاة صغيرة في التكية، وتقف ببراءة في السَّماع، لا يمكنهم التمييز بين ما أنتِ عليه حقًّا، وما لست عليه».

ظلَّت عائشة صامتة، وارتجفت شفتاها من الحزن، ونظرت في عيني الرجل العجوز، وهي تشعر بالذنب، وكأنها تريد أن تقول شيئًا، لكنها لم تجرؤ، ثم تمتمت بصوت لا يكاد يُسمَع، قائلة:

«أنت تعاملتَ معي بشكل جيد جدًّا... وأصبحتم جميعًا، كل الأشخاص هنا، مثل عائلتي، ومع ذلك، إذا كنتُ أُعرِّضُكَ للخطر، يمكنني مغادرة التكية، يا شيخي، قُلها مرَّةً واحدة فقط، وسأذهب دون أن أنظر ورائي».

داعب حسام الدين چلبي شَعر عائشة، قائلا: «إلى أين ستذهبين، أيَّتها الفتاة المجنونة؟! ماذا ستفعلين وحدك مع الأشخاص الغُرَباء؟! أنتِ تنتمين إلى هذا المكان، وأنتِ أمانة لدينا! وإذا ذهبتِ فأين سيجدك سليمان باشا؟ لا تستغرقي في مثل هذه الأفكار المظلمة، ولا تهتمِّي كثيراً بكلمات رجل عجوز، فأنتِ لا تُعرِّضينا للخطر، أو شيء من هذا القبيل! هيا، اذهبي إلى مقصورتك، واحصلي على قسط من الراحة، ستنضمِّين إلى الحشد على العشاء، وسنقرأ كلمات مولانا في المساء، وأنا أعلم أنها ستعجبك».

نظـرت عائشـة إلى وجـه چلبـي بتعبـير حزيـن غـير مقتنـع، ثـم أومـأت برأسـها بشـكلٍ مُهـذَّب، وابتسـمت، وانزلقـت مـن بـين ذراعـي الشـيخ، واندفعـت إلى كوخهـا، وهـي تقفـز مثـل الغـزال.

ألقـى الرجـل العجـوزُ الهمـومَ التـي كانـت مسـتَعِرةً بداخلـه جانبًـا، ونظـر إليهـا بحـب، ورفـع رأسـه في الهـواء، كانـت الشـمس تلمـع متلألئـة مـن بـين الغيـوم الصافيـة، وكلـما كانـت الريـاح تجعـل الأغصـان والأوراق تهتـزُّ، كانـت الطيـور والفراشـات تطـير، وتُحلِّـق حولهـا، وكان العـالم هادئًـا، عـلى عكـس العواصـف التـي اندلعـت بداخلـه، وعـاد إلى البـئر وهـو يسـير مُشـتَّتَ الذهـن.

وبينـما كان رجـال حاكـم السـنجق، أشرف أفنـدي، يغـادرون التكيـة، أعربـوا دون موارَبـةٍ، عـن أنهـم يـرون أن وجـود عائشـة هنـا لا يتَّفـق مـع الشريعـة، لقـد كادوا أن يوبِّخـوه دون النظـر إلى عمـره، مؤكِّديـن بشـكل قاطـع أن أشرف أفنـدي لـن يتسـامح مـع مثـل هـذا التجاوُز، ومـع ذلـك، فإنـه لم يكـن يعتقـد أنهـم سـيكونون في مـأزق، طالمـا كانـوا تحـت رعايـة سـليمان باشـا، حيـث كان رُعاتـه أكـثر قيمـةً لـدى السـلطان مـن أي حاكـم سـنجق، ومـع أنـه لم يـره منـذ فـترة طويلـة، إلا أنـه لم يكـن يشـعر بالقلـق حقًّـا، حيـث كان يرسـل إلى التكيـة بانتظـام المـواد التـي يحتاجونهـا كل شـهر، لكنـه لم يمُـرَّ منـذ فـترة طويلـة، ومـع تأخُّـر زيارتـه كان قلقـه يـزداد، وكان يقـول في نفسـه، بنيَّـة الدعـاء: «سـليمان باشـا، أيـن أنـت، مـاذا تفعـل؟... إذا اشـتقتَ لأمانتـك، فقـد حـان الوقـت لرؤيتهـا...».

بـدأ الدراويـش المتعبـون بالخـروج مـن السـماعخانة واحـدًا تلـو الآخـر، وعندمـا رأى مظفـر أفنـدي -الـذراع اليمنـى لحسـام الديـن چلبـي في التكيَّـة- شـيخَه ينظـر بعيـدًا بوجـهٍ قَلِـق، بجانـب البـئر، توجَّـه إليـه وهـو حزيـن مـن داخلـه، كان رجُـلًا ضخـم الجثـة يبلـغ ارتفاعـه متريـن تقريبًـا، وكان قـادرًا عـلى حمـل جـذوع الأشـجار الضخمـة تحـت ذراعيـه،

قيل إنه قبل وصوله إلى التكية صنع لنفسه اسمًا في المصارعة الزيتية، وبعد أن كسر رقبة خصمه في إحدى المباريات، وترك ثلاثة أطفال يتامى، أغلق على نفسه في التكية المولوية بدافع الذَّنب، وفي رواية أخرى قيل إنه وقع في مشكلة بسبب ابن أحد الأغوات تَسبَّب له في عاهة في المصارعة، وجاء إلى تكية الدراويش ليختبئ، وهناك وصل إلى الهداية، والأغا ورجاله، الذين جاؤوا إلى التكية لقتله، كانوا مفتونين جدًّا بالسَّماع، لدرجة أنهم عادوا إليها، حتى إن قلوبهم التي كانت تحترق بنار الانتقام أصبحت باردة، وانفجروا في البكاء، وعادوا دون الضغط على الزناد، لكنه لم يتحدَّث قَطُّ عن هذه الأمور.

«أيُّها الوَليُّ، ما هي البحار التي استغرقتَ في التفكير بشأنها مرة أخرى؟ إذا كانت لديك مشكلة، شاركها مع هذا المسكين، اتركها تتفتَّت مثل الخبز الذي نتشاركه».

«أفكِّر في عائشة، يا مظفر أفندي، حاكم السنجق الجديد كان تحت تأثير ذلك الثُّعبان دميرجي ولي خوجه ذي القلب الأسود، ولسان الثعبان، وبقدر ما سمعت من أصدقائنا، فقد كان مقتنعًا بأن المولوية كانت ضد الدين، وكان يبحث عن عُذرٍ لإغلاق التكايا، ليس من الجيد أن يعرف بخبر عائشة ابنتنا، حيث يمكنه استخدام ذلك ضدنا».

«ألم نشهد شيئًا مشابهًا قبل ذلك يا حسام الدين چلبي؟ ألم يدخل واني محمد خوجه في عقل السلطان، ويعلن أننا أعداء الدين؟ لم ننحنِ للظالم في ذلك اليوم، ولن ننحني اليوم مرة أخرى بإذن الله، إن طريقنا هو طريق الله، ولا يمكنهم اقتلاع ما في قلوبنا! وإذا أغلقوا التكية، سنؤدي السَّماع في منازلنا، يا للأسف! أليس كل موضع نزلناه هو بيت الله؟ حتى لو ضربوا أعناقنا سنلتقي بربنا بسرعة، وسيكون ذلك أجرنا!».

تنهَّد الشيخ العجوز، قائلًا: «ليس ما سيفعلونه بنا هو ما يُقلِقني يا عزيزي!»، استيقظ يلديرم فجأة في تلك اللحظة، وأصغى إليه، لا بُدَّ أن شيئًا ما أثار اهتمامه؛ لذلك نهض، وركض نحو الأشجار، حدَّق الشيخان وراءه للتَّوِّ وصمَتَا، وقال:

«أنا قَلِقٌ حَقًّا بشأن ما هو في بطن الفتاة الملاك، ماذا سيحدث لهذا الطفل البريء إذا لم يحضر سليمان باشا قبل فوات الأوان؟».

عبس مظفر أفندي، قائلًا: «كم شهرًا في رأيك يكون حملها؟ القابلة لا يمكن أن تكون مُخطِئَة، أليس كذلك؟ ربما تشعر بالغثيان لسبب آخر؟».

هزَّ حسام الدين چلبي رأسه قائلًا: «لا أعتقد ذلك»، ونظر بتمعُّنٍ إلى كوخ الفتاة.

تذهب القابلة إلى جميع القرى المجاورة هنا، ولم تكن مُخطِئةً من قبل، قبل أربعة أو خمسة أشهر، سوف يظهر حمل الفتاة، وفي هذا الوقت لا يمكننا وقف النميمة، كيف نخفيها عن الأعين وهي في هذه الحالة، إلى أين نرسلها! كيف نفسِّر لأي شخص وجود طفل بلا أبٍ وُلِدَ في التكيَّة؟».

وضع الرجل العملاق يده الضخمة على كتف الشيخ وابتسم متفهِّمًا، وقال:

«يجب أن نرسل خبرًا بسرعة لسليمان باشا عن هذا الطفل؛ فهو من حقِّه أن يعرف ذلك، وربما حان الوقت لاستعادة أمانته».

لم يرغب حسام الدين چلبي حتى في التفكير في رحيل عائشة، والذي كان يعتقد بصدق أن هناك حكمة في إرسالها إلى تكية الدراويش هذه من قِبَل الرب القدير، والذي أظهر له المعجزات التي لم يشهدها طوال حياته، وأنه أحبها وعشقها مثل ابنته، على الرغم من

أنـه لم يسـتطع قـول ذلـك علانيـة، وأنـه لـن يـرى وجهها المـشرق مـرة أخـرى، لكنـه كان يشـعر أيضًـا بأنـه لا يسـتطيع الهـروب منهـا، وسـيكون مـن الـضروري قبـول كل مـا كان في القَـدَر، كـم عـدد السـنوات الباقيـة في هـذا العـالم الفـاني عـلى أي حـال.

وهزَّ رأسه بشكل غامض في حالة من اليأس، وقال:

«أنـت عـلى حـقٍّ يـا عزيـزي! إن إخفـاء هـذا عنـه إثـم، ولا يليـق بنـا، لقـد وثـق الباشـا في هـذه التكيـة دون قَيـدٍ أو شرط، اخـتَرْ درويشًـا قويًّـا مـن بـين الشـباب، وأرسـله لي في المسـاء، واسـمحوا لي أن أكتـب رسـالة وأُسـلِّمها لـه، ليقـوم بتسـليمها لسـليمان باشـا في أسرع وقـت ممكـن، وليقـرِّر هـو بنفسـه مـاذا سـيفعل، وحتـى ذلـك الحـين، دعونـا نبحـث عـن طـرق لإبقـاء فتاتنـا الملاك بعيـدة عـن الأنظـار، وفَّقَنـا اللـه جميعًـا».

9

خمسـة عـشر غليـون، وسـت فرقاطـات، وثلاثة عـشر قادوسًـا، وعشرات مـن سـفن الدعـم الصغـيرة، كانـت تشـقُّ طريقهـا بهـدوء في ظـلام الليـل عـلى ضـوء الفوانيـس المعلَّقـة فـوق مُقدِّمتهـا، وعنـد النظـر إليهـا مـن بعيـد، بَـدَوا مثـل مئـات مـن اليراعـات تحلِّـق في نفـس الاتجاه فـوق البحر، كان الهـدوء يسـيطر عـلى الأسـطول، وانسـحب القباطنـة والبحـارة وجنـود البحريـة ورجـال المدفعيـة قبـل المعركـة الصعبـة التـي سـيواجهونها قريبًـا. كان بعضهـم يقـضي الوقـت في العبـادة والصـلاة، والبعـض الآخـر يحلمـون بأحبَّائهـم الذيـن تركوهـم وراءهـم، وعائلاتهـم، وبيوتهـم الدافئـة.

كانـت إحـدى سـفن غليـون، وهـي بـرج ظفـر، تمتلـك أربعًـا وثمانـين بندقيـة، وكان لـدى رودوس سـتُّون مدفعًـا، أمَّـا «قبودانه» السـفينة الرائعة التابعـة لماندالـزاده حسـام الديـن باشـا، الـذي تـمَّ تعيينـه حديثًـا كقبطـان، فقـد كانـت تحمـل مائـة مدفـع كاملـة، تمَّـت صناعتهـا جميعًـا في أفضـل

مستودع أسلحة في اسطنبول، وإذا فتحت جميع السفن التي يضمُّها الأسطول النارَ في نفس الوقت، فسوف تشتعل نار جهنم الحمراء، وتتحرَّك الجبال من مكانها، بعد قمع اليونانيين، الذين تمرَّدوا، في شبه جزيرة المورة (بيلوبونيز)، بناء على تحريض ودعم الرُّوس، دون صعوبة كبيرة، أبحروا لمنع تكرار هذه الثورة، وطاردوا السفن الروسية المنتشرة بجوارهم، وكانوا في البحر المفتوح لفترة طويلة، وقَلَّت المؤن الموجودة لديهم بشكل منخفض للغاية، وكانوا يُخطِّطون للرسوِّ في ميناء تشيشمه، بين جزيرة صاقيز (خيوس) وقرابورون، إذا لم يتمكَّنوا من العثور على خصمهم لبضعة أيام أخرى.

كانت «جنكاور» التي خرجت لتوِّها من حوض بناء السفن، ويتولى قيادتها سليمان باشا هيمانلي، واحدة من ستة غليون كبيرة تشكِّل الصف الأول، وهي أصغر بقليل من الخمسة الآخرين، وكانت تحتوي على 52 مدفعًا فقط، ولكنها كانت خفيفة الحركة وسريعة بما يكفي لإثارة غبطة كل الرؤساء، لم يكن سليمان باشا بخيلًا على الإطلاق بشأن هذه السفينة التي ستحلُّ مَحلَّ شاهميران، فقد جعل سطحها مصنوعًا من أفضل أشجار البلوط عالية الجودة، وقد قام بجلفنتها من قِبَل أمهر أسطوات اسطنبول، وأمر بتجهيز أخشاب أكبر من المعتاد من أجل «جنكاور»، التي أمر بأن تكون أنحف وأطول من السُّفن العادية، وبالتالي تقليل عدد القطع المستخدمة، وعدد المسامير اللازمة لتجميعها، قِلَّةُ المسامير تعني وزنًا أقل، وهو أمرٌ مهمٌّ لزيادة سرعة السفينة.

كان سليمان باشا يقف بمفرده بالقرب من مقدِّمة السفينة، ملفوفًا في ردائه بسبب الرياح الباردة، وينظر بعيدًا، وهو مستغرق في التفكير العميق، كان يحمل في يده الرسالة التي قرأها ربما خمسين مرَّةً قبل خروجه إلى الحملة التي خرج فيها، وفي الأيام التالية، كانت الورقة مُهتَرِئة، ومُمزَّقة من أطرافها، وقد تبلَّلَت بدموع الرجل العجوز من

عِـدَّة أماكـن، ومـع ذلـك يمكـن رؤيـة الحـروف اللؤلؤيـة الموجـودة عليهـا بوضـوح.

عندمـا أحـضر الرسـول الرسـالة، كانـت السـفن قـد أكمَلَت اسـتعداداتها للمغـادرة، وبـدأ بعضهـا في رفـع مرسـاتها، وتـمَّ تحميـل المئات مـن براميـل الذخـيرة والمـؤن عـلى مـتن «جنـكاور»، وكان الطاقـم ينتظـر الأوامـر بالإبحـار، لم يكـن هنـاك مـن سـبيلٍ للمغـادرة الآن، فقـد فـات الأوان للعثـور عـلى قبطـان جديـد، وإذا لم ينضـمَّ إلى الحملـة، فـإن الأسـطول سـوف يصبـح ضعيفًـا، وسـيفقد قيمتـه في نظـر السـلطان، وكذلـك جميـع الامتيـازات التـي يحتاجهـا لحمايـة عائشـة في هـذا العـالم المليء بالثعابـين السـوداء.

ومـع ذلـك، كونـه في وسـط البحـر الآن، بعيـدًا جـدًّا عـن مالكـة قلبـه، كان يمسـك بروحـه مثـل مخلـب حديـدي، والظـلام ينمـو بداخلـه، كان قـد اعـترف أنـه قبـل وقـت طويـل مـن تلقِّيـه الأخبـار، وقـع بشـدَّة في حـب الفتـاة الصغـيرة، وأنـه عـلى الرغـم مـن علمـه بأنهـا معجـزة مـن اللـه، إلا أنـه اقتنـع بأنـه لم يسـتطع اقتـلاع هـذا الحـب مـن قلبـه، ولـن يسـتطيع أبـدًا؛ لذلـك، مهـما كان، فإنـه لم يتمكَّـن مـن زيارتهـا لفـترة طويلـة، مـع أنه كان يشـعر بالرغبـة في ذلـك، وكان قـد ابتعـد عـن التكيـة، خوفًـا مـن أن لا يكـون قـادرًا عـلى كبـح جـماح رغباتـه، ومـع ذلـك، منـذ اللحظـة التـي قـرأ فيهـا عبـارات حسـام الديـن چلبـي، وعلـم أن عائشـة سـتنجب لـه ولـدًا، كانـت الريـاح تهـبُّ بـدلًا مـن هـذه المخـاوف، والآن أصبحـت الفتـاة مـن مَحارِمـه، وشرفـه، ولا بُـدَّ أن الـرب أراد ذلـك، وإلا هـل كان سيسـمح بذلـك، ويسـمح لطفـل بـريء أن يسـقط في رَحِـم تلـك الفتـاة الطاهـرة؟ ربمـا كانـت هـذه هـي الحكمـة الحقيقيَّـة في إرسـال الفتـاة إلى الإنسـانية، فالمعجـزات التـي أظهرتهـا لم تكـن سـوى علامَـةٍ عـلى معجـزات أعظـم مـن الطفـل الـذي سـوف يربِّيانـه معًـا، والتـي مـن شـأنها أن ترشـد الغافلـين إلى الإيمـان! وإذا كان يحمـي عائشـة بـكل كيانـه وإمكانياتـه، فإنـه سـوف

يحمي أطفاله بنفس الطريقة، وسوف يعتني بهما، وكان سيذهب إلى تكية الدراويش، مع إمامٍ كَتومٍ في أقرب وقت ممكن، ويتزوَّج عائشة، وسوف يقلع عن الإبحار والقتال، ولن يتركهما وحيدين أبدًا.

وبدلًا من الشعور بالحزن لعدم تمكُّنهم من العثور على الروس، كان سعيدًا سرًّا بهذا الأمر، لهذا السبب فقط، وكان ينتظر على أمل أن يتعب القبطان من هذا المطاردة، ويعطي الأمر بالعودة إلى اسطنبول في أقرب وقت مُمكِن.

عندما لاحظ قونيه لي إبراهيم ريس، مساعده في المعسكر يسير بجانبه بخطوات قوية، سارع بإدخال الرسالة في الجيب الداخلي لردائه، واستدار، واستقبله بابتسامة مُزيَّفة، وقال:

«السلام عليكم يا إبراهيم ريس، مرحبًا يا أخي، ألم تَنَم جيدًا الليلة أيضًا؟».

ردَّ البحار الماهر التحية باحترام، قائلًا: «وعليكم السلام سليمان باشا». لقد بَدَا مهيبًا للغاية، حيث كان وزن جسده أكثر من مائة وعشرين كيلوجرامًا، وكان هناك من شبَّهه بقذيفة مدفعية بسبب قِصَر قامته، لكن لم يستطع أحد أن يقول هذا في وجهه؛ لأنه اشتهر بصفعته العثمانية.

«ليس تلك الليلة فقط، ولكن كم ليلة، يا باشا، لم أكن قادرًا على النوم، هؤلاء الكُفَّار لم يخرجوا، لقد تضايقنا، أتساءل في أي حفرة اختبأ الأوغاد، وكم يومًا نتجوَّل عبثًا؟».

وأعرب سليمان باشا عن أمله، قائلًا: «ربما عادوا إلى ديارهم... علموا أننا كُنَّا وراءهم، وهربوا بسبب غضبنا، الروس لا يعرفون بحارنا؛ فهم يفتقرون إلى الخبرة في هذه المياه، وإلا كُنَّا قد وجدناهم الآن، أنا أعتقد ذلك، ما رأيك؟».

ومسح إبراهيم ريس لحيته، قائلًا: «لن يحدث ذلك»، ثم نظر نحو الأفق، وهزَّ رأسه، وقال:

«لست متأكدًا من ذلك، يا قبطان باشا، جاء الرسول برسالة جديدة من الشاطئ، ووفقًا لما هو مكتوب فيها، كان قائد الأسطول الروسي هو الظالم الإنجليزي إلفينستون، كان يقول الكفار إنه رجل مشاكس، وليس مراهقًا يستسلم بسهولة».

نزلت الظلال الداكنة على وجه سليمان باشا، كان قد سمع اسم أمير البحر إلفينستون من قبل، وكان قبطانًا متمرِّسًا، قاتَلَ البحرية العثمانية عدَّة مرَّات، وكان عدوًّا يحترمه، قيل إنه يعرف نقاط ضعف كلٍّ من السفن التركية ورؤسائها ويستخدمها جيدًا، وتَعزَّزَت رغبته في عدم المواجهة وجهًا لوجه مع الروس هذه المرة، من خلال الأخبار التي تلقَّاها.

واصل إبراهيم ريس كلامه بصوتٍ قَلِق، قائلًا: «ماندالزاده حسام الدين باشا ليس لديه خبرة في مثل هذه الحملات الكبيرة. إذا قاتلنا الكفار، أدعو الله أن يستمع إلى نصائح حاكمُ رودس، ولا يركب رأسه، أنا أحب حسام الدين باشا، وأحترمه، إنه رجل مهذَّب، ومخلص للإمبراطورية العثمانية، ومع ذلك، لم أستطع أن أفهم لماذا أعطوه منصب كبير القباطنة في أسطولٍ به قباطنة كبار مثلك، في نهاية المطاف، هو لم يكبر في البحار مثلنا».

«لا يزال سُلطاننا غاضبًا مني لأنني فقَدتُ شاهميران في تلك العاصفة الدموية، حيث غرق المئات من الانكشارية في ذلك اليوم، الأمر ليس بالأمر الهَيِّن... ومع ذلك، فإن الأمور تتحسَّن بمرور الوقت، وأنا أثق في ذلك تمامًا، لا تقلق، فإن السيد جعفر لم يصبح حاكِمَ رودس عَبَثًا، سوف يمدُّ يد العون لحسام الدين باشا عند الضرورة،

وبإذن الله، إذا وجدنا الروس، فسوف نسحق هؤلاء الأوغاد بسهولة، ولا شك في ذلك».

هزَّ إبراهيم ريس كتفيه قائلًا: «إذا قلتَ ذلك، فالأمر كذلك يا باشا»، ثم استند بجسده الضخم على الدرابزين، وصمت.

كان سليمان باشا سيشعر بالتحسُّن إذا كان بإمكانه تصديق ما قاله من صميم قلبه لتهدئة مساعده، لكنه في الوقت الحالي كان يواجه صعوبة في دفع الغيوم عن وجهه.

بعد يومين آخرين من التجوُّل دون فائدة في عرض البحر، أُعلن لجميع السفن أن الوقت قد حان لترفع السفن مرساتها، وذلك بواسطة بوق الرسول الذي صدر من قبودانه، كانوا بالقرب من ميناء تششمه، وكانوا قبالة خليج تششمه بين شبه جزيرة قرابورون وصاقيز (خيوس)، تمَّ اصطفاف الأسطول العثماني في ثلاثة صفوف، وكان يوجد في الصف الأول سفن غليون التي تحمل من خمسين إلى مائة مدفع، وإزاء احتمال أن يقوم الروس بتغيير خططهم وضرب ميديللي (ليسبوس)، فإن اثنين من غليون العظماء كانا قد غادَرَا الأسطول في الليلة السابقة، وتوجَّها إلى هناك، وكانت السفينة الشراعية الأولى في الشمال هي السفينة المهيبة برج ظفر للجزائري السيد حسن، والسفن الصغيرة والقوادس والصنادل كانت موجودة في الصفين الثاني والثالث، مع ترك الغليون في المقدمة فجوة بينها؛ ممَّا يخلق مساحات يمكن لهذه السفن أن تطلق النيران للأمام إذا لزم الأمر.

كان من المعتقد على نطاق واسع أن هذه الحملة ستنتهي دون صراع، وأن العدو قد أبحر بالفعل نحو روسيا منذ فترة، وأن سفن الكُفَّار التي كانت تدور حولها كانت مجرد شائعة فارغة، تمَّ إراحة القباطنة، واسترخاء البحارة، وجعل البحارة يتخلَّصون من الشعور بالموت والقتل، وقد عادوا إلى محادثاتهم المبهجة، كانوا يعتقدون أنه

بعـد أن جلبـت القـوادس الإمـدادات اللازمـة مـن المينـاء، فـإن حسـام الديـن باشـا سـيمتثل للأمـر أيضًـا، وسـترفع السـفن مراسـيها، وسـيعودون إلى منازلهـم، عـلى الأرجـح، وإذا تُـرك الأمـر لكبـير القباطنـة، فسـيكون الأمـر كذلـك حقًّـا.

ولكـن في 5 يوليـو 1770، عندمـا اسـتيقظوا بعـد ليلـةٍ هادئـة، وفتحـوا أعينهـم واحـدة تلـو الأخـرى، وجـدوا الأسـطول الـروسي متمركـزًا أمامهـم مبـاشرة.

كان هنـاك إحـدى وعـشرون سـفينة في الأسـطول الـروسي، تتكـوَّن مـن عـشر سُـفُن كبـيرة، أربـع منهـا كانـت عبـارة عـن سـفن حريـق متعمَّـد صغـيرة، لم يكـن يعرفهـا العثمانيـين جيِّـدًا، وكان عـدد مدافـع غليـون الخاصـة بهـم أقـلَّ مـن برج ظفـر أو قبودانـه، لكنهـا كانت سريعة ورشـيقة بمـا يكفـي للتنافـس مـع سـفينة سـليمان باشـا جنـكاور، وبعـد يـوم مـن قيـام الطرفـين بقيـاس قـدرة بعضهـما البعـض ووضـع خططهـما، بـدأت الحـرب بإطـلاق النـيران مـن قِبَـل الأسـطول العثـماني، وردَّ الـروس بنفـس العنـف عـلى هـذه الطلقـات الأولى، ولكـن عندمـا بـدأت السـفن مناوراتهـا التكتيكيـة، انتقـل التفـوُّق إلى الأسـطول العثـماني لفـترة قصـيرة، لدرجـة أنـه في حالـة الاضطـراب الـذي حـدث، تعرَّضَـت «تريـش سـفياتيلاي» وهـي إحـدى السـفن الروسـية الكبـيرة، لنـيران المدفعيـة مـن قبـل الأسـطول الـروسي «تريـش إيراراشـوف»، بطريـق الخطـأ، بعـد أن اسـتدار حـول سـفينة عثمانيـة، هـذه المفاجـأة التـي لم تَـدُم طويـلًا، تـمَّ تجاوزهـا بتدخُّـل أمـير البحـر إلفيسـتون والمستشـارين الإنجليـز، وتمكَّنَـت السـفن الروسـية التـي تراجعـت، وعـادت إلى خَطِّهـا التكتيـكي مـن اسـتقرار الوضـع في وقـت قصـير، رغـم الخسـائر الكبـيرة التـي لحقـت بهـا.

مـن جهـة، كان سـليمان باشـا يحـاول ضرب العـدو مـن خـلال قيـادة «جنـكاور»، وتجنُّـب قذائـف المدفعيـة التـي تمطـر عليهـم، ومـن ناحيـة

أخـرى، كان يدعـو اللـه أن ينجـو مـن هـذه الحـرب، وأن يتمكَّـن مـن لَـمِّ شـمله مـع عائشـة، في الأيـام الخـوالي، بعـد إطـلاق المدفـع الأول، كان ينـزف دمًـا، وكل مـا كان يفكـر فيـه هـو قطـع أعنـاق المزيـد مـن الأعـداء، والعـودة إلى الوطـن مـع النـصر والغنائـم الجديـدة، ولكـن الآن بعـد أن فقـدت الـثروة والشـهرة معناهـا، بـدأت المدافـع المتفجِّـرة تبـدو كشـياطين مخيفـة، يمكـن أن تفصلـه عـن محبوبتـه وطفلـه، ولأول مـرة في حياتـه، كان سـمك القـرش العثـماني، المعـروف باسـم ملـك القراصنـة، الـذي تجـاوَزَت شـهرته حـدود الإمبراطوريـة العثمانيـة، خائفًـا مـن الحـرب.

وبينـما تراجـع الـروس قليـلًا، لاحـظ بدهشـة أن بـرج ظفـر التابـع لجزايـرلي حسـن بي قـد تقـدَّم فجـأة إلى الأمـام، لم يفهـم مـا إذا كان ذلـك بمثابـة عـرضٍ للتباهـي أمـام كبـير القباطنـة، أو أن جزايـرلي حسـن بي قـد رأى فرصـة لم يسـتطع اسـتغلالها، لم يفهـم ذلـك، لكـن السـفينة المهيبـة، قـد وضعـت الأمـان جانبًـا، وتوجَّهَـت نحـو العـدو بمفردهـا، وعندمـا نظـر مـن خـلال منظـاره، رأى أن السـفينة التـي طاردهـا بـرج ظفـر هـي «سـف إيفسـتافي» وهـي السـفينة الرئيسـية للأسـطول الـروسي، كان غليـون العـدو قـد ابتعـد كثـيرًا عـن أسـطوله، وأصبـح هدفًـا سـهلًا، في كل الأحـوال، ومـع ذلـك، فإنـه لـو كان كبـير القباطنـة، لمـا سـمح لحسـن بي بشَـنِّ مثـل هـذا الهجـوم المتهـوِّر، لكنـه كان سـيطلب منـه عـلى الأقـل القيـام بذلـك جنبًـا إلى جنـب مـع سـفن الدعـم الموجـودة بجانبـه.

وسرعـان مـا دخلـت غليونـان عملاقـان بهـما ثلاثـة مسـتودعات في نـوع مـن المبـارزة، وقـام بـرج ظفـر بتنزيـل حبـال الأشرعة والصـواري كلهـا، وهـو يمطـر قذائفـه عـلى السـفينة الروسـية، وكـسر الدَّفَّـة بضربـة دقيقـة، وسـف إيفسـتافي التـي فقـدت السـيطرة، تـمَّ جَرُّهـا بواسـطة التيـار، ووضعهـا بكل ثقلهـا عـلى بـرج ظفـر، كان سـليمان باشـا يشـاهد ما يجـري بمنظـاره، ورأى جنـود البحريـة العثمانيـة تندفـع إلى السـفينة الأخـرى، والبنـادق تنفجـر، والسـيوف تتألـق عـلى ظهـر السـفينة، بـدا أن الوضـع في صالـح حسـن بي،

لكن السفن الروسية الأخرى، وصلت إلى هناك قبل السُّفن التركية، وبدأت في إطلاق النار لإنقاذ قبطانها، ونظرًا لأن القاذفتين عالقتان معًا، فقد كانت بعض قذائف المدفع هذه تنطلق على برج ظفر، وبعضها الآخر على سف إيفستافي، وكانت نار جهنم الحمراء تشتعل على كلٍّ من سطحي السفينتين، لدرجة أن أحدهم، الذي أخطأ هدفه، ضرب مخزن الذخيرة العسكرية لإحدى السفن الروسية أخيرًا، كان هناك انفجار كبير يمكن رؤيته حتى من شواطئ تششمه، وحاصرت النيران المتصاعدة في السماء السفينتين في وقت قصير، واشتعلت النيران بالسُّفُن العثمانية والروسية، مع مئات الجنود الذين كانوا على متنها.

كان جَمعُ رجالهم، الذين قفزوا في البحر لتجنُّب التعرض للحرق، هو العمل الأساسي لكلا الأسطولين، ولم يتَّضِح مَن الذي أوقف إطلاق النيران أوَّلًا، لكن سرعان ما كانت جميع السُّفُن بعيدة عن بعضها البعض، وأُعلن سلام غير رسمي، كما تكبَّدَت السفن الأخرى خسائر فادحة، وكان هناك مئات من الضحايا؛ ولذلك ابتعد الأسطولان عن بعضهما البعض، ولُعِقَت جراحهما حتى المواجهة التالية، ومن ناحية أخرى، لم تكن القوادس والسفن الصغيرة التي كانت تحاول الوصول إلى جنودها المضطربين في البحر، تلقي قذيفة مدفعية واحدة على بعضها البعض.

لم تتعرَّض جنكاور المقاتلة لإصابات كبيرة في معركة اليوم الأول، وسرعتها وخِفَّة حركتها وبراعة سليمان باشا، قد حمتها إلى حدٍّ كبير من المدفعية الروسية، ومع ذلك، كان هناك حوالي ثلاثين قتيلًا وجريحًا على سطح السفينة، وكان أطبَّاء السفينة يركضون من مكان إلى آخر، والفنيون يحاولون إصلاح النقاط المتضرِّرة من سطح السفينة.

وسأل إبراهيم أفندي -الذي لجأ إلى ظِلِّ الصاري الرئيسي، بينما كان يلفُّ ذراعه، حيث علقت قطعة من الخشب- قبطانه بقلق قائلًا:

«كيف ستسير الأمور يا ريِّس؟ هؤلاء الكفار اتَّضح أنهم أقوياء، أليس كذلك؟ إنهم يهاجمون مثل الكلاب المسعورة! هل يمكننا التغلُّب عليهم، ما رأيك؟».

أومأ سليمان باشا برأسه، قائلًا: «لقد نجونا من اليوم الأول جيدًا، وفقدوا أكثر ممَّا خسرناه، سنخوض هذه المعركة، لكن من الواضح أنها لن تكون سهلة، إن سفنهم أسرع من سفننا، وسوف نضطر إلى ضربها».

«قبل قليل وصل قارب من قبودانه، وقام بنقل الأمر العاجل لكبير القباطنة، جميع السفن تبحر، وسننسحب إلى قاع قلعة تششمه في الليل، وكان حسام الدين باشا يقول إنه بما أن الروس يقاتلون بضراوة، فإنهم سيأتون وراءنا، وكنَّا سنحمل مدافع القلعة، ونهزمهم بسهولة أكبر».

قطب سليمان باشا جبينه، قائلًا: «من أين جاء هذا!»، وفجأة استشاط غضبًا، وقال: «إن مهارتنا في التحرُّك داخل الخليج تقِلُّ بشكل كبير، لماذا نجعل حربًا انتصرنا فيها بالفعل، صعبةً! حسام الدين هذا الذي لا يعرف نفسه، ماذا يعتقد أنه فعل!».

قال إبراهيم أفندي: «الله لا يكتب خطيئة، ولكن ما حدث لبرج ظفر، يبدو أنه أخافه»، وخفض صوته حتى لا يسمع البحَّارةُ الموجودون بجانبه كلماتِه، «لقد فقدنا ثاني أكبر سفينة في الأسطول، وستكون قبودانه الآن هدفًا رئيسيًّا، يريد هؤلاء الملحدون أيضًا الانتقام لفقدانهم سُفُن أمير البحر، ليس لديَّ شَكٌّ في أنهم سيهاجمون قبودانه

في المرة القادمة التي يتم فيها إطلاق المدافع، ربما أراد حسام الدين باشا تأمين نفسه، مَن يدري».

وضع الرجل العملاق يديه على بطنه المهيب، وخفض صوته تمامًا، وقال:

«في مثل هذه الأوقات، يمكن للمخاوف غير المتوقَّعة أن تحيط بذهن المرء... فهل نبلغ حاكم رودس، يا باشا، ربما سيحذر كبير القباطنة من مخاطر هذه الخطة، إذا أصدرتَ أمرًا، فسأرسل الرسول إلى سفينته على الفور».

صمت سليمان باشا، كان يفكر جيِّدًا في كلمات مساعده الحكيمة، وخمد الغضب الموجود في قلبه ببطء، كان الانسحاب إلى الخليج عندما كانت لهم اليد العليا خطوةً خاطئة جدًّا إذا أرادوا الفوز في هذه الحرب، ولم يكن لديه شكٌّ في ذلك، لكن هل كان يريد حقًّا النصر من قلبه، في تلك اللحظة؟ ألم يشارك حسام الدين باشا مخاوفه؟ ألم يكن جمع شمل عائشة وطفلها، التي جعلها الله أمانة لديه، بأمانٍ، وعدم تركهما وحدهما وبلا رعاية في هذا العالم القذر- أفضلَ من كسب أو خسارة إحدى هذه الحروب التي تتجدَّد كل عام؟ لقد حافظت مدافع قلعة تششمه على سلامتهم، على الأقل كان كبير القباطنة على حقٍّ في هذا الصَّدد، ولم يتمكن الروس من الاقتراب منهم، وربما يستسلمون ويعودون إلى منازلهم بعد فترة.

قال بصوت هادئ: «إذا اعتبر سلطاننا أن حسام الدين باشا جدير بهذه المهمة، فهو يعلم شيئًا، ولا يليق بنا أن نُشكِّك في قرار سلطاننا، لقد أقسمنا على الولاء للإمبراطورية العثمانية، ولن نثور أو نقوم بأي تخريب، ومهما كانت الأوامر فإننا سنطيعها، إذا لم يعجب حاكم رودس هذا القرار، فسيتحدَّث إلى كبير القباطنة بنفسه، فليس لنا أن

نتدخَّل بينهما، اذهب وقُم بتجهيز السفينة، وسنذهب إلى الخليج مع الآخرين ليلًا».

نظر إبراهيم أفندي إلى قبطانه بعيونٍ مُتردِّدة، مندهشًا من هذه الكلمات، ومع ذلك لم يكن لديه الشجاعة لمجادَلة هذا الرجل الذي كان يعرفه، والمشهور باسم أسد البحار، ألقى التحية باحترام، ووقف، ومشى بعيدًا لينفذ الأمر.

استغلَّ الأسطول العثماني الغسق، للابتعاد دون لَفت انتباه العدو، أوَّلًا، انسحب أسطول السيد جعفر حاكم سنجق رودس، ثم السفن الأخرى التي قطَعَت حبال المرساة، واحدة تلو الأخرى، إلى الجنوب، إلى خليج تششمه، ونظرًا لأنهم لم يضيئوا المصابيح والفوانيس فقد ساروا بحذر في الظلام الدامس، بعد أن دخل أكثر من نصف الأسطول ضمن مدى مدفع القلعة، أدرك الروس الوضعَ، لكنهم لم يتدخَّلوا، ولم يُعرَف هل كان ذلك لأنهم لم يكونوا مستعدِّين لاشتباك جديد بعدُ، وبعد أن دخلت جنكاور الخليج ورست مرة أخرى، رأى سليمان باشا أن العدو لا يزال لا يتحرَّك، فأخذ نَفَسًا عميقًا، ربما لم يستطيعوا هم أيضًا أن يروا أي فائدة من هذه الحرب، وكانوا يبحثون عن ذريعة للعودة إلى بلادهم.

تمَّ تشكيل خط الدفاع الأول من ثمانية غليون كبيرة في حالة جيدة، وبدأت السفن الأصغر الأخرى خلفها في خطَّيْن، كان الجنود الموجودون في القلعة يحيُّونهم بالتلويح بالأعلام، ورفع الأهالي الذين بدؤوا بالتجمُّع على الشاطئ أيديهم إلى السماء، وقاموا بالدعاء من أجل النصر.

وبعد ساعات طويلة من الانتظار المضطرب، بدأ سليمان باشا يعتقد أن الأمر قد انتهى مع حلول الليل، لو كان الروس عازمين على الهجوم لكانوا قد تصرَّفوا بالفعل الآن، وعلاوة على ذلك، لم يكن من

الممكـن أن ينتـصر الـروس عندمـا كان الأسـطول العثـماني يحظـى بدعـم مدافـع القلعـة، وهــو مـا كان يمكــن أن يكــون هجومًـا انتحاريًــا، ربمــا كانــوا سـيغرقون بضـع سُـفُن أخـرى، ويقتلـون بضـع مئـات مـن جنـود البحريـة، لكنهـم بالتأكيـد سـيفقدون المزيـد، لم يكـن يعتقـد أن أمـير البحـر البريطـاني سيسـمح بمثـل هـذا الهجـوم الجنـوني، الآن يجـب أن يحـاول القـادة الـروس إقناعهـم بالعـودة إلى بلادهـم، ربمـا ينجحـون في ذلـك في وقـت قريـب، وكانـت رؤيـة السـفن الروسـية الكبـيرة الراسـية بعيـدًا، بالمنظـار الموجـود في يـده، تُعـزِّز هـذه الفكـرة، حيـث رأى أنهـم لم يكونـوا مسـتعدِّين لأي معركـة.

وفي ذلـك الوقـت، حـدث تطـوُّر غـير مُتوقَّـع، حيـث انطلقـت عـشرات المدافـع في الظـلام؛ مـمَّا أحـدث فجـوة ضخمـة في الصـاري الرئيـسي للغليون المجـاور لـه، وعندمـا حـوَّل منظـاره إلى المـكان الـذي فُتِحَـت فيه النـار، رأى أن ثلاثـة أو أربعـة غليـون روسـية صغـيرة، قـد دخلـت الخليـج مـع عَـددٍ قليـل مـن الفرقاطـات إلى جانبهـم، مسـتفيدة مـن الظـلام، وكانـت سـفن غليـون الكبـيرة للعـدو تقـف في مكانهـا، ولم يكـن هـذا هجومًـا شـاملًا، وفي غضـون دقائـق قليلـة، تمكَّنـوا مـن دفـن هـذه السـفن الصغـيرة في البحـر، دون الحاجـة حتـى إلى مسـاعدة مدافـع القلعـة، مـاذا كان هـؤلاء الـروس يحاولـون أن يفعلـوا، هـل كانـوا متعطِّشـين للمـوت؟

لقـد وضـع نفسـه في مـكان خصومـه، وفكَّـر في كيفيـة التخطيـط إذا كانـت لديـه سـفنهم، حـاول ألَّا يسـمع أصـوات المدافـع، وأن يبتعـد عـن البيئـة التـي كان فيهـا، ويـرى الخليـج والسُّـفُن مـن خـلال عيـون الأمـيرال البريطـاني، وفجـأة، أصبـح عقلـه مسـتنيرًا؛ إن هـذا الهجـوم الـذي يبـدو بـلا معنـى، يمكـن أن يكـون لـه فائـدة واحـدة للعـدو! والنتيجـة التـي توصَّـل إليهـا جعلتـه في حالـة مـن الذعـر الشـديد، وبـدأت يـداه الممسـكتان بالمنظـار ترتجفـان، كان عليـه أن يُحـذِّر الآخريـن، وأن ينفـخ في البـوق

قبل فوات الأوان! بحق الله، كان يجب أن يفعل ذلك في أسرع وقت ممكن!

كان هناك تشنُّجٌ مفاجئ في خده، وشعر بانزعاج غريب كما لو كان أحدهم يضغط بأداة حادَّة بين حاجبيه، وضع يده هناك معتقدًا أنه مصاب، ولكن لم يكن هناك دم، لم يكن مثل أي ألم آخر يعرفه، وسرعان ما اختفى الشعور بالضغط، وحلَّ محلَّه ألمٌ رهيب يعادل مسمارًا وهميًّا يخترق عينه اليمنى ببطء، وكان قوجه ريس قد أصيب جرَّاء إطلاق النار عليه، وطُعِن عِدَّة مرَّات في عشرات الحروب التي شارك فيها، كانت قطعة من الخشب قد علقت في ربلة الساق، وكان قد ضُرب على رأسه بمجرفة، ولكن أيٌّ منها لم يؤلمه إلى هذا الحد، جلس على ركبتيه، ووضع يديه على وجهه، وحاول أن يمسك هذا المسمار الوهمي، وينزعه، ولكن لم يكن هناك مسمار يخلعه، ولم يستطع فهم ما كان يحدث له.

في الوقت نفسه، وضع الروس خطة الأدميرال إلفيستون موضع التنفيذ، ودخلت أربع سفن حارقة، وسفينة نقل صغيرة -كانت مخبَّأة وراء سُفُن كبيرة حتى ذلك الحين- الخليجَ بصمت في ظلام الليل، وكانت السفن الحربية والفرقاطات الروسية الصغيرة تطلق نيران مدافعها باستمرار، بغَضِّ النظر عمَّا كانت تضربه؛ ممَّا أدَّى إلى جذب انتباه الأسطول العثماني لها؛ ولهذا السبب تمكَّنَت السفن الحارقة الصغيرة من الوصول إلى قاع الأسطول دون أن يشعر بها أحد، وقام قبطان الأسطول بربط السفن في غليون عثماني بيده، ثم صعد إلى سفينة النقل مع جنوده، وابتعد بسرعة، وعندما بدأ الأسطول العثماني بإطلاق النار للرد، استدارت السفن الروسية، التي كان هدفها الوحيد إحداث الفوضى والإلهاء، وهربت فرقاطة صغيرة واحدة فقط، تحمل أمهر مدفعية من أسطوله البحري، وأطلقت النار عدة مرات على المكان الذي كانت فيه سفن الحرق المتعمَّد، قبل أن تغادر المكان، لم

تكـن هـذه المدافـع مملـوءة بقذائـف المدفـع، بـل كانـت مملـؤة بالقنابـل المـدوَّرة والخِـرَق المدهونـة بالزيـت، وعندمـا أصـاب عـدد قليـل منهـم الهـدف، تطايـرت السـفن الحارقـة فجـأة في الهـواء.

وسرعـان مـا غطَّـت النـيران التـي ارتفعـت إلى السـماء الغليـون حيـث كانـت السـفن راسـية، وكانـت السـفن الشراعيـة العثمانيـة راسـية بالقـرب مـن بعضهـا البعـض؛ لتلائـم الخليـج الضيـق أمـام القلعـة، حيـث انتشرت النـيران بسرعـة فيهـا مـن واحـدة إلى أخـرى، وكان الصـاري المقلـوب والمحـترق، والـشراع المشـتعل والـذي سـقط عـلى ظهـر السـفينة كافيًـا لتحويـل السـفينة المجـاورة إلى مرجـل مـن الجحيـم، وعندهـا اقـترب الأسـطول الـروسي بسرعـة بـكل سُـفُنه، وبـدأ في إطـلاق النـار بمدافعـه التـي تنفـث المـوت، وشـكَّلَت ألسـنة اللهـب والدخـان المتصاعـد مـن النـار جـدارًا سـميكًا، لدرجـة أن مدفعيِّـي القلعـة الباقـين لم يتمكنـوا مـن رؤيـة العـدو؛ ولذلـك لم يتمكنـوا مـن إطـلاق النـار بدقَّـة.

لم يكـن سـليمان باشـا عـلى علـم بنهايـة العـالم الـذي تحطَّـم مـن حوله، وفي نفـس الثـواني، كان يمـرُّ بنهايـة عـالم مختلفـة تمامًـا داخـل نفسـه، حيث تفاقـم الألم في عينـه، وكأن عـدوًّا لا يرحـم كان يطعنـه بسـيفه باسـتمرار في تلـك البقعـة، في العـادة، يعـاني الإنسـان مـن هـذه المعانـاة مـرة واحـدة فقـط، ثـم يرحـل عـن هـذه الحيـاة، أمَّـا هـو فقـد كان يتعـرض لهـذا الألم دون انقطـاع، ولا يعـرف كيـف يوقفـه، كان يتدحـرج عـلى سـطح السـفينة مـن هنـا إلى هنـاك، وهـو يـصرخ ويتوسَّـل بشـدَّة للمسـاعدة، وهـرع بعـض جنـود البحريـة إليـه، لكنهـم لم يعرفـوا مـاذا يفعلـون، ثـم هربـوا مذعوريـن مـن الحريـق الـذي انتـشر مثـل الوبـاء مـن سـفينة إلى أخـرى، كـما لاحـظ سـليمان باشـا الحريـق، لكنـه رآه منقـذًا رحيـمًا، وليـس تهديـدًا مخيفًـا، ووقـف بآخـر قوَّتـه، وصرخ مـن الألم، وركـض إلى النـار التـي كانـت تتزايـد خلفـه، ولم يتوقَّـف صراخـه حتـى اجتاحتـه النـيران.

في ذلـك اليـوم، نجـت واحـدة فقـط مـن عـشرات السـفن الشراعيـة الراسـية في ميـنـاء تشـشـمه، وخمـس قـوادس صغـيرة مـن الحريـق، وظفـر بهـا الـروس، مـع قلعـة تشـشـمه، وفقـد أكثر مـن عـشرة آلاف بحَّـار وجندي عثـماني أرواحهـم، وكانـت المياه المصطبغـة باللـون الأحمـر مُغطَّـاة بجثـث محترقـة أو غارقـة، ومـن رأوا شروق الشـمس عندمـا انتهـت المعركـة عنـد الفجـر، سـواء كانـوا مـن العثمانيـين أو الـروس، لـن يتمكّنـوا مـن محـو الجحيـم الـذي شـاهدوه مـن ذاكرتهـم حتـى يموتـوا.

10



كان «إيه آر18» ينتظر في الظلام، وهو مرتجف الأيدي، وإذا سُئل، كان سيقول إنه مضطرب، لكنه لا يعرف ما إذا كان ما يشعر به في الواقع هو نفس ما يشعر به الشخص عندما يكون مضطربًا، تمَّ تسجيل الأحداث التي سيشعر بالارتباك بسببها، في ذاكرته بالتفصيل، عندما تحدَّث هذه الأحداث، جسده يسخن، ويداه ترتجفان من وقت لآخر، ويتسارَع تَنفُّسه، حقيقة أنه تَمَلمَلَ في مقعده، ونظر إلى اليسار واليمين بقلق، تمَّ ترميزها على أنها أوامر لا تقاوم لنظام التشغيل، وتمَّ تعديل الاستجابات للزيادة أو النقصان وفقًا لدرجة التأثيرات، كانت مواجهة ذلك بحداثة من شأنها أن تُغيِّر حياته بشكل جذريٍّ، واحدة من الأحداث التي أدَّت إلى هذه السلوكيات، لا بُدَّ أنهم بدوا كأشخاص مرتبكين بحركاتهم الحالية، لكنه كان مرتبكًا بشأن ما إذا كانت الاستجابات الجسدية المماثِلة تعني الشعور بأنه مثلهم،

كان هنـاك صـوت عميـق داخـل نظـام التشـغيل، يقـول إنـه يجـب أن يكـون أكـثر مـن ذلـك.

لم يكـن لـدى أنظمـة الـذكاء الاصطناعـي الأخـرى لروبوتـات «إيـه آر»، هـذا النـوع مـن الأكـواد المطابقـة للعاطفـة، ولم يرغـب مخترعوهـا في أن يتصرَّفـوا بطريقـة إنسـانية؛ لذلـك كان يعلـم أنـه روبـوت مُميَّـز، واسـتطاع أن يـدرك أن التجربـة التـي سـوف يعيشـها بعـد قليـل، سـتكون الأولى بالنسـبة لـه، وأنهـا سـتغير حياتـه تمامًـا.

أضـاءت المـرآة التـي كان يجلـس أمامهـا، ببـطء، وركَّـز «إيـه آر18»، اهتمامـه مـن أجـل رؤيـة انعكاسـه، واسـتعدَّ لهـذه التجربـة غـير العاديـة، منـذ يـوم إنشـائه، كان الوجـه الـذي رآه في المرايا يتألَّـف مـن فـم معـدنيٍّ رفيـع الشـفة، وكامـيرا ضخمـة مثبتـة عـلى كـرة دوارة، شـعر بدهشـة كبـيرة، وهـو يحـدِّق في الوجـه الجديـد المؤقَّـت إلى حـدٍّ مـا، فـوق جسـمه الفـولاذي المقـوى، والعيـون الزرقـاء الباهتـة، والحواجـب السـميكة، وأنفـه مثـل الحُـقِّ، والأذنـين الملائمتـين، والجلـد البـشري الـذي يغطِّيهـا، واتَّسـعت عينـاه، وانفتـح فمـه كثـيراً عندمـا قـام نظـام التشـغيل بتنشـيط حـركات الجسـم المقترنـة بشـعور بالدهشـة.

قـال كـمال، مشـيدًا بابتهـاج: «هـذا أمـر غـير عـادي حقًّـا»، كان الأمـر كـما لـو كان يشـاهد المشـهد الختامـي العظيـم لعـرض مسرحـي مثـير للإعجـاب.

«آسـف للسُّـخرية منـكِ مـن قبـل، يـا أوقيانـوس، لقـد قمـتِ حقًّـا بعمـل رائـع هـذه المـرة! وأنـا أنحنـي أمامـك بإعجـاب! لقـد قمـتِ بالفعـل بإنشـاء عمـل فنـي».

تنهَّـدَت الشـابَّةُ، قائلـة: «كنـتُ أعـرف دائمًـا أننـي أسـتطيع فعـل ذلك... كانـت فقـط مسـألة وقـت، أتمنَّـى أن يكـون أهلنـا هنـا، ويسـتطيعون أن

يـروا ذلـك، وخاصَّـة والـدي... كان يقـول لي دائمًـا إنـه يعتقـد بأننـي سـوف أقـوم بأشـياء غـير عاديـة في المسـتقبل».

ونظـرت بعاطفـة أم إلى روبوتهـا المحبـوب، الـذي كان مشـغولًا بفحـص نفسـه أمـام المـرآة، وعندمـا أخبرتـه أنهـا أطلقـت عليـه اسـم مراد، اسـتقبل «إيـه آر18» خـبر أن يكـون لـه اسـم أيضًـا، بنشـوة طفوليـة.

وبينـما كان مـراد يلمـس وجهـه الجديـد بأطـراف أصابعـه الفولاذيـة، جعـل أوقيانـوس تشـعر بالاهتـمام الـذي أَوْلَتـه لـه، لقـد تذكَّـرت اليـوم الـذي وجـدت فيـه هـذا الروبـوت في سـاحة الخُـردَة، كأنـه كان بالأمـس، كانـت إحـدى ذراعيـه وسـاقيه غـير موجـودة، وذكاؤه الاصطناعـي مُعطَّـلًا، وكان قـد تُـرك لمصـيره وحـده، في العـالم كلـه، وبينـما كانـت تنظـر إليـه فكَّـرَت قائلـة «كيـف يشـبهني»، لقـد كانـت روحًـا تعـاني مـن الوحـدة، وغـير قـادرة عـلى التكيُّـف مـع هـذه الحيـاة التـي تواجِهُهـا... لم تكـن متأكِّـدةً أبـدًا، ولكـن بالنظـر إلى نموذجـه، فقـد كان عامـلًا آليًّـا في المـاضي، وربمـا تمَّـت تنحيتـه جانبًـا لتَجنُّـب التحقيـق عندمـا تَعـرَّض للدمـار في حـادث عمـل غـير مُسجَّل، وأمضـت سـنوات في إصلاحـه، وتعويـض النقص بواسـطة الأجـزاء التـي جمعتهـا مـن الروبوتـات الخـردة الأخـرى، وتحسـين ذكائـه الاصطناعـي، وإضافـة ميـزات بَشريَّـة، لقـد كانـت الآن سـعيدة جـدًّا بهـذا الجـمال المبهـر الـذي يقـف عـلى بُعـد خطـوات قليلـة. في الواقـع، أثنـاء مشـاهدته، كانـت تشـعر بأكـثر مـن الفـرح، بمشـاعر قريبـة مـن الحـب.

وقـف كـمال أمـام الفتـاة وطـوى ذراعيـه، وكان هنـاك تعبـير فضـولي مـع نظـرات مليئـة بالتقديـر عـلى وجهـه، وقـال:

«لا شـك أن عائلتـك سـتكون فخـورة بـكِ إذا رأوا مـا قُمـتِ بـه، لكننـي متأكِّـدٌ مـن أنهـم فخـورون بـك بينـما لا تزالـين عـلى قيـد الحيـاة، لقـد أخفـوك عـن أنظارهـم، هـل سـتخبرينني بـسِرِّكِ، أم سـيكون هـذا أحـدَ

اختراعاتك الغامضة مثل الاختراعات السابقة؟ لديَّ فضول بشكل خاص حول قصة هذا الأنف الفاتن!».

ضحكت الفتاة، قائلة: «سأخبرك بقدر ما تستطيع أن تفهم»، وربَّتَت على ذراعه المغطَّاة بالوشم بذراعها الروبوتية، والتي تمَّ استبدالها بالذراع الذي فقَدَته في الحريق، وتمَّ استبدال إحدى رجليها، التي فقَدَت وظيفتها، في نفس الحادث، بساقٍ آلية، في ذلك الوقت، لم تكن تقنية الأعضاء الاصطناعية متطوِّرةً إلى هذا الحد؛ لذا فقد قامت قبل بضع سنوات بتجديدهما بأحدث الأجزاء، كان عليها أن تعترف بأن ذراعها وساقها الحالية، كانت أكثر فائدة من ذراعها وساقها السليمة، كان من المستحيل تقريبًا تمييزها عن أعضائها الحقيقية، حيث كانت مُغطَّاةً بجلد مصنوع من حمضها النووي.

وأضافت قائلة: «في الشهر الماضي، نقلتُ قياسات وجه مراد إلى أصدقائي الذين يعملون في مستشفيات غير مسجَّلة، وأرسلوا لي عشرات الوجوه المؤهَّلة مقابل مبلغ ضخم، أنت تعرف عدد الجثث مجهولة الهوية التي تصل إلى المشارح حول العالم كل يوم، لا أحد يهتمُّ إذا كان لديهم وجه عند دفنهم، أم لا، كنتُ قد اشترطتُ أن يتمَّ إرسال الوجوه إليَّ يوم وفاة صاحبها؛ لذلك ظلَّت الأنسجة سليمة، لقد أهدرت الكثير منهم أثناء التجارب، لكن في النهاية كان واحدًا منها يناسب مراد تمامًا، قمتُ بتوصيل أذنيه بمستقبلات الصوت، وأجهزة استقبال الكاميرا التي أدخلتها من مكان محجر عينيه، واضطررتُ إلى إنشاء ووضع حاجبيه وعينيه الاصطناعية في بيئة منفصلة، هذا الأنف مخصَّص للعرض فقط، لسوء الحظ، ليس له وظيفة حتى الآن، لكني أعمل عليه!».

أدار كمال رأسه، وانحنى أمام المرآة، بقدر كافٍ، ونظر إلى إيه آر18، الذي كان يحرِّك فمه وأنفه ليدرس الأشكال الغريبة التي دخلها.

«لقد سمعتُ الكثير عن إجراء ذلك ما بين البشر، ولكن ربما تكونين أنت أول شخص يقوم بزرع وجه من إنسان إلى روبوت! ربما أكون أوَّلَ بَشريٍّ شاهَدَ هذا، إنه شعور مثير للاهتمام، لقد شعرت بأنني متميِّز».

قالت أوقيانوس، وهي تهزُّ كتفيها بشكل آلي: «لم يكن ليحدث لو لم تحظره الدولة»، هناك العديد من العلماء الموهوبين في الجامعات، بعضهم لديه إمكانيات غير محدودة، والفَرق الوحيد هو أنني لست خائفة ممَّا يخافون منه، إذا كان أحدهم مهووسًا به، لكان قد نجح بالفعل منذ فترة، ومع ذلك، نعم، أعتقد أنني كنت أوَّلَ مَن فعل ذلك في ظلِّ هذه الظروف».

عبَّر كمال عن رأيه، قائلًا: «ربما يجب أن تكوني خائفة قليلًا أيضًا»، ولم يستطع أن يرفع عينيه عن مراد إطلاقًا.

وقال: «كما تعلمين، إذا تمَّ اكتشاف ما فعلتِه؛ فسوف يقوم رجال شرطة مدينة اسطنبول بهدم المستودع الخاص بكِ على رأسكِ، حيث تقع تجارب إضفاء الطابع الإنساني على الروبوتات في إطار الجرائم من الدرجة الأولى».

ضحكت أوقيانوس بفخر، قائلة: «لا يمكنك أن تخترع دون المخاطرة»، وقامت بدفع شَعرها ذي النصف الأحمر، والنصف الأرجواني، والذي سقط أمام عينيها، بيدها، «تاريخ الاكتشافات يشهد على ذلك! لم نكن لنتمكَّن من الطيران اليوم، إذا لم يجرؤ أحدٌ على الارتطام بالأرض... إلى جانب ذلك، هذه فقط الخطوة الأولى! في المحاولة الثانية، سأجعله يخرج في صورة إنسان، وأضعه في الأماكن العامَّة، وأمشي به في عدد من الأحياء، وربما أُدخِله إلى المقهى، وأجعله يسأل عن الاتجاهات، مَن يدري! دعونا نرى ما إذا كانت التعديلات التي أجريتها ستجعله يبدو وكأنه شخص حقيقي؟».

مازحها كمال، قائلًا: «أراهن أنه ليس لديك ملابس رجالية في منزلك! إذا كنتِ ترغبين في ذلك، سأحضر لمراد بدلةً لإخفاء جسده المعدني، ونجعل شَعرَه مثل شعر العريس، فالفتيات في الشارع سوف يُغرَمن به... ونجعله شابًّا عريض المنكبين، ضخم الجُثَّة...».

قالت المرأة بصوت جاد متجاهلة سخرية كمال: «سأطلب أي شيء عبر الإنترنت، عليك الابتعاد عن هذه التجربة».

«أعيش لأَشهُر دون مغادرة المنزل، لا يوجد شيء في العالم الافتراضي لا يمكنني العثور عليه وإحضاره، أنت مُحِقٌّ فيما تقوله، هناك الكثير من الأمور التي يمكن أن تسوء، إذا ارتكبتُ خطأ فادحًا، فمن الأفضل أن تبقى بعيدًا عن هذا الحدث، حتى تتمكَّن من الإفلات منه».

«كم أنتِ متأكِّدة من أنني سأنقذك!».

«ليس هذا لأنني اعتقدت أنه عاشق كبير! إذا لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي، ستقتل نفسك خلال شهرين بسببه! شخص ما يجب أن يراقبك، هل هذه كذبة؟».

ضحك كمال بنشوة.

«ماذا تُسمِّي الكلمة الصحيحة... أنتَ درعُ الحماية لسفينتي الفضائية!»

وقامت أوقيانوس بالضغط على زر في الساعة التليفزيونية الخاصة بها، وأضيء المكان، الذي تحوَّل إلى غرفة بالكامل بفضل ثلاثة جدران محمولة أقيمت عند مدخل المستودع الذي كانوا فيه، كان أحد الجدران مُغطًّى بأوراق بأحجام مختلفة، وكان معظمها يحتوي على رسوم تخطيطية لأجهزة ميكانيكية أو روبوتات غير معروفة، وبعضها كان مخربشًا بأقلام رصاص مُلوَّنة مختلفة، وكانت الملاحظات مكتوبة بخطٍّ رديء مشوَّه، أما في بقية الأوراق فقد برزت الحسابات التي كان

أساتذة الفيزياء أو الرياضيات وحدهم قادرين على فهمها، وبعضها تمَّ شطبه بحرص، وكُتبت حسابات جديدة تحتها، وعلى جدار آخر تمَّ رسم لغز سودوكو ضخم، على الجدار كله، عندما كانت أوقيانوس تشعر بالمَلَل، أو عندما تحتاج إلى الابتعاد قليلًا عن الدراسات العلمية، وأخذ استراحة، وإراحة عقلها، الذي كان أكثر انشغالًا من الناس العاديين، كانت تلجأ إلى مثل هذه الألغاز، ونظرًا لأنها لم تأخذ فترات راحة في كثير من الأحيان؛ فقد أكملت فقط نصف اللغز الذي ظلَّ موجودًا هناك لعدة أيام، وأسفل الحائط كانت توجد صناديق وجبات جاهزة، مَن يدري منذ كم يوم وهي موجودة، كان معظمها فارغًا، لكن بعضها لم يُفتَح أبدًا.

في الأوقات التي لم تعمل فيها الشابة مع كمال، كانت تقدم خدمات القرصنة أو أمن الإنترنت للعملاء الأثرياء بهويَّات مُزيَّفة، لقد كانت عبقرية في ميكانيكا الروبوتات، وتقنيات الآلات، وكان بإمكانها الحصول على وظيفة براتب جيد، والعيش في الأبراج الضخمة والطوابق العليا إذا أرادت ذلك، لكنها اختارت العيش على الأرض في مستودع متداعٍ، بدلًا من ذلك، وكانت تقول إنها تشعر هنا بالحرية، وأن هذا المكان كان أكثر أمانًا بالنسبة لها، لتجري فيه تجاربها بعيدًا عن الأنظار.

سأل كمال قائلًا: «حسنًا، إلى أين سيؤدِّي كل هذا؟»، وعاد إلى الكرسي المغبر، الذي كان يجلس عليه منذ قليل، «ماذا سيحدث في النهاية؟».

سألت الفتاة، وقد قطبت جبينها، قائلة: «في نهاية ماذا؟».

قال كمال: «كل هذه التجارب لكِ، وعملكِ ليل نهار... لنفترض أنك نجحتِ في إضفاء الطابع الإنساني على الروبوتات، مَن الذي سيستفيد من هذا؟ لن تسمح لك الحكومة بنشر هذا الاختراع، وكما تعلمين،

لا يمكنكِ إعلانه لأي شخص، الصحف لا تتحدث حتى عن خبر الخوف من الشرطة، ويتمُّ تدقيق مواقع الإنترنت بشكل أسوأ...».

قالت أوقيانوس: «الشيء المهم بالنسبة لي هو أنني أستطيع أن أفعل ذلك... ماذا لو فعلت، هل سأبدأ العمل؟ أنا أعيش وحدي، أحب ذلك، لا أخرج من المنزل، بصراحة أحب ذلك أيضًا، ماذا أفعل بالمال أو الشهرة؟ إذا كنت تعلم أنه يمكنك كتابة روايات رائعة، ولكن لا يمكنك نشرها، ألن تجلس وتكتب؟ ألن تكون أحلامك ثقيلة على عقلك، ألا تريد وضعها على الورق، وأن تستريح؟ حسابي هو نفس الحساب... ما أشعر به عندما أنظر إلى عملي يكفيني...».

نظرت أوقيانوس بحب إلى مراد، الذي كان يستمع إليهما بصمت، ثم التفتت إلى كمال مرة أخرى، وقالت:

«علاوة على ذلك، أنت تعلم أنني لا أستطيع تكوين صداقات مع الناس، سأكون صديقة لنفسي، حسنًا؟».

قال الشاب مازِحًا: «انظري، أنا منجذب الآن. هل تضعينني في مكان الصديق، أم الإنسان؟».

قالت الفتاة بصدق: «أنت الاستثناء... كنتُ بحاجة إلى فرعٍ لأمسك به حتى لا أنقطع تمامًا عن هذا العالم، لقد كنتَ أنت ذلك الفرع».

ابتسم كمال بتعاطُف، لو حاول شرح ما تعنيه هذه الفتاة المجنونة له، لكان قد استخدم جملة مماثِلةً.

قالت أوقيانوس: «لكننا كنَّا نثرثر! لنترك الأمر وشأنه، في المرة القادمة التي تأتي فيها، سترى الشكل النهائي لمراد مرة أخرى، حتى يعتاد مراد على وجهه الجديد، دعنا نعود إلى موضوعنا الرئيسي...».

وطوت ذراعيها، ونظرت بعناية إلى الشاب، وقالت:

«لقد راجَعتُ المعلومات التي أرسلتها إليَّ، بالنسبة لهذه القضية المهمة التي أخرَجَتكَ من فراش المرض، وعميلتك الثرية... يبدو أنها حالة صعبة للغاية، هل أنت عازم حقًّا على الوقوع في هذه المشكلة؟ ماذا لو تكرَّر الألم في مكان غير مُتوَقَّع، عندما يكون فوق الركبة مباشرة، على الطريق؟ هل يستحق المخاطرة؟».

عرف كمال أن السيدة جول كانت جادَّةً بشأن الأهمية التي توليها للخصوصية؛ لذلك على الرغم من أنه كان على طرف لسانه، لم يستطع إخبار أوقيانوس عن تلك الإبر الغامضة التي خفَّفَت من آلامه، لقد كانت الحُقَن مُفيدَة حقًّا، ولم يتكرر الصداع العنقودي لمدة يومين، والعذاب الانتحاري الذي لا يطاق لم يُعانِ منه منذ ثمانٍ وأربعين ساعة، وكان مثل هدية من الجنة، لم يستطع المخاطرة بإبر جديدة، وإذا أمكن، احتمال العلاج الدائم، كان مؤلمًا أنه لا يمكن أن يكون صادقًا مع أفضل مَن لديه، وربما حتى صديقته الوحيدة، لكن هذا الألم كان محتملًا مقارنة بالصداع العنقودي.

كذب، محاولًا أن يبدو هادئًا، وقال: «لم أُصَب بنوبات صرع كثيرًا منذ وقت طويل، كما كان في السابق. إنه لا يأتي كل يوم، ويمكنني التعامل معه، لقد نفَدَت مُدَّخراتي، وقُمتُ ببعض الاستثمارات السيئة، ولا بُدَّ لي من العودة للعمل للبقاء في ذلك البرج الضخم، السيدة جول غنية للغاية، لقد قدَّمَت لي عرضًا رائعًا، وكان هذا فرصة رائعة لكلينا، ألا تحتاجين إلى المال من أجل تجاربك أيضًا؟».

قالت أوقيانوس، وهي تزمُّ شفتيها: «إذا قلتَ ذلك، فالأمر كذلك»، ورفعت ذراعها الروبوتية، وأنزلتها، واستقرَّ تعبير حنون على وجهها.

«أنا سعيدة لأن الأزمات خَفَّت، وآمل أن تستمر على هذا النحو، إن مرضك مرض سيِّئ... ليتك تُشفى منه تمامًا، لا أعرف ما إذا كان بإمكاني التحمُّل مثلك... ليس من أجل أموالك، لكني أقبل عَرضَكَ،

ليس من أجل أموالها، ولكن لرعايتك، لقد رأيتُ صور العائلة المقتولة أيضًا، إنه أمر شنيع حقًّا... خاصة إذا قاموا بحرقهم... إذا كان لي نصيب في القبض على قاتليهم، فهذا جيِّد جدًّا، حسنًا، ماذا تريد مني، ماذا سيكون دوري في اللعبة التي تخطِّط لها؟».

قال كمال: «بادئ ذي بدء، ستقومين بإجراء بحث في العالم الافتراضي، يمكنكِ الوصول إلى المعلومات التي لم يكن بإمكاني الحصول عليها بمفردي، أريد الوصول إلى جميع أنواع البيانات حول العائلة المقتولة، وأحبَّائهم، والأعداء إن وُجِدوا، وتاريخهم، والمواقع التي تصفحوها، وحساباتهم على وسائل التواصل الاجتماعي، بما في ذلك تلك التي تمَّ إغلاقها، وسجلَّات المستشفيات، وكل ما يمكنكِ العثور عليه... ثم سأطلب منكِ أن تتبعيني بطائرتك غير المرئية خلال اجتماع محفوف بالمخاطر يجب أن أعقده، أنتِ على حقٍّ، إذا ساءت الأمور ستقذينني من الورطة، لا يمكنني العيش لمدة شهرين بدونك! سأحتاج منكِ أن تراقبي ظهري».

وقالت الفتاة بقلق: «لقد نظرتُ في جميع الملفات التي أرسلتَها... لم يعجبني أن طرف هذا العمل كان يصل لحركة المساواة في اسطنبول، لا تتحدَّث كثيراً عن الأيام التي عِشتَ فيها معهم، لكن من الواضح أن ذلك لم يؤثِّر عليك جيدًا، كلَّما تمَّ طرح الموضوع، تتجهَّم، ويذبل لونك، لنفترض أنه قد حالفك الحظ مع الشرطة، ولم يتمَّ ضبطك، فهل أنت مستعد بجدية لمقابلة هؤلاء الأوغاد؟».

قال كمال بحسرة عميقة: «أنا مُجبَر على ذلك؛ جميع المعلومات التي تلقَّتها السيدة جول من الشرطة، ووصلت إليها بوسائلها الخاصة تشير إلى حركة المساواة، لا بُدَّ لي من الوصول إلى أصدقائي القدامى، والتحدُّث معهم حول هذا الموضوع، وإلا فلن أتمكَّن من المُضيِّ قُدُمًا في القضية».

«كُتب في أحد الملفات أن شقيق القتيل انضمَّ إلى حركة المساواة في اسطنبول، وأن الضحية فترت العلاقة بينه وبين بعض المسلَّحين أثناء محاولته إبعاده عن التنظيم، هل هناك أي معلومات أخرى غير مُدرَجَة في الملفَّات؟».

«لم يخالفهم فقط، بل تمَّ تهديده بالقتل عدَّة مرَّات، وقالوا له أن ينسى شقيقه، وعندما رفض ذلك، ضربوه في منتصف الشارع، لدينا سجِلَّات لهذه الرحلات، التي هبطت عدَّة مرَّات إلى الأرض للعثور على الفتى، أين هبط، وأين ذهب... ذات مرة، جاء المسلحون إلى منزله في البرج الضخم وهدَّدوه علانية، التقطت زوجته سرًّا صورًا لمن كانوا على عتبات منازلهم، ولأنها كانت تعرف قوة وإمكانيات السيدة جول، التي عملت معها، طلَبَت منها معرفة هوية هؤلاء المتنمِّرين، ومع ذلك، تمَّ حرقها هي وعائلتها بأكملها حتى الموت، قبل أن يتمكَّن المُحَقِّقون الذين عيَّنَتهم السيدة جول من إكمال هذا التحقيق».

قالت أوقيانوس: «لا عجب أن السيدة جول تشكُّ في حركة المساواة في اسطنبول، ومع ذلك، كان مَعارفي عمومًا طيبين ومثاليين، إذا كانت هذه القصص صحيحة، فسوف أكون مندهشة».

تنهَّد كمال قائلًا: «هناك خِرافٌ سوداء في كل قطيع... حتى لو كان هذا صحيحًا، لا أعتقد أن قادة حركة المساواة في اسطنبول يعرفون ما يحدث، إنهم لا يلجؤون إلى العنف إلا إذا اضطرُّوا لذلك. إنهم يستخدمون الأسلحة فقط لحماية أنفسهم وأصدقائهم، ولكن هذا الأسلحة هي بنادق الصعق، والبنادق التي تُسبِّب الإغماء... وأولئك الذين يحملون أسلحة فتَّاكة يتمُّ استبعادهم على الفور من الحركة، إذا تمكَّنتُ من الوصول إلى شخص أثق بداخله، وإذا كان بإمكاني إخباره

بما حدث؛ فسيساعدونني في الكشف عن القَتَلة، إنهم يرون أن هذا تطهير للأمعاء».

فتحت أوقيانوس فمها للتعبير عن رأيها، لكن صوتها غرق بفعل هدير مقطورة عملاقة كانت تمرُّ عبر المستودع، تُستخدم هذه الشاحنات الضخمة لتسريع أعمال البناء، وكان حجمها خمسة أضعاف حجم الشاحنة العادية، وكان الضجيج الذي تُحدِثه متناسبًا مع ذلك، وبسبب الازدحام المرعب وحركة المرور على سطح اسطنبول؛ كان الأمر يستغرق وقتًا طويلًا للشاحنات للسفر من وإلى مواقع البناء؛ لذلك أصبح من المهم أن تكون الشاحنات قادرة على حمل أكبر عدد ممكن من الأحمال في الرحلة الواحدة، وكلَّما كَبُر حجم المركبات زادت قدرتها على الحمل. كان المستودع الذي تستخدمه أوقيانوس كمساحة للمعيشة والعمل في نقطة قريبة من قواعد جسر البوسفور السابع، المعروف أيضًا باسم جسر أوغور سقا، في الأناضول. أوغور سقا، الذي صنع اسمه في التاريخ كرئيس لجمهورية المدينة، والذي أنهى الحرب الأهلية الثانية في اسطنبول، لقد بنى هذا الجسر في السنوات الأخيرة من رئاسته، ووجَّه المقطورات للمرور من هنا، أسعار الإيجارات المنخفضة في هذه المنطقة بسبب الضوضاء المفرطة، مكَّنَت أوقيانوس من تأجير مستودع ضخم، كما كانت تبحث عنه، بسعر مناسب.

قالت الشابة، وكأنها بحاجة إلى التوضيح: «إنهم يبنون برجًا ضخمًا جديدًا على بُعد كيلومترين جنوبًا؛ ولهذا السبب تمرُّ مقطورات بشكل أكثر من المعتاد».

قال كمال بهدوء: «هذا طبيعي، الأشخاص الذين يعيشون في الأبراج الضخمة ينجبون أيضًا أطفالًا، ونظرًا لأنهم لا يستطيعون الصعود إلى مستوى أعلى؛ يجب أن ينتشروا في مكانٍ ما».

ضحكت اوقيانوس قائلةً: «ماذا حدث لأحلامك بإقامة مستعمرات في الفضاء؟». كانت تحبُّ أن تسخر منه في هذا الموضوع؛ لأنها لم تعتقد قطُّ أن هذا سيحدث.

قال كمال بجدية زائفة: «ربما فعلوا ذلك ولم يخبرونا. بعد التَّعمُّق في العالم، هربوا، وتسلَّلوا من السماء».

داعبت أوقيانوس شَعرَها الذي نِصفُه باللون الأسود ونصفه الآخر باللون الأزرق الفاتح، بفضل الصبغة الخاصة التي استخدمتها، كان لون شعرها يتغيَّر كل خمس دقائق.

«بالعودة إلى موضوعنا... لعل الشخص الذي تحاول الوصول إليه في حركة المساواة في اسطنبول لا يكون هو نيشه الشهيرة؟».

عبس كمال، وقال بعد دقيقة من الصمت: «ربما، لا أستطيع أن أعرف! كان لديَّ أصدقاء آخرون، لكن نيشه كانت الأقرب إلى إدارة حركة المساواة في اسطنبول، وهي يمكنها أن تساعدني حقًّا، على الأقل أنا متأكِّد من أنها لن تضع رصاصة في رأسي، لماذا سألتِ؟».

«لماذا؟ لماذا أسأل؟ يبدو أن لديك نظام تشغيل عصور ما قبل التاريخ في عقلك، وقد تمَّ حرق دوائرك! استلقِ هنا، وسأفتح رأسك، وأغيِّر الأسلاك الخاصة بك! عندما انفصلتَ عنهم، كنتَ متشائمًا بسبب هذه المرأة المسمَّاة نيشه، ولم تستطع أن تعود لحالتك الأولى لسنوات، لقد أحضرتك من البار التكنولوجي عدَّةَ مرَّات، كنتُ في حزن عميق، كم مرَّة اضطررتُ لمغادرة بيتي العزيز بسبب هذا! لقد كنتَ مغرمًا بتلك المرأة يا كمال! قلت إنك لا تستطيع العيش بدونها! هل يمكنك أن تظهر أمامها الآن، وكأنه لم يحدث شيء قطُّ؟ أم أن كل هذا لمجرد رؤيتها مرة أخرى؟ ما دام الأمر كذلك، يا صديقي، فإني لا أريد أن أراك مُنهارًا بهذا الشكل مرة أخرى!».

قـال كـمال: «نيشـه الآن حبيبـة لأحـد قـادة حركـة المسـاواة في اسـطنبول»، مُعرِبًـا عـن أملـه في ألَّا تنعكـس مشـاعره عـلى وجهـه، مـن المـؤلم التحـدُّث عنهـا، ذلـك يُذكِّـره بهزيمتـه.

«لقـد اختـارت هـي منـذ سـنوات، ولم تكـن تريـدني، أعـترف أنني كنت مسـتاءً مـن ذلـك في تلـك الأيـام، لكـن مـضى وقـت طويـل عـلى ذلـك، وقَبِلـتُ الحيـاة كـما هـي، الآن كل مـا أفكـر فيـه هـو العثـور عـلى هـؤلاء القتلـة، والحصـول عـلى أمـوالي، لم يَعُـد يهمُّنـي نيشـه أو أي شـخص آخـر، اطمئنِّـي، أنـتِ المـرأة الوحيـدة في قلبـي الآن!».

غمـزة كـمال لهـا بشـكلٍ مثـير جعَلَـت أوقيانـوس تضحـك، وهـزَّت رأسـها، مشـيرة إلى إيـه آر18، الـذي كان يسـتمع إلى حديثهـما مـن بعيـد.

«احـذر... هـل السـيد كـمال يـسيء التـصرُّف؟ كُـنْ حَـذِرًا حتى لا يشـعر مـراد بالغـيرة، إن يـده ثقيلـة جـدًّا عليك».

ضحـك كـمال قائـلًا: «نظـرًا لأنهـا مصنوعـة مـن الفـولاذ المقـوَّى، فـلا بُـدَّ أن الأمـر كذلـك. حسـنًا، لـن أتدخَّـل بينكـما، وعـلاوة عـلى ذلـك، أنـا ذو دمٍ حـارٍّ بالنسـبة لـكِ، أعلـم أنَّـكِ تحببـين بـرودة المعـدن!».

نظـر الصديقـان إلى بعضهـما البعـض بفَهـمٍ وحُـبٍّ، وكانـا يشـعران بالسـعادة لأن يكونـا أصدقـاء مـع شـخص قَبِلَهـما عـلى مـا هـما عليـه.

قالـت أوقيانـوس: «يمكـن أن يظـل الفـولاذ المقـوى سـليمًا لعـدَّة قـرون دون أي صيانـة، إنـه متـين للغايـة مقارنـة بلحومنـا، التـي بـدأت تتهـدَّل خـلال خمسـين عامًـا... مَـن يـدري، ربمـا سـيكون مـراد وآخـرون مثلـه المالكـين التالـين لهـذا الكوكـب... عندمـا تنقـرض سـلالتنا، سـوف يسـتمرون في الوجـود كأثـر للبشريـة، وإلى جانـب ذلـك، أنـا واثقـة من أنهم سـيديرون هـذا العـالم بشـكل أفضـل منَّـا، ولـن يكـون لهـم نفـس المشـاعر والأطـماع المجنونـة مثلنـا عـلى أي حـال، وسـيعرفون كيـف سـيكون رد الفعـل تجـاه الشـخص الآخـر الموجـود أمامهـم».

قال كمال: «ربما يكون الأمر كذلك، لكن لن يكون لديهم مشاعر مثل الحب والسعادة والطمأنينة، لست متأكِّدًا من مدى إمكانية التحدُّث عن وجود ذلك من عدمه لديهم».

فجأة امتلأت الغرفة بالموسيقى الصاخبة، وأصبح صوتها أعلى وأعلى، وتغلَّب صوت الموسيقى على صوت كل الضوضاء الموجودة في الخارج، لقد كانت تشبه النشيد، ولكن بإيقاع سريع جدًّا؛ لذلك أداروا رؤوسهم إلى المكان الذي صدر منه الصوت، دون أن يتعجَّبوا قطٌّ؛ لأنهم كانوا يعرفون تمامًا ما هو، وتمَّ فتح شاشة معلومات جمهورية المدينة، التي يشترط القانون أن تكون موجودة في جميع المنازل، والمكاتب على الأرض، تلقائيًّا، وقد اعتاد مسؤولو الدولة فحص هذه الشاشات وصيانتها كل ستة أشهر، ويتمُّ فحصها بانتظام من المركز لمعرفة ما إذا كانت تعمل أم لا، وإذا كان هناك عطل بها، أو إذا أتلفها صاحب المنزل عن عَمدٍ، فسيكون الموظفون على بابك مباشرة، بعد كل صيانة، ستتحقَّق أوقيانوس بعناية ممَّا إذا كانوا قد وضعوا كاميرا على الشاشة، أم لا، وراقبوا ما يجري في منزلها، أم لا، لم يحاولوا ذلك من قبل، لكن هذا لا يعني أنهم لن يحاولوا في المستقبل.

بعد انتهاء الموسيقى مباشرة، امتلأت الشاشة بالوجه الممتلئ، والمشرق قليلًا للفنانة الاستعراضية الأكثر شهرة في اسطنبول، إيلا ياز، وكانت مبتهجة كعادتها، هذه الشابَّة، التي يعرف الجميع اسمها المستعار، ولكن اسمها الحقيقي غير معروف، كانت تتمتَّع بطاقة غير عادية، يُقدِّرها حتى كمال، في كل ثانية ظهرت على التلفزيون، كنتَ تشعر بأنها كانت أسعد شخص في العالم، وتتأثَّر بها بشكل لا إرادي بسبب مرحها، بعد سرد بعض القصص الممتعة، كشفت إيلا ياز عن أسماء سُكَّان الأرض المحظوظين الذين فازوا بشقة في الأبراج الضخمة هذا الشهر، وبعد قراءة كل اسم، كانت تصرخ فرحًا كما لو أنها قد فازت في اليانصيب، وفي الوقت نفسه، تمَّ عرض فيلم وثائقي

مُدَّتـه بضـع دقائـق عـن عجائـب الحيـاة في الأبـراج الضخمـة، وبعـد قـراءة جميـع الأسـماء العـشرة، ودَّعَـت الشـابة جمهورهـا بنفـس الطاقـة، وتمنَّـت حظًّـا سـعيدًا لجميـع النـاس في العـالم في السَّـحب التـالي.

أخـذ كـمال نَفَسًـا عميقًـا، وتمتـم عندمـا أغلقـت شاشـة معلومـات جمهوريـة المدينـة مـن تلقـاء نفسـها كـما فتحـت.

«هـل حياتـك قـذرة جـدًّا؟ هـل تزحـف حـول الأرض مثـل الحـشرة؟ في يـوم مـن الأيـام، قـد يصيبـك اليانصيـب أيضًـا... فقـط، تحـلَّ بالصبر!».

ونظـر إلى أوقيانـوس، الـذي تحـوَّل شَـعرُها إلى اللـون الأحمـر تمامًـا، بعينـين عاجزتـين وخَجِلَتَـيْن إلى حـدٍّ مـا، وقـال:

«كـما تعلمـين، عندمـا انفتحـت هـذه الشاشـة، فكَّـرتُ كـم هـو لطيـف عـدم وجـود هـذه الشاشـات اللعينـة في المـكان الـذي أعيـش فيـه، هـذا شـعور خاطـئ بأنـك محظـوظ، يجعلوننـا نشـعر بـه بالنسـبة لمـن هـم فوقنـا... كلُّنـا نتخبَّـط في خـداع كبـير، عندمـا كنـتُ في حركـة المسـاواة في اسـطنبول، كنـتُ أغضـب عـلى الأقـل مـن هـذا النـوع مـن الهـراء، وكنـتُ أشـعر بالحيـاة، أشـتاق لهـذا الغضـب».

قالـت أوقيانـوس: «مـع ذلـك، مـن الجيـد أنهـم فقـط يذهلـون عقولنـا بنتيجـة السَّـحب هـذه المـرة»، وشـدَّت بنطالهـا، الـذي كانـت أرجلـه مُبلَّلتَـيْن بزيـت الآلـة، بقلـق، «في بعـض الأحيـان تكـون هـذه الشاشـات لا تُطـاق، في الأخبـار يتحدَّثـون عـن الكـوارث الموجـودة في مـدن أخـرى لدقائـق، والحـروب الأهليـة، والأوبئـة، الأطفـال الذيـن يموتـون في المجاعة... كأننـا كُنَّـا محظوظـين جـدًّا في اسـطنبول، يجـب أن نكـون مُمتَنِّـين، الكثـير مـن الهـراء المزعـج».

في تلـك اللحظـة شـعر كـمال بشـدٍّ طفيـف في خـدِّه، وقـد حالـت حقـن السـيدة جـول دون الإصابـة بالصـداع العنقـودي، لكنهـا عـلى الأرجـح غيَّرَت في نظـام ذاكرتـه، ربمـا كانـت الأحـداث الشـيقة التـي مـرَّ بهـا واحـدة تلـو

الأخـرى، وحقيقـة أنـه كان متعبًـا جـدًّا منهـا هـي التـي أشـعلت الأزمـة. في العـادة، في هـذا الوقـت مـن اليـوم، لا يكـون الألم كثـيرًا؛ لذلـك فوجـئ بـه، وعندمـا لاحـظ أن الشَّـدَّ يـزداد اضطـرب، وقفـز عـلى قدميـه، ورأى أن أوقيانـوس كانـت تنظـر إليـه بفضـول، وضـع يديـه عـلى بطنـه، وقـال أول مـا خطـر ببالـه:

«أمعـائي مضطربـة قليـلًا، لا بُـدَّ لي مـن الإسراع إلى المرحـاض، سـأعود إليـكِ قريبًـا».

ثـم، قبـل أن تتـاح للفتـاة الفرصـة لقـول كلمـة واحـدة، ابتعـد وكاد أن يهرب.

وبينـما كان في الحـمام، سرعـان مـا سـحب الإبـرة مـن الجيـب الداخـلي لسُـترته، كان يجـب أن يكـون قـادرًا عـلى القيـام بذلـك قبـل أن يبـدأ المغـص، وإلا فلـن يكـون قـادرًا عـلى التحكُّـم في يديـه، ولـن يسـتطيع وضع طـرف المحقنـة في المـكان المناسـب، وعندمـا تحـوَّل الضغـط بـين عينيـه إلى إحسـاس بثقـب مسـمار للَّحـم، قـام عـلى عجـل بإدخـال الإبـرة في صدغـه، وعينـاه تدمعـان مـن الألم، شـدَّ يـده الحُـرَّة بقبضـة يـده، وأدخـل أظافـره في لحمـه، وقـام بحقـن نفسـه لآخـر قطـرة مـن السـائل الموجـود بداخـل الحقنـة، مهـما كان الأمـر، فقـد تسـبَّب ذلـك في وخـز طفيـف في جسـده، وجعـل درجـة حرارتـه ترتفـع، وشـعر أن وجنتيـه تتحـوَّلان إلى اللـون الأحمـر، ثـم جلـس عـلى الأرض، وظهـره إلى الحائـط منتظـرًا وصـول الـدواء إلى دماغـه، وفي غضـون ثـوان، هـدأ الألم في رأسـه، وعـاد تنفُّسـه إلى طبيعتـه، واختفـى خفقـان قلبـه، نظـر إلى انعـكاس صورتـه في المـرآة التـي تغطِّـي الجـدار بالكامـل أمامـه، وعندمـا رأى وجهـه المذعـور، شـعر بالعجـز.

كان بحاجـة إلى كل عـلاج يمكـن أن تُقدِّمـه لـه السـيدة جـول، التجـوُّل خفيـةً في الأرض، والتواصـل مـع حركـة المسـاواة في اسـطنبول، ورؤيـة نيشـه

التـي تُعَـدُّ جرحًـا لا ينـدمـل في قلبـه، مـرة أخـرى، كل هـذه لم تكـن مهـام سـهلة، ولكـن عنـد مقارنتهـا بإمكانيـة التخلـص مـن آلامـه، كانـت حقيقـة يمكـن مقاومتهـا أكـثر مـن ذلـك بكثـير.

في الوقـت نفسـه، كانـت أوقيانـوس تشـاهد كل تفاصيـل مـا يجـري في المرحـاض مـن شاشـة سـاعتها التليفزيونيـة، حقيقـة أن كـمال قـد تـولَّى مثـل هـذه القضيـة في حالتـه المرضيـة جعلـه مشـكوكًا فيـه منـذ البدايـة، المحادثـة التـي أجروهـا، والطريقـة التـي كان يركـض بهـا الشـاب إلى الحمام أثـارت فضولهـا أيضًـا، وبفضـل الكامـيرات الدقيقـة التـي كانـت تخفيهـا في سـقف المرحـاض، وكذلـك في كل ركـن مـن أركان المسـتودع، تمكَّنَـت مـن رؤيـة الإبـرة التـي أدخلهـا الشـاب في جسـده.

تنهَّدَت بعمق وقلق خانق في عقلها وقلبها.

وخاطَبَـت كـمال كـما لـو كانـت تهمـس، قائلـة: «أي عمـل تورَّطـتَ فيـه، ياكـمال... ومـا نـوع المشـكلة التـي تُدخِلُنـي فيهـا...».

11

«دعـم كبـير لشـعب الأرض مـن الأبـراج العملاقـة! سـتوفِّر جمعيـة المقيمـين في الأبـراج الضخمـة فحـصَ العـين لــ 1000 مـن ذوي الدخـل المنخفـض مـن مواطنـي اسـطنبول، مجّانًـا، في المستشـفيات المتعاقـد عليهـا، التفاصيـل أسـبوعيًّا».

"هـل تعلـم أن اسـطنبول تفقـد دخـلًا في قيمـة الـبرج الضخـم، كل عـام، بسـبب أنشـطة حركـة المسـاواة في اسـطنبول؟ لـو لم تكـن هنـاك حركـة المسـاواة في اسـطنبول؛ لربمـا كنـتَ تعيـش في بـرج ضخـم الآن».

«اسـطنبول التـي نفتخـر بهـا! تـمَّ اختيـار جمهوريـة مدينـة اسـطنبول، كأكـثر مدينـة آمِنـة مـن قِبَـل اتحـاد جمهوريـات المـدن في أوراسـيا، رئيسـنا، مهنـدس هـذا النـصر العظيـم، سـيتحدَّث في شـنغهاي اليـوم».

«أربعـة أطفـال يلقـون مصرعهـم في السـوق التـي تفجَّـرَت، ومـن المعتقـد أن المسـؤول عـن ذلـك ميليشـيات حركـة المسـاواة في اسـطنبول،

وأعلن وزير الأمن في اسطنبول، رضا ميشه، بأنه تمَّ إلقاء القبض على أربعة كُتَّاب بسبب مديحهم لأنشطة حركة المساواة في اسطنبول».

شعر كمال بالضيق وهو يقرأ الأخبار التي كانت تتغير كل بضع ثوانٍ على شاشة حائط المبنى المقابل له، كانت معظم الأخبار تُنقل غالبًا مُصاحَبةً بصور مؤلمة، وموسيقى حزينة، وكانت شاشات الصمام الثنائي الباعث للضوء تغطِّي جدار مبنى كبير في أحد الشوارع التي يستخدمها الناس في كل حي تقريبًا، وإذا سافرت من أحد أطراف المدينة إلى الطرف الآخر، فيمكنك رؤية نفس الأخبار عشرين مرة على الأقل، قبل وصولك إلى وجهتك.

خصوصًا الخبر الأخير جعله يبتسم بمرارة، كان يعلم أن قِلَّةً من الناس سوف يتساءلون عمَّا يمكن أن تستفيده حركة المساواة في اسطنبول من تفجير سوق، وحتى إذا كانت الأخبار صحيحة، فإن أولئك الذين سوف يلاحظون النِّيَّة السيئة، في ذِكر خبر اعتقال المؤلفين الأربعة في نفس الفقرة، يُعَدُّون على أصابع اليد، ولم يوضح في الخبر، عن قصد، عمل حركة المساواة في اسطنبول، الذي اتَّهم الكُتَّاب بالإشادة به، وعند قراءته بهذه الطريقة، يمكن الاعتقاد أنهم كانوا يصفقون لتفجير السوق، وكان كمال قد خمَّن أن الحقيقة كانت مختلفة عن هذا.

كما تعرَّضوا هم لمثل هذا التشهير عندما كان جزءًا من حركة المساواة، وعلى الرغم من أن غالبية أنصار الحركة كانوا من الناس المسالمين، فإن رجال الحكومة ينسبون أفعال عدد قليل من الأشرار إلى حركة المساواة في اسطنبول بأَسْرها، في محاولة لجعل المطالبة بالمساواة والحرية بمثابة الإخلال بالسلام في أعين الناس، لقد تعلَّمَت حركة المساواة من أخطاء المنظَّمات الثورية في الماضي، وعرفوا أن أعمال العنف تصبُّ في مصلحة الحكومات الاستبدادية؛ ممَّا يعطيها ذريعة

لزيادة الضغط على الناس؛ لذلك، لن يلجؤوا إلى القوة الغاشمة ما لم يحتاجوا إلى حماية أنفسهم، كانوا يقاتلون فقط من أجل الأفكار، ويحاولون نشر المثل الأعلى لمدينة، حيث يمكن لعدد أكبر من الناس العيش بسعادة وحرية، وإقناع الناس بأن ذلك مُمكِن، وكان ذلك أحد الاختلافات بينها وبين التنظيمات العنيفة، التي لم تؤدِّ إلى شيء، سوى تفاقُم المشاكل عبر التاريخ، وفتحت الحركة أبوابها لكل شخص وقف إلى جانب المظلومين، بغضِّ النظر عن آرائهم السياسية أو الدينية، المتديِّنون الذين يُصلُّون خمس مرات في اليوم في حركة المساواة، والمتديِّنات اللائي يرتدين الحجاب، ومَن يعتقدون أن الدين خُدعَة، وأولئك الذين لديهم اقتراحات مختلفة للغاية حول الطريقة التي تُدار بها المدينة، كانوا يقاتلون معًا من أجل نفس القضية، كان تحقيق المساواة والعدالة بين الناس، وإخبار الناس حقيقة ما يحدث في المدينة، ومشاركة أفكارهم بحرية- هي مُثُلهم المشتركة، حتى إن هناك متعاطفين، يعملون في وسائل الإعلام، والشركات الكبيرة، ويتقلَّدون مناصب إدارية، ومن بين الأثرياء القلائل في المدينة، ولكن لولا وجود هؤلاء الأشخاص الأقوياء، الذين لم يكونوا سعداء بذلك، والذين هم بالضرورة جزء من النظام، لما كان من الممكن أن تظلَّ حركة المساواة في اسطنبول موجودةً حتى اليوم، وكانوا يخفون هويَّتهم، وتعاطفهم مع الحركة، بعناية؛ لتجنُّب غضب جمهورية المدينة، وكانوا يساعدونهم بشكل غير مباشر فقط، على الأقل هكذا عرف كمال حركة المساواة، وهذا ما شاهده أثناء وجوده بينهم، وكان يأمل في ألَّا يتغيَّروا، وألَّا يحيدوا عن الطريق، مثل نُظَرائهم الذين اجتمعوا معًا من أجل النوايا الحسنة، والأغراض السلميَّة، وتمَّ القبض عليهم لاحقًا، في دوامة من العنف.

أدَّت الانتخابات الوشيكة إلى زيادة تواتر مثل هذه الأخبار المفصلة، وقد خُصِّص لهذا القصف عددٌ كبير من المناطيد الإعلانية، حتى في

الأبـراج العملاقـة، ومـع ذلـك، كانـت الدعايـة هنـا أكـثر كثافـة، حيـث كان التركيـز الرئيـسي للسـكان عـلى الأرض، ووفقًـا لاسـتطلاعات الـرأي، كان مـن المتوقـع أن يحصـل الحـزب الحاكـم عـلى ضعـف عـدد الأصـوات التـي يحصـل عليهـا أقـرب منافسـيه، ولكـن وفقًـا للحمـلات الانتخابيـة المكثفـة للقنـوات الإعلاميـة، فـإن رئيـس جمهوريـة المدينـة مُصمِّـمٌ هـذه المـرة عـلى أن يتـمَّ انتخابـه بأغلبيـة سـاحقة، لا بُـدَّ أنـه كان مـن الـضروري تمريـر بعـض القـرارات الحسَّاسـة مـن خـلال البرلمـان، فهـو لم يتابعهـا عـن كثـب لأنـه كان مغتربًـا عـن السياسـة، ولم يكـن لديـه أي أصدقـاء للتحـدُّث معهـم في السياسـة، في الواقـع، لا يمكـن أن يُقـال إنـه اسـتطاع أن يكتسـب أصدقـاء كُـثُرًا بعـد عودتـه إلى الحيـاة في الـبرج الضخـم.

كان قـد تـرك سـيارته «الـبرّ جوِّيَّـة» عـلى سـطح مسـتودع أوقيانـوس، سـيكون مـن الخطـير جـدًّا القيـادة في شـوارع الأرض بأحـدث طـراز مـن ڤولڤـو، في أحسـن الأحـوال، سـيصطفُّ المتـشرِّدون عـلى جانبـي السـيارة قبـل أن تتمكَّـن مـن المـرور في شـارعين، وسـيتزاحم حولـك المتسـوِّلون عندمـا تضطـرُّ إلى التَّوقُّـف في حركـة المـرور، لم يكـن يمانـع في منحهـم المـال، لكنـه كان يعلـم أن كل قـرش سـيدفعه لهـم، سـيجذب المزيـد مـن المتسـوِّلين إلى سـيارته، وفي النهايـة لـن يكـون قـادرًا عـلى المـضيِّ قُدُمًـا.

وعـلى الرغـم مـن أنـه تَـرَكَ حيًّـا واحـدًا فقـط وراءه، إلا أن السـير وسـط هـذا الحشـد الهائـل قـد أرهقـه بالفعـل، كانـت الأرصفـة مكتظَّـةً للغايـة، لدرجـة أن النـاس بَـدَوا وكأنهـم يتحرَّكـون بحركـة بطيئـة، وكان مـن الـضروري التوقُّـف كل بضـع خطـوات، كان المتـشردون والمتسـولون يغلقـون الطرقـات، مسـتلقين عـلى حشـايا قـذرة أمـام البنايـات، وكان الشـارع ذو الأرضيـة غـير المسـتوية، والممتـد بـين الأرصفـة مكتظًّـا بعـدد لا يحـصى مـن السـيارات والشـاحنات والحافـلات التـي كانـت تسـير بالقـرب مـن بعضهـا البعـض تقريبًـا، وعـلى الرغـم مـن هـذا الحشـد الرهيـب، لم يَقُـم أحـد بالتدافُـع أو الدفـع ببعضـه البعـض، كلهـم قبلـوا الوضـع

الـذي كانـوا فيـه دون التشـكيك فيـه كقانـون مـن قوانـين الطبيعـة، كان الإحسـاس الـذي سـيطر عـلى وجوههـم الشـاحبة هـو التعـب، وإيمانهـم القـوي بـأن لا شيء يمكـن أن يتغـيَّر أبـدًا قـد أضعـف تمـرُّدَ النـاس منـذ قـرون.

خـرج كـمال مـن مـكانٍ لجـأ إليـه لالتقـاط أنفاسـه، وتنهَّـد عندمـا بـدأ في المـشي مـرة أخـرى، في بعـض الأحيـان، كان يتـوق إلى عـدم معرفـة أنـه يمكـن أن يكـون هنـاك شيء أفضـل، مثـل كل هـؤلاء النـاس، وإلى الجهـل المريـح.

بينـما كان يسـير مـع الحشـد، ويتوقَّـف كلَّ ثـلاث أو أربـع خطـوات، أمسـك رجـلٌ سَـمينٌ طويـل، كان يمـرُّ بجانبـه، ذراعـه فجـأة، ومـال عـلى أذنـه، وكانـت رائحـة فمـه كريهـة، وتفـوح منهـا رائحـة «بيكريـت»، هـذا المهـدئ العـصري الجديـد تـمَّ تقنينـه مـن قِبَـل جمهوريـة المدينـة قبـل بضـع سـنوات، وكان يُعتقـد أنـه يحمـي الجمهـور مـن الغضـب.

«هـل تريـد بعـض التسـلية يـا سـيدي؟ أقسـم بالله أنهـا ليسـت باهظة الثمـن، متعـة نظيفـة، مائـة بالمائة قانـوني! السـعر قابل للتفـاوُض!».

أدار كـمال رأسـه، ونظـر إلى الصـورة التـي كان يمدُّهـا الرجـل إلى أنفـه، وكأنـه سـوف يدخلهـا فيهـا، كانـت الصـورة فيهـا فتـاة مراهقـة، في سـنِّ الطفولـة تقريبًـا، تَعـرِضُ بشـكلٍ جـذَّاب جسَـدَها نصـف العـاري متوهِّجًـا تحـت الأضـواء عليهـا، وقـد تـمَّ وضـع مـادة خاصـة عـلى بشرتهـا لجعلهـا تتألـق، كانـت تضـع الكثـير مـن الماكيـاچ، وكانـت ضعيفـة جـدًّا لدرجـة أنهـا قـد تنكسر إذا لمسـتها، حـرَّر كـمال ذراعـه مـن الرجـل واسـتمر في المـشي، ولم يكـن يريـد أن يقـول شـيئًا خاطئًـا، ويبـدأ القتـال مـن العـدم.

اسـتمرَّ الرجـل السـمين في السـير بجانبـه بـإصرار، بـدا الأمـر وكأنـه سـيكون مـن الصعـب التخلُّـص منـه، لم يكـن هنـاك مـكان يهـرب منـه وسـط هـذا الحشـد.

«الفتيات لسن لك، أليس كذلك يا سيدي؟ ماذا عن الأولاد؟ أستطيع أن أجد ما تريد! أو هل أنت مُتديِّن؟ تقبَّل الله، وفَّقكَ الله إلى ما تريد! اسمح لي أن أريك شيئًا آخر، وهو رخيص، لأجلكم تمامًا».

هذه المرة، كانت هناك صورة لمسجد في الصورة الممتدَّة إلى وجهه، رجل يشبه الشيخ كان ينشد مع أربعة أو خمسة شُبَّان تجَمَّعوا حوله، كانوا يجلسون القرفصاء على الأرض، ويرتدون أردية بيضاء مُطرَّزة.

«هل تَوَدُّ أن تذهب أمام الشيخ حسني لطيف، صلاة واحدة تساوي ألف مشكلة! يمكنني اصطحابك إليه، وتكيته قريبة من هنا، إذا لم يكن لديك وقت، فهناك مقاطع ڤيديو ذِكْر بخمس ليرات من اسطنبول، وسوف أقوم بتحميلها على شاشة التليفون الجميلة الخاصة بك على الفور! إذا لم يكن هناك نقود، فسيكون هناك أموال افتراضية!».

عندما سمع كمال هذه الكلمات الأخيرة، همهم مدركًا لماذا ألحَّ عليه البائع اللزج، لقد ارتكب خطأ فادحًا، حيث كان دائمًا يترك ساعته التليفزيونية الباهظة الثمن في السيارة «البَر جوِّيَّة» أثناء تجواله على سطح الأرض، ولكن هذه المرة كان قد نسيها، أي بائع متجوِّل يراه كان يعتقد أن محفظته ممتلئة، ويقفز عليه، لقد ترك الرجل وراءه، وهو يدفع الناس الموجودين أمامه قائلًا إنه لا يريد أن يكون سطحيًّا، وسار متجاهِلًا الشتائم المتناثرة التي كانت تحوم خلفه، وسرعان ما خلع الساعة التليفزيونية، وأخفاها في الجيب الداخلي لسترته.

خُذ بضع خطوات، توقَّفْ، انتظر حتى يتحرَّك الأشخاص الموجودين أمامك، مرة أخرى، قُم بعَدِّ الثواني، لا تهتم بالرجل الذي ينفث أنفاسه خلفك، ولا تغضب من الرائحة الكريهة التي تملأ أنفك، وتجاهل الأشخاص الذين يصطدمون بكتفك، ابقَ هادئًا.

هدِّئ من روعك.

مهما حدث، لا تغضب، خُذْ بضع خطوات، توقَّف مرَّةً أخرى، انتظر مرور السيارات، تجاهَلْ أبخِرَةَ العادم التي تُلوِّث الهواء، لا تنظر إلى الوجوه الميتة للأشخاص من حولك، خُذ نفَسًا عميقًا، هدِّئ من روعك، خُذْ بضع خطوات، توقَّف، انتظر حتى يتحرَّك من أمامك، مرة أخرى، انظر الى السماء، ابتعد عن الزحام، أنت لست هنا الآن، تخيَّل أنك في منزلك الهادئ، هدِّئْ من روعك، مهما حدث، ابقَ هادئًا.

ترك كمال شارعين خلفه، بتكرار ذلك في ذهنه دون توقُّف، بهذه الطريقة فقط كان قادرًا على احتواء الغضب الذي كان ينمو في قلبه، وما إن بدأ يعتقد أنه سيحظى بيوم خالٍ من الأحداث على الأرض اليوم، حتى اندلعت فجأة صرخة على بُعد ثلاثين مترا، كان رجُلٌ طويل القامة في منتصف العمر، يرفع العصا الموجودة في يده في الهواء، وكان يهزُّها بكل قوته نحو الأبراج العملاقة البعيدة، ويلكم صدره من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يصرخ بصوتٍ عالٍ، من حيث وقف، لم يستطع كمال رؤية وجه الرجل، لكن كان من الواضح أنه كان يعاني من أزمة عصبية كبيرة.

«لقد طفح الكيل! لا أستطيع التحمُّل! لا أستطيع التحمُّل! هذا الحشد سيقتلني! لا أستطيع التنفُّس يا رجل! أنا أشمئزُّ منكم جميعًا! يا لها من حياة قَذِرة! لا أستطيع العودة إلى المنزل لساعات، أنا أختنق! انفضُّوا من حولي، وافتحوا الطريق! لا أستطيع التنفُّس، لقد قلتُ ابتعدوا!».

ابتعدَ الأشخاص الموجودون حول الرجل، عنه بقدر ما سمح الحشد بذلك، ووقف الجميع يراقبه بأعين، البعض منها يدين هذا التمرُّد، والبعض الآخر يُدعِّمه، حاول كمال التحرُّك في هذا الاتجاه بدفع الناس أمامه، بعجلة، وهو يصيح، قائلًا: «اصمت الآن، اصمت!...

اخرس أيُّها الرجل، اهدأ!». إذا لم يصمت الرجل على الفور، كان سوف يصاب بالذُّعر ممَّا سيحدث له.

ولكنه كان خائفًا قبل أن يتمكن من الوصول إلى نصف المسافة بينهما، حيث نزلت إحدى المركبات الجوية المُسَيَّرة، التابعة لقوات أمن جمهورية مدينة اسطنبول، وهي من طراز سي42، وكانت تحلِّق على ارتفاع ثلاثمائة متر فوق الأرض، بسرعة كبيرة، ووصلت إلى مكان الحادث، وألقت الطائرة بدون طيَّار -والتي تشبه طبقًا طائرًا صغيرًا- كرةً من الطاقة بحجم قبضة اليد من السبطانة الموجودة أمامها بعد الاقتراب بدرجة كافية، ونثَرَت الكرة الطائرة وميضًا باللون الأزرق اللامع، أصاب الرجل، الذي استمرَّ في الصراخ وضرب الأرض بقدمه، في رقبته، تسَمَّر الرجل في مكانه للحظة، واتَّسع ما بين ذراعيه، وانزلقت عصاه من بين أصابعه المفترقة، وسقطت، ثم وقع مُنكَبًّا على وجهه.

عندما مرَّت الطائرة بدون طيار بسرعة فوق الحشد، وارتفعت في نطاق المراقبة مرة أخرى، تقدَّم أحد الأشخاص الذين كانوا يراقبون الرجل قبل قليل، خطوتين إلى الأمام، وصرخ، وهو يهزُّ قبضته، كان على ياقة ثوبه شعار حرس المجتمع، الذي وزَّعَته الحكومة على الشباب الذين تطوَّعوا لحماية النظام، كان شابًّا وسيمًا، بشعر أشقر قصير، كان هزيلًا بسبب عدم تغذيته بشكل صحيح، وكانت الملابس التي يرتديها فضفاضة جدًّا بالنسبة له.

«أنت مُفسِد! خائن! هل قُمتَ بقياس طولك؟ على مَن تتمرَّد؟ مَن أنت، عليك اللعنة! هذا الرجل هو أحد العاهرات في حركة المساواة في اسطنبول، من الواضح!».

ثم تشنَّج، و ركله ركلة كبيرة في جانبه، وكأنه يركل كرة القدم.

وفي لحظة، قفز ثلاثة آخرون من الحشد، وسرعان ما أصبحوا تسعة، البعض مصاب بجنون العَظَمَة من حركة المساواة في اسطنبول

التـي نُقِشَـت في أذهانهـم، لكـن معظمهـم ركلـوا الرجـل المسـتلقي بـلا حـراك وبـلا قـوة عـلى الأرض؛ للتنفيـس عـن غضـب حياتهـم البائسـة التـي تؤلمهـم، وكان البعـض الآخـر غاضبًـا مـن أن شـخصًا آخـر اسـتطاع أن يقـول مـا لم يسـتطيعوا هـم قولـه؛ بدافـع الخـوف، مُذَكِّـرًا إيَّاهـم بنقـاط ضعفهـم.

راقـب كـمال مـا يحـدث، بـلا حـولٍ ولا قـوة، وهـو يشـدُّ قبضتيـه لبعض الوقـت، وكان يرتجـف حيـث كان موجـودًا، وأظافـره محفـورة في جسـده، وعندمـا جمـع شـتات نفسـه فتـح يديـه بالـكاد، وكان وجـه الرجـل المحكـوم عليـه دون محاكمـة مغطًّـى بالدمـاء، وكانـت الطائـرة بـدون طيـار تراقبهـم، وهـي تُحلِّـق فوقهـم بشـكل تهديـدي، ولم يكـن بوسـعه عمـل أي شيء.

اسـتمرَّ في السـير، تجاهَـلْ القسـوة، اقمَـعْ مـا في قلبـك، وهـدِّئْ مـن روعـك.

أنت وحيد الان، ليس لديك مكان للاختباء، ولن يساعدك أحد.

اخفـض عينيـك، انظـر في مـكان آخـر، فكِّـرْ في أشـياء مختلفـة، ليـس لديـك خيـار آخـر، يجـب عليـك المشـاركة.

هدِّئ من روعك...

بعـد مسـيرة طويلـة ومرهِقَـة وخانقـة، فقط عندمـا قال إنه لا يسـتطيع التحمُّـل أكـثر مـن ذلـك، وصـل إلى النقطـة التـي يريـد الوصـول إليهـا، بـين مسـجد صغـير سـاحر، ومبنـى إداري متهـدِّم، كان هنـاك مبنـى مكـون مـن ثلاثـة طوابـق، جديـد ونظيـف نسـبيًّا، مقارنـة بالمبـاني الأخـرى المجـاورة، وقـد كُتـب عـلى اللافتـة الموجـودة أعـلى المدخـل الـدَّوَّار «مركـز الدعـم النفـسي لمؤسسـة أيلـين كيليـش»، وأمـام البـاب وعـلى المكتـب الموجـود في الردهـة، كان هنـاك حُـرَّاس أمـن يرتـدون الـزِّيَّ الرسـمي، وأيديهـم عـلى بنـادق الطاقـة الموجـودة في أحزمتهـم، لم تكـن هـذه الإجـراءات الأمنيـة

المشددة أمرًا غير معتاد، نظرًا لأن بعض المرضى الذين يعالجون في مراكز الدعم النفسي يميلون للعنف بشدَّة.

لم يقاوم التفتيش عند دخوله، وعندما أظهر بطاقة التأمين الصحي من الدرجة الأولى، ابتسمت الفتاة الصغيرة ذات الشَّعر الأحمر في مكتب الاستقبال له بودٍّ.

«نهارك سعيد، يا سيد كمال، ألم يكن من الأنسب أن تذهب إلى أحد المراكز الموجودة في الأبراج الضخمة؟ بطاقتك صالحة في جميع المراكز، يعمل فرعنا ذو الإمكانيات الأوسع في برج كريستال، ويمكنني تحديد موعد لك إذا كنت ترغب في ذلك».

قال كمال: «لا، شكرًا، لقد أردتُ بشكل خاص أن آتي إليكم، أشار عليَّ صديق لي، كان قد استفاد من خدماتكم من قبل، وأشاد بطبيب هنا، وأخذ منه العلاج، وتخلَّص من كل كوابيسه، لديَّ مشاكل مماثلة؛ لذلك أريد أن أقابل هذا الطبيب».

سألت الفتاة بتعبير طفولي، قائلة: «تُرى، أي طبيب لدينا؟».

«الأستاذ المساعد علي عثمان ياووز.»

«حسنًا، يا سيدي، أنا أتحقَّق من مواعيده الآن، أطبَّاؤنا مشغولون للغاية اليوم، ولكن بطاقة التأمين من الفئة «أ» لها العديد من المزايا، وأعتقد أنه سوف يمكنك مقابلته».

قال كمال بابتسامة ودية: «سأكون سعيدًا جدًّا بهذا الأمر».

وبينما كانت الموظفة تفحص أوقات المواعيد على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، نظر الشاب إلى الكتابات الرقمية الموجودة على الحائط، كانت الكتابة مباشرة على الحائط بدلًا من الشاشة، وكانت هذه تقنية مألوفة بالنسبة للأبراج الضخمة، ولكنها باهظة الثمن بالنسبة لسُكَّان لأرض، لا بُدَّ أن مركز علم النفس كان يعمل بشكل جيد، كان

مكتوبًا على الحائط كيف كانت العيادات ممتلئة أو فارغة، بالنسبة للعيادات التي يتردَّد عليها الكثيرون.

ميل للعنف الشديد والسيطرة على الغضب: مزدحمة حتى الغد.

مركز علاج الإدمان على الإنترنت: كامل لمدة الأيام الثلاثة التالية.

الأمراض العقلية الناجمة عن الازدحام والضجيج: كاملة حتى الأسبوع القادم.

مشاكل التلاؤم مع الأعضاء الصناعية: فارغة حتى الساعة 14.30 بعد الظهر فقط.

من أجل المشاكل الأخرى، يُرجى استشارة الموظَّفين.

بعد ثوانٍ قليلة نظَرَت الفتاة ذات الشَّعر الأحمر إلى كمال بعيون سعيدة، وكأنها اكتشفت كنزًا، وضحكت، وأظهرت أسنانها اصفرارًا، وقالت:

«أنت محظوظ! الدكتور متاح لمقابلتك، كان من المقرَّر أن يغادر في وقت مبكِّر اليوم، وكان لديه اجتماع في غرفة الأطباء، لكن أعتقد أنه تم إلغاؤه، تنتهي مواعيده في غضون ساعتين، وإذا كنت تريد الانتظار، فلدينا ردهة في نهاية القاعة، كما نقدِّم خدمة إنترنت مجانية».

قال كمال: «أعلم، كنتُ هنا من قبل... لسبب آخر بالطبع».

أدار رأسه، ونظر من النافذة، لم ينقص الحشد في الشارع على الإطلاق.

«أعتقد أنني سأنتظر، شكرًا».

يمكن أن تتسع غرفة الانتظار لعشرين شخصًا كحدٍّ أقصى، وكانت مزدحمة جدًّا، وجد ركنًا ليجلس فيه على إحدى الأرائك ذات اللون الأخضر الباهت، ولاحظ ما بداخلها، كانت امرأة عجوزًا، نصف

جسـدها مُكـوَّن مـن أطـراف آليـة، تشـدُّهم بيَـدٍ واحـدة جيـدة، كـما لـو كانـت غـير مرتاحـة لوجودهـم هنـاك، مثـل كثـير مـن النـاس الذيـن وضعهـم الاقتصـادي غـير جيـد، لم تسـتطع تغطيـة أعضائهـا الاصطناعيـة بالجلـد، وكان هنـاك رَجُـلٌ أسـود كبـير يتأرجـح ذهابًـا وإيابًـا بـلا انقطـاع، ومـن يعـرف مـن أي مدينـة في العـالم هاجـر إلى اسـطنبول، كان البعـض الآخـر مـن مُدمِنـي الإنترنـت مـن جميـع الأعـمار يدفنـون رؤوسـهم في أجهـزة الكمبيوتـر الورقيـة، والسـاعات التليفزيونيـة، ولا يهتمـون بمـا يحيـط بهـم، وكأنهـم لا يسـتطيعون التوقُّـف عـن تصفُّـح الويـب حتـى لـو كان هنـاك حريـق في الغرفـة، أو قـام أحدهـم بـدسِّ يـده في جيوبهـم وسرق محافظهـم، كانـت عيـون البعـض محتقنـة بالـدم، وخدودهـم هزيلـة ونحيفـة لأنهـم لم يتمكَّنـوا مـن تنـاول الطعـام بشـكل صحيـح بسـبب عـدم قدرتهـم عـلى مغـادرة العـالم الافـتراضي، وكانـت هنـاك امـرأة طويلـة ونحيفـة ومريضـة بشـكل ملحـوظ، تجلـس متربِّعـةً بمفردهـا في زاويـة عـلى الأرض، وذراعاهـا ملفوفتـان حـول جسـدها، ورأسـها مدفـون في صدرهـا، وتتأرجـح ذهابًـا وإيابًـا، وكانـت عيناهـا مغمضتـين بإحـكام، وأحيانًـا تغطـي أذنيهـا بيديهـا، مهـما كان، لا بُـدَّ أن مشـكلتها تدخـل ضمـن المشـاكل الناجمـة عـن الحشـد والضوضـاء.

لم تكـن الاضطرابـات النفسـية أقـلَّ شـيوعًا في الأبـراج الضخمـة، لكـن أسـبابها كانـت مختلفـة؛ الخـوف مـن المرتفعـات، والشـعور بالحبـس في المسـاحات الضيقـة، وضرورة قضـاء معظـم حياتهـم داخـل أربعـة جـدران كانـت ثقيلـة بالنسـبة لبعـض النـاس، حتـى إنـه كان لديـه عميـل كان مهووسًـا بالأفـكار المخيفـة، بـأن أولئـك الموجوديـن عـلى الأرض سـيهاجمون يومًـا مـا الأبـراج الضخمـة، ويقتلونهـم جميعًـا، وقـد دفـع الكثـير مـن أرباحـه لعلـماء النفـس بسـبب كوابيسـه، وعـلى الرغـم مـن كل تقاريـر الأمـان التـي قُدِّمَـت لـه لعـدَّة أشـهر بـأن الاحتـمالات لم تكـن عاليـة جـدًّا، إلا أنهـا لم تسـتطع أن تنقـذه مـن هـذا الهـوس، والطبيـب النفسـي المُكلِّـف.

وبينما كان يقف هناك ينتظر ويتفرج، نهض الرجل المجاور له عندما جاء دوره، وجلست مكانه امرأة شابة دخلت الغرفة لتوها، كانت المرأة مُتحجِّبة، وترتدي معطفًا طويلًا، وكانت هناك خرزة إلكترونية كبيرة للعين الشريرة حول رقبتها، وقيل إن حبَّات العين الشريرة الإلكترونية هذه يمكنها الكشف عن مستوى الغيرة، والعين الشريرة، والعين الحاسدة، والحسد من حولها، ويزداد سطوعها، وينخفض تبعًا لهذا النوع الضار من موجات البُعد السادس التي تأتي من الإنسان، وعلى الرغم من أن آثارها لم تثبت علميًّا، إلا أنها كانت شائعة جدًّا، كان ما في رقبة المرأة شاحبًا غير مُلفِت للنظر تمامًا، وهو أمر طبيعي تمامًا نظرًا لأن كل شخص في الغرفة كان مشغولًا بعالمه ومشكلته، ولا يمكن مقارنة شخص بأي شخص آخر، وكان الشيء الأساسي الذي جذب اهتمام كمال، هو أن المرأة كانت تسحب الكابل من جيبها كل بضع دقائق، وتعلِّق أحد طرفيه بساعتها التليفزيونية، أمَّا الطرف الآخر ذو الطرف المستدير فكانت تُمرِّره من خلال أزرار معطفها، وتضعه على بطنها، عرضت شاشة العرض في الساعة الصورةَ الموجودة على الشاشة، على ظهر المقعد الموجود أمامه، وقامت المرأة بتدوير الصورة ثلاثمائة وستين درجة، بطرف إصبعها للتكبير والتصغير، وكانت تفحصها باهتمام، وعلى الرغم من أنه لم يكن يرغب في عدم احترام خصوصية أي شخص آخر، إلا أنه لم يستطع إلَّا أن يلفت عينيه إلى تلك الصورة، ومن النظرة الثالثة فقط، أدرك أن الشكل المنعكس على ظهر الكرسي كان صورةً بالموجات فوق الصوتية، في كل مرة كانت المرأة تقوم بتشغيل شاشة العرض في ساعتها بقلق شديد، وكانت تأخذ نَفَسًا عميقًا عندما تتأكَّد من أن الطفل بخير، وكرَّرَت الموجات فوق الصوتية الدقيقة خمس عشرة مرَّة على الأقل في نصف ساعة، وفي كل مرة كان نفس التعبير المقلِق يظهر على وجهها، وكانت تتصبَّب عرَقًا على جبهتها، وفي اللحظات التي لم تفعل فيها ذلك، كانت تضرب

ركبتيها بأصابعها، وكأنها لا تستطيع أن تتحكَّم في نفسها، وكانت تشدُّ حجابها بحرص، وبعد فترة، عندما كُتب الرقم 129 في اللافتة ذات اللون الأرجواني لقسم العقد التكنولوچية، تحسَّنَت حالتها بنشوة، ووضعت الكابل في جيبها، وهروَلَت إلى هناك.

بعد ساعتين مُمِلَّتَيْن، أتت إليه مُمرِّضةٌ في معطف أبيض، وقالت إن الطبيب علي عثمان ياووز بك ينتظرك، كان رجُلًا لطيفًا في منتصف العمر، مع كاميرا مُصغَّرة مكان عينه اليمنى، تبعها كمال بسلاسة، وعندما دخل إلى الغرفة، وكان بمفرده مع الطبيب، تنهَّد بعمق، وابتسم.

«مرحبًا يا سيد علي، أنا سعيد للغاية لأنك استطعت تخصيص وقتٍ لي اليوم، لقد أنقذتَ صديقي من الكثير من المتاعب، وقد أوصاني بشدَّة، إنه يعتقد أنك الشخص الوحيد في اسطنبول الذي يمكنه حل مشكلتي».

رفع الرجل السمين ذو الشعر الخفيف رأسه من الملفات الموجودة على مكتبه، ونظر إلى كمال، كان لديه وجه لطيف، وكان أحد الأشخاص الذين لن تتردد في إخبارهم إذا كانت لديك مشكلة، وكان واضحًا من الطريقة التي وقف بها متجمِّدًا في كرسيه، والذهول على وجهه، وعدم الارتياح في عينيه- أنه تعرَّف عليه بمجرد أن رآه، ومع ذلك، مع سنوات من الخبرة، استجمع شتات نفسه في بضع ثوانٍ، واضعًا تعبيراً هادئًا كما لو كان أمام مريض عادي.

وقال مشيراً إلى الكرسي الجلدي البالي أمام الطاولة: «تفضَّل، اجلس يا سيد كمال... أخبِرْني عن مشاكلك، من فضلك، بالطبع، سأبذل قصارى جهدي، لا تقلق أبدًا، قُلْ كل ما تشعر به دون تردُّد».

نظر كمال باهتمام إلى وجه الطبيب وهو جالس، ربما كان سيجد صعوبة في قراءة وجهه، ومع ذلك كان الأمر كما لو كان سعيدًا برؤيته،

بعد أن اجتاز المفاجأة الأولى، كان هو والرجل -واسمه الحقيقي حسين- صديقين حميمين عندما كانا في حركة المساواة في اسطنبول، وقد قرَّبهما ببعضهما البعض شغفُهما برواية محظورة تُدعى إينجه ميميد، يروي هذا الكتاب -وهي أحد الأعمال التي أدرجتها جمهورية مدينة اسطنبول على القائمة السوداء منذ قرون- قصَّة قرويٍّ شاب تمرَّد على إقطاعيٍّ مُستبدٍّ، وقرَّرَت جمهورية المدينة أن مثل هذه الشخصيات المتمرِّدة أثارت الانهزامية، ومعاداة النظام بين الشباب، وأحرقت وأعدمت جميع الروايات والأفلام التي كانت قد أدرجتها في القائمة السوداء، وأزالت آثارها من الإنترنت، لدرجة أن كمال وعلي عندما حصلا على نسخة من إينجه ميميد، التي نجت بطريقة ما من الحرق، وأخذت تحت حماية حركة المساواة في اسطنبول، بحَثَا لأشهر في الوثائق التاريخية، وفي العالم الافتراضي عن الكاتب الغامض، واسمه يشار كمال، لكنهما لم يتمكَّنا من العثور على أي معلومات عنه، وكان علي قد اعتقد أخيراً أنه لا يوجد شخص قطُّ باسم يشار كمال، وأنه كان اسمًا مستعارًا لكاتب معروف كان خائفًا من جمهورية المدينة، وكان كمال -من ناحية أخرى- لديه أحلام لا حصر لها حول هذا الروائي الذي شعر معه بألفة خاصة بسبب لقبه، في كل مرة كان يصنع ماضيًا مختلفًا في عالم أحلامه، ويعطيه وجهًا مختلفًا، ويتساءل دائمًا عمَّا هو عليه حقًّا، وما إذا كان حتى موجودًا، وما نوع الحياة التي عاشها، وهل كتب كتبًا أخرى، أم كان هذا عمله الوحيد؟ وهل وصل إلى كثير من الناس وقت كتابته؟ هل أحبَّ أهل تلك السنوات هذا الشاب الشجاع، وكفاحه من أجل العدالة بقدر ما أحبَّهم؟ كانا يدردشان لساعات حول هذه الرواية، ويضعان أنفسهما في مكان الشخصيات في القصة، وخاصة مكان إينجه ميميد، ويقلِّدانها.

خاطر كمال بحياته لإنقاذ حسين من مداهمة للشرطة خلال تلك الأيام عندما أمضَيَا معظم وقتهما معًا، لكنه لا يعرف ما إذا كانت

كل تلـك السـنوات قـد قضـت عـلى مشـاعر الصداقـة والامتنـان، أم لا، واندفعـت عينـاه إلى شاشـة معلومـات جمهوريـة المدينـة، المعلَّقـة مثـل العنكبـوت مـن السـقف، وكان عـلى اسـتعداد لأن يقـدِّم عمـره لمنـع هـذا الجهـاز اللعـين مـن التشـغيل أثنـاء حديثهـما.

بـدأ كـمال يـروي قصتـه المزيَّفـة، قائـلًا: «مشـاكلي كوابيـس لا تنتهـي»، كان قـد اختـار مثـل هـذا الطريـق، مـع الأخـذ في الاعتبـار احتـمال أن عمـلاء الحكومـة كانـوا يتنصَّتـون إلى هـذه العيـادة، لم يسـتطع لا هـو ولا حسـين الكشـف عـن هوياتهـما الحقيقيـة، وعلاقاتهـما بحركـة المسـاواة.

«إنهـا تجعلنـي مُتعَبًـا جـدًّا، وأصبحـت لا تطـاق الآن، وقـد اعتـدتُ رؤيتهـا مـرة في الشـهر، في الوقـت الحـاضر بـدأت تتكـرَّر كل ليلـة تقريبًـا، لقـد سـمَّمَت هـذه الكوابيـس حيـاتي؛ فأنـا محـروم مـن النـوم كل يـوم، ولا يمكننـي التركيـز في عمـلي، ناهيـك عـن المخـاوف المميتـة التـي أتعـرَّض لهـا أثنـاء نومـي... سـتكون حيـاتي جحيـمًا إذا لم تسـتطع مسـاعدتي».

أومـأ حسـين برأسـه قائـلًا: «حقًّـا، قـد تكـون الكوابيـس لا تطـاق في بعـض الأحيـان»، وطـوى يديـه الكبيرتـين عـلى بطنـه، وقـال لـه: «أخـبِرني مـاذا رأيـت، مـن فضلـك، وسـنرى مـا يمكننـا فعلـه حيـال ذلـك».

«أرى نهـرًا، نهـرًا مائجـا وهائجًـا للغايـة، ولـديَّ شـعور بـأن هنـاك شـيئًا مـا في قـاع ذلـك النهـر يُمثِّـل مسـألة حيـاة أو مـوت بالنسـبة لي، لا أعـرف مـا هـو، في أحلامـي يظـل لغـزًا دائمًـا، وعندمـا أكـون عـلى وشـك القفـز إليـه، يختفـى النهـر فجـأة، وأبقـى في وسـط الغابـة، وأشـعر بـألم شـديد، وأنفجـر في البـكاء، وأحيانًـا عندمـا أسـتيقظ يكـون خـدِّي مُبلَّـلًا، وأعتقـد أننـي أبـكي حقًّـا أثنـاء النـوم، وإذا لم أسـتيقظ في تلـك اللحظـة، فسـأركض بجنـون عـبر الأشـجار لبقيـة الكابـوس، وأشـعر أننـي لا أسـتطيع التنفُّـس، وينقطـع نفـسي، وأحـاول العثـور عـلى النهـر، فأنـا حقًّـا... أحتـاج حقًّـا

للعثـور عـلى النهـر، لكنـه لا يظهـر أمامـي عـلى الإطـلاق، وهـذا يؤلمنـي حتـى المـوت... إنـه يُدمِّـرني».

«هل ترى هذا الكابوس كل ليلة؟».

«نعـم مؤخَّـرًا، إنـه يرهقنـي حقًّـا يـا دكتـور، مـاذا تعتقـد أن النهـر قـد يُمثِّلـه بالفعـل؟ مـا الـذي أبحـث عنـه، ومـا الـذي أفتقـده؟».

«يجـب أن أراقبـك لفـترة مـن الوقـت لأقـول لـك ذلـك... سـأصف لـك بعـض المهدِّئـات، اسـتخدمها لمـدة أسـبوع، ثـم عُـد إليَّ مـرة ثانيـة، في لقائنـا الثـاني نتحـدث عـن طفولتـك وشـبابك، وسـنحاول العثـور عـلى الحـدث أو الأحـداث التـي أدَّت إلى هـذه الأحـلام، لكـن علينـا أوَّلًا كبـح جـماح عواطفـك؛ لذلـك أطلـب منـك تنـاول هـذه الحبـوب لمـدة أسـبوع، قبـل بـدء العـلاج، فقـط في الصبـاح بعـد الإفطـار».

قـال كـمال بعيـون ممتنَّـة: «حسـنًا، يـا دكتـور، سـآخذها دون تأخـير... شـكرًا جزيـلًا لـك عـلى مسـاعدتك، أعتقـد أنـك سـتخرجني مـن هـذه المشـكلة، أنـا أثـق بـك، وإلا فلـن أتمكَّـن مـن العيـش طويـلًا؛ فـإن هـذه الكوابيـس سـتقتلني».

نهـض ومـشى إلى الطاولـة، ومـدَّ يـده وصافـح الرجـل بطريقـة وديـة، وعندمـا التقـت أعينهـما لثـوانٍ قليلـة، نظـر حسـين إليـه برأفـة، وتفهُّـم.

وضـع كـمال تذكـرة الـدواء التـي كتبهـا الطبيـب في جيبـه، وغـادر الغرفـة بخطـوات سريعـة، وأثنـاء مـروره عـلى الاسـتقبال، وانتظـار الدفـع الـلازم مـن بطاقـة التأمـين، لم يسـتطع أن يمنـع نفسـه مـن إخـراج تذكـرة الـدواء، والنظـر إلى الشريحـة الدقيقـة التـي لصقهـا حسـين في نهايتهـا، وكان سـعيدًا لأن نيشـه كانـت لا تـزال تسـتخدم الاسـم الرمـزي «نهـر» في حركـة المسـاواة في اسـطنبول، وأنهـا لم تجـد صعوبـة في فهـم مـا يريـده صديقهـا منهـا، كان يعلـم أن لا أحـد سـيخبره عـن مـكان نيشـه، لا يمكنـك الوصـول إلى قـادة حركـة المسـاواة في اسـطنبول، يمكنهـم الوصـول إليـك إذا أرادوا؛

ولهـذا كان يجـب أن يعرفـوا مكانـك، سـيبلغ حسـين نيشـه بالتأكيـد بهـذا اللقـاء، وإذا أرادت المـرأة رؤيتـه فسـيكون رجالهـا قادريـن عـلى العثـور عـلى كـمال بفضـل شريحـة التتبُّـع هـذه، كان مجـرد أمـل، لكـن في بعـض الأحيـان يعنـي الأمـل كل شيء، طـوى التذكـرة الطبيـة بعنايـة، ووضعهـا في محفظتـه، واسـتعاد بطاقـة التأمـين الخاصـة بـه، وتوجَّـه إلى البـاب.

كان يشـعر بالسـعادة عندمـا تقـدَّم إلى الحشـد الهائـل في اسـطنبول، لم يتألَّـم منـذ أيـام، كان يعمـل عـلى قضيـة مثـيرة للاهتـمام، وكان هنـاك احتـمال أن يـرى المـرأة الوحيـدة التـي وقـع في حبهـا طـوال حياتـه، مـرة أخـرى بعـد سـنوات، كان مـن الجيـد العيـش بالرغـم مـن كل مشـاكله وأخطـاره.

رفـع رأسـه، ونظـر إلى السـماء، وعـلى الرغـم مـن أنـه لم يسـتطع رؤيتهـا مـن النقطـة التـي كان متواجـدًا بهـا، إلا أنـه كان يعلـم أن طائـرة أوقيانـوس بـدون طيـار، كانـت تُحلِّـق حولـه وتتبعـه، كان لهـذا الجهـاز، مـراوح صغـيرة للغايـة، بحجـم نحلـة كبـيرة، وكامـيرا رائعـة، وقـد ألصقـت الفتـاة عدسـةً خاصَّـةً مـن اختراعهـا بهـذه الكامـيرا حتـى تتمكَّـن مـن رؤيـة الشـخص أو الـشيء الـذي كانـت تُركِّـز عليـه مـن بعيـد، إن تصميمهـا المقـاوم للـرادار، وصِغَـر حجمهـا ليكـون غـير مـرئي للعـين المجـردة، جعلهـا أداةَ تَجسُّـس رائعـة.

أرسـل للفتـاة ابتسـامة دافئـة؛ لأنـه علـم أنهـا كانـت تراقبـه بفضـول الآن، سـيكون مـن الأفضـل لـو بقـي عـلى سـطح الأرض لفـترة، في مسـتودع أوقيانـوس؛ حتـى تتمكَّـن حركـة المسـاواة في اسـطنبول مـن الوصـول إليـه، لم تكـن هنـاك حاجـة إطلاقًـا لإزعاجهـم بـكل ترتيبـات الأمـن الموجـودة في الأبـراج العملاقـة، أخـذ نفَسًـا عميقًـا كـما لـو كان ذاهبًـا للغـوص في البحـر، وبـدأ مشـيه الصعـب، واختلـط بحشـد مـن النـاس يتدفقـون أمامـه مثـل الطوفـان.

12

كان وقت الظهيرة عندما دخلت وحدة فرسان حاكم السنجق إلى فِناء التكيَّة، وكانت أشِعَّة الشمس تتدفَّق بلُطفٍ عبر الأغصان، وحيث كانت عالِقةً في الأرض، كانت جسور الضوء تتشكَّل بين السماء والأرض، وريح خفيفة ولطيفة تلاعب أوراق الأشجار، وكانت الطيور تطير بلا مبالاة من شجرة إلى أخرى، وكأنها تساير اللعبة، كان الدراويش قد استيقظوا منذ فترة، وتناولوا إفطارًا خفيفًا، وتجمَّعوا في حضور كبار المولوية للاستماع إلى الحديث الأول في ذلك اليوم، وكان يلدريم، كالعادة، يغفو عند البئر، وذيله مدسوس بين رِجلَيْه، وكان يرى أحلامًا مزيَّنة بعظامٍ لذيذة، ويشعر بالحَكَّة من وقت لآخر بسبب الذبابتين الضخمين اللَّتَيْن يدوران حول رقبته، لكن ذلك لم يزعجه بما يكفي ليقطع نومه الجميل، وأرهف السَّمع بواسطة أذنيه الحسَّاستين فجأة عندما سمع صوت مجموعة من الخيول تقترب بسرعة، من جاؤوا لا يمكن أن يكونوا من التكيَّة، كان الجميع تقريبًا بالداخل الآن، وكان

هنـاك بالفعـل فَرَسـان عجـوزان في التكيـة، يتـمُّ اسـتخدامهما فقـط لتلبيـة الاحتياجـات العاجلـة، وفي غضـون ثـوانٍ، دقَّـت أجـراس الإنـذار في ذهنـه، وقفـز وركـض في الاتجـاه الـذي أتى منـه الغربـاء، كـما لـو كان لديـه براغيث تتطايـر عـلى ذيلـه، بـدأ ينبـح ويعلـو صوتـه بتعبـير تهديـد.

تتكـوَّن وحـدة سـلاح الفرسـان مـن عشريـن محاربًـا مدرَّعًـا يتقدَّمـون عـلى هيئـة صفَّـيْن، وكان عـلى رأسـهم فارس صغـير وسـيم الوجـه، يتقدَّمهم بطـول حصـان، يرتـدي قميصًـا عاديًّـا بـدلًا مـن الـدِّرع، ووشـاحًا حريريًّـا بـدلًا مـن حـزام مُكـوَّن مـن سلاسـل مثـل الآخريـن، وكان الجنـود مسـلَّحين بسـيوف طويلـة، بعضهـا عليهـا بُقَـعُ دمـاء جافَّـة، وهنـاك أقـواس وكِنانـات عـلى ظهورهـم، وبعضهـم كان يحمـل مسدَّسـات إسـبانية أحاديـة الرصاص، بينـما كان يحمـل هـو يَطَقـان لامعًـا فقـط، يبـدو وكأنـه لم يُسـتَخدَم قـطُّ.

وعندمـا اقتربـوا مـن البـئر، أوقـف كبـير الفرسـان فرسـه الأبيـض ذا العُـرف المرقَّـط، ونظـر بتمعُّـنٍ إلى تكيَّـة المولويـة، كـما لـو كان يحـاول معرفـة مـا إذا كانـوا في المكان المناسـب، ونظـر إلى الكلـب الـذي كان ينبـح بشراسـة عنـد قدمَـيْ حصانـه، وابتسـم، وأعجـب بغريـزة الحيـوان البائـس لحمايـة أصحابـه، ووضـع يـده عـلى قلبـه، وحيَّـاه باحـترام، كان لديـه حـبٌّ صـادق لـكل مـن يحـاول القيـام بواجبـه عـلى الوجـه الصحيـح.

الكـوخ، الـذي كان يسـتخدم في الأصـل كسـماعخانة؛ ولذلـك كان أكـبر قليـلًا مـن الأكـواخ الأخـرى، كان أيضًـا مكانًـا للدردشـة الصباحيـة، انفتـح بـاب الكـوخ الخشـبي ذو المصراعـين، وخـرج حسـام الديـن چلبـي وخلفـه مظفـر أفنـدي الشـجاع، ومعـه اثنـان مـن الدراويـش الشـباب، بألف سـؤال في أذهانهـم، وقَلَـقٍ خانِـقٍ في قلوبهـم، وسـاروا نحـو الجنـود.

وبعـد أن بقيـت خطـوات قليلـة بينهـما، قـال الشـيخ بصـوت عـالٍ: «السـلام عليكـم أعـزائي! أهـلًا وسـهلًا»، «مرحبًـا بكـم في بيتنـا الفقـير، مـن

أيـن أتيتـم، وإلى أيـن أنتـم ذاهبـون؟ مـا هـي الريـاح التـي أتـت بكـم إلى هنـا؟».

وضـع كبـير الفرسـان المبتسـم ذو الوجـه الطفـولي يـده عـلى قلبـه مـرة أخـرى، وانحنـى، وقـال:

«مرحبًـا، چلبـي أفنـدي،سـلام اللـه عليكـم! نحـن قادمـون مـن مسـافة بعيـدة، ولم نتمكَّـن مـن أخـذ اسـتراحة لأيـام، لسـاننا وحنكنـا جافَّـان... نحـن مرهقـون، عندمـا سـمعنا أن هنـاك تكيـة في هـذه المنطقـة، أردنـا زيارتهـا، وقلنـا دعنـا نحظـى بدعائـكَ، ربمـا لديـك وعـاء مـن الحسـاء لتقدِّمـه لضيـوف اللـه».

قـال چلبـي وهـو يبتسـم ابتسـامة خفيفـة: «بالتأكيـد يـا عزيـزي، عـلى رؤوسـنا»، ولم يبعـد عينيـه عـن الرجـل، محـاولًا قـراءة روحـه بخبرتـه التـي قارَبَـت قرنًـا مـن الزمـان، لم يشـعر بـأي عَـداء أو سـوء نيَّـة لـدى هـذا الشـاب، بـل عـلى العكـس مـن ذلـك، شـعر بالحـب تجاههـم.

«هـذا بيـت اللـه، وبابـه مفتـوح للجميـع، لم نرفـض أحـدًا أبـدًا حتـى اليـوم، اذهـب إلى السـماعخانة، واسـترِح قليـلًا، بئرنـا نظيفـة، يمكنـك سـحب المـاء، وعندمـا يحـين وقـت تنـاول الطعـام، نتشـارك معًـا في كل مـا أعطانـا إيـاه الخالـق».

نظـر قائـد الفرسـان إلى الرجـل العجـوز بعيـون مُمتنَّـة، وقفـز مـن عـلى حصانـه بحركـة سريعـة، ووصـل إلى جانبـه في خطوتـين، وعانقـه بشـدَّة، وكأنـه كان سـعيدًا جـدًّا لوجـوده هنـا، وسرعـان مـا ترجَّـل الجنـود الآخـرون، وربطـوا البغـال والأفـراس القويـة في الأشـجار القريبـة.

قـال قائـد الفرسـان: «نحـن نلاحـق عصابـة شريـرة داهَمَـت قريـة جـوزه لي وأضرمـت النـار فيهـا... الملحـدون الذيـن قتلـوا أفـراد الأسرة، واعتـدوا عـلى شرف عـشرات النسـاء، وقـد دعـا النـاس عليهـم كثـيرا! وتابعناهـم حتـى هـذا المـكان القريـب، ولكننـا فقدنـا أثرهـم في الغابـة،

بعـد أن نسـتريح الليلـة، يجـب أن نرحـل مبكِّـرًا غـدًا، ومـن واجبنـا أن نجـد هـؤلاء المغتصبـين قبـل أن يفـروا إلى الجبـال».

قـال چلبـي بصـدق: «سـاعدك اللـه، أيُّهـا الشـجاع... لسـوء الحـظ، لم نسـمع مـا كان يحـدث، لم نكـن نعـرف شـيئًا عـمَّا تتحـدَّث عنـه، أعـرف قريـة جـوزه لي، وسُـكَّانها أنـاس طيبـون، اليـوم كلنـا نصـلي مـن أجلهـم، وأتمنـى أن تجـدوا هـؤلاء الأشـقياء في أسرع وقـت ممكـن، وتكـون أرضنـا آمنـة، أيمكنـك أن تخـبر هـذا الرجـل العجـوز باسـمك؟».

«ينادوننـي حسـن، يـا شـيخي، ديليقازاقـلي حسـن، أنـا لسـت مـن هـذا الحـي، لا بُـدَّ وأنـك حسـام الديـن چلبـي أيضًـا، لقـد سـمعتُ اسـمك كثـيرًا في القـرى التـي زرتهـا، إنهـم يحبونـك كثـيرًا هنـا، ويقولـون إنـه شـخص مبـارك، وراعـي الفقـراء».

حنـى حسـام الديـن چلبـي رأسـه، قائـلًا: «حيَّـاك اللـه»، وكان مُحرَجًـا، وأضـاف، قائـلًا: «القرويـون هنـا لديهـم قلـب نقـي، ولديهـم حسـن ظـن».

قـال المحـارب بصـوت مُتحمِّـس: «أعـرف القليـل عـن آداب المولويـة... يجـب أن تكونـوا في دردشـة في هـذه السـاعة، آسـف لجعلكـم هنـا، في الواقـع، عندمـا كنـت صغـيرًا، كنـت أقـوم بمحـاكاة الدراويـش، وحلمـتُ أن أتقـدَّم في السـن في إحـدى التكايـا، مـع الأسـف، أخذتنـي الحيـاة بعيـدًا عن أحلامـي، وأجبرتنـي عـلى تقلُّـد السـيف... سـتكون كذبـة إذا قلـت إننـي لم أشـهد السـماع لفـترة طويلـة، وأننـي لم أشـعر بنشـوة جميلـة هنـا الآن، هل يمكننـا مشـاهدتك وأنـت تـدور؟ بعـد الدردشـة، نرجـو أن تفـرح قلـوب الجنـود، لعـلَّ صـدأ أعينهـم -التـي تـرى الـدم والمـوت باسـتمرار- يُمحـى، يجـب أن تكـون هنـاك مثـل هـذا السـماع العظيـم، ولكـن ينبغـي أن يـأتي كلُّ مَـن في تكيـة الدراويـش!».

أحـبَّ حسـام الديـن چلبـي هـذا الشـاب الـذي يقطـر العسـل مـن فمـه، وينظـر بـودٍّ صـادق، وقـال بنـبرة أبويـة: «بالطبـع يـا عزيـزي،

بالطبع، الكل موجود بالفعل بالداخل، وبيننا علاقات وطيدة، وإذا كنتَ ترغب في ذلك، انضمَّ إلى الدردشة أيضًا، وقِفْ وراء الرجال، واستمع إلى كلمات مولانا الحكيمة، نحن لا نقول أنت وأنا في هذه التكية، كل مَن يمرُّ على بابنا، هو واحد منا».

وضع ديليقازاقلي حسن يده على قلبه، وأومأ بامتنان، واستدار، وأشار إلى جنوده لدخول السماعخانة، فعل المحاربون ما قاله لهم قائدهم، بتعابير تُظهِر ولاءهم له، دون أن يفسدوا ترتيبهم.

كانت الفناجين مملوءة، ورائحة القهوة الزَّكيَّة تحيط بكل مكان، أخذ حسام الدين چلبي مكانه، وجلس القرفصاء على السجادة الفارسية السميكة التي تلاشت ألوانها منذ سنوات، هذه السجادة موجودة هنا منذ إنشاء تكية الدراويش، حتى إنه لم يتذكَّر من أين أتت، أو مَن تبرَّع بها، وتَحدَّث لفترة طويلة، وأحيانًا بالدموع في عينيه، عن نصائح مولانا، التي كانت نورًا للعقول ونعمة للأرواح، كان أكثر حماسًا من المعتاد، في ذلك اليوم، حيث وجد مستمعين جُددًا له، واستمع إليه جنود ديليقازاقلي، مع الدراويش الشباب، في صمت، دون أن يتوانوا عن إظهار الاحترام، وفي غضون ذلك كانت عيون البعض منهم تتدلَّى من الإرهاق، لكنهم سرعان ما تحسَّنوا بسرعة، وبعد ذلك، انسحب المولويُّون من الحضور لفترة قصيرة، وأكملوا استعداداتهم، ودخلوا إلى السماع، لم يكونوا يشعرون بالاحتياج إليه في كل مرة، ولكنهم، من أجل الضيوف، هذه المرة، أخذ حسين ومصطفى -عازِفَا الناي- نايهما وملآ السماعخانة بإيقاعات جميلة.

بعد مشاهدة الدراويش بخشوع لفترة طويلة، التفت قائد الفرسان الشاب إلى حسام الدين چلبي، الذي كان جالسًا القرفصاء بجانبه، وسأله بأدب، قائلًا:

«كم سنة قضيت هنا يا شيخ، هل مضى وقت طويل جدًّا على وجودك هنا؟».

أجابه، قائلًا: «منذ أن عرفتُ نفسي... في بعض الأحيان أشعر وكأنني لم يكن لي حياة أخرى من قبل، يبدو الأمر كما لو أنني فتحت عيني هنا، لقد كنتُ دائمًا هنا».

نظر ديليقازاقلي حوله قائلًا: «هل كان الأمر دائمًا هكذا هنا؟ كان متواضِعًا جدًّا، ولطيفا جدًّا».

قال الشيخ: «كانت أصغر، نصف الأكواخ بُنِيَت حديثًا، كلما زادت أعدادنا، نشأت الحاجة، لا نفعل أي شيء آخر ما لم نضطر لذلك، علينا قطع تلك الأشجار الجميلة لكل كوخ جديد، لا يكفينا ذلك، إذا كان لديكَ سقفٌ لتدفن فيه رأسك، فما الحاجة إلى السقف الثاني!».

سأله ديليقازاقلي، قائلًا: «كم عدد الأشخاص الذين يعيشون هنا، هل يمكنك أن تكفيهم كلهم؟ هل لديك ما يكفي من الطعام، هل تحتاج إلى دعم؟ إذا كنتَ ترغب في ذلك، عند عودتنا إلى التكية، يمكننا تجهيز قافلة لك، وإرسال كل ما تحتاجه».

قال الشيخ بتعبير مُمتَنٍّ: «لا يا عزيزي، لا داعي لذلك، يكفي أن تفكِّر فيه، شكرًا لك، نحن كلنا تقريبًا هنا، كل مَن كان في تكية الدراويش موجود هنا، لا أكثر ولا أقل، عندما طلبتَ ذلك، جمعتُ الجميع هنا، نحن نكفى أنفسنا، والأشياء الزائدة تعكِّر صفو السلام».

ضرب ديليقازاقلي يده بلطف على رُكبَتِه، قائلًا: «أليس كذلك؟»، وأضاف، دون تغيير الابتسامة الودودة على وجهه، قائلًا: «وسمعت أن سليمان باشا كان يعتني بك جيدًا. كان يُلبِّي كل احتياجاتك على الفور، ويحسب طلباتك كأوامر، حسنًا، لقد كان لديَّ بعض الطيش، أنا آسف».

جفـل حسـام الديـن چلبـي فجـأةً، لم يُخـبر أحـدًا عـن مسـاعدات سـليمان باشـا، ونهـى أهـل التكيـة عـن التكلُّـم يمينًـا ويسـارًا، مـن أيـن علـم هـذا المحـارب بالأخبـار، تُـرَى عـن أيِّ قريـة تحـدث؟

ديليقازاقـلي، الـذي رأى أن الشـيخ العجـوز ظـلَّ صامتًـا، اسـتمرَّ في التحـدُّث بلحـنٍ يـكاد يماثـل ألحـان النـاي تقريبًـا، دون أن يبعـد عينيـه عـن الدراويـش الذيـن كانـوا يـؤدُّون رقصـة سـماع المولويَّـة، وقـال:

«هـذا يعنـي أن الجميـع هنـا... لم يَبـقَ أحـدٌ في الخـارج، شـكرًا لـك، لقد قُمـتَ بعمـل جيـد، لا يسـعني إلا أن أسـأل نفـسي، مـاذا سـيأكل ويـشرب الأشـخاص الموجـودون هنـا مـن الآن فصاعـدًا؟ كيـف تسـتمرُّ الحيـاة هنـاك يـا چلبـي أفنـدي؟ كـما تعلـم، لقـد دُفـن سـليمان باشـا في البحـر مـع كامـل الأسـطول العثـماني في تششـمه -ليمنحكـم اللـه العمـر المديـد- ولم يتَّضِـح مـا إذا كان قـد تعـرَّض للحـرق أو الغـرق! عفـا اللـه عـن تقصيركـم... كيـف سـتصمد هـذه التكيـة بـدون رعايتـه، ومـاذا سـيحدث عندمـا ينفـد طعامكـم! وبينـما يـروِّج القرويُّـون كلَّ أنـواع الشـائعات حـول هـذا المكان، أعلـم أنهـم سـيأخذون مـن ذنوبكـم، لكـن فـم العـالم ليـس كيسًـا حتـى ينكمـش!».

تجمَّـد الشـيخ العجـوز فجـأة، في البدايـة، شـعر بالأسـف لتلقِّيـه نبـأ وفـاة سـليمان باشـا بشـكل مفاجـئ، وغـير مسـتعد، ثـم رأى اللهيـب في عينَـيْ ديليقازاقـلي الـذي كان ينظـر إليـه بشـكل جانبـي، وارتعـدت فرائصـه، للحظـة، كشـفت تلـك النظـرة لـه الظـلام الموجـود في أعـماق روح قائـد الفرسـان الشـاب، كانـت هنـاك روح تفـوح منهـا رائحـة الـدم لـدى هـذا الشـاب، أخفاهـا بمهـارة عـن طريـق وجهـه الوسـيم، وحديثـه الممتـع، وابتسـامته الموجـودة عـلى وجهـه، كـما لـو كانـت مرسـومةً بقلـم رصـاص، طـوال حياتـه، لم يكـن چلبـي يخـاف المـوت أبـدًا، ولم يكـن يفكـر في نفسـه

في تلـك اللحظـة، لكنـه كان قَلِقًـا بشـأن الدراويـش الشـباب الذيـن عهـدوا بحياتهـم إليـه؛ لهـذا السـبب ارتجـف صوتـه المنخفـض النـبرة.

وقـال: «سـليمان باشـا... هـل مـات؟... رحمـه اللـه، وغفـر اللـه كل ذنبـه... كان مولَعًـا بتكيَّتنـا، وكان يحترمنـا، هـذا صحيـح، كان يسـاعدنا أيضًـا في ذلـك الوقـت، لا تقلـق علينـا، بـإذن اللـه نعـرف كيـف ندبِّـر أمورنـا...».

سـاد صمـت قصـير وغـير سـار، وجـد حسـام الديـن چلبـي بعـض الشـجاعة، ورفـع صوتـه، قائـلًا:

«مـاذا يقـول القرويُّـون عنَّـا، لمـاذا يغتابوننـا؟ نحـن نحبهـم، واعتقدنـا أنهـم يحبُّوننـا أيضًـا...».

ضحـك ديليقازاقـلي سـاخرًا، وقـال: «إنكـم تحبُّونهـم، ليـس هنـاك شـكٌّ في ذلـك»، كان وجهـه يـزداد قتامـة مـع مـرور كل ثانيـة، وكان صوتـه يـزداد انخفاضًـا، «مـا هـو الحـب الـذي لـدى المولويـة، يـا حسـام الديـن چلبـي؟ أنتـم تحبُّـون الرقـص مثـل الراقصـين، وتحبُّـون نغـمات النـاي هـذه التـي تدعـو إلى الخطيئـة! وتحبُّـون أيضًـا العمـلات المعدنيـة الدمويـة مـن الباشـوات الذيـن ماضيهـم قـذرٌ ومـن صُنـع القراصنـة! إن حبَّكـم وفـيرٌ لدرجـة أنكـم أحببتـم امـرأة شـابة، وعشـتم معهـا في تكيـة الدراويـش طـوال الليـل! لقـد تقاسـمتموها بـين أنفسـكم كـما تتقاسـمون خبزكـم! وهـي كانـت تتجـوَّل مـع طفـل الزِّنـا الموجـود في بطنهـا دون خجـل، وكانـت تتجـوَّل ورأسـها عـارٍ! هـذا هـو السـبب في أن حاكـم السـنجق أرسـلني إلى هنـا، وقـال ضَـعْ حـدًّا لهـذ الكُفـر وقِلَّـة الحيـاء الموجوديـن في هـذا المـكان الـذي يُدعـى بيـت اللـه! سـوف آخـذ تلـك الحوريـة المسـكينة التـي تدنَّسَـت في تكيَّتِكـم، وأُحضرهـا لسـيدي، ومـن الآن فصاعـدًا سـوف تعيـش بـشرف في قسـم الحريـم».

فجـأة ثـارت ثائـرة حسـام الديـن چلبـي، واندفـع الـدم إلى خدَّيْـه، وتحـوَّل إلى مجنـون بسـبب الغضـب، وانتهـت مخاوفـه السـابقة بسـبب الغضـب الـذي نتـج مـن الإهانـات التـي تعـرَّض لهـا، كان هـذا لا يُطـاق!

وصـاح وهـو يقـوم مسرعًـا، قائـلًا: «كيـف تجـرؤ! يـا لهـا مـن وقاحـة! المسـيح الدَّجَّـال بلسـان أفعـى وكلـمات كاذبـة! مـا ظنُّـك بنـا! المـسْ تلـك الفتـاة البريئـة! حـاوِلْ أن تمُـدَّ يـدك عليهـا!».

ورفـع ذراعيــه الضعيفتـين، وكان قائـد الفرسـان الشـاب عـلى وشـك القفـز عليـه، كان بإمكانـه فِعـلُ ذلـك، لـو كان أكـثر رشـاقة لـكان قـد بـادر إلى يطقانـه عـلى الفـور.

ارتجـف الشـيخ العجـوز مـن بـرودة الحديـدة التـي اخترقـت بطنـه، وانحنــى لينظــر إلى الــدم الــذي ينــزف مــن جســده مثــل الميــزاب، كان يحلـم بوفاتـه مـرَّاتٍ عديـدة مـن قبـل، وفي آخـر لحظتـه كان يظـنُّ أنـه سـيذكر اللـه، وسـيظهر أمـام عينيه مشـهد السـماع أو مشـهد سـجود، وربما يـرى الوجـوه البرَّاقـة لأصدقائـه الدراويـش الذيـن معـه، والذيـن شـاركهم حياتـه، لكـن المشـهد الوحيـد الـذي ظهـر في مُخيِّلَتـه في تلـك اللحظـة كان وجـه عائشــة الـبريء، كل مـا شـعر بـه هـو الألم الــذي شـعر بـه لتركهـا بـدون حمايـة، سـقط عـلى ركبتيـه هامـدًا، ومـات في صمـت.

الأشـخاص الذيـن كانـوا يـدورون في حالـة مـن النشـوة لم يدركـوا مـا حـدث لشـيخهم، فقـط عازفـو النـاي شـاهدوا مـا يجـري، وعيونهم مُتَّسِـعة في دهشــة، وبمجــرد أن توقَّفَــت أصــوات النــاي، بــدأ الجنــود الآخــرون المنتـشرون في أرجـاء الغرفـة بالعمـل، وتـمَّ سَـحبُ السـيوف والمسدسـات مــن الأحزمــة، وتحــوَّل الســماعخانة إلى مَســلَخٍ كل بضـع دقائـق، وقبـل أن يفهمــوا مــا حــدث، أصيــب جميــع الدراويــش برصاصــة في الــرأس، أو طُعنـوا في بطونهـم، واصطبغـت أرضيـة وجـدران الكـوخ الخشـبي باللـون الأحمـر الدمـوي، الوحيـد، الشـجاع مظفـر أفنـدي، أحنـى ظهـر جنديـين

بقوته المؤلمة الباقية من الأيام الخوالي في المصارعة الزيتية، لكنه توفي في النهاية بثلاث رصاصات في صدره، من الغدَّارة.

قام ديليقازاقلي حسن، مع الكراهية التي تغطي وجهه لأنه لم يَعُد بحاجة إلى التظاهر بالطيبة، بفحص الجُثَث المكدَّسة على الأرض واحدة تلو الأخرى، وقطع أعناق عدد قليل من الدراويش الذين ما زالوا يتنفَّسون، بيطقانه، وأثناء ذلك كان هادئًا ومرتاحًا كأنه يذبح شاة، وبصفته رئيس حُرَّاس حاكم السنجق، كان قد شارك مرَّاتٍ عديدة في الدردشة مع دميرجي ولي خوجه، وسمع عدَّة شائعات لا حصر لها منه، مع سيِّده، حول انحرافات الدراويش المولوية، بينما كان يستمع إلى ولي خوجه، فإن حقيقة أن المولويين كانوا ينفثون سمومهم على الآخرين في تكايا الدراويش التي أسَّسوها، كما لو أن ممارساتهم الدينية لم تكن كافية، وكانت مخالِفةً للدين، دفعته إلى الجنون؛ لهذا كان في حالة من الخشوع كما لو كان يقوم بواجب إلهي، ويؤدِّي عبادة مُهمَّة، بينما كان يأخذ أرواحهم الآن.

ولما أنهى عمله سجد على الأرض المغطَّاة بالدماء سَجدةَ شُكر، ووقف طويلًا دون أن يرفع جبهته عن الأرض، كانت رائحة الدم التي تملأ أنفه، مثل رائحة حدائق الجنة بالنسبة له، وفي ذلك الوقت، انسحب الجنود إلى زوايا الغرفة، ينتظرون بصمت خوفًا من عواقب إزعاجه في مثل هذه اللحظة.

وبعد فترة، انفتح الباب ذو المصراعين في السماعخانة، واندفع جنديان قويَّا البنية مع فتاة صغيرة كانا يسحبانها من ذراعيها، وأخذاها إلى الداخل.

وصاح الجندي الأصلع، قائلًا: «يا قائدي! لقد عثرنا عليها!»، لقد كان له الحق في الكلام لأنه كان له أقدميَّة ثلاث سنوات أكثر من الجندي الآخر.

«كانت مختبئة في أحد الأكواخ، ولم تجعلنا نبحث عنها كثيراً، لقد خمشت كلَّ مكان خاص بنا، إنها شقيَّة مثل قطة شريرة!».

نهض ديليقازاقلي من الأرض، وطوى يديه أمامه، ونظر إلى الفتاة الجميلة التي تقف بين الرجال بعيون مفتونة من الدهشة، كان يعتقد أن ما سمعه عن المرأة التي تعيش في التكية كان مُبالَغًا فيه، لكن الجمال المسحور الموجود أمامه لا يمكن وصفه بالكلمات، لم تكن أي امرأة قد أتيحت له الفرصة لرؤيتها من قبل، يمكن أن تقارن بها، كمال ملامحها، واللمعان السحري لشَعرها، وجمال قوامها أضافوا لها سحرًا خارقًا، كان من الواضح أنها حامل، لكن هذا لم يُقلِّل من جاذبيتها على الإطلاق، وازدادت الكراهية التي شعر بها تجاه المولوية، الذين حبسوها في تكية الدراويش هذه، وجعلوها لعبة لرغباتهم الشيطانية.

قال بصوت حنون: «لا تخافي بعد الآن، يا صغيرتي، لقد أنقذناكِ من هؤلاء الكَفَرَة، من الآن فصاعدًا لن يكونوا قادرين على تدنيسك، بإذن الله ستعيشين حياة كريمة في حريم حاكم سنجقنا، وسوف تُربِّين طفلك هناك بشكل لا تشوبه شائبة، أنت بأمان معنا الآن».

لم تكن عائشة تعرف ماذا سيحدث لها عندما تمَّ إحضارها إلى السماعخانة، كانت فقط تخشى أن يجرَّها رجُلان لا تعرفهما، بالقوة، واستغرق الأمر بضع ثوان حتى تفهم المشهد الذي شاهدته في الداخل، وقد أصيبت بالرعب عندما أدركت ما يجري، وأحرق الحزن والكرب والغضب الذي لا نهاية له قلبَها، وأضرم النار في جسدها كله، وهربت من أيدي الرجال بغضب، وركضت إلى حسام الدين چلبي، الذي كان ملقى على الأرض ملطخًا بالدماء، وعانقت جسده الميت بقوة، وأنَّت من الألم.

عبس ديليقازاقلي من ردٍّ فعل الفتاة، مَن يدري، ترى هل وقعت هذه الفتاة في حب الدراويش، الذين كانت تتنقَّل في أحضانهم، مَن يدري من أيٍّ منهم قد حملت ابن زنا؟ ربما يكون من الضروري التصرُّف بصرامة لإعادتها إلى الطريق المستقيم، وأشار بيده إلى اثنين من الجنود ليرفعاها من على الأرض.

شعرت عائشة بالخوف والحزن والعجز مرَّاتٍ عديدة من قبل، في مثل هذه الأوقات استيقظت القوة بداخلها، وأبقتها على قيد الحياة، واليأس والألم الذي شعرت به الآن كان لا حدَّ له، لم تشعر من قبل بمثل هذا الغضب، واستولت رغبة مُلِحَّةٌ في الانتقام على كيانها بالكامل، كانت عيناها ملطَّختَيْن بالدماء، وهي تنظر إلى الجنود الذين يقتربون منها.

فجأة، انجرف الجنود الذين يقتربون منها عن الأرض، وتطايروا مثل الحجارة في الهواء، واصطدموا بالجدار بسرعة كبيرة، وسقطوا على الأرض وهم مُنهَكون.

دُهش ديليقازاقلي حسن، ولم يستطع أن يعرف ماذا يفعل بالحدث الاستثنائي الذي شهده، ورأى الفتاة الصغيرة تستقيم ببطء، وتتَّجِه نحوه بتعبيرٍ جَليديٍّ على وجهها، ونظرة مجنونة في عينيها، فانزعج فجأة، وصرخ مطالبًا رجاله بالإمساك بها.

اندفع عددٌ قليل من الجنود لتنفيذ هذا الأمر، ولكن قبل أن يتمكَّنوا حتى من التقدُّم خطوتين تمَّ إلقاؤهم على الجدران، وابتعدت عن قبضتهم، وبعد ذلك، نشطت سيوف الفرسان كلهم، بشكل لم يستطع أيٌّ منهم فهمه، ودارت في الجو، وانغرزت في حناجر أصحابها، وقبل وصول عائشة ناحية دليقازاقلي، بقي اثنان فقط يتنفَّسان في السماعخانة.

توصَّل قائد الفرسان إلى استنتاج، مفاده أنها شيطان من الجحيم، خرج في مواجهتهم، وانحنى إلى الخلف على الحائط، وعندما أدرك أنه لا يوجد مكان يهرب منه، سقط على ركبتيه، وبدأ في البكاء والصلاة، وكان قد مدَّ يطقانه، الذي كان يمسك بمقبضه بإحكام بكلتا يديه، وكان يشاهد الفتاة الصغيرة تقترب خطوة بخطوة، فارتعدت فرائصه، لا بُدَّ أن يكون هناك دعاء يجب قراءته في مثل هذه المواقف، يجب أن يكون بالتأكيد، لقد شارك في جميع دردشة دميرجي ولي هوجه، كان قد حفظ كل كلماته، لكن لم يخطر بباله شيء الآن.

اقتربت عائشة بما يكفي لتلمس بطنها بحافَّة اليطقان، ثم توقَّفَت، وأحكَمَت قبضتيها، وبالرغم من مقاومة صاحب السيف القصير، فقد بدأت في العودة ببطء، وفي ثني معصمي الشاب، وسرعان ما استقرَّ طرف السيف تحت ذقن ديليقازاقلي، ومع أن الشاب حاول فتح أصابعه، وإلقاء السيف، وهو في حالة من اليأس والخوف، لكنه لم تكن لديه قوة لذلك، كان الأمر كما لو أن مكبسًا حديديًّا كان يضغط على يديه، ويشبك أصابعه معًا، الخوف من الموت، الذي كان يحتقره دائمًا حتى ذلك اليوم، استولى على روحه بأكملها، وأصاب جسده ارتعاش، لم يستطع السيطرة عليه، وفتح شفتيه في محاولة أخيرة، وأنَّ، قائلًا: «سامحيني...».

كانت عيون عائشة تَقطُر دمًا من حين لآخر مع الدموع، وكان وجهها شاحِبًا كرَجُلٍ ميِّت، وغضبها يُغذِّي قوَّتها، ولكنه كان يُنهِكُ قواها أيضًا، لم تبعد جُثَثُ الدراويش المقتولين، والذين أحبَّتهم مثل عائلتها، من أمام عينيها.

قالت، وكأنها تبصق: سامحك الله.

كان اليطقان عالقًا في حلق ديليقازاقلي إلى أقصى درجة.

عملت عائشة بلا توقف في ذلك المساء، وفي صباح اليوم التالي، ودفنت جميع الدراويش واحدًا تلو الآخر، ولم تكن مضطرَّةً حتى إلى أن تلمس يدها الأرض أثناء القيام بذلك، كانت الأرض والحجارة تطيع أوامرها، وتطير، وكانت الحفر تفتح من تلقاء نفسها، وبينما كانت تضع حسام الدين چلبي، الذي كان دائمًا يُظهر لها مَودَّةً كبيرة، وحُبًّا، في قبره، قبَّلَت لحيته البيضاء للمرة الأخيرة، ولم تنقل جُثَث الجنود من السماعخانة، وأشعلت النيران في الكوخ قبل مغادرتها التكية، لم تكن تعرف بَعدُ مصير سليمان باشا، لكن بسبب الكارثة التي مرُّوا بها، قال صوتٌ بداخلها إنها لن تستطيع أن تراه مرة أخرى، لو كان سمك قرش الإمبراطورية العثمانية على قيد الحياة، لمَا تجرَّأ أحد على اقتحام التكية، التي كانت تحت حمايته، الآن كانت وحيدة في هذا العالم الواسع، مع الطفل الأعزل في رَحِمِها.

جاء صديقها المخلص يلدريم، الذي كان له نفس المصير، ووضع ذيله بين رجليه، وفرك رُكبَتَه بحزن، انحنت عائشة، وربَّتَت على فراء الكلب، وراقَبَت ألسنة اللهب التي كانت تتراقص أمامها بهدوء، لفترة، وكان سقف السماعخانة الخشبي على وشك الانهيار، أخذت نفَسًا طويلًا من رائحة الدخان التي كانت تحرق منخارها، وتتبدَّد مع ارتفاع الدخان، وفكَّرَت في النصيحة التي قدَّمها له حسام الدين چلبي بالبقاء بعيدًا عن الأنظار، كانت تشعر بالذنب تجاه الكارثة التي حدَثَت لهم، ولم تكن تعرف مقدار نصيبها فيما حدث، لكن صوتًا بداخلها كان يقول إن لها علاقة بمجيء هؤلاء القتلة إلى تكية الدراويش، من الآن فصاعدًا، لن تختلط أبدًا بالناس، وستختبيء دائمًا بعناية، لم تكن تسمح بإيذاء الأبرياء الآخرين بسببها، وقفت بعزم، وسارت إلى أعماق الغابة، نظر يلدريم بحزن خلفها لفترة طويلة، ثم سار بخطوات بطيئة، واستلقى على قبر حسام الدين چلبي، وبدأ مناوبته الأخيرة...

13

مـدَّ قـره قوتشـلو أشرف أفنـدي -حاكـم السـنجق- يـده وأخـذ حَبَّـة عنـب كبـيرة مـن الصينيـة الذهبيـة الموجـودة أمامـه، وبعـد أن مرَّرهـا بـين أصابعـه لفـترة، وضعهـا في فمـه، وكان الجـزء الأمامـي مـن قفطانـه الحريـري المطـرَّز، الـذي أحـضره مـن إيـران، مفتوحًـا، وحاشـية القفطـان المزيَّنـة بنقـوش مـن الـورود تلامـس الأرض على الأريكـة التي كان مسـتلقيًا عليهـا، ولحيتـه الكثيفـة نظيفـة ومعتنـى بهـا جيـدًا، وشـاربه الرقيـق والطويـل مصبوغًـا باللـون الأحمـر للنبيـذ الفرنـسي الـذي كان قـد تنـاول جرعـة كبـيرة منـه للتـو، وبعـد مضـغ العنـب بـسرور، بصـق البـذور التـي لم تعجبـه في الوعـاء المصنـوع مـن الفضَّـة الموجـود في يـده الأخـرى.

ضحـك، وهـو يمـدُّ يـده إلى الزجاجـة الموضوعة عـلى المنضـدة الزجاجية، قائـلًا: «إذا عبـث دميرجـي خوجـه معـي بنبيـذٍ مثـل هـذا، فمـن المحتمـل أن يفقـد عقلـه»، وعندمـا لاحـظ أن قـاع الزجاجـة كان مرئيًّـا، نـادى عـلى

الحارس النحيف والقوي الجسم، الذي كان يقف على الباب، يمسك الأريكة.

وقال: «يا حسني، اركض للداخل، وأحضِرْ لي واحدة جديدة! لا تُخجِلْني أمام ضيفي، وأحضِرْ لضيفنا الأفضل! قُلْ لأحمد أفندي، إنه يعرف ما يجب أن يقدِّمه».

ضحك الرجل القصير البدين الذي بدا وكأنه قذيفة مدفعية، وقال: «لا تهتم يا سلطاني»، وقد وقف أمام حاكم السنجق، وكان متدثِّرًا بقفطان أسود كما لو كان يشعر بالبرد، وأكمام القفطان وياقته حمراء، ولديه عيون عسلية كبيرة غير مريحة تتناقض مع أنفه التي مثل الحُقِّ، وقال: «أنا جئتُ لأتحدَّث عن العمل، لا لأستمتع في حضوركم، ما شربته يكفيني، إنه مؤثِّر بالفعل، إذا تجاوزت الحدَّ بشكل أكبر، سوف يتورَّم وجهي وعيني، اسمحوا لي ألَّا أكون أضحوكة العالم».

غمز قره قوتشلو بعينه، قائلًا: «لا تكن مُحتالًا، يا حلمي أفندي، إذا لم يكن لديك شراب، فسأشربه، وهذا ليس هباء، لا تقلق! عندما لا يكون دميرجي خوجه حولنا، دعني أحصل على نصيبي، فهذا صعب بعد ذلك!».

وتساءل حلمي أفندي قائلًا: «أين هو معالي الخوجه، أنا لم أره منذ أن جئتُ؟»، نظر الرجل بقلق إلى اليمين وإلى اليسار، كما لو كان مختبئًا في أحد أركان الغرفة، وقال:

«لقد ذهب للوعظ في القرى مرة أخرى، كان يفعل ذلك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، كان يذهب إلى أماكن مختلفة في كل مرة، وبغَضِّ النظر عن عمره، فهو لا يتكاسل أبدًا... إنه يتكلم بشكلٍ جيد جدًّا، ويشرح جيدًا أن الولاء للدولة أمرٌ إلزامي، في القرى التي وعظ فيها، يتناقص الفساد، ويتم جمع الضرائب بسهولة أكبر؛ لهذا

السـبب أتركـه يتجـوَّل كـما يشـاء، إذا كنـت تعـرف فقـط كـم عـدد اللصـوص حولنـا! لا، لم يَقُـم سـناجق الدولـة العثمانيـة بتحصيـل مثـل هذه الضرائـب، ولم يكـن لديهـم المـال لإطعـام أطفالهـم... ومـا يقـال كـذب! هـل لـدى السـناجق الأخـرى نفـس القـدر مـن النفقـات مثلنـا، إنهـم لا يعرفـون كـم قطعـة ذهبيـة يتكلَّفهـا قـصر الحاكـم هـذا المكـوَّن مـن مائـة وأربعـين غرفـة! كـما لـو كُنَّـا قـد بنيناهـا مـن أجـل متعتنـا الخاصـة، أروع قـصر في المنطقـة المجـاورة، أردنـا سـماع اسـم سـنجقنا، لكننـا لم نتمكَّـن مـن مسـاعدة القـروي الناكـر للجميـل!».

تنهَّـد بعمـق ونظـر بعيـدًا بقَلَـقٍ، كان يـروق لـه العثـور عـلى شـخص يمكنـه رؤيـة العـالم مـن نفـس النافـذة، ويتشـاكيان.

وأضـاف قائـلًا: «إذا لم تكـن خطابتـه قويـة جـدًّا، وإذا لم يَقُـم بمـا هـو أكـثر مـن القـوة الغاشـمة في جلـب القـروي إلى اليمـين، لكنـت قـد ألقيتـه بعيـدًا بالفعـل، إنـه طائـش حتـى إنـه يتـصرَّف بغطرسـة مـن وقـت لآخـر تجاهـي، هـل تصـدق ذلـك، إنـه يحـاول إلقـاء الـدروس! مـن الـضروري الانتبـاه إلى جماعـة هـذا الشـيخ، فمـن غـير المعـروف مـاذا سـيفعلون ومتـى، يجـب الحـذر حتـى لا تلتفـت إليـك ألسـنتهم الحـادة».

«يقولـون حاليًـا إنـه يفكـر دائمًـا في المولويـة، هـل هـذا صحيـح؟ يقول في خُطَبـه إن جميـع التكايـا هـي أعشـاشٌ للـشر، ويجـب إغلاقها عـلى الفور».

أومـأ قـره قوتشـلو برأسـه قائـلًا: «إنـه يقـول ذلـك»، لم يَجِـد الدراويـش متدينِّـين بمـا فيـه الكفايـة، لا يوجـد مـكان في الديـن لرقـص الدراويـش، وعـزف النـاي، إلـخ... أنـا لا أتحـدَّث معهـم، لـن أكـذب، مـن الجيـد أن يُحَـرِّض النـاس ضدهـم، يـا حلمـي أفنـدي! لهـذا سـمحتُ لـه بالتحـدُّث بقـدر مـا يريـد».

«مـا الخطـأ الـذي اقترفـوه يـا سـلطاني، مـا هـي الأخطـاء التـي رأيتهـا؟ هـل أظهـروا أي عـدم احـترام لجنابكـم؟».

مـدَّ حاكـم السـنجق يـده، وأخـذ حبَّـة عنـب أخـرى، هـذه المـرة قضمها بشـدة، وطحـن البـذور بـين أسـنانه، وقال:

«لا يـا عزيـزي، مـا هـذا بحـق الجحيـم! لا يمكنهـم أن يجـرؤوا. لكـن يـا حلمـي أفنـدي، إنـه يمـدُّ يـده لكل مَـن يـأتي إلى التكيـة، ولا يعـرف حدوده، إنهـم يُطعمـون كُلَّ مَـن يطـرق بابهـم دون أن يقولـوا إنهـم مفسـدون أو متمـرِّدون، حتـى رجـال خليـل إيفـي الذيـن يزعجوننـي! قلـت كـم مـرَّة حذَّرتُكـم، وقلـت لا تفعلـوا ذلـك، قـال القـوَّادون: «لا يمكننـا رفض الجائع! حتـى لـو كان قاطـع طريـق، فهـو ضيـف اللـه!»، لم أسـتطع التعامـل مـع هـؤلاء الدراويـش المجانـين، لكـن دميرجـي خوجـه سـوف يتغلَّـب عليهـم، إن شـاء اللـه! لقـد وضعـتُ ديليقازاقـلي، وهـو أحـد رجـالي الأقويـاء، تحـت إمرتـه، وسـوف يقتلعونهـم معًـا، ثـم دَعْ خليـل إيفـي يفكـر، أين سـيحتمي عندمـا يكـون في موقـف صعـب!».

قطـب حلمـي أفنـدي جبينـه، قائـلًا: «أنـت مُحِـقٌّ يـا سـلطاني، يجـب ألَّا نعطـي حتـى المـاء لهـذا اللـص»، عنـد سـماع اسـم خليـل إيفـي، تصاعـد غضبـه إلى القمـة، كان يكبـح جـماح نفسـه لفـترة طويلـة، لكـن الغضـب جعلـه أكـثر جوعًـا، وأخـذ قطعـة كبـيرة مـن الدجـاج اللذيـذ مـن الصينيـة الموجـودة أمامـه، منتظـرًا أن يلتهمهـا، وألقاهـا في فمـه، تحـدَّث بصعوبـة، وهـو يحـاول المضـغ.

«في المـاضي، اعترَضَـت عصابـة هـذا الشـيطان قافلـةً لي، لقـد سرقـوا مـن بضائعـي حمولـة جملـين بـدون خـوف مـن اللـه! مـن المفـترض أنـه كان هنـاك العـشرات مـن الحـراس الفرسـان، وعندمـا رأوا خليـل إيفـي أمامهـم، لم يتمكَّنـوا مـن مواجهتـه، وتبـوَّل المقرفـون عـلى جيادهـم! حمولـة جملـين، مـال العـالم! هـل يكتسـبها الإنسـان بسـهولة! لهـذا أتيـت إليـك يـا سـلطاني، أصبَحَـت طـرق قافلتنـا وكـرًا لقُطَّـاع الطـرق! نحـن بحاجـة إلى إيجـاد حـلٍّ لهـذا!».

قـال قـره قوتشـلو بحـزن مُزيَّـف: «عـلى الرغـم مـن أننـا نسـتطيع العثـور عليهـا، فـإن الأمـوال التـي أرسـلها العثمانيـون إليَّ مُحـدَّدة»، وفتـح يديـه بـلا حـول ولا قـوة.

وأضـاف قائـلًا: «كـم عـدد الفرسـان الذيـن يمكننـي إطعامهـم بهـذا القـدر مـن الأمـوال؟ كـم سـهمًا أسـتطيع أن أضعهـا في كنانـة رجـالي! خليـل إيفـي لديـه جيـش خـاص بـه، إذا جـاء إلى قـصري، فسـوف يدمِّـر هـذا المـكان عـلى رأسي، إنـه لا يلمسـني خوفًـا مـن العثمانيـين، لكنـي لا أسـتطيع أن ألمسـه أيضًـا، أنـا لسـت قويًّـا بمـا يكفـي يـا حلمـي أفنـدي! نحتـاج الكثـير مـن الرجـال، نحتـاج إلى خيـول، نحتـاج إلى أسـلحة، حتـى لـو كنـتُ حاكـم السـنجق، فهـذه الأشـياء ليسـت مجانيـة! سـلطاننا مشـغول بفتـح البلـدان، وهـو غـير مهتـمٍّ بمشـاكلنا الصغـيرة، علينـا أن نعتنـي بأنفسـنا».

ابتسـم التاجـر المحنَّـك ضمنيًّـا إلى قـره قوتشـلو أشرف أفنـدي، فهـو كان يعلـم منـذ البدايـة أن الكلمـة سـتأتي إلى هنـا، ولذلـك لم يُطِـل في الـكلام، وفتـح الجـزء الأمامـي مـن قفطانـه، ووضـع أربعـة أكيـاس كبـيرة عـلى طاولـة القهـوة، كانـت مُعلَّقـة مـن السلسـلة الرفيعـة التـي لفَّهـا حـول بطنـه.

وقـال بابتسـامة صفـراء: «لقـد اعتقدنـا ذلـك أيضًـا يـا سـيدي، جلسـنا وتحدَّثنـا مـع أصدقـائي التجـار، وقلنـا: كـم نحـن عبيـد جاحديـن، إننـا لم نشـارك في تحمـل المسـؤولية حتـى الآن، حاكـم سـنجقنا يقاتـل اللصـوص وقُطَّـاع الطـرق عـلى حسـاب حياتـه، وطلبنـا أن يكـون هـذا دعـمًا صغـيراً منَّـا، هـذه فقـط البدايـة، وسـيأتي المزيـد إذا وعدتنـا، نتمنـى منـك أن تتبـع خليـل إيفـي بـكل سـلاح الفرسـان الذيـن تُكلِّفهـم بأعـمال مختلفـة، سـنقدم لـك كل مـا يلـزم للخيـول الجديـدة والرجـال والأسـلحة، إنـه دَيْـنٌ في أعناقنـا! ومـن الـضروري القضـاء عـلى قُطَّـاع الطـرق هـؤلاء الذيـن يقومـون بتخريـب الدولـة العليَّـة».

نظـر قـره قوتشـلو إلى الأكيـاس المصطفَّـة بجانـب كأس النبيـذ بعيـون برَّاقـة، كان بإمكانــه أن يُخمِّــن أنهـا كانــت مليئــة بالأحجـار الكريمــة والعمـلات الذهبيـة، يمكـن قـول أشـياء كثـيرة عـن حلمـي أفنـدي، لكـن لا يمكـن القـول إنـه لم يكـن تاجـرًا ولا يعـرف مـاذا يقـدِّم لمـن، لفـترة طويلـة، إن غـضَّ البـصر عـمَّا فعلـه قُطَّـاع الطـرق منـذ فـترة طويلـة، يعنـي أن التجـار الذيـن حملـوا حياتهـم في أكياسـهم قـد أعـادوا النفايـات، كانـت إمـارة السـنجق عنوانًـا مؤقتًـا، يمكـن أن ينتـزع منـه يومًـا مـا، وكان ينظـر إلى القصـور في أذهـان أولئـك الموجوديـن في اسـطنبول، أو حـدوث تغيـير في القـصر، حتـى ذلـك اليـوم، كل مَـن تمكَّـن مـن القبـض عليـه، أفلـت مـن العقـاب، لم يكـن ينـوي مسـاعدة هـؤلاء الزنادقـة، الذيـن دُفنـوا حتـى حناجرهـم، والذيـن عاشـوا عالـة عـلى القرويـين، بـدون مقابـل!

قـال بصـوت قـوي: «مـن أهـم واجبـاتي ضـمان سـلامة التجـارة في هـذه الأراضي»، ومـدَّ يـده، وأخـذ الأكيـاس، ووضعهـا داخـل قفطانـه.

وقـال: «بالطبـع، لـن نضايـق العبيـد المخلصـين لسـلطاننا، الذيـن يعملـون مـن أجـل رفاهيـة الإمبراطوريـة العثمانيـة مثلـك، ليبتَهِجْ قلبـك يـا حلمـي أفنـدي، طالمـا أن دعمـك لا يتناقـص، فسـوف أطـوي صحيفـة خليـل إيفـي، وغـيره مـن المفسـدين بـإذن اللـه».

وضـع الحـارس الشـاب زجاجـة النبيـذ الجديـدة التـي أحضرهـا عـلى طاولـة القهـوة، والتقـط القـارورة الفارغـة، وابتعـد بهـدوء.

نظـر حلمـي أفنـدي بقلـق إلى الحـارس الـذي يخـشى سـماعه مـا يقولونـه، وأدرك قـره قوتشـلو ذلـك، ضحـك بسـعادة، وقـال:

«لا تقلـق يـا سـيد حلمـي! إن حسـني وُلِـدَ أصـمَّ وأبكـمَ منـذ ولادتـه، أنـا أدعـوه بدافـع العـادة، وإلا فلـن يسـمع مـا أقولـه، لقـد أشرت بيـدي فقـط منـذ قليـل، وهكـذا فهـم مـا أريـده، وهـو أيضًـا أُمِّـيٌّ، فـكل مـا

يشـهدُه يُسـجَن في عقلـه، وإذا بحثنـا لـن تتمكَّـن مـن العثـور عـلى شـخص مثلـه في العـالم! وإلا مـا كنـتُ جعلتـه كاتِـمَ أسراري!».

ورفع كأسه في الهواء، ومدَّه تجاه التاجر العجوز، قائلًا:

«يكفـي الحديـث عـن العمـل، الآن دعونـا نـشرب نخـب انتصـارات دولتنـا العَليَّـة وصحـة سـلطاننا، سـلطان السـلاطين!».

«ولينَلْ أعداء الثروة مثل خليل إيفي، جزاءهم!».

«فلنشرب نخبه أيضًا يا حلمي أفندي، فلنشرب نخبه أيضًا!».

نظـر حاكـم السـنجق والتاجـر إلى بعضهـما البعـض، وكانـت أعينهـما تلمـع، وهـما يقارعـان الكـؤوس.

وفي الوقـت نفسـه، كان هنـاك طفـل اسـمه بختيـار مسـتلقيًا في ظـل شـجرة دُلَّـب معمِّـرة، يسـتمع إلى صـوت التيـار المتدفِّـق بجانبـه، في زاويـة هادئـة مـن الغابـة، عـلى بُعـد يومـين مـن قـصر الحاكـم، حيـث كانـا يتحدثـان، لم يسـتطع البقـاء في مـكان مغلـق لفـترة طويلـة منـذ أن عـرف نفسـه، فكلـما سـنحت لـه الفرصـة، كان يهـرب مـن المنزل، ويمشي لمسـافات طويلـة في حضـن الطبيعـة، وأُطلِـق عليـه «دميـم» في قريتـه بسـبب وجهـه المشـوَّه، وأنفـه الكبـير ورأسـه الأصلـع؛ لذلـك كان يفضِّـل دائمًـا قضـاء وقتـه بمفـرده عـلى أن يكـون أضحوكـة الأطفـال الآخريـن، ولم يجـد صعوبـة في الانضـمام إلى عصابـة خليـل إيفـي، وأن يصبـح أحـد مراقبيـه عندمـا جـاء رجـال السـنجق إلى قريتهـم، بسـبب ديونهـم الضريبيـة، وأعملـوا السـيف في عائلتـه بأكملهـا، حتـى يكونـوا عـبرة للآخريـن، كانـت المراقبـة تعنـي العُزلَـة، وكانـت مَهمَّتـه التَّجـوُّل وحيـدًا في الغابـة، إبـلاغ العصابـة بـكل مـا كان يـدور حولـه، والجنـود الذيـن يأتـون بالقـرب منهـم، كان معتـادًا عـلى العُزلـة، وكان لديـه عيـون نـسر، وآذان حـادَّة، كـما لـو كان قـد وُلِـد للقيـام بهـذه المَهمَّـة، لا أحـد يسـتطيع أن يقـترب منـه عـلى بعـد كيلومـتر واحـد دون أن يلاحظـه.

ولهذا السبب فقط، كان من الصعب تقريبًا أن يأتي شخص غريب إليه، ويقترب منه، ويحيِّيه، دون أن يشعر بروحه.

صاح في رُعبٍ وذهول، قائلًا: «عفوًا! مِن أين أتيتِ أيضًا!»، وقام على الفور ووقف، مستعدًّا للركض بين الأشجار عند أدنى تهديد، كما علَّمَته العصابة.

عندما مرَّت الإثارة الأولى، ونظر إلى الجمال الساحر، والوجه البريء للفتاة التي تقف أمامه- ساد هدوء عذب فجأة في قلبه، كان من الواضح لكل شخص، أنه لم يكن أحدَ جنود حاكم السنجق.

قالت عائشة بابتسامة حزينة: «لقد ألقيتُ التحيَّةَ فقط»، وتراجَعَت بضع خطوات إلى الوراء لتطمئنه، «من فضلك لا تَخَفْ، لا تهرب مني... لقد كنتُ وحدي في الغابة منذ أيام، وللمرة الأولى وجدتُ شخصًا لأتحدَّث معه، لن أؤذيك».

قام الصبي بضمٍّ قبضتيه الصغيرتين، واقفًا على رؤوس أصابعه لإظهار طوله، وقال:

«لم أكن خائفًا! انا لست خائفًا من أحد! هل أخاف من فتاة! هاه! لقد تفاجأتُ، أنا بطل هذه الغابة! من أين أتيتِ، ولماذا تصدرين صوتًا...».

ابتسَمَت عائشة بتعاطُف، وهزَّت رأسها، وقالت: «آسفة، أيها الفتى، اعتقدتُ ذلك، لماذا يجب أن تخاف على أي حال، هل هناك ما يُخشَى منه؟ هكذا حدث لي، سامحني».

وخفضت صوتها، ونظرت حولها بخجل، وقالت:

«أحاول عدم إصدار صوت، ربما يوجد أشخاص سيِّئون من حولي، لا أريدهم أن يجدوني، إذا وجدوني، فسوف يؤذونني، اسمي عائشة، وأنت ما اسمُكَ؟».

لم يستطع بختيار أن يرفع عينيه عن جمال عائشة الساحر، لم يَرَ الكثير من النساء، لكنه كان يعرف النساء الموجودين في قريته، ومع ذلك استطاع أن يفهم الوضع لدرجة أنه كان يشعر أن هناك شيئًا غير عادي في هذه الفتاة، ولاحظ بُقَعَ الدم الجافَّة على رداء الفتاة الأبيض، من الواضح أنه تمَّ غَسلُه، لكن لم يتم تنظيفه بالكامل.

وقال: «ينادونني بختيار... هل أنتِ مصابة؟ إن قميصك مُلطَّخ بالدماء... ماذا حدث لك؟».

تنهَّدَت عائشة بمرارة، قائلة: «إنه ليس دمي، لقد جئت من تكية حسام الدين چلبي، داهم رجال حاكم السنجق تكيَّتَنا، وأعملوا السيف في كل شخص، كل شخص... تلك الدماء هي دماؤهم... أخذوا عائلتي مني، لقد أخذوا كل شيء مني... وأنا كنت مختبئة في الغابة منذ ذلك الحين».

شدَّ الصبي قبضتيه مرة أخرى، وقال: «الأوغاد الأشرار!»، كان حزينًا لأنه يتقاسم نفس المصير مع الفتاة، وشعر أنه قريب منها لنفس السبب.

قال بصوتٍ مُقنِع: «لا تخافي، لن يجدوكِ هنا، حتى لو وجدوكِ، سأحميكِ!».

لم ترغب عائشة في إخبار الطفل بما حدث في السماعخانة، لم تكن تريد أن تتذكر أيضًا، لو استطاعت أن تفعل ذلك، ستمحو وتزيل لحظات الألم والغضب من ذاكرتها.

وقالت بحنان: «شكرًا لك أيها الفتى الشجاع»، وأثَّرَت فيها شجاعة بختيار التي كانت أكبر من طوله، ووضعت تعابير جادَّةً على وجهها، حتى لا يظنَّ أنها تسخر منه.

وقالت: «ماذا تفعل هنا، ماذا تفعل وحدك؟ هل عائلتك قريبة؟».

نظر الصبي حوله بعناية، كما لو كان هناك شخص يمكن أن يستمع إليه، وخفض صوته إلى حدٍّ يصعب سماعه، وقال:

«هل تعرفين خليل إيفي؟ صاحب هذه الجبال؟ أنا المراقب رقم واحد لديه، وعندما يقترب جنود حاكم السنجق الحقير، أراهم أوَّلًا، وأبلغه على الفور، هؤلاء الأشخاص المرتبكون لا يشتبهون بي؛ فهم يعتقدون أنني طفل شقيٌّ يتجوَّل عبَثًا في الأرجاء، أوه، لو لم أكن موجودًا، لكانت عصابة خليل إيفي قد تعرَّضَت لهجمات عديدة!».

سمعت عائشة باسم خليل إيفي عدَّةَ مرَّات أثناء حديثها مع الدراويش في التكية، كانوا يقولون إنه تَمَرَّد على حاكم السنجق، وجمع العديد من الرجال الشجعان، وضمَّهم إليه، قيل إنه لن يجده أحدٌ إلَّا إذا أراد هو ذلك، وضعت يدها على بطنها، وشعرت بركلات طفلها، وربما وجدت أيضًا مكان الاختباء الذي تحتاج إليه، كانت تعتقد أنه يمكنها الاختباء من حاكم السنجق بجانب عصابة خليل إيفي وتربية طفلها بأمان، وإلى جانب ذلك، ربما يمكنها أيضا الثأر لحسام الدين چلبي والدراويش المحبوبين، بمساعدته.

هبَّت ريح باردة؛ ممَّا جعل الأوراق على الأغصان تتموَّج، وسقطت بضع أوراق جافَّة عند قدميها، من بعيدٍ غَنَّى عصفور، وعوى أحد الذئاب، كان عواء الذئب يشبه النحيب.

وسألت الصبي، قائلة: «هل تأخذني إليه؟، يقولون إن حاكم السنجق لديه العديد من الجنود، يمكنني مساعدتك في محاربته».

صفَّق بختيار بقبضتيه الصغيرتين معًا، وضحك بصوتٍ عالٍ، ومسح أنفه الضخم بظهر يده ونظر إلى الفتاة بذهول، وقال:

«هل أنتِ التي سوف تساعديننا؟ اسمحي لي أن أضحك! أنتِ فتاةٌ... هاه! إنهم لا يضمُّون النساء إلى عصابتنا، ولا يتحمَّسون كثيرًا

لذلـك، إنهـم حتـى لا يجعلونهـن مراقبـاتٍ، خليـل إيفـي بحاجـة إلى رجـال أقويـاء مثـلي!».

ابتسَـمَت الفتـاة الصغـيرة لاسـتعراض الصبـي، وهـو يحـاول نفـخ العضـلات الموجـودة في ذراعيـه، كان أوَّلَ طفـل قـد رأتـه منـذ سـنوات عديـدة، وقـد نسـيت كـم هـو لطيـف.

قالـت بهـدوء وثقـة بالنفـس مثـيرة للإعجـاب: «لـديَّ بعـض القـوة أيضًـا»، ورفعـت إحـدى يديهـا في الهـواء، وأمسـكتها، أصغـى بختيـار باهتـمام؛ لأنـه كان يريـد أن يفهـم مـا تعنيـه الفتـاة، ومـاذا كانـت تحـاول القيـام بـه، بعـد ثـوانٍ قليلـة، شـاهد بذهـولٍ شـديد أن الحجـارة والأغصـان والأوراق عـلى الأرض كانـت تطـير ببـطء، كان الصبـي يـرى بعقلـه الطبيعـةَ غـير العاديـة في كل مـا كان يحـدث، ولكنـه لم يشـعر بالخـوف، كان مقتنعًـا أنـه لـن يصيبـه أيُّ ضَررٍ مـن هـذه الفتـاة، في الحقيقـة، قامـت عائشـة بالإشـارة بيدهـا إلى اليمـين، فـكل شيء أقلـع للتَّـوِّ، وطـار في هـذا الاتجـاه بسرعـة كبـيرة، وضربـت الحجـارة الأشـجار مثل قذائـف المدفعيـة، وقطعتها إلى قطـع ضخمـة.

صـاح بختيـار وهـو يقفـز حيـث كان، قائـلًا: «رائـع! مـاذا تكونـين! كيـف فعلـتِ هـذا؟ اللـه اللـه! هـل أنـتِ سـاحرة، هـل أنـتِ مشـعوذة، مـاذا تكونـين؟».

هـزَّت عائشـة رأسـها، عـلى الجانبـين، وجثـت، فأصبـح طولهـا مثـل طـول الصبـي، ونظـرت في عينيـه بنظـرة مطمئنـة، وقالـت:

«لا، أنـا لسـت سـاحرة، ولا مشـعوذة، ولكـن لـديَّ بعـض المواهـب، ومـا رأيتـه يُعَـدُّ بعضًـا منهـا فقـط... يمكننـي مسـاعدتك حقًّـا، هـل سـتأخذني إلى خليـل إيفـي؟ إذا أخذتنـي، فسـأخبرك بـأسراري في ذلـك الوقـت، أعِـدُكَ بذلك».

تـلألأت عيـون بختيـار الزيتونيـة السـوداء، وبعـد التفكـير لبضـع ثـوان، تنهَّـد، وهـزَّ رأسـه، وقـال:

«أنـا سـآخذك الى هنـاك، إنـه ليـس المـكان الـسِّرِّيَّ للعصابـة، لا يمكننـي حتـى لـو قتلتِنـي، لكننـي سـآخذُكِ إلى كبـير المراقبـين محمـد أغـا، وهـو سـيعرف مـاذا يحـدث بعـد ذلـك، وإذا صدَّقَـكِ، سـوف يخـبر خليـل إيفـي، وسـيقرِّر إيفـي مـا إذا كنـتِ سـتبقين معنـا أم لا».

قالت: «هذا يكفيني، شكرًا».

مدَّ بختيار يده للفتاة، وأمال رأسه جانبًا ببراءة، وقال:

«وبعـد ذلـك سـوف تخبرينـني بـسِرِّكِ، أنـتِ وعدتِنـي، الوعـد شرف، هـاه! ربمـا يمكنـك أن تعلّمينـي كيـف أجعـل الحجـارة تطـير أيضًـا، لـن أخـبر أحـدًا، واللـه! أقسـم بالقـرآن! تعـالي، واتبعينـي، سـنذهب بهـذه الطريقـة».

أمسـكت عائشـة يـد الطفـل بهـدوء، كانـت ناعمـة ودافئـة، يجـب أن تكـون يَـدًا لطفـل... لا يسـعها إلَّا أن تفكـر في المـكان الـذي أتـت منـه، لقـد تذكَّـرَت كـم كانـت الحيـاة مُظلِمَـة وحزينـة بـدون أطفـال، وضعـت يدهـا عـلى بطنهـا مـرة أخـرى، وشـعرت بركلـة طفلهـا الوحيـد، وعـلى الرغـم مـن كل الآلام والمصاعـب التـي مـرَّت بهـا، كانـت سـعيدة لوجـوده هنـا.

بعـد بضـع سـاعات مـن المـشي بـين الأشـجار، وصـلا إلى أرض جـرداء صغـيرة لا تبـدو مختلفـة عـن بقيـة الغابـة، وكان الجانـب المدهـش الوحيـد فيهـا شـجرة ميتـة، انقسـمت إلى نصفـين بسـبب الـبرق، كانـا الآن أقـرب إلى الجبـال شـديدة الانحـدار، التـي تحيـط بشـمال الغابـة، وقـد فـسَّرَت توقُّـفَ الطفـل توقُّفًـا مفاجئًـا لإرهاقـه، وظنَّـت أنهـما سـيأخذان قسـطًا مـن الراحـة، ويسـتريحان هنـا، في الواقـع، هـي أيضًـا بحاجـة إلى ذلـك، وفي ذلـك الوقـت، سـمعت صـوت طائـر، كانـت قـد سـمعته مـرات عديـدة في الغابـة، ولكـن هـذه المـرة كان يـأتي مـن مسـافة قريبـة جـدًّا، حتـى

بجوارها مباشرة، وعندما نظرت إلى الوراء بدهشة، رأت يدي بختيار تصنعان أنبوبًا حول فمه، ويغنِّي مثل الطائر، على التوالي، كان يفعل ذلك بمهارة كبيرة، وحتى أولئك الذين يسمعونه من بعيد لم يظنُّوا أن بإمكان أي طفل بشري إصدار هذا الصوت.

لم يمضِ وقت طويل، حتى ظهر خيال بين الأشجار أمامهما، ومع اقتراب الخيال، تحوَّلَ إلى رجل قوي قصير القامة، ضخم الجسد، ذي شارب كثيف، يحمل يطاقنين في وشاحه، بشكل معاكس، وقد علَّق في كتفه غدَّارةً إسبانية، وكانت قبعته مُطرَّزة، ويرتدي سترة بالية مطرزة، كان يعرج بشكل غامض وهو يسير، مَن يعرف أي معركة أصيبت فيها ساقه، وغطَّت علامتا سيف عميقتان الجانبَ الأيمن من وجهه، إحداهما تجري من صدغه إلى ذقنه، والأخرى من أذنه إلى فمه، كما لو أن أحد الأشرار حاول رسم صليب على وجهه.

أبقى الرجل مسافةً بينهما، ونظر باهتمام إلى الصبي أوَّلًا، ثم الفتاة، كان هناك إعجاب بجمال عائشة الاستثنائي، وقد وضح ذلك من نظراته إليها، ولكن دون سوء نيَّةٍ أو شر.

قال بصوتٍ عالٍ، وهو يضع يديه الكبيرتين على حزامه: «خيرًا، يا أخ بختيار!»، بدا صوته وكأنه يسأل عن شيء هام:

«لماذا ترَكتَ المناوبة، أيُّها الفتى المجنون؟ ومَن هي السيدة الموجودة بجانبك؟ آمل أن يكون لديك سبب وجيه لجعلها تتبعك!».

قال الصبي بوقار أكبر من طوله: «إنها تهرب من الجنود... لقد قتل جلَّادو حاكم السنجق جميع الدراويش، وكانت هي في التكية في ذلك الوقت، ومن الغريب أنها نجت بالكاد، إنها تبحث عن مكانٍ آمِنٍ للاختباء، ألا يقول خليل إيفي دائمًا: «مُدَّ يدك إلى المسكين، وساعِد مَن سقط، على النهوض»؟ وقد أحضرتها لكم، يا محمد أغا، ربما تسمح لها بالبقاء معنا، والأمر لك».

تنهَّد المحارب المشهور والمعروف باسم قاديرجالي محمد بين قُطَّاع الطرق تنهدةً عميقة، واستقرَّ الحزن والغضب في عينيه، ذات اللون الأزرق الفاتح، ونظر إلى الفتاة من رأسها حتى أخمص قدميها، ثم قال بصوت رقيق: «البقية في حياتك يا أختاه.

المولويُّون كانوا أصدقاءنا، رحمهم الله... كان لدينا حساب كبير لدى حاكم السنجق، وسوف نطالبه به، وسوف يُضاف هذا الحساب لتلك الواقعة! لن ندع دماءهم تذهب هَدرًا، أقسم بالله... سنستضيفك لبضعة أيام، وسنحرص على سلامتك، وعندما يفقد مطاردوك طريقَكِ، سوف تذهبين في طريقك، نحن نحمل أرواحنا على أكتافنا، لا تستطيع فتاة رقيقة أن تعيش في جبالنا لفترة طويلة، ولكننا لن نجعلك فريسة لهم بإذن الله».

ابتسَمَت عائشة وكأنها تشكر أحد البواسل، وكل ما كانت تريده في تلك اللحظة، هو أن يأخذوها إلى العصابة، ويقدِّموها إلى خليل إيفي، ويمكنها إقناع زعيم العصابة بقدراتها غير العادية، وإذا فشلت في القيام بذلك، فيمكنها أن تطبع في ذهنه فكرة أن إبقاءها إلى جانبهم سوف يكون مفيدًا، ويمكن لها أن تثأر للمولويِّين الذين كانت تعتبرهم عائلتها، بمساعدته هو والرجل، لقد شعرت أن هذه الجبال شديدة الانحدار، ستكون موطنًا جديدًا لها، تلجأ إليها لفترة من الوقت.

ما الذي يمكن أن يكون أفضل من هذا بالنسبة لشخص لا يجب أن يختلط أبدًا بالناس، ولديه الكثير من الأسرار لإخفائها؟



14

كان إيـه آر18 ينتظـر بفـارغ الصـبر أمـام الطابعـة ثلاثيـة الأبعـاد، وقـد رفـع يـده في الهـواء، محدِّقًـا بغضـب، في إصبعـه المكسـور ربمًـا للمـرة العـاشرة، وقـد تسـبَّب تعرُّضـه للـضَّرر في إزعـاجٍ كبير لـه، في بعـض الحالات، يكـون إصـلاح روبوتـات العُـمَّال باهـظ التكلفـة؛ لذلـك كان هنـاك الكثـير مـن التعليـمات البرمجيـة في نظـام التشـغيل الخـاص بهـم، والتـي تطلـب منهـم العنايـة الجيـدة بأجزائهـا، لم تلمـس أوقيانـوس أيضًـا هـذه البرامـج، والتـي وجـدت أنهـا مفيـدة، أثنـاء تحديثهـا، والآن بعـد أن قامـت هـذه الرمـوز بتسـخين داراتهـا بشـكل مُفـرِط، كانـت أجـراس الإنـذار تـدقُّ في الـذكاء الاصطناعـي الخـاص بهـا.

كانـت الطابعـة ثلاثيـة الأبعـاد -وهـي منتـج صناعـي محـلي، للعلامـة التجاريـة «العـين الذهبيـة»- تعمـل ببـطء كبـير، مقارنـةً بنظيراتهـا المسـتوردة باهظـة الثمـن، ومـع ذلـك، أكملـت العمليـة في النهايـة، وتحوَّل

الضـوء الأحمـر المـضيء فوقهـا إلى اللـون الأخـضر، وتـمَّ فتـح الغطـاء الزجاجـي المُصَنفَـر الموجـود في مقدمـة الطابعـة، والـذي يشـبه صندوقًـا كبـيرًا، تلقائيًـا، فتـح إيـه آر18 الغطـاء بحـماس، ووضـع يـده السـليمة، وأخـذ الإصبـع الجديـد الـذي أنتجتـه الطابعـة، كان الجـزء الداخـلي مـن الجهـاز سـاخنًا للغايـة في الوقـت الحـالي، ولم يسـتطع جِلـدُ الإنسـان تحمُّـل هـذه الحـرارة، ولكنهـا لم تكـن مشـكلة بالنسـبة لـه، رفـع الإصبـع الـذي كان قـد أخرجـه، وأمسـكه أمـام عينيـه، ونفـخ الدخـان الموجـود فوقـه، ونـثره بعيـدًا، وعندمـا اقتنـع بأنـه كان ذا شـكل وحجـم مناسـبين، فقـد انتـزع إصبعـه المكسـور بغضـب، ووضعـه عـلى الطابعـة، ووضـع الجديـد بعنايـة، وبعـد تثبيـت المفاصـل، ثنـى إصبعـه عـدَّة مـرَّات، وفتحـه، لم تكـن هنـاك مشـكلة، كان يعمـل بشـكل مثـالي، وتوقَّفـت الأجـراس المزعجـة في ذهنـه واحـدة تلـو الأخـرى، وكان الصمـت يبعـث عـلى الهـدوء.

ذهبـت أوقيانـوس إلى إنسـانها الآلي المحبـوب، وعانَقَـت خـصره بحنـان، وكانـت تداعـب كتفـه الفولاذيـة المقـوَّاة، وتهمـس بأسـف في أذنـه، قائلـة:

«أعلـم أنهـم أزعجـوك، لم يكـسروا إصبعـك فحسـب، بـل كـسروا قلبـك أيضًـا، لديـك قلـب، ليـس لـديَّ شـكٌّ في ذلـك... لديـك مشـاعر، عـلى الرغـم مـن أنهـا ليسـت مثـل مشـاعرنا، هـؤلاء الحمقـى لا يمكنهـم رؤيتهـا، هنـاك أنـاس سـيئون جـدًّا في العـالم يـا مـراد... أنـا آسـفة لأننـي نسـيت هـذا، إنـه خطئـي بالكامـل، لـن أُعرِّضَـكَ للخطـر مـرة أخـرى أبـدًا».

أمـال مـراد رأسـه بهـدوء إلى الجانـب، ووضـع خـدَّه عـلى جبـين الفتـاة، شـعرت حواسـه الحراريـة بـدفء جلـد أوقيانـوس، كان ذلـك يـروق لـه، ويُهدِّئـه، لقـد تذكَّـر كيـف كان غاضبًـا قبـل سـاعات قليلـة، حيـث أصـدرت جميـع دوائـر الإنـذار الخاصـة بـه ومضـةً، وكان الـذكاء الاصطناعـي الخـاص بـه يفيـض بالأفـكار القاتلـة، لم يرغـب في أن يعيـش تلـك اللحظـات مـرة أخـرى.

كما أخبرته الفتاة، كان قد ارتدي ملابس بشرية، وارتدي قفَّازات، ووضع قُبَّعةً على رأسه، وخرج إلى الشارع، لقد كان قادرًا على المشي لفترة طويلة دون أن يلاحظ أحدٌ، كان كل شخص في المدينة مضطربًا ومرهقًا، ولم يلاحظ أحدٌ اختلاطَ روبوت بوجه بشري معهم، كان على وشك إكمال التجربة والعودة عندما أمسك بائعٌ مُتجوِّل بذراعه، وحاول تسويق مجموعة من المنتجات الغريبة له، حتى إنه لم يكن يعرف ما يحدث، كان بعضها لا يمكن أن تقاومه النساء، بينما البعض الآخر يطيل الحياة، وعندما أمسك البائع -الذي لم يستطع إنهاء وصف فوائد منتجاته- بِيَدِ زبونه غير المهتم، أخرج قُفَّازه بسرعة فجأة، وعندما رأى الرجل أصابعه المعدنية أكثر سُمكًا بثلاث مرات من الأعضاء الاصطناعية العادية، ونظر إلى وجهه ليُطلِقَ نُكتةً حول ذلك، لاحظ علامات الغُرَز التي تغطِّي وجهه كله، وعينيه الميتتين، لم يستطع السيطرة على فضوله، وحاول لمس هذه العلامات، فكسر مراد معصم الرجل عن غير قَصدٍ أثناء محاولته منعه، ولم يشعر بأي ذنب، لقد تماسك قليلًا، هذا كل شيء، لم يكن خطأه أن الجنس البشري كان هشًّا لهذا الحد.

عندما صرخ الرجل، استدارت أعين الحشد الهائل تجاهه، أولئك الذين حاولوا إعدامه دون محاكمة قالوا: «وحش! مسخ!»، وراحوا يصرخون ويضربونه بوحشية بالحجارة التي التقطوها من الأرض، لم يكن معظمهم على عِلمٍ بما يجري، فقد أطلقوا عليه وابل من الشتائم، وكأنهم يريدون إخراج الألم من حياتهم الصعبة التي عاشوها، إذا كان إنسانًا لَمَا تمكَّن من النجاة، ولكن بفضل جسده المعدني تمَكَّن من الهروب بإصبع مكسور فقط، وفي غضون ذلك، كان قد اتبع بصرامة أحد الأوامر الرئيسية في نظامه، ولم يرفع يده عن عَمدٍ ضدَّ إنسان واحد، ومع ذلك، فقد شعر أنه إذا أصبحت دوائر الإنذار الخاصة به

أكثر دفئًا، وإذا كان ذكاؤه الاصطناعي أكثر انخراطًا؛ فيمكنه فِعلُ ذلك، هل يمكن أن يتحوَّل حقًّا إلى وحش، وما هو حد ذلك؟

وقفت أوقيانوس معه لفترة من الوقت، في انتظار هدوء روح مراد، التي كان تؤمن بوجودها، من صميم قلبها، ثم رفعت مسدس الحقن في يدها، وأدخلت طرفه في خدِّ الروبوت، وصبَّت الخليط في وجهه حتى آخر قطرة، جلد الإنسان، الذي لم يتغذَّ بالدم والماء منذ وفاة صاحبه، يمكنه فقط الحفاظ على لونه وحيويته بهذا السائل الخاص.

سَمِعَت باب الحمام يُفتَح ويُغلَق، لا بُدَّ أن كمال قد أنهى عمله، وخرج، تركت مراد وحده ليستريح وتوجَّهَت إلى هناك بفضول، بقي الشابُّ في الداخل لفترة أطول من المعتاد هذه المرة، وكان وجهه شاحبًا، وكأنه قد عاد لتَوِّه من مجموعة جديدة من نوبات الصداع، فابتلعت الأسئلة التي كانت على طرف لسانها، وسألت باهتمام صادق:

«هل أنت بخير؟ هل تشعر بالخمول؟ إذا أردتَ، فقط اجلس هنا وتنفَّسْ».

قال كمال منزعجًا: «يجب أن أتفقَّد النافذة»، وترَنَّح بشكل واضح، ومشى نحو النوافذ المواجهة للشارع، وعندما وصل أمام النافذة الوسطى، نظر باهتمام إلى الخارج.

«نعم، إنها نفس الحافلة الصغيرة مرة أخرى... مرسيدس بُنِّيَّة اللون... هذه هي المرة الثالثة التي أراها اليوم، يجب أن تكون من حركة المساواة في اسطنبول بالتأكيد، جاؤوا ليأخذوني، كنت أعلم أنهم قادمون!».

سألت أوقيانوس بصوتٍ مذهول، قائلة: «ما هذا الموجود على ظهرك، يا عزيزي، هل احتككت بأرضيةٍ مَطليَّة؟»، وذهَبَت إلى الرَّجُل

الـذي كان لا يـزال ينظـر إلى الشـارع، ومـدَّت يدهـا ولمسـت البقعـة الحمـراء التـي تنمـو بـين ضلوعـه.

وقالـت: «مـن أجـل اللـه! إن ظهـرك مثقـوب، أنـتَ تنـزف! ألا تلاحـظ ذلـك!».

في البدايـة لم يفهـم كـمال مـا كانـت تتحـدَّث عنـه الفتـاة، ثـم وضـع يـده خلـف ظهـره، وتحـرَّك بهـا حتـى وجـد مكانًـا رطبًـا، وعندمـا نظـر إلى كفِّـه، صُـدِم عندمـا رأى أنهـا مُغطَّـاة بالدمـاء، وسرعـان مـا أفسـحت هـذه المفاجـأة الطريـقَ لخـوفٍ كبـير، كيـف وأيـن كان هـذا الجـرح؟ لم يـؤلم عـلى الإطـلاق، لا عـلى الإطـلاق! إذا ثُقِـبَ ظهـر المـرء، ألا يتألَّـم لذلـك؟

وفجـأة شـعر بالتعـب الشـديد، ولم تسـتطع سـاقاه حملـه، وسـقط عـلى الأرض، وعندمـا سـقط، ضرب رأسـه بالحائـط بـين النوافـذ، وسـمع صـوت الاصطـدام، ولكنـه لم يشـعر بـأي ألمٍ مَـرَّةً أخـرى.

عندمـا أظلَمَـت عينـاه وفقـد وعيـه، كل مـا كان يفكـر فيـه هـو مـدى غرابـة الأمـر.

عندمـا أضـاء العـالم مـرة أخـرى لـه، كان الليـل، والظـلام في الخـارج، وكان مسـتلقيًا بملابسـه الصباحيـة عـلى سريـر عـلى الأرض، كان موجـودًا عـلى أرضيـة خشـبية.

ابتسـمت أوقيانـوس ابتسـامة عريضـة، وقالـت للرجـل الـذي كان يجلـس القرفصـاء بجانبهـا: «هـل اسـتيقظت أيُّهـا الطفـل الكبـير؟ في الأيـام الأخـيرة، أكلـتَ كثـيراً، وكان لديـك بطـن، وكنـتَ ثقيـلًا كالحجـر! لم أسـتطع تحريـكَكَ ملليمـتراً واحـدًا، لحُسـنِ الحَـظِّ، إن مـراد موجـود، لـولاه كنـت ستموت هنـا بسـبب نزيـف الـدم، لقـد أحكمنـا لفَّـكَ جيِّـدًا، وقُمنـا بلَـفِّ رأسـك جيـدًا أيضًـا، أتمنـى أن تكـون أفضـل الآن».

سأل كما، قائلًا: «ماذا حدث لي؟...».

أجابتـه، قائلـة: «أنـت سـتقول ذلـك يـا عزيـزي! لقـد كنـتَ تتـصرَّف بغرابـة منـذ لحظـة هبوطـك عـلى الأرض، وأرَدتُ أن أحـترم قراراتـك، فقلت إذا كان يخفـي أسرارًا عنـي، فهـو يعـرف شـيئًا، لكـن هـؤلاء تجـاوزوا الخط! يوجـد مسـمار بنـاء ضخـم عـلى الحائـط في المرحـاض، أقـوم بتعليق الأشـياء هنـاك أحيانًـا؛ لـذا لم أقُـم بإزالتـه، كيـف قُمـتَ بالتغلُّـب عـلى ذلـك، الآن جعلـت هـذا المسـمار يدخـل إلى ظهـرك! تعـال، لقـد مَـررتَ بـه، حتـى إنـك لم تـدرك ذلـك! مـن الواضـح أنـك لم تتألَّـم عندمـا كان ظهـرك ينـزف، الآن دعنـا نـرى، مـا هـو نـوع الغائـط الـذي تلوَّثـتَ بـه، مـا الـذي يحـدث؟ كيـف لا تشـعر بمسـمارٍ كبـير يدخـل في لحمـك!».

تنهَّـد كـمال في يـأس، ووضـع يـده عـلى رأسـه، ولمـس التـورُّمَ تحـت الضـمادة، لكـن لم يكـن هنـاك ألم، اسـتقرَّ الخـوف في قلبـه مـرة أخـرى، كان بحاجـة للمسـاعدة، وكان عليـه أن يُقبِّلهـا، وقـال:

«كنـتُ قـد قلـتُ إن الصـداع العنقـودي الـذي أعـاني منـه قـد اختفـى منـذ فـترة...».

فأجابته، قائلة: «نعم، لقد قلتَ ذلك».

وأضـاف كـمال، قائـلًا: «كان هــذا صحيحًـا، لكــن هــذا لم يحــدث بشـكل عفـوي... السـيدة جـول، عميـلي الغامـض، تديـر مركـزًا صحيًّـا، مركـزًا غامضًـا، يعملـون عـلى طُـرُقٍ علاجيـة لا يعرفهـا أحـد، فقـط أثريـاء اسـطنبول... وجمهوريـات المـدن الأخـرى... وقـد أعطتنـي بعـض الإبـر، وقالـت إنهـا سـتخفِّف مـن الصـداع، لقـد أفادتنـي بالفعـل، لم أعـانِ مـن هـذا الألم الرهيـب لعـدة أيـام، ولا يمكننـي وصفـه بالكلـمات، إنـه مثـل التحـرُّر مـن الجحيـم... أرَدتُ أن أخـبرك، لكننـي لم أسـتطع، فقـد هـدَّدَت السـيدة جـول بعـدم إعطـاء أي دواء آخـر لي، إذا لم أُبـقِ الأمـرَ سِرًّا، لم أسـتطع أن أجـازف بذلـك يـا أوقيانـوس، لم يكـن لـدي القـوة لتجـاوز هـذا الألم مـرة أخـرى».

نظرت أوقيانوس إلى الشاب بعيون متعاطفة، ومدَّت يدها وداعَبَت خَدَّه بحنان، كانت قد شَهِدَت هجمات الصداع العنقودي التي تعرَّض لها كمال عدة مرات من قبل، وكانت قد شاهدته يضرب نفسه بالحائط، ويبكي مثل طفل، ويتدحرج على الأرض صارخًا، ويقاتل عبثًا مع عدوٍّ غير حقيقي، كما لو كان أحدهم يُغمِد سكينًا في عينيه، في حالة من اليأس، محطَّمًا، لقد كان شيئا مؤلمًا جدًّا لعدم القدرة على مساعدته.

واعترفت بهدوء «أنا أعرف الإبر... هناك كاميرا خفية عند مدخل المرحاض، إنها منتشرة في جميع أنحاء المستودع، في الواقع، على المرء أن يكون حَذِرًا عند العيش بمفرده، وإجراء التجارب المحظورة من قِبَل الدولة، رأيتُكِ تعطي لنفسك حقنة، لكنني تجنَّبتُ أن أسألك؛ لذلك كان هذا هو السبب...».

سألها كمال، قائلًا: «هل توجد كاميرا في المرحاض؟ أليس هذا يُعَدُّ تجاوُزًا بعض الشيء حتى بالنسبة لك؟».

ضحكت أوقيانوس، قائلة: «لا تقلق، لا تنظر أين تتبوَّل! يمكنك القيام بذلك بشكل مريح، لا تقلق! كل أنواع الغُرَباء يغدون ويروحون، كان عليَّ أن أُطَمئِنَ نفسي».

وعلى الرغم من كل مخاوفه، ابتسم كمال بشكلٍ غير إرادي، كان يعلم أن أوقيانوس تفتح بابها فقط لشخص أو شخصين في السنة على الأكثر، إذا لم يكن لديها خيار آخر، وقد وضَعَت شرطًا بعدم الالتقاء وجهًا لوجه حتى للعملاء الأكثر كرمًا الذين يرغبون في الاستفادة من خدماتها، وعندما كانت تتسوَّق عبر الإنترنت، إذا كان الشخص الذي جلب طلباتها شخصًا حقيقيًّا، وليس شاحنة آلية، فإنها ستدفع بأموال افتراضية، وتطلب منه ترك المنتجات أمام الباب، وهي ستأخذها، ولكن بعد مغادرته. شعرت الفتاة بأن حالتها أسوأ منه الآن.

قـال وهـو يشـبك يديـه: «كان كل شيء عـلى مـا يـرام في البدايـة، لكننـي أعتقـد أن العـلاج بـدأ يصبـح أمـرًا لا يطـاق الآن... في كل مـرة أشـعر بالتعـب أكـثرَ، أشـعر بالإرهـاق، ولا يمكننـي الاسـتمرار في هـذا لفـترة طويلـة».

وضـع يـده عـلى رأسـه، ولمـس بإصبعـه مـرة أخـرى، التـورُّم الموجـود تحـت الضـمادة.

وقـال: «ويبـدو أيضًـا أن هـذا الـدواء لا يمنـع فقـط الصـداع العنقـودي، بـل يمنـع كل أنـواع الألم الجسـدي، أو قـد يكـون لـه آثـار الجانبيـة لأننـي أسـتخدمه كثـيرًا، لا أتذكَّـر أننـي قد شـعرتُ بشـعور كهـذا في الحُقَـن الأولى، كانـت هنـاك لحظـات أشـعر فيهـا بـالألم، يبـدو الأمـر، وكأنهـم يدمِّـرون ببـطء كلَّ تَصـوُّراتي لـلألم».

أومـأت أوقيانـوس، قائلـة: «الألم هـو إنـذار حالـة الطـوارئ لأجسـادنا، نحــن لا نحبُّـه، لكنـه في الواقـع يُبقينـا عـلى قيـد الحيـاة، ويسـمح لنـا بحمايـة أنفسـنا مـن الأشـياء التـي تـضرُّ بجسـمنا، وحتـى إذا أصـاب هـذا المسـمار الموجـود عـلى الحائـط رقبتـك، وليـس ظهـرك، كنـتَ لـن تشـعر بـه حتـى يتمـزَّق الشريـان... حتـى التفكـير في الأمـر يُعَـدُّ أمـرًا مُخيفًـا... لا يمكنـك الخـروج في هـذه الحالـة، يـا كـمال، هـذا خطـير للغايـة، تحتـاج إلى الراحـة حتـى يـزول مفعـول الإبـر، آمـل ألَّا يكـون لـه تأثـير دائـم! وإلا فإنـك في ورطـة كبـيرة».

اسـتقام كـمال حيـث كان مسـتلقيًا، وجلـس في وضعيـة الجلـوس، وشـبَّك يديـه معًـا، ونظـر إليهـا بتعبـير حزيـن، وقـال:

«أنـتِ مُحِقَّـة في كل كلمـة تقولينهـا، لكـن ليـس لـديَّ وقـتٌ أُضيِّعـه، لـن تنتظـرني حركـة المسـاواة لأيـام، اتَّصَلـتُ بهـم، لم أكـن متأكـدًا مـن أنهـم سـيأتون، لكنهـم جـاؤوا، هـذه الفرصـة تـأتي لي مـرة واحـدة فقـط، إذا تمكَّنـتُ مـن العثـور عـلى أولئـك الذيـن قتلـوا أصدقاءهـا؛ فسـتوفِّر لي

السيدة جول علاجًا دائمًا، لقد تحدَّثَت عن نوع جديد من الجراحة يقضي على كل الصداع العنقودي، لقد فعلوا هذا بنجاح من قبل! وفي هذه الحالة أستطيع أن أقول وداعًا لهذه الإبر اللعينة، والألم الرهيب، يجب أن أجرِّب هذا، يا أوقيانوس، يجب عليكِ أن تفهميني، لا أستطيع التحمُّل بعد الآن...».

اقتربت أوقيانوس من السرير، بقدرٍ كافٍ، ووضعت ذراعها الروبوتية على كتف الشاب، بأصابعها المعدنية المغطَّاة بجلد الإنسان، كانت تداعب جانب رقبته كما لو كانت تسلِّي كلبًا، لم تكن في مثل هذا الوضع من قبل، ولم تكن تعرف كيف تتصرَّف، أو ماذا تقول، الجانب الذي أحبَّته في الروبوتات هو أنه كان هناك حلٌّ واحد لجميع مشاكلهم تقريبًا، ألا وهو توصيل الأسلاك الصحيحة، وإحكام البراغي، وتحديث البرنامج، ويتم تجاوز المشكلة، لن يسمحوا لأنفسهم أن يكونوا كما هم الآن، لقد بحثت عن الكلمات الصحيحة، لكنها لم تستطع إيجادها، ثم قالت ما في ذهنها:

«لا أعرف لماذا أيها الأحمق، ولكن أنا حقًّا أحبُّكَ، أنت صديقي الوحيد في هذا العالم، الشخص الوحيد الذي أثق به دون قَيدٍ أو شرط، والذي يعرفني بكل الطُّرُق... لا يمكنني تَحمُّل أن أفقدك، دعني أساعدك، وأنت ثِقْ بي أيضًا».

تمتم كمال، قائلًا: «أنا أثق بكِ. لماذا تعتقدين أنني هنا؟ لماذا آتي إليك في كل مرة أكون في ورطة؟».

فأجابته، قائلة: «إذن اترُكْ لي واحدة من تلك الإبر، أنا أعرف ما معنى ذلك بالنسبة لك، لكننا نحتاج إلى معرفة ما بداخلك، لا يمكنك أن تضع شيء به مثل هذه الآثار الجانبية في عروقك».

أومأ كمال برأسه، وكأنه يقول إنك على حَقٍّ، وأدخل يده في جيب سترته، وأخرج الصندوق المربوط بحزامه، الذي كان يتدلَّى منه قُطريًّا فوق كتفه، وفتحه، وسَلَّم إحدى الإبر للفتاة، وقال:

«أنتِ عبقرية تقنية، الآن تتظاهرين بأنك خبيرة في العلاج؟».

غمَزتَ الفتاة، قائلة: «ليس لديَّ مثل هذه النوايا، لكن هناك أشخاص هنا مدينون لي بالمال، لا يمكنك تَخيُّل عدد الأشخاص على وجه الأرض الذين يحتاجون إلى مسح سجِلَّاتهم الشُّرَطيَّة للحصول على وظيفة... أعتقد أنه يمكنني العثور على شخص يمكنه مساعدتنا في هذا الأمر».

قال كمال: «حسَنًا إذًا، الآن، هل تسمحين لي برؤية أصدقائي الموجودين في الخارج، يا أُمِّي؟ إذا تركتهم ينتظرون لفترة أطول قليلًا، فمن المحتمل أن يشعروا بالملل، ويذهبوا».

قالت أوقيانوس، بتجَهُّمٍ: «أنت تسخر مني»، وقامت بلَكْمِ كمال في كتفه على سبيل المزاح: «يمكنك الذهاب، لكنَّ طائرتي بدون طيار ستكون فوقك مباشرة، وأنا عيني عليك! إذا أسأت التَّصرُّف، فسوف أُسقِط الأداة على رأسك!».

قال كمال: «اتَّفقنا».

عندما خرج كمال استنشق الرائحة النَّفَّاذة في الهواء. كل بضعة أسابيع، كان يسقط ضباب كثيف على اسطنبول، ولم يعرف أحدٌ سبب ذلك، وكانت هذه الرائحة نذيرًا له، وكان الناس سيُصابون بالعمى لبضع ساعات، ولن يغادروا المنازل بقدر الإمكان، معتقدين أنه قد يكون ضارًّا بالصحة، لقد كان غريبًا طوال هذه السنوات أنه لم يكن هناك أي كلمة عن هذا الضباب في الأخبار أو الإعلانات الحكومية، لكنه كان يعرف ما يكفي عن المدينة، لدرجة أنه يعرف إذا لم يتحدَّث أحد عن شيء ما، فمن الخطر السؤال عنه.

سار كمال مباشرة إلى السيارة المرسيدس ذات اللون البُنّيّ المتوقِّفة على الجانب الآخر من الشارع، كانت نوافذ السيارة مُعتمة، ولم يكن ما بالداخل مرئيًّا، لم يكن لديه أي فكرة عمًّا سيحدث بعد هذه اللحظة، لكن ذلك لم يُخِفه، إن فكرة وجود نيشه في السيارة جعل قلبه يرتجف لبضع ثوانٍ، لكنه كان يعلم أن ذلك من غير المحتمل إلى حدٍّ كبير، واقترب من الباب الخلفي للسيارة، ونظر في المرآة الجانبية ليتأكَّد من أنهم رأوه، وابتسم، وانفتح الباب في لحظة، وامتدَّ زوجان من الأيدي القوية من الداخل، وأمسكته من ذراعيه مثل المخالب، وجذبته إلى السيارة.

بمجرد إغلاق الباب، خرجت شفرات المروحة الكبيرة من الفتحة الموجودة في الجزء العلوي من سيارة المرسيدس، وبدأت في الدوران، وكان الناس الذين يتجوَّلون متناثرين مثل الكتاكيت، يسبُّونهم، امرأة تعانق طفلها الذي كان يقف بالقرب من المراوح، اندفعت إلى مبنى سكني على عجل، وصاح بائع متجوِّل عجوز قوي البنية أنه ممنوع الطيران عبر الحي، وألقى بحجر بحجم قبضة اليد على السيارة، كان الشارع مُغطًّى بالكامل بسحابة كثيفة من الغبار.

لم يهتمّ الموجودون بالداخل بما يجري في الخارج، وأقلعت السيارة بهدوء من الأرض، وحلَّقت في الجو، وكادت أن تقشط المباني المدمَّرَة، وتلقي الغسيل المتدلي من الشرفات، وبمجرد أن أصبحت فوق الأسطح، زادت من سرعتها، وبدأت في الطيران شمالًا، واختفت عن أعين أوقيانوس التي كانت تتابع الأحداث من خلال النافذة.

ذهبت الفتاة أمام الشاشة لمتابعة استمرارها من كاميرا الطائرة التي كانت تتعقَّب المرسيدس، ووضعت ساقها الآلية إحداهما فوق الأخرى، ولفَّت ذراعيها، وتمتمت، قائلة: «حظًّا سعيدًا أيُّها الصعلوك»، وكان في نيَّتها الصلاة.

وقعـت عيناهـا عـلى إطـار الصـورة ثـلاثي الأبعـاد، الموجـودة بجـوار الكمبيوتـر، وكان والداهـا يضحـكان لهـا بحـرارة مـن هنـاك، هـي أيضًـا كانـت تعانـق سـاقيهم بـبراءة طفلـة، وبـدوا سـعداء جـدًّا معًـا، كانـت هـذه الصـورة قـد التُقِطَـت في منزلهـم، الـذي تتذكَّـره دائمًـا بشـوق، وبعـد التعـرُّف عـلى العـالم أدركـت جيـدًا الجهـود التـي بذلتهـا عائلتهـا لحمايتهـا مـن الحيـاة الخارجيـة، ودائمًـا مـا تتذكَّرهـا بامتنـان، وبقـدر مـا كانـت تحـاول السـخرية، كانـت العواصـف تهـبُّ بداخلهـا، لقـد فكَّـرَت في مـدى شـعورها بالوحـدة في هـذه المدينـة المخيفـة، التـي غالبًـا مـا كانـت تجـد صعوبـة في فهمهـا، وشـعرت بأنهـا غريبـة عنهـا، وذلـك إذا لم يسـتطع كـمال العـودة، قامـت بتسريـع الطائـرة بـدون طيـار، وجعلتهـا تقـترب مـن المرسـيدس جيِّـدًا، والتـي كانـت تقـوم بمنـاورات صعبـة في الهـواء، مهـما كان الأمـر محفوفًـا بالمخاطـر، فلـن يغيـب عـن عينيهـا.

15

لم يســتطع رؤيــة أي شيء، لم يكــن متأكِّــدًا مــمَّا إذا كان معصــوب العينــين أم لا، ولم يســتطع مــدَّ يــده ولمــس وجهــه، ولا يمكنــه تحريــك يديـه مهـما حـاول بصعوبـة، بـدا جسـده كلـه مشـلولًا، كان مسـتلقيًا عـلى الأرض، كان يشـعر بهـا، لكنـه لم يسـتطع معرفـة مـا إذا كانـت الأرض صلبـة أم ليِّنــة، ســاخنة أم بــاردة، كان المــكان هادئًــا جــدًّا، وكان ينبغــي عــلى الأقـل أن يسـمع تنفُّسَـه في الصمـت؛ إمَّـا أن أذنيـه قـد فقـدت وظيفتهـا مثـل حواسـه الأخـرى، أو أن شـخصًا مـا قـد منعهـما.

عندمـا تـلاشى الدخـان مـن عقلـه، تذكَّـر اللحظـة التـي وُضـع فيهـا في الحافلـة الصغـيرة، أخـذه رجـلان مفتـولا العضـلات بوجـوه مقنَّعـة، بـين ذراعيهـما، وجذبـاه إلى الداخـل، وفي الوقـت نفسـه، كان هنـاك شـخص آخـر، وضـع شـيئًا عـلى بطنـه يشـبه العصا الموجـودة في يده، شـعر بـبرودة، وإحسـاس بالوخـز، بـدأ في معدتـه، وفجـأة اجتـاح جسـده بالكامـل، بعدها

مباشرة، أظلم العالم، ومنعه الرجال الممسكون بذراعيه من السقوط على الأرض، ما حدث بعد ذلك الوقت لم يستطع تذكُّر أي شيء منه.

كانت حواسه تعود ببطء، وبدأ يشعر ببرودة الأرضية الخرسانية التي يرقد عليها، ونظرًا لأنه شعر بالبرودة، إمَّا أنه كان في مكان بارد، أو أنهم أخذوا ملابسه، لاحظ أنه يستطيع أن يلاعب أحد أصابعه، ثم يمكنه أن يهزَّ ذراعه قليلًا، ما زال غير قادر على الرؤية، هل كان لا يستطيع فتح جفنيه، أو كان الظلام يلفُّ المكان كله، لم يكن متأكِّدًا من ذلك، ثم سمع صوتًا مميزًا بعد ذلك، يبدو أن أذنيه كانتا أسرع أعضائه التي تحسَّنَت، كان ممتنًّا لأذنيه.

فُتح أحد الأبواب محدثًا صريرًا، ثم أُغلِق بقوة، اقتربت أصوات أقدام قوية بسرعة، وتوقَّفَت عند قدميه، كان يستمع إلى التنفُّس الهادئ لشخص ينحني فوقه، كان الأمر كما لو كان يفحصه مثل فأر التجارب، في محاولة لاتخاذ قرار بشأنه، ثم ابتعد الرجل أو المرأة، أيًّا كان، ولماذا أتوا، مُسرِعين كما لو كانوا في عجلة من أمرهم، وفُتح الباب مرة أخرى، وأغلق، ولم يُفتح مرة أخرى لفترة طويلة.

في المرة الثانية التي تمَّت فيها زيارة زنزانته، يمكنه الآن فتح عينيه قليلًا، كان في غرفة صغيرة غير مفروشة، وكانت هناك أضواء دائرية في السقف موضوعة في الزوايا، لم يستطع النهوض، وحاول عدة مرات، ولكنه سقط على الأرض في كل مرة، ومع ذلك كان بإمكانه تحريك ذراعيه، وإدارة رأسه، وكانت هذه علامة جيدة، لم يكن مُقيَّدًا في أي مكان، ولم يكن هناك أي أصفاد، ولم يُعامَل كسجين، كان سيشعر براحة أكبر لو لم يكن عاريًا تمامًا، لكن على الأقل لم تظهر عليه جروح جديدة، وأولئك الذين أحضروه إلى هنا حملوه بعناية قدر استطاعتهم.

كان الشخص الذي دخل الغرفة هذه المرة رَجُلًا طويل القامة، ونحيفًا للغاية بوجه باهت، يشبه شخصية الكتاب الهزلي ثنائي الأبعاد، لم تكن هناك شَعرَة واحدة على رأسه، ولا شارب ولا لحية، ولا حتى حواجبه؛ فقد كانت إمَّا تتساقط أو تُنتَف، وكان يضع شريطًا أبيض سميكًا على جبهته، مع كاميرا صغيرة على جانب واحد منه، وميكروفون على شكل زر على الجانب الآخر، لا بُدَّ أنهم سجَّلوا كل ما رآه وقاله، كان يرتدي قميصًا أبيض يشعر بأنه فضفاض للغاية بالنسبة له، مع بنطال من الچينز، وفي إحدى يديه، كان يحمل سلاحًا مشابهًا للسلاح الغريب الذي كان على شكل عصا، وأصاب كمال بالشلل لحظة، ووضعه في الحافلة الصغيرة، بينما كان يحمل في اليد الأخرى حقيبة رياضية صغيرة، بعد مشاهدة الشاب باهتمام شديد، دون أن يقترب منه، ألقى الحقيبة عند قدميه، وتحدَّث بصوت ناعم مخالِفٍ لتعجرفه.

وقال: «يا سيد كمال... أنا آسف لإحضارك إلى هنا بهذا الشكل، آمل ألَّا تكون مستاءً منَّا، أنت ستُقدِّر ذلك؛ فنحن بحاجة إلى إيلاء اهتمام خاصٍّ للخصوصية، ملابسك في الحقيبة، كان علينا التأكُّد من عدم وجود جهاز تتبُّع في ملابسك أو جسمك؛ لهذا قمنا ببعض الفحوصات أثناء نومك، لقد صادرنا مؤقتًا ساعتك التليفزيونية حتى لا ترسل معلومات إلى الخارج، أتمنى أن تتقبَّل ذلك بتَفَهُّم، التورُّم الموجود على رأسك والندبة على ظهرك... آمل ألَّا يكون رجالنا قد فعلوا ذلك... لقد صدَرَت إليهم الأوامر بأن يكونوا لطفاء».

تمتم كمال بضجر، قائلًا: «أردتُ أن آتي إلى هنا، واعتقدتُ أن الأمر لن يكون سهلًا، مهما كانت ظروفكم، أنا أحذِّركم، لا تقلقوا، الندوب موجودة مسبقًا، ولا علاقة لها برجالكم، لقد كانوا لطفاء قدر المستطاع».

قال الرجل: «أنا سعيد لسماع ذلك، يمكنك مناداتي بيروتلو، أحد ألقابي العديدة، نحن الآن في قبو أحد بيوتنا السرية، كما ستُقدِّر، لا يمكنني تركك تغادر هذه الغرفة، لكن لا تقلق، فقد قَبِلَت السيدة نيشه طلبَ المقابلة الخاص بك، وسوف تأتي للتحدُّث معك بعد قليل، ارتَدِ ملابسك إذا رَغِبتَ في ذلك؛ فهناك وقت، سأكون عند الباب، إذا كُنتَ بحاجة إلى مساعدة يكفي أن تناديني».

اضطرب كمال عندما سمع أنه ذاهب لرؤية نيشه، كانت حواسه وجسده تعودان إلى طبيعتهما مع مرور كل ثانية، وشعر بالقلق عندما تذكَّر أن الإبر ليست موجودة معه، كان خائفًا من أن يتعرَّض للأزمة أمامها، ولم يستطع أن يتحمَّل رؤية نفسه وهو يصرخ، ويُظهر ارتباكًا بلا حول ولا قوة.

وسأل، قائلًا: «متى أتيتَ بي إلى هنا؟ هل من فترة طويلة؟ كم ساعة مرَّت عليَّ منذ أن أُصِبتُ بالإغماء؟».

فأجابه الرجل، قائلًا: «لسوء الحظ، لا أستطيع أن أقول ذلك، هذا مكانٌ سِرِّيٌّ، لا يمكننا أن نجازف بإخبارك بالمسافة من المكان الذي التقطناك منه، أرجوك اعذرني».

قال كمال: «إنني أتفهَّم...».

رَدَّ عليه الرجل، قائلًا: «كنتُ مُتأكِّدًا من أنك ستفهم، بعد كل شيء، كنتَ ذات يوم جزءًا منَّا، لم تتغير قواعدنا كثيرًا منذ مُغادَرَتِكَ، في الواقع، لم تتغيَّر منذ قرون، ارتدِ ملابسك الآن، من فضلك، سأكون بالخارج حالًا».

وقال كمال: «إبَري... كان هناك صندوقٌ يتدلَّى من حزامي، بداخل ملابسي، أنا أستخدم علاجًا يا بيروتلو، وأحتاج تلك الحقن، أنتَ لم تُدمِّرهم، أليس كذلك؟ من فضلك قُل لي إنَّكَ لم تدمِّرهم...».

وقـف الرجـل العمـلاق في المـكان الـذي كان فيـه لفـترة، ورأى كـمال شـفتي الرجـل تتحـرّكان، كان يتحـدَّث بصـوتٍ هامـس؛ لـذا لم يكـن مـن الممكـن سـماع مـا يقولـه، لكـن كان مـن الواضـح أنـه كان يتواصـل مـع شـخص بالخـارج عـبر ميكروفـون الـزِّرّ، أخـيراً ابتسـم الرجـل، وأومـأ برأسـه.

وقـال: «إبَـرُكَ هنـا، لا تقلـق، فقـط يكفـي أن تقـول عندمـا تحتاجهـا، لكـن قبـل أن أُدخِـلَ إبـرة، سـأضطرُّ إلى أن أُخـدِّرَكَ مـرة أخـرى لفـترة قصـيرة، لسـوء الحـظ، لا يمكننـي الانحـراف عـن قواعـد السـلامة؛ لـذا، إذا لم تكـن بحاجـة إليهـا الآن، فلنتركهـا حتـى بعـد زيـارة السـيدة نيشـه إذا كنـتَ ترغـب في ذلـك».

فحـص كـمال جبهتـه وخـدَّه بيـده التـي يمكنـه تحريكهـا الآن، لم يكـن هنـاك شـعور بالتمـدُّد أو الوخـز حتـى الآن، ولم يكـن هنـاك تَصلُّـب بـين عينيـه، ربمـا كان آمِنًـا لفـترة أطـول؛ كان مـن المنطقـي أن ينـادي بيروتلـو إذا أدرك أنـه سـيصاب بنوبـة صرع الآن، بـدلًا مـن أن يفقـد وعيـه مـرة أخـرى، كان يعتقـد أنـه اعتـاد عـلى هـذه الآلام، لكـن يبـدو أنـه كان يخـدع نفسـه فقـط، وبعـد أن تمكَّـن مـن الابتعـاد عـن الصـداع العنقـودي لفـترة مـن الوقـت، فـإن احتـمال البـدء مـرة أخـرى أدَّى إلى تجمُّـد دمـه.

قـال: «حسـنًا... لنفعـل كـما تقـول، لكـن قـد أحتـاج هـذه الإبـر بشـكل عاجـل؛ لـذا إذا انتكـس مـرضي... أعلـم أنـك ستسـتمع لمـا يحـدث بالداخل، وسـوف تـأتي وتقـوم بذلـك عنـد الـضرورة».

وضـع بيروتلـو يـده عـلى قلبـه، وحيَّـاه برأسـه، قائـلًا: «لا تقلـق، عيوننـا وآذاننـا عليـك»، ثـم اسـتدار بهـدوء، وغـادر الغرفـة.

جلـس كـمال ورأسـه بـين يديـه لفـترة، كان في حاجـة إلى تصفيـة رأسـه، ثـم إنـه لم يسـتطع المجازفـة بـأن تـراه نيشـه وهـو عـارٍ تمامًـا، عندمـا تدخـل، وعـلى الرغـم مـن أنـه كان لا يـزال يواجـه مشـكلة بسـيطة في تحريـك ذراعيـه، إلا أنـه فتـح الحقيبـة، وبالـكاد ارتـدى الچينـز والقميـص

الموجودين بداخلها، لحسن الحظ، بينما كان يتحرَّك، تسارَعَت الدورة الدموية، وفتحت مفاصله، وتبَدَّد ستار الدخان الذي غلَّف عقله، لم يستطع معرفة المدة التي قضاها فاقدًا للوعي، أو إلى أي مدى تصل المسافة من مخزن أوقيانوس إلى هنا، لكنه كان متأكِّدًا من أنه لم يكن قريبًا في أي مكان، لقد تذكَّر أنه استيقظ في مرحلة ما من الرحلة، وسمع صوت المراوح، وشعر بها وهي ترتفع وتنخفض، وكان متأكِّدًا من أنهم كانوا في سيارة «بر جوِّيَّة» في تلك اللحظة، ربما لم يكونوا حتى في اسطنبول الآن.

ذهب إلى أقرب جدار في الغرفة، وهو يزحف تارة، ويحبو تارة، وانحنى إلى الخلف، وألقى رأسه على الحائط، وحدَّق في الباب، وعيناه متسعتان الآن، كان يريد أن يرى مدخل نيشه، لقد كان يحلم مرَّاتٍ لا حصر لها باللحظة التي سيقابلها فيها مرة أخرى، وفي كل مرة يرتجف؛ كونه سيعيش ذلك في الواقع الآن، كان ذلك شيئًا جميلًا رغم كل شيء.

مرت الدقائق، الدقائق التي بَدَت مثل ساعات بالنسبة له، أخيراً، فُتح الباب الحديدي بهدوء، ودخلت المرأة التي كان ينتظرها بشوق، مثل ضوء الشمس.

بشعرها الأحمر القصير، ووجهها اللامع، وابتسامتها الفريدة، كانت نيشه جميلة مثل اليوم الذي انفصلا فيه، وكان للحب العميق الذي دفنه في قلبه دور في العثور عليها جذابة للغاية، مَن يدري، ربما لم تَعُد مُعجَبة جدًّا بالرِّقَّة في ابتسامته والعمق في نظراته، واللذين كانا سببًا في نموٍّ نفس المشاعر تجاهه، كان هناك من كَرِهَ ذقنه الذكورية، وأنفه المقوَّس، ممَّا أعطاه تعبيراً صارمًا، لكنه لم يستطع التخلُّص من هذه المشاعر، ولم يستطع منع نفسه من الذهول، وكأنه قد فُتِن بها وهو يحدِّق إليها الآن.

خَطَت نيشه بضع خطوات نحو كمال، ثم أدركت أنه لا يستطيع أن يقوم، فجلست على رُكبَةٍ واحدة، ووصلت إلى أسفل، وربَّتَت على خده كما لو كانت تداعب طفلًا.

وقالت: «يا حبيبي كمال الوسيم... هل أساؤوا معاملتَك كثيراً؟... أردتُ أن يكونوا لطفاء، لكن في بعض الأحيان لا يفهمون ذلك، أتمنَّى أن تكون بخير الآن».

بعد أن جمع شتات نفسه قليلًا، أخذ الشابُّ نَفَسًا عميقًا، وتحدَّث بصعوبة.

وقال: «لا... لم يفعلوا أي شيء، أعني، بخلاف ما كان عليهم فعله... أنا فقط لم أكُن مستعدًّا لرؤيتك، لقد أدرَكتُ ذلك للتَّوِّ، إذا بدَوتُ مهزوزاً، فأنتِ السبب، لقد اشتقتُ إليكِ كثيراً».

ابتسَمَت نيشه بلطف، وكانت هناك نظرة تَفهُّم متسامحة في عينيها.

وقالت: «لقد مرَّ وقت طويل، لكنك لم تتغير على الإطلاق، أنت تُحرِجني مرة أخرى، ومع ذلك، لا أعتقد أنك جئتَ إلى هنا لتخبرني بذلك».

هزَّ الشاب رأسه على الجانبين، وقال: «لا»، واستجمع قواه قليلًا في المكان الذي كان يجلس فيه، وانتصب واقفًا.

وقال: «في الواقع، جِئتُ إلى هنا لسبب مهم للغاية، لقد ارتبكتُ فقط عندما رأيتُكِ، هذا كل شيء، أنتِ لم تتغيَّري على الإطلاق، ما زلتِ المرأة التي أتذكَّرها وأحبها، ومع أنني حاوَلتُ أن أنساكِ، إلَّا أنني لم أستطع، حتى اليوم أنا أعود إليكِ وأنا مشوَّش».

تنهَّدَت نيشه بعمق، قائلة: «أتمنى لو لم يكن الأمر كذلك... إذن ربما لن تضطرَّ إلى مغادرة هذا المكان، أفتقد صداقتك، وحواراتنا، وما شاركناه... كنتَ غاليًا بالنسبة لي، ولا زِلتَ كذلك».

تمتم كمال، قائلًا: «لم أستطع البقاء معكِ، كنتُ أعلم أنكِ تحبِّين شخصًا آخر، سوف يؤلمني كثيرًا، وأنتِ كنتِ تعرفين ذلك أيضًا، وطلبتِ مني الذهاب».

جفَلَت نيشه فجأة، وكأن الشاب قال جُملةً مَسَّت قلبها.

وقالت: «أنت على حق، لقد طلبتُ منك ذلك، كان هذا هو الأفضل لكلينا، على الأقل اعتقدتُ أنه كان كذلك، يؤلمني عندما تنظر إليَّ بخيبة أمل».

وأمسَكَت كمال من ذقنه، ورفعت رأسه، ونظرت باهتمام في عينيه.

وقالت: «حسنًا، وماذا عن الآلام الأخرى... هل ما زِلتَ تعاني من الصداع العنقودي؟ هل كان هناك أي تحسُّن؟ آمل أن يكون الابتعاد عن هنا قد ساعدك على التخلُّص من التَّوتُّر، حتى لو كان قليلًا، فإنه مفيد».

ضحك كمال ساخرًا، وقال: «كيف يمكنكِ الابتعاد عن التَّوتُّر أثناء إقامتكِ في اسطنبول؟ في الواقع، هذه الآلام لا علاقة لها بالتوتر أو الضيق، لم يستطع أي طبيب تحديد مصدرها، لكن تغيير نمط حياتي لم يؤثِّر، هذا أمرٌ مُؤكَّد، استمرَّ مرضي بنفس الشِّدَّة منذ اليوم الذي تركتكِ فيه، يمكنني حتى أن أقول إنه أصبح لا يُطاق في السنوات الأخيرة...».

قالت نيشه بحزن شديد: «أنا آسفة لذلك»، واستقرَّ تعبير مؤلم على وجهها، «كنتُ أتخيَّل أنَّكَ كنتَ أفضل عندما كنتَ بعيدًا عني، وكان الألم قد خُفِّف بطريقة ما، وعندما كنتُ أنظر إلى الأبراج

الضخمـة، كنـتُ أحـاول أن أصـدِّق أنـك تعيـش حيـاة سـعيدة، وهادئـة هنـاك، ليتنـي كنـتُ عـلى حـق».

قـال كـمال بصـوت مـتردِّد: «في الواقـع، يمكـن تخفيـف ألمـي، قابَلـتُ امـرأة وجَـدَت حـلًّا دائمًـا للصـداع العنقـودي، عـلى الأقـل تقـول إنهـا تسـتطيع فِعـلَ ذلـك، إذا كان بإمـكاني مسـاعدتها في أحـد الموضوعـات، فسـتحاول علاجـي؛ ولهـذا السـبب جئـتُ إلى هنـا، يـا نيشـه، ليـس مـن أجـل أن أُزعِجَـكِ بالذكريـات أو أُعكِّـر صفـو حياتـك... أعلـم أنـه لا يمكـن أن يحـدث شيء بيننـا، وأنـا أعلـم ذلـك منـذ اليـوم الـذي افترقنـا فيـه، لقـد مـضى وقـت طويـل، منـذ أن اقتنعـتُ أنـكِ أحببـتِ شـخصًا آخـر، أنـا فقـط لم أسـتطع أن أعـرف إلى مَـن أذهـب...».

وانحنـى إلى الأمـام حتـى لا تُسـمع كلماتـه مـن الخـارج، وخفـض صوتـه حتـى لا يسـمعه سـوى المـرأة الشـابة.

وقـال: «قـد يكـون مرتكبـو جريمـة القتـل الوحـشي مختبئـين بينكـم، واعتقـدتُ أنـه يمكنـك مسـاعدتي في العثـور عليهـم، سـيكون هـذا مفيـدًا لحركـة المسـاواة في اسـطنبول أيضًـا، مثـل هـؤلاء النـاس يُسـمِّمونَكِ في الداخـل، لقـد كرَّسـتُ سـنواتٍ لحركـة المسـاواة، وعـلى الرغـم مـن أننـي ترَكـتُ الحركـة، إلا أننـي مـا زِلـتُ أؤمـن بقضيتـكِ، أعتقـد أنـكِ بحاجـة إلى التنظيـف».

عبَسَـت نيشـه، قائلـة: «مـا هـي جنايـة القتـل التـي تتحـدَّث عنهـا؟ مَن قَتَـلَ مَـن؟»، وبَـدَت قَلِقَـة، وأدارت رأسـها، ونظـرت إلى البـاب المُغلَـق، كـما لـو كان هنـاك مـن يختبـئ، «لسـنا عـلى عِلـمٍ بمثـل هـذا الحـدث، ألا يمكـن أن تكـون هـذه مؤامَـرةً تافهـة لجمهوريـة المدينـة؟ الأوغـاد يواصلـون نـشر شـائعات كهـذه، إنهـم يَذكروننـا، ويُشـوِّهون اسـمنا بالأحـداث التافهـة، حتـى إنهـم حاولـوا إلقـاء مسـؤولية الثلاجـة التـي انفجـرت في السـوق مؤخَّـرًا -بسـبب تَـسرُّب التيـار الكهربـائي- علينـا، حركـة المسـاواة في

اسطنبول مُنظَّمة سِلميَّة منذ يوم تأسيسها حتى اليوم، ولا علاقة لنا بالسلاح، إلا إذا اضطررنا لحماية أنفسنا».

وقال كمال: «أريدكِ فقط أن تبحثي في هذا، وإذا كنتِ تعتقدين أننا مخطئون، فلن أزعجك مرة أخرى، لكن لدينا أدِلَّة مُهِمَّة، أنا متأكِّد من أن الرجال الذين أحضروني إلى هنا أخذوا كلَّ ما لديَّ، واحتفظوا به في مكان آمن، إذا أحضروا ساعتي التليفزيونية إلى الداخل، فستكون هناك بعض الصور والملفَّات التي أريد أن أعرضها لكِ، قُتِلَت عائلة جميلة مع أطفالها، لقد أُحرِقوا الثلاثة أحياء... جريمة قتل وحشية بربرية... قال أحد الأشخاص إنهم من حركة المساواة في اسطنبول، وكانوا يُهدِّدونهم منذ فترة طويلة، وبعد مراجعة الملفَّات، سألتزم بالقرار الذي تريدين تنفيذه»، ومدَّ يده إلى جبهته، وفركَ ما بين عينيه.

«قد تكون هذه فرصتي الأخيرة للتخلُّص من ألمي، يا نيشه، أنا حقًّا لا أستطيع تَحمُّله بعد الآن...».

نظَرَت المرأة الشابة إلى الرجل الذي كان يراقبها بعيون مُحِبَّة وعاجزة، وفكَّرَت في صمت لبعض الوقت، ثم أومأت برأسها.

وقالت: «لا يمكنهم إحضار ساعتك التليفزيونية إلى هنا، هذا ضد بروتوكولات الأمان، كما تعلم، ولكن إذا أعطيتني كلمة المرور، سأفتح هذه الملفات، وأقوم بفحصها، إذا كان ما تقوله صحيحًا، فلن نأوي هؤلاء المجرمين أبدًا في حركة المساواة في اسطنبول، وسوف نعاقبهم بأنفسنا! آمل ألَّا يفقدوا الساعة في الطريق، لا بأس في أن أقول ذلك، نحن الآن بعيدون جدًّا عن اسطنبول، لقد مَرَرتَ برحلة طويلة».

قال كمال: «فليَكُن»، وواصل كلامه، وهو مُحرَج قليلًا، قائلًا: «كلمة المرور الخاصة بي هي نيشه2410... عندما ترين الدليل، سوف تؤيِّدين رأيي».

ابتسَمَت المرأة، قائلة: «هل ما زالت كلمة مرورك هي اسمي؟ حسنًا، ما هو الرقم «2410»، لا أعتقد أنه مُجرَّد رقم».

قال: «24 أكتوبر... اليوم الذي قَبَّلتِني فيه للمرة الأولى والأخيرة، لا أريد أن أنسى».

تنهَّدَت نيشه تَنهِدةً عميقة، لم تَنسَ ذلك اليوم أيضًا، ونظَرَت إلى الشاب بحنان وامتنان، كانت لا تزال تتأثَّر بالحب والرعاية بعد كل هذا الوقت، لطالما كانت مُعجَبةً دائمًا بقُدرَة كمال على حب الناس، ليتها كان بإمكانها إفساح مكان له في حياتها، لقد نما في قلبها وَجَعٌ رقيق، وابتلعت الكلمات التي كانت على طرف لسانها، الآن ليس الوقت المناسب، ربما في يوم من الأيام، عندما لا يكون هناك حمل ثقيل على كتفيها، ستكون قادرة على فكِّ القيود التي أحاطت بقلبها.

وقفت، وسارت نحو الباب، وعندما كانت على وشك الخروج، توقَّفَت، وسألت دون أن تستدير.

وقالت: «صديقتك الغامضة التي تقول إنها وجدت علاجًا لمرضك... مَن هذه المرأة، وكيف تثق بها بشأن هذا؟ حاوَلتُ كثيرًا أن أجد علاجًا لألمك، صدِّقني، أردتُ أن أنقذك من هذا المرض... لكن على الرغم من كل قوَّة واتصالات حركة المساواة في اسطنبول، لم أستطع الحصول على أي نتائج، إذا كنتَ تريد مساعدتي، يجب أن تكون صريحًا معي، هل أنتَ متأكِّدٌ من أن هذه المرأة يمكن أن تعالجك؟ وما علاقة هذا بجريمة القتل التي تتحدَّث عنها؟».

قال: «اسمها جول طوزلو، وهي طبيبة مغامرة تدير مركزًا صحِّيًّا يُسمَّى «ألماس للخدمات الصحية»، أولئك الذين قُتِلوا كانوا أصدقاءها... أعرف القليل جدًّا عنها، لكنها أقنعتني بأنها يمكنها أن تفعل ما قالته، هي امرأة قوية، ولديها إمكانيات غير عادية، وتُنتِج أدوية فريدة من نوعها لعظماء اسطنبول، ولا أعتقد أنكِ سمعتِ

اسمها؛ فهي تهتمُّ كثيرًا بالخصوصية، إنها تعمل فقط مع الأغنياء في المدينة بهدف حماية تركيبات أدويتها، وقالت إن مهمتها كانت توفير حياة أطول، وأكثر صحَّة لهذه الطبقة النخبة، ربما أريد فقط أن أصدِّقها، لا أعرف، يجب أن أصدق أن معاناتي ستنتهي يومًا ما... إنها تجعلني أشعر بالتعب حقًّا يا نيشه، لا أستطيع تحمُّلها بعد الآن».

نظَرَت نيشه إلى كمال مرة أخرى، بعيون متسائلة، وكان هناك تعبير قَلِقٌ على وجهها، كانت على وشك أن تفتح فمها لتقول شيئًا ما، عندما حدَثَت هناك ضوضاء عالية خارج الباب، وبعد فترة وجيزة، اندفع الباب من مكانه، وضرب الفتاة على ظهرها، وطرحها أرضًا، وملأ الدخان الكثيف المكان، وظهر روبوتان عسكريان من بين الدخان، كانت كشَّافاتهم فوق رؤوسهم، واستهدفت الأشِعَّة المنبعثة من مُسدَّسات الطاقة للروبوتات نيشه أوَّلًا، ثم كمال، الذي لم يستطع فهم ما يجري، قبل أن يفقد الشاب وعيه بقليل، حاول يائسًا الوصول إلى المرأة التي يحبها، والتي كانت تَئِنُّ أمامه، لكنه لم يستطع التَّحرُّك شِبرًا واحدًا.

16

كان مرزيفونلو قائد الفرسان، صاحب الشارب الطويل والعريض والكثيف، واللحية الكثيفة، والمعروف باسم «ضخم الجُثَّة» في القرى المجاورة، يقف في منتصف الغرفة، وهو يجرُّ أذيال الخيبة خجلًا، صامتًا مثل قطَّةٍ تسكب الحليب، كانت كتفاه عريضتين بما يكفي لدعم الجبل، وقبضته قوية بما يكفي لاقتلاع شجرة، ومع ذلك، بينما كانت تلك اللحظة المشؤومة تحدث، لكان قد سُحِق على الأرض لو ضربوه في وجهه، حيث كان وجهه شاحبًا وأصفر، وقد استقرَّت نظرة في عينيه اللتين كانتا مفتوحتين لفترة طويلة، وتبدو مثل الوَدَع، وكأنه رأى شبحًا، كانت إحدى الأذرع ملفوفةً بطريقة قذرة من الرسغ إلى الإبط، وكانت الضمادة ملطخة بالدماء في بعض الأماكن على الرغم من أنها قد تم تغييرها للتو، وكان قد علَّق سترته السوداء المغبرة بشكل اعتباطي، على كتفه القوية، ووضع يده على مقبض اليطقان الموجود في وشاحه، كما لو أنه لم يستطع العثور على مكان لوضعها.

كان حاكم السنجق أشرف أفندي، نصف جالس ونصف مستلقٍ على كرسيه العريض المغطَّى بجلد الأسد عند الزوايا، وكان يحاول فهم كيف وصل هذا الرجل العجوز الشجاع، الذي ترك قصره بشكل مُتكبِّر قبل خمسة أيام، لهذه الحالة، هل يمكن أن يكون هناك تفسير معقول لمثل هذا البؤس، ومثل هذا التأثُّر؟ لم يستطع إعطاء أي معنى للأكاذيب التي كان الرجل يهذي بها، وهو يلهث، قبل قليل، وأثار هذا الموقف غضبه، منذ أن أصبح راشدًا، كانت الأشياء التي لا يستطيع تفسيرها بسهولة، تثير أعصابه.

مع استمرار الصمت المحيِّر لحاكم السنجق، لم يستطع الرجل الضخم التحمُّل أكثر من ذلك، وتمتم بنبرة منخفضة، قائلًا:

«والله لقد حدث كما قلتُ لك يا سيدي، ليحفظ الله ذُرِّيَّتي، أنا أقول الحقيقة! أقسم بالقرآن أنه ليست هناك كلمة واحدة كاذبة! هناك ساحرة شريرة تعيش في تلك الغابة ستُلقي حجرًا ضدَّ الشياطين! ليست إنسًا، وليست جنِّيًّا، هي ساحرة في زي إنسان عادي!».

قال أشرف أفندي: «وهذه الساحرة... تحمي عصابة خليل إيفي الذي يشاكسنا، أليس كذلك؟».

أجابه قائد الفرسان: «بالضبط يا سيدي... خليل إيفي باع روحه لتلك الساحرة! وقد نال منَّا بمفرده، نسل الدَّيُّوث! وعندما تعرَّضنا للهزيمة في غاراتنا السابقة قرَّرتُ هذه المرة أن أقود سلاح الفرسان بنفسي، كنتُ أرغب في دحض أسطورة الساحرة هذه التي تُروى هنا وهناك، وأن أعطي الشجاعة لشبابنا الشجعان، لكنها ليست حكاية عجوز، بل على العكس، إنها حقيقة مظلمة! كانت تقف بين شجرتين في ثوب رقيق، إذا صفَعَت شخصًا فإنه سوف يموت، مثل هذه الفتاة الصغيرة... لقد بَدَت مثل الساحرات التي حكى عنها الجنود المجريُّون، ربما جاءت إلى هنا مع غجر مهاجرين، وهربت من الاحتراق في

ولايـات الكُفَّـار... كان الليـل عـلى وشـك أن يُقبِـل، وكان الظـلام حولهـا، لم نتمكَّـن مـن رؤيـة شـكل وجهها، كان مـا حولهـا صامتًـا، صامتًـا مثـل المـوت، كـما لـو أن الحـشرات قـد احتمـت مـن هـذا الشـيطان، بكلمـة واحـدة، جرفـت خيولنـا عـن الأرض، وجعلتنـا نطـير مثـل الطيـور، وألقـت بنـا عـلى الصخـور، وضغطـت عـلى حناجـر الشـباب مثـل الملزمـة، حتـى دون أن تلمـس يدهـا، كانـت تقتلهـم جميعًـا، واحـدًا تلـو الآخـر، دون رحمـة، كانـت عـلى بُعـدِ أكـثر مـن عـشرة أمتـار مِنَّـا، ولم تتحـرَّك حتـى مـن مكانهـا، عندمـا كانـت تسـكب علينـا سـحرها الأسـود!».

قـال لـه أشرف أفنـدي: «ولكنهـا تركتـكَ حيًّـا... لقـد أبقـت عـلى حياتـك... فقـط لـكي تـأتي إلى هنـا وتخـبرني...».

أجابـه الرجـل، قائـلًا: «هـذا مـا قالتـه باشـا، هـذا بالضبـط مـا طلَبَـت منـي أن أفعلـه، وقـد صرَخَـت ورائي، عندمـا كنـتُ أزحـف، وأنـا أهـرب مـن هنـاك، قالـت: «اذهـب وأخـبِرْ حاكـم السـنجق، وليعلـم أن دوره قـد حـان»، قالـت: «إننـي سـأُغرقه في دمـه، لقد حـان الوقـت تقريبًـا!»، وكانت هادئـة جـدًّا، واثِقـةً مـن نفسـها لدرجـة أن دمـي تجمَّـد يـا سـلطاني! لقـد ركضـتُ بشِـقِّ الأنفـس عـبر الغابـة لعـدة أيـام، وظننـتُ أننـي سـأصل إلى هنـاك قبـل أن تصـل السـاحرة إلى هنـا، ظننـتُ أننـي سـأُحذِّر سـيدي قبـل فـوات الأوان! إذا هُـزم هـذا الشـيطان، سـتأتي صلـوات وتمائـم دميرجـي خوجـه التـي تحيـي المـوتى! أقسـم باللـه أن السـيف، والمسـدس، والمدفـع، والبندقيـة- عديمـو الفائـدة! لنسـتعد بسرعـة، يـا سـيدي، إن خـادم الشـيطان قـد جُـنَّ جنونـه، إنـه قـادم إلى هنـا!».

كان أشرف أفنـدي يشـكُّ أكـثر فأكـثر -مـع مـرور كل ثانيـة- في نظـرة الرجـل ضخـم الجثـة إليـه بخـوف مثـل الطفـل، وفي يديـه وشـفتيه المرتعشـتين، لقـد تحـوَّل خليـل إيفـي إلى مصـدر إزعـاج حقيقي؛ فقـد أهدر مئـات الجنـود والخيـول والأسـلحة في كثـير مـن الغـارات غـير الحاسـمة،

وعلاوة على ذلك، فإن مرزيفونلو قائد الفرسان -الذي اعتمد عليه واعتقد أنه مساوٍ لخليل إيفي- قد فقد عقله، وكان يكذب.

الذهب الذي جمعه من التجار كان على وشك أن ينتهي، وكان غضبه يزداد كلَّما فَكَّر في أنه قد يضطر إلى استخدام الكنز الشخصي الذي جمعه بصعوبة، وكان يحتفظ به للأوقات الصعبة، بطريقة أو بأخرى، إذا لم يسكب السُّمَّ على جذور خليل إيفي وعصابته، فإن التجار سيطالبون عاجلًا أم آجِلًا بحساب الذهب الذي قدَّموه، وستصل نهاية هذا العمل إلى اسطنبول، وسيصل إلى أسماع العثمانيين، ثم في كل يوم من أيام الله كان ينتظر المشنقة التي ستلتفُّ حول رقبته، بعد كل هذا الجهد، لا يمكن أن يقبل أن يعيش هكذا.

قال وهو يهزُّ رأسه إلى الأمام والخلف، وكان صوته هادئًا، ولكن العواصف كانت تثور بداخله، «يعني امرأة... امرأة صغيرة... ولكنها ساحرة بالتأكيد! حسنًا، ماذا أيضًا! لقد هزَمَت عشرين من سلاح الفرسان، الذين جهَّزتُهم من الرأس إلى أخمص القدمين، وملأتُ جيوبهم بالذهب... امرأة هي مَن فعَلَت ذلك، وليس خليل إيفي ورجاله... إنك حتى لم تَرَ إيفي وعصابته حتى...».

قال ميرزيفونلو، وهو يضع يده على قلبه: «أقسم بالله أننا لم نرها»، وكانت الضمادة على ذراعه تتلطَّخ باللون الأحمر، بين حين وآخر، لكنه لم يهتمَّ بذلك.

«إذا كُنَّا قد رأينا تلك العاهرة، لكُنَّا قد ضربنا عنقها، ولكن لم تكن هناك فرصة، سيدي، تلك الساحرة اللعينة بعثرتنا، لقد دمَّرَت رجالي، ولم يكن بإمكاني فِعلُ شيء، أقسم بالقرآن».

قفز أشرف أفندي واقِفًا على قدميه، وكأنه قد تحرَّر من قيود، واندفع الدم إلى وجهه، واستشاط غضبًا.

وزأر مُلوِّحًا بقبضتيه في الهواء، قائلًا: «أيُّها الدَّيُّوث! يا ابن القَوَّاد! يا وَضيعَ النَّسَب! هل تعتقد أنني طفل صغير؟ لم تضربكم ساحرة، ولا خيول طارت... كم برميلًا شَرِبتَ ذلك اليوم، حتى رأيت هذا الهراء؟! أو أنك لم ترى القرف، وأنت تعتبرني غبيًّا! لا يمكنك القول أن خليل إيفي قد سزمنا، هل تقرأ حكايات؟ ابتعِدْ عن طريقي، يا كريه، لا أريد أن أراك! إذا كنتَ لا تزال في القصر عندما أغادر هذه الغرفة، فسوف أريكم ما هو ضرب الساحرة!».

نظر قائد الفرسان إلى حاكم السنجق بعيون دامعة، وارتجَفَت شفته السفلى، بعد ما مرَّ به، لم يستطع كبح المخاوف داخله أو ردود الفعل في جسده، لقد ترك الكبرياء الذي قد يموت من أجله ذات مرة، في تلك الغابة التي كان قد زحف بعيدًا عنها، وشعر بالعجز والبؤس.

وقال: «يا سلطاني... لقد حدث بالفعل كما أخبرتك... كانت هناك ساحرة أسوأ من الشيطان في تلك الغابة... واقفة بين الأشجار...».

صاح أشرف أفندي، بصوت أعلى، قائلًا: «صه! ولا تتفوَّهْ بكلام فارغ بعد الآن!».

وفي إحدى الحركات السريعة، خلع المسدس من وشاحه، وصوَّبَه نحو جبين الرجل العملاق، وكان يريد بشدة أن يضغط على الزناد، حتى يقتله، وأمسك إصبعه بالكاد؛ إذا تجرأ، فسيشعر بالارتياح بالتأكيد، وضع الرجل الموجود أمامه في مكان خليل إيفي لبضع ثوان، وكان يسرُّه أن يتخيَّل أنه قد قطع رأسه، وشاهده يسقط على الأرض، ثم فكر أنه إذا ضرب عنق قائد الفرسان، فإن حفنة من سلاح الفرسان سيكونون قادرين على التمرُّد، ولم يتمكَّن من قتله الآن، كان أفضل حلٍّ، هو رمي هذا الوغد عديم الفائدة بعيدًا، ليجعله الله أعمى ومشلولًا، بحق الذهب الذي أنفقته عليه.

وأنـزل المسـدس، لكنـه لم يُعِـده إلى حزامـه، ووبـخَّ الرجـل، وكأنـه يبصـق في وجهـه.

وقـال: «انظـر إليَّ أيهـا الأفنـدي... لا أعـرف مـا الـذي فعَلتَـه بحـق الجحيـم، هـل كنـتَ ثمِـلًا، هـل أُصِبـتَ في رأسـك، مهـما حـدث الآن... لكنك كلَّفتَنـي كثـيرًا، هـل لديـك أي فكـرة عـن عـدد الرجـال والخيـول والبنـادق وكـم تسـاوي مـن العمـلات الذهبيـة العثمانيـة؟ إذا بِعـتَ روحـكَ، لا يمكنـك أن تعوِّضنـي! قـد ينخـدع القرويـون الجَهَلـةُ بحكايـات سـاحرة، أتـت مـن ولايـات الكفـر، لكننـي لا تنطـلي عـليَّ الحيلـة والأكاذيـب، لا تدعنـي أراك داخـل هـذه الجـدران مـرة أخـرى، لا يمكننـي حتـى أن أجـد أثـرًا لـكَ في هـذا السـنجق! خـذ حكاياتـك أيضًـا، واخـرج مـن هنـا!».

أحنـى قائـد الفرسـان رأسـه، وقَبِـلَ الهزيمـة، كان مـن الواضـح أنـه مُحبَـطٌ للغايـة، واسـتدار بهـدوء، وتوجَّـه نحـو البـاب، وعندمـا كان عـلى وشـك المغـادرة، توقَّـف وأدار رأسـه، ونظـر بحـزن للمـرة الأخـيرة إلى سـيده الـذي خدمـه بأمانـة لسـنوات، وبـدأ ينطـق بكلمـة، ثـم ابتلـع مـا كان عـلى طـرف لسـانه، وغـادر الغرفـة، دون أن يفتـح فمـه.

ألقـى أشرف أفنـدي المسـدس عـلى الأريكـة، وشـبك يديـه حـول رقبتـه، وأخـذ نفَسًـا عميقًـا طويـلًا لتهدئـة غضبـه، وقـال وهـو يـصرُّ بأسـنانه، «كان ينقصنـا مـن المصائـب سـاحرة عثمانيـة»، إذا انتـشرت هـذه الإشـاعة، سـيطلب الجنـود المزيـد مـن الذهـب لدخـول الغابـة، لم يكـن اليـوم قـد بـدأ بشـكل جيـد عـلى الإطـلاق، كان بحاجـة إلى تهدئـة روحـه؛ حتـى يتمكَّـن مـن تنفيـذ الباقـي، ونظـر إلى حارسـه حسـني، الـذي كان جالسًـا في الزاويـة، وأمـره بلُغَـة الإشـارة بإحضـار المحظيـة الجديـدة المنتظـرة في الغرفـة المجـاورة، فهـم الرجـلُ الأصـمُّ الأبكَـمُ الأمـرَ دون أن يجعلـه يُكـرِّر الأمـر، وسـارَعَ في ذلـك الاتجـاه.

وقـال رئيـس دائـرة الحريـم إنهـم عـثروا عـلى هـذه المـرأة في قافلـة قادمـة مـن إيـران، وقامـوا بشرائهـا، لم يدفـع القليـل مـن الذهـب، لكنـه قـال إنهـا تسـتحقُّ كل قطعـة ذهبيـة، كان أشرف أفنـدي مغرمًـا بشـكل خـاص بالعيـون الكبـيرة للنسـاء الإيرانيـات، وكان رئيـس دائـرة الحريـم مـدرِكًا جيـدًا لذوقـه هـذا، الآن فقـط مثـل هـذه الفتـاة طويلـة القامـة يمكنهـا أن تفيـده في التنفيـس عـن غضبـه، وتصفيـة ذهنـه، كان بحاجـة إلى الهـدوء مـن أجـل الخـروج بخطَّـة جديـدة لهزيمـة خليـل إيفـي.

بعـد أن اصطحـب حسـني الفتـاة إلى الغرفـة تراجـع إلى ركنـه المعتـاد، وأصبـح سـاكنًا مثـل الحجـر، وبينـما كان سـيده يسـتمتع بالنسـاء، فقـد أُمـر بالتواجـد في الغرفـة لضـمان سـلامته، وكان سـيده بعـد أن أخـذه معـه عندمـا كان طفـلًا، قـام بإخصائـه في سِـنِّ المراهقـة؛ حتـى لا ينظـر إلى حريمـه؛ لذلـك عندمـا أخـذ امـرأة في حضنـه، لم يشـعر بالقلـق مـن وجـوده في الغرفـة.

لم ينظـر أشرف أفنـدي إلى الفتـاة التـي قدَّمهـا لـه حارسـه إلا بعـد بضـع دقائـق مـن دخولـه؛ نظـرًا لأن عقلـه كان مهووسًـا بحقيقـة أن خليـل إيفـي قـد قـام بهزيمتـه مـرة أخـرى، لقـد كان لديـه مـن قبـلُ فتيـات يبلغـن مـن العمـر خمسـة عـشر عامًـا، وكان لديـه أيضًـا جميـلات أوروبيـات مشـاهير، وأيضًـا العـذارى الأبـكار الـلاتي أحضرهـن مـن القـرى بالقـوة، وكان يغـازل الفاتنـات اللـواتي سـيفعلن أيَّ خدعـة مـن أجـل عُملَتيْن ذهبيَّتـين عثمانيَّتـين؛ لذلـك لم يكـن يتوقَّـع أن يجـد سـحرًا في هـذه المـرأة التـي لم يرهـا مـن قبـل، ولكـن بعـد لحظـة مـن إدارة رأسـه، والتحديـق فيهـا، تقَبَّـل بـكل إخـلاص أنـه لم يَـرَ مثـل هـذا الجـمال في حياتـه، سـواء كان الاختـلاف في هـذه الفتـاة المُبهِـرَة في عينيهـا أو عـلى أنفهـا أو عـلى شـفتيها، لم يسـتطع تحديـد ذلـك تمامًـا، ربمـا كان ذلـك في الوحـدة التـي قدمـت بهـا جميـع العنـاصر في وجههـا بشـكل مثـالي. ثدياهـا اللـذان أظهرهـما ثـوب النـوم الرقيـق والشـفاف، كانـا بنفـس الشـكل؛ مثاليَّـين أيضًـا، وكأن اللـه

تعالى قد أراد إظهار حسن جماله في هذا الكائن الخارق، على الرغم من أن بطنها البارز قليلًا يُنذِر بأنها تحمل طفلًا، إلّا أن هذا لم يَضُرَّ بسحرها على الأقل، هذه المرة أصاب رئيس دائرة الحريم الهدف حقًّا، وكان ذلك الرجل العجوز الماكر، سوف يتمُّ إغراقه بالذهب؛ لأنه وجد وأحضر هذا الملاك.

تقدَّم خطوة تجاه الفتاة، وكأنه قد فُتِن بها، ومدَّ يده ليلفَّ جسدها الجميل بين ذراعيه.

وفجأة تَكوَّن هناك فراغ في ذهنه، وتجمَّد، وبعد ذلك مباشرة، بدأ هذا الفراغ الذي يصعب تفسيره، يمتلئ بصور غريبة عن بعضها الآخر، أجسام لا حصر لها، لم يستطع أن يفهم أيًّا منها، ولم يكن يعرف أسماءها، كانت تطير داخل رأسه بسرعة كبيرة، مُحدِثةً جروحًا عميقة في الأماكن التي اصطدمت بها، وبعد أن شعر بألم في رأسه، وضع يده على جبهته بشكل لا إرادي، لقد كان شعورًا مثيرًا للإعجاب، لم يجربه من قبل، كما لو كان أحدهم يضغط على النقطة بين حاجبيه بمسمار قصير وغليظ، كانت المرأة ذات الجمال الذي لا يُضاهَى على بُعد مسافة حيث يمكنه، إذا مدَّ يده، الإمساك بخصرها، وسحبها إليه، والركض من أجل المتعة، ولكن لسبب ما، لم يستطع فعل ذلك، كان الأمر كما لو أن ذراعيه وساقيه لم تَعُد تحت سيطرته، وغير قادر على تحريكها، بقدر ما يريد.

نظر يائسًا إلى حارسه، حسني، متوسِّلًا المساعدة، لكن الرجل الأصم الأبكم أدار وجهه إلى الحائط حتى لا يراهما، وربما لا يشهد اللحظات الخاصة التي اعتقد أنها ستحدث قريبًا.

وشُحِذَ المسمار بين حاجبيه تدريجيًّا، ثم استدار وبدأ يحفر في جسده، كان الألم رهيبًا، حيث إن الألم الذي شعر به عندما أصابت رصاصة كتفه أثناء مطاردة الثعالب، لا يُقارَن به، وكان الألم الذي شعر

بـه عندمـا سـقط مـن عـلى الحصـان، وكُـسِرَت سـاقه، يُعَـدُّ وخـزَ شَـوكةٍ بالمقارنـة بـه، وضـع يـده اليمنـى الحُـرَّة فجـأة هنـاك، وحـاول الإمسـاك بالمسـمار، وإخراجـه لإنهـاء هـذا التعذيـب، لكـن لم يكـن هنـاك شيء، وعندمـا أدرك عَجـزَه شـدَّ خدَّيـه، وبـدأت شـفتاه ترتعشـان كطفـل.

عـلى الرغـم مـن أن حسـني لـن يتمكَّـن مـن سـماعه عـلى الإطـلاق، إذا كان بإمكانــه الــصراخ، إلا أن الرجــال في الخــارج ربمــا كان بإمكانهــم سـماع صوتـه، ولكـن لسـانه كان مقلوبًـا داخـل فمـه، ولم يكـن بإمكانـه إلَّا أن يصـدر همهـمات منخفضـة الحِـدَّة، إذا أسـاء خـادمٌ فضـوليٌّ التَّـصرُّفَ في تلـك اللحظـة، ووضـع أذنـه عـلى البـاب؛ لـكان قـد اعتقـد أن سيده، الـذي كان يلعـب ألعـاب الحـب مـع خليلتـه الجديـدة، كان يـئنُّ بـسرور.

وفجـأة اختفـى الشـعور بالمسـمار الـذي يخـترق رأسـه، وشـعر براحـة مؤقَّتـة لبضـع ثـوان، لكـن ذلـك فقـط لم يكن سـوى نذيـر اقـتراب العاصفة، وبعـد ذلـك مبـاشرة، حلَّـت مكانـه معانـاة شـديدة، مثـل ألم السـيف الـذي ينزلـق داخـل وخـارج جبهتـه، ويفعـل ذلـك مـرارًا وتكـرارًا، ونـزل عـلى ركبتيـه، وبـدأ يتدحـرج مـن هنـا وهنـاك، ويلكـم صـدره، ويخـدش خدَّيـه، ويتخبَّـط، كان صوتـه يختنـق في حلقـه، ولم يسـتطع الـصراخ إطلاقًـا، كان الألم الـذي عـانى منـه في تلـك اللحظـة أبعـدَ مـن حـدود القـدرة عـلى التحمُّـل، وإذا قتلـه شـخصٌ وخفَّـف مـن هـذه المعانـاة، فإنـه سـيرحمه بصـدق.

لكن تعذيبه كان قد بدأ للتَّوِّ.

الحاكــم الوحيــد لعــشرات القــرى، حاكــم الســنجق أشرف أفنــدي المسـتبدُّ، بعـد سـاعة، كان يعـاني كل ثانيـة مـن آلام أكـثر مـن التاليـة، وزفـر أنفاســه الأخــيرة، وكان مُخُّــه يتوقَّــف ببــطء، وعندمــا توَقَّــف الخفقــان، تدفَّقَـت الدمـاء مـن أنفـه وعينيـه، وصبغـت لحيتـه، والأرضيـة الخشـبية باللـون الأحمـر.

نظـرت عائشـة إلى الرجـل الـذي يرقـد بـلا حياة عنـد قدميهـا، دون أدنى شـفقة، وبقلـب خفيـف، ودار بخلدهـا أصدقاؤهـا الأعـزاء الذيـن قُتِلـوا بالسـيف، بوحشـية، في تكيـة المولويـة، وتلـك الحيـاة الجميلـة المسروقـة منهـم، لم تكـن قـادرة عـلى حمايتهـم، لكنهـا عـلى الأقـل ثـأرت لهـم أخـيرًا، ولم يَعُـد هـذا الرجـل الشريـر قـادرًا عـلى إيـذاء أحـد، ومـن الآن فصاعـدًا، سـيكون طفلهـا الوحيـد بأمـان، ولـن تضطـرَّ إلى الخـوف مـمًّا قـد يحـدث لذلـك الـبريء.

وذهبـت ناحيـة الخـادم حسـني، صاحـب الاسـم المسـتعار «الحـارس حسـني» الـذي كان يناديـه بـه أشرف أفنـدي عندمـا يكـون في حالـة مزاجيـة جيـدة، والـذي لم يرفـع وجهـه عـن الحائـط، طـوال هـذا الوقـت، ولمسـت كتفـه بطريقـة وديـة.

وخاطَبَته ذهنيًّا بحنان، قائلة: «انتهى الأمر الآن».

شـعر الشـاب بسـعادة كبـيرة، كتلـك التـي شـعر بهـا عندمـا سـمع صـوت يـتردَّد صـداه في رأسـه لأول مـرة، كان صـوت عائشـة هـو أول صـوت سـمعه منـذ طفولتـه، التـي فقـد فيهـا السَّـمعَ بسـبب مـرض حمـى، وكانـت المـرأة، التـي كانـت تدفـئ قلبـه، هـي أول شـخص يُذكِّـره بمشـاعر جسـده، منـذ اليـوم الـذي سرقـوا فيـه رجولتـه مـن أجـل سـعادة حاكـم السـنجق، فقـدان القـدرة عـلى السـمع، والقـدرة عـلى التحـدُّث، وعـدم معرفتـه القـراءة والكتابـة، وعـدم ممارسـة الحـب، كل ذلـك قـد فَقَـدَ أهميتـه عندمـا احتضَنَـت يـده الصغـيرة الدافئـة يـدي هـذه الفتـاة السـاحرة بشـكل فريـد، وعندمـا التقـت شـفتاه بشـفتيها، شـعر بالراحـة مـرة أخـرى، كـما فعـل، منـذ سـنوات عديـدة.

سـار بخطـوات بطيئـة نحـو الجُثَّـة الموجـودة عـلى الأرض، وانحنـى، وبصـق في وجهـه.

خلال السنوات التي عمل فيها كحارس لأشرف أفندي، شهد كل أنواع الخداع والأذى وتعذيب الغرباء واغتصاب الفتيات المراهقات في هذه الغرفة، ولم يستطع أن يتحدَّث عن ذلك لأي شخص، كان يحتفظ بها دائمًا في نفسه، لقد تراكَمَت كراهيته في قلبه يومًا بعد يوم، حتى وجدته عائشة بجانب والدتها في قريتها حيث كانت تزورها مرة في الأسبوع، وخاطبته ذهنيًّا... لم يكن يعلم ما إذا كانت معجزةً، هل هي سحر، هل هي حكمة الله، و لم يكترث للأمر، في المرة الأولى التي رأى فيها وجهها، وفي اللحظة الأولى التي سمع فيها صوتها في رأسه، أصبح مغرمًا بها، كان حبًّا بريئًا غير مُتوَقَّع، لكنه كان يستحق كل شيء من أجله، العيش معها بحرية في الغابة، حتى لو كان جائعًا، كان أفضل ألف مرة من العبودية في قصر أشرف أفندي المليء بالخطايا.

تأبَّطَت عائشة ذراع الحارس حسني، وذهبا معًا إلى الغرفة المجاورة حيث كان ينتظر قبل قليل، وكان حسني قد أعدَّ كل ما هو ضروري لمغادرة القصر سِرًّا، قبل أيام، لقد نقل بلغة الإشارة للجميع في القصر، أن حاكم السنجق لا يريد أن يزعجه أحد حتى الصباح، ولم يكن من الصعب الحصول على مفتاح الباب الخلفي الذي يستخدمه الخدم، وكان ينتظرهما فَرَسان قويان محمَّلان بالمؤن في الحديقة، حيث فُتح هذا الباب، أمَّا المحظية الإيرانية التي اشتراها رئيس دائرة الحريم لأشرف أفندي، فسيجدونها في الغرفة التي ربطها فيها، دون أن يمسَّ حتى شعرة منها، غدًا على أبعد تقدير.

كانت عائشة لديها ثقة لا تتزعزع فيما قاله لها، وبعد الانضمام إلى عصابة خليل إيفي، لن يتمكَّن حتى خُدَّامُ الشيطان، ولا حتى الشيطان نفسه، من لمسهما.

لم يسمع أحد أي خبر عن الحارس حسني مرة أخرى، ولم يخبر أحدًا بما حدث لحاكم السنجق، الذي لم يستطع أحدٌ فَهْمَ كيف تمَّ

قتلـه، وأصبحـت أسـطورة السـاحرة الموجـودة في الغابـة شـائعةً مُتداوَلـة علـى كل لسـان؛ وذلـك بفضـل قائد الفرسـان، الـذي كان يتحدَّث باسـتمرار، في كل الأرجـاء، عـمَّا تعـرَّض لـه، وحتـى هـو لم يسـتطع أن يوقـف هـذه الشـائعة حتـى لـو أراد ذلـك، وكانـت هنـاك حقيقـة وهـي أن السـحر الأسـود لهـذه السـاحرة قـد قـضى عـلى حاكـم السـنجق أشرف أفنـدي، وأن ذلـك الشـيطان قـد دمَّـر حارسـه المخلـص، لم يفكـر أحـدٌ بخـلاف ذلـك، وأكَّـدَت الشـائعات حـول هـذا الحـدث أن حاكـم السـنجق الجديـد، الـذي تـمَّ تعيينـه لتلـك المنطقـة، وكان يخـاف جـدًّا مـن الأمـور الخاصـة بالجـن، لم يتـورَّط مـع عصابـة خليـل إيفـي، ولم يبتعـد عـن العدالـة بقـدر اسـتطاعته؛ حتـى لا تقـوم السـاحرة بمحاسـبته، وعـلى مَـرِّ السـنين، أصبـح إيفـي ورجالـه معروفـين بأنهـم حُـماة القـرى المجـاورة، منـذ زمـن أشرف أفنـدي، حتـى تحـوَّل الجميـع إلى تـراب، لم يسـمع أحـدٌ مـرَّةً أخـرى عـن السـاحرة التـي كانـت تريـق الدمـاء.

17

كانت عائشة جالسة على حافَّة الجدول، تراقب انعكاس صورتها في الماء بصمت، وعيناها، الكبيرتان بما يكفي لإثارة حسد الغزال، وشفاهها الحمراء الممتلئة، وحواجبها الرفيعة كما لو كانت مرسومةً بقلم رصاص- قد أظهرت انسجامًا تامًّا مع كل التفاصيل الأخرى الجذَّابة لوجهها، لقد مرَّ وقت طويل منذ أن وقع كلُّ مَن دخل حياتها تقريبًا في حب هذه الملامح، كان جميع الرجال، صغارًا وكبارًا، يتوقون إليها، وهذا الوضع لن يتغيَّر أبدًا، ما لم تفقد جمالها لسبب ما، ولن تتمكَّن أبدًا من عيش حياة طبيعية أينما ذهبت، بغَضِّ النظر عن التَّنكُّر الذي ترتديه، معرفة هذه الحقيقة الخانقة كانت مُتعِبَةً لروحها.

وضعت يدها في الجدول ومَوَّجَت الماء، واختفى انعكاسها لبضع ثوانٍ، كانت هذه هي اللحظات الهادئة التي تمنَّت أن تستمرَّ لفترة

أطـول، ولكـن سرعـان مـا عـادت صورتهـا الجميلـة التـي لا تُضاهَـى إلى الظهـور فـوق المـاء.

كانـت الآن تشـعر أن الحـارس حسـني كان يراقبهـا بحُـبٍّ مـن خلـف شـجرة ليسـت بعيـدة، منـذ اليـوم الـذي هربـوا فيـه مـن قـصر أشرف أفنـدي، كـرَّس الرجـل حياتـه كلهـا لهـا، وأصبـح حارسـها الشـخصي الطَّوعـيَّ دون أي توقُّـع، كان مكسـبه الوحيـد هـو مشـاهدته لهـا لفـترة طويلـة، عـلى أكمـل وجـه، والاسـتمتاع بهـا، وهـو مـا لم تعـترض عليـه؛ لأنهـا كانـت تثـق بـه، لكنهـا شـعرت كـما لـو كانـت مُقيَّـدة بسلاسـل غـير مرئيـة، مـا كان مخيفًـا هـو معرفـة أنهـا طالمـا كانـت تتمتَّـع بهـذا الجـمال الخـارق، فلـن تكـون أبـدًا حُـرَّةً في هـذا العـالم.

أخَـذَت قطعـة حـادَّةً مـن الحجـر مـن أسـفل ركبتهـا، ووزنتهـا في يدهـا، كان حجـرًا صغـيرًا مثلـث الشـكل، مُطَحلَـب في أحـد طرفيـه، لقـد فكَّـرَت في السرعـة التـي يمكـن أن تُشـوِّه بهـا وجههـا بهـذا الحجـر الصغـير، وكيـف يمكنهـا بسـهولة تدمـير الجـمال، الـذي كان العـالم كلـه يـرى أنـه مسـحور، لقـد اندهشـت مـن هشاشـة الأشـياء التـي تعطيهـا البشريـة قيمـةً، كان يمكنهـا أن تُحـوِّل نفسـها إلى شـخص غريـب الأطـوار في ثـوانٍ قليلـة، وكانـت تعلـم جيـدًا أن أولئـك الذيـن أشـعلوا النـار في العـالم مـن أجـل ابتسـامة خجولـة حتـى ذلـك اليـوم، وأولئـك الذيـن كانـوا مدمنـين عـلى نظراتهـا الجميلـة، لـن يهتمـوا بمـدى لطفهـا وظرفهـا في أي وقـت، وأنهـم سـوف يبتعـدون عنهـا في لحظـة.

وضعـت يدهـا الأخـرى عـلى بطنهـا، حيـث شـعرت بضجَّـة، كانـت ركلات جنينهـا مثـل نبضـة قلـب ثانيـة في جسـدها، ومـع أن معرفتهـا بأنـه هنـاك كان مخيفًـا بعـض الـشيء، لكـن ذلـك منحهـا سـعادة كبـيرة، كانـت فضوليـة جـدًّا بشـأن مـا إذا كان سـيكون فتـاة أو فتـى، ومـا هـي السِّـمات التـي سـتأخذها منهـا؟

وعلى الرغم من أن قلبها كان يصرخ للتحرُّر من عبودية جمالها، إلا أنها اضطرَّت إلى المحافظة على وجهها لضمان حياة آمنة لطفلها، نُقِش في ذهنها فكرة أنه يتعين عليها حماية هذه الفتاة البريئة، قد حوَّل كل رجُلٍ ظهر في طريقها إلى حرَّاس طوعيِّين، ولكنها كانت تعلم جيدًا أن لطافتها هي التي أثارت إعجابهم أكثر من أي شيء آخر، وإلَّا فإن الأفكار التي وضعتها في ذهنها لن تفيد إلا لفترة قصيرة، ولن تتمكَّن من البقاء على قيد الحياة كل هذا الوقت في هذه الأرض الأجنبية.

وسقط الحجر من أصابعها المفترقة على الأرض، وارتدَّ مرَّةً واحدة، وغرق في المياه الباردة للجدول، وتمتَمَت، قائلةً: «ربما يومًا ما في المستقبل... عندما أكون قويَّةً بما يكفي...».

في تلك اللحظة، لاحَظَت وجهًا آخر منعكسًا في الماء، لم يكن من الصعب التعرُّف عليه، بأذنيه الكبيرتين ورأسه الأصلع وأنفه المعوجة، فابتسمت بحب دون أن تدير رأسها، وقالت:

«أهلًا وسهلًا بك يا أخ بختيار... لقد جلَبتَ الفرح، هل مَللتَ من الازدحام مثلي؟ هل تبحث عن بعض الهدوء لروحك؟».

قال الصبي، وهو يهزُّ كتفيه: «لا، لم أشعر بالملل»، وخدش الأرض بإصبع قدمه.

«لقد جئتُ لرؤيتكِ للتو، وكنت أتساءل قائلًا: ما الذي كنتِ على وشك القيام به، واشتقتُ إليكِ قليلا».

فقالت عائشة: «بالنسبة لي، لقد شعرتُ بالملل الشديد... وسئمتُ من وجود كل العيون عليَّ باستمرار، وأردتُ أن أكون وحدي، من الجيد الاستماع إلى نفسي والغابة، وأعتقد إلى لغابة أكثر... عندما أستمع إلى قلبي، فإن ما أسمعه ليس ممتعًا للغاية».

لم يستطع الصبي فهم ما كانت الفتاة تحاول قوله، لكنه لم يمانع، وفقًا لها، كانت عائشة تتحدَّث دائمًا بهذه الطريقة المعقَّدة، فقد اعتادت على ذلك، وكان للفتاة عالم خاص بها، مختلف عن أي شخص آخر، وقد مرَّ وقت طويل منذ أن أدرَكَت ذلك وقَبِلَته، على الأقل كان يُرحِّب بها في هذا العالم، ولم تستطع أن تغلق أبوابه، كان ذلك كافيًا بالنسبة لها.

وانحنى أكثر قليلًا، وألقى نظرة فاحصة على انعكاساتهما الموجودة جنبًا إلى جنب في الماء، كان يتجهَّم ويخرج لسانه بقدر ما يستطيع.

وقال: «لكنكِ جميلة... وأنا دميم بالنسبة لك والله!».

عبَسَت عائشة، قائلة: «لا تَقُل مثل هذه الأشياء، لقد سئمت من هذا بالفعل! مرة أخرى، أنت وسيم جدًّا، كل الأطفال جميلون!».

ضحك بختيار بصوتٍ عالٍ.

وقال: «يا إلهي، هل أنا وسيم!... عيناكِ كبيرتان، لكن أعتقد أنكِ عمياء يا فتاة! أنا لي وجهٌ متجعِّد، لقد قال الجميع ذلك منذ أن وُلِدتُ!».

كان الصبي مستاءً قليلًا، وتمتم ببراءة، محدِّقًا في الطريق:

«أودُّ أن أعرف كيف يبدو منظري بالنسبة لكِ... من الجميل أن ينظر إليكِ الناس بإعجاب... خليل إيفي ينظر إليكِ بهذه الطريقة عندما يراكِ، وكذلك يفعل الآخرون، لو نظرت الفتيات إليَّ دون وعي؛ لكان ذلك يروق لي... هل كان الأمر كذلك دائمًا في البلد الذي أتيتِ منه؟».

ابتسَمَت عائشة، وسحَبَت ركبتيها نحوه، ولفَّت ذراعيها حوله، وحدَّقَت في الأشجار، وهي شاردة الذهن.

وقالـت: «كان كل شيء مختلفًـا تمامًـا مـن حيـث أتيـتُ، كنـتُ شـخصًا عاديًّـا هنـاك، لهـذا السـبب سـئمتُ مـن رؤيـة مثـل هـذا الاهتـمام وأنـا بجانبـك».

صـاح بختيـار، قائلًا:»أنـا لا أصـدِّق ذلـك، إنهـا كذبـة! إن هــذا الـكلام غـير صحيـح! كيـف يمكنـكِ أن تكـوني عاديَّـةً؟».

أومـأت الفتـاة برأسـها، قائلـة: «كان الجميـع جميلـين في بلـدي، عـلى الأقـل مثـلي، عندمـا يبـدو الجميـع متشـابهين، لا أحـد ينظـر إلى أي شـخص بإعجـاب».

«واو...». خـدش الصبـي الأرض مـرة أخـرى، ولم يصـدق ذلـك تمامًـا، وركل حجـرًا صغـيرًا سـقط عنـد قدميـه، في الجـدول.

وقـال: «أيـن هـذا البلـد؟ ليتنـي أسـتقرُّ هنـاك عندمـا أكـبر! ربمـا سـتقع في حبـي واحـدة مـن الجميـلات الكثـيرات! هـل يمكـن أن يفعلـن المعجزات مثلـك؟ هـل كنتن جميعًـا سَـحَرَة؟».

للحظـة، اسـتمتعت الفتـاة بتخيُّـل المـاضي بشـكلٍ لا يمكـن أن تفـسره، كانـت تعتقـد أنهـا لم تفكـر في تلـك الأيـام لفـترة طويلـة، ومـع أن عيـون الصبـي كانـت مندهشـة، إلا أن ذلـك راق لهـا.

وقالـت: «لم يكـن أيٌّ مِنَّـا سَـحَرَة، لكـن نعـم، يمكـن للجميـع فعـل مـا بوسـعي، التخاطُـب ذهنيًّـا، وتحريـك الأشـياء دون لمسـها، وتعلُّـم لغـة أجنبيـة في غضـون أسـابيع قليلـة، كل هـذا لـن يكـون صعبًـا عـلى أي شـخص... لقـد كانـت أشـياء عاديـة بالنسـبة لنـا».

وأضافـت قائلـة: «سـوف يتعجَّبـون إذا علمـوا أنـك تدعـو أولئـك الذيـن يمكنهـم فعل هـذه الأشـياء بالسَّـحَرَة!».

قـال الصبـي: «يـا لـه مـن مـكان رائـع! إنـه مثـل الجنـة... هـل كان الجميـع حوريـات، مـاذا كُـنَّ؟ أنـت لا تكذبـين عـليَّ، أليـس كذلـك؟ لقـد

عـثرتِ عـلى طفـل، وتخدعينـه؟ اسـمعي، لـن أسـامحك، لـن أنظـر إلى وجهـك لاحقًـا!».

ضحكـت عائشـة بمـرارة، قائلـة: «هـل هـي الجنـة؟»، وسـقط ثِقَـلٌ فجـأة عـلى قلبهـا، تنهَّـدَت بعمـق، ونظـرت إلى الصبـي، قائلـة:

«لـن أسـتخدم هـذا الاسـم لذلـك المـكان، سـيكون النـاس سـعداء في الجنـة، يـا بختيـار، أليـس كذلـك؟ يجـب أن يكـون الأمـر كذلـك... كان عـدد الأشـخاص السـعداء قليـلًا جـدًّا في بلـدي، الـشيء المحـزن هـو أن معظمهـم لم يعـرف ذلـك، لـو لم آتِ إلى هنـا لمـا كنـتُ قـد أدركـتُ أبـدًا مـدى الحيـاة المزيَّفـة التـي كُنَّـا نعيشـها هنـاك، إذا لم تخـرج أبـدًا وتنظـر فلـن تسـتطيع أن تـرى أنـك في قفـص».

جلـس بختيـار في حـيرة مـن أمـره، وتربَّـع إلى جانـب الفتـاة، ووضـع رأسـه عـلى كتـف عائشـة كـما كان يفعـل عـادة عندمـا يكونـان بمفردهـما؛ مـمَّا منحـه الطمأنينـة، لوهلـة غضبـت الفتـاة، واعتقَـدَت أنـه يلاحقهـا، وعندمـا لم يتلـقَّ أيَّ رَدِّ فِعـلٍ، فـرح فرحًـا شـديدًا، ولكـن مـا قالتـه الفتـاة اسـتقرَّ في قلبـه للتَّـوِّ بحـزن شـديد.

وقـال: «لمـاذا قلـتِ ذلـك... لمـاذا يجـب أن تكـون الدولـة كلهـا غـير سـعيدة؟ بينـما جميعكـن جميـلات جـدًّا، كان لديـك وعـدٌ لي، عندمـا يـأتي اليـوم المناسـب، سـتخبرينني أيـن كنـتِ تعيشـين، لقـد وعدتِنـي بذلـك في مقابـل أن آخـذَكِ إلى خليـل إيفـي، وفي كل مـرَّة كنـتُ أسـأل كنـتِ تقولـين لي لم يَحِـن الوقـت بعـد، والآن أخبرينـي، هـاه... تعـالي، وأخبرينـي عنـه، أنـا أشـعر بالفضـول بشـأن المـكان الـذي وُلِـدتِ فيـه، يـا لهـا مـن أشـياء غريبـة تلـك التـي قُلتِهـا، أنتـم جميعًـا مثـل السَّـحَرَة، وأنتـم لسـتم كذلـك، كيـف يكـون ذلـك... لـن أقـول أي شيء، ولـن أخـبر أحـدًا بسِرِّكـم، إذا قطعـوا لسـاني، أنـتِ تعرفيننـي».

شعرت عائشة بأن الطفل الصغير يتنفَّس بعُمق على كتفها، لقد كان على حقٍّ، كانت قد وعَدَته، لقد كان وعدًا أرجأته حتى تنتقم من حاكم السنجق، ولم يَعُد لديها أعذار، ما الضَّرَر في معرفة الحقيقة بعد هذه اللحظة، مَن سيصدقه حتى لو كان أحمقَ، وقال للرجال؟ حتى لو صدقوه، هل سيبتعدون عن أصدقائهم الذين أنقذوهم من ظلم أشرف أفندي؟

قالت بصوت هادئ، ومُحِبٍّ: «يصعب عليَّ أن أصف بالكلمات من أين أتيتُ... كانت هناك أشياء لا مثيل لها في لغتكم حتى الآن، حتى لو أردتُ أن أصفها بالكلمات، لا يمكنني ذلك، كلماتكم لا تكفي، لكن يمكنني أن أريك بعضًا منها إذا أردتَ، هل تريد تجربة هذا؟».

رفع الصبي رأسه، ونظر بنشوة إلى عيني الفتاة ذات الجمال الفريد، البراءة والشوق في هذه النظرة قضَيَا على كل تردُّد لدى عائشة، في تلك اللحظة، تغلَّبَت الرغبة في إسعاد بختيار، على جميع أنواع المخاوف.

مدَّت يدها ووضعتها برفق على جبين الصبي العريض، وركَّزَت أفكارها وذكرياتها، وبدأت تصبُّها ببطء في ذهنه، كانت تفعل ذلك باهتمام، ودون تسرُّع؛ لأنها كانت تعرف إذا أسرعت فقد يؤذي ذلك الصبيَّ، أو الأسوأ من ذلك، قد يؤدِّي ذلك إلى تلف دماغه بشكل دائم، وبينما كانت المَشاهِدُ تتدفَّق بين عقولهما، بدأت في نفس الوقت تحكي له ببطء، قائلة:

«من حيث أتيتُ، كان الجميع متشابهين يا بختيار، كان الجميع لُطَفاء للغاية، كان هناك ستة وجوه بشرية مختلفة، وجوه ثبت أنها مثالية من خلال جميع أنواع التجارب... بمجرد ولادة الطفل، يمكنك اختيار أي وجه تريده، واعتاد أطبَّاؤنا وَضعَ الوجه على هذا الطفل في غضون أيام قليلة، لكني لا أتذكَّر أن أي شخص عرفته كان سعيدًا بسبب جماله؛ لهذا السبب لا أحد يقع في حب أي شخص آخر...

عندما يكون الجميع متشابهين، لا أحد قبيح، لكن لا أحد جميل أيضًا، لا يمكنك حتى أن تكون شخصًا متميزًا...».

عندما نظر بختيار إلى الأمام الآن، لم يستطع رؤية هدوء الغابة، والأوراق التي تدور في مهَبِّ الريح، والجدول الذي يتدفَّق بهدوء، وأمام عينيه أبراج ذات أبعاد لا يمكن تصوُّرها، ترتفع في كومة واسعة من المنازل، وبين الأبراج كانت هناك مركبات غريبة تُحلِّق، ولم يكن لديه أي فكرة عن كيفية تسميتها، وبعضها يشبه حشرات العثَّة، وبداخلها بشر، كان آلاف الرجال والنساء لهم ثلاثة أو خمسة وجوه مختلفة، لم يكن هناك فَرقٌ بين هذه الوجوه من حيث العاطفة التي خلقوها فيه؛ فقد كانت جميعها مثالية.

وأضافت قائلة: «عندما تختار أحد الوجوه المثالية، فإنهم سيعطون طفلك رقمًا، كان عليك أن تحمل هذا الرقم على ملابسك مدى الحياة، وهكذا يمكن تمييزك عن الأشخاص الذين لديهم نفس وجهك تمامًا، وكما تعلم، لم يكن اسمي عائشة هناك، في المكان الذي أتيت منه كانوا يطلقون عليَّ اسم باز194، لست متأكِّدةً من مقدار ما يمكنني إخبارك به، ومقدار ما يمكنك فهمه، يا صديقي، لكن الحقيقة هي أنه على مَرِّ القرون وجد علماؤنا طرقًا لتوسيع حدود العقل البشري، ثم حان وقت اللعب بأجسادنا، أعطانا العلم والاكتشافات الجديدة معارفَ جديدةً تمامًا، لكن لسوء الحظ لم يجلب ذلك أي سعادة لأيٍّ مِنَّا».

بدأ بختيار يطير بسرعة فوق آلاف المنازل الكبيرة والصغيرة، وبين البيوت كانت هناك أبراج مُلوَّنة اخترقت قِمَمُها السَّماءَ، شبيهة بالأهرامات، وكبيرة بما يكفي لتُناسِب عَشْرًا من قريته بالداخل، وكانت هناك قُبَّة زجاجية تبدو وكأنها جبل من صنع الإنسان، لفترة وجيزة شعر بالرعب، لكنه أدرك بعد ذلك أنه ليس في خطر، كان

يمرُّ من بين المباني التي أمامه، وكأن ذلك حلمٌ شاهده في النهار، ولم يلمس أي مكان، ولم يُصَب بأذى، كان سُكَّان المدينة يقومون بعمل لا يمكن التنبُّؤ به بواسطة اللوحات غريبة الشكل، التي لم يكن يعرف أسماءها، وبدوا جميعًا جادِّين ومشغولين للغاية، لم يتحدث أحدٌ بشكل صحيح مع أي شخص، كان مهتمًّا فقط بما كان يفعله، كان كل منهم يحمل أحرفًا وأرقامًا على ملابسه، في مكان يسهل رؤيته، كما ذكَرَت عائشة، كان بعضهم يحمل صناديق ضخمة داخل الأبراج دون استخدام أيديهم على الإطلاق، ربما بقوة عقولهم، وكان بعضهم يصعد السلالم، وكأنهم سيصلون إلى مكان ما، أو ينزلون بنفس السرعة، كان من الواضح للوهلة الأولى أن الجميع في عجلة من أمرهم للغاية.

عندما اعتاد بختيار على العالم المثير للاهتمام من حوله، أدرك أنه لا توجد أشجار أو نباتات أخرى في أي مكان يمكن أن يراه، كان في كل مكان مبانٍ معدنية أو زجاجية أو حجرية لامعة، وبدأ المشهد يخنقه مع تلاشي مفاجأته الأولية، وسرعان ما أصبح الحشد الهائل المحيط به، والمركبات التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى التي تُحلِّق حوله، وولولة الريح التي تخدش الآذان، والسماء الرمادية والأرض التي تشتاق للخضرة- لا تطاق، أصيب بالذهول، بشكل لا إرادي، وأبعد جبهته عن يد عائشة، كانت الفتاة تلمسه بالفعل فقط، لتتعرَّف على لحظة الانزعاج، وإلا فإنها لم تكن بحاجة إلى أن تلمس جسده للحصول على صورة في ذهنها، وعلى الفور اكتمل التدفُّق بين عقولهما، وعانَقَت الصبيَّ الذي كان يلهث، بشدة.

وسألته، قائلة: «حسنًا يا عزيزي، لقد انتهى الأمر، اهدأ...»، وبينما كانت تداعب رأسه الأصلع بودٍّ، قالت: «لقد كان كل شيء حلمًا، لقد انتهى، أنتَ بأمان هنا، لقد أردتَ رؤيته، وجعلتني أصاب بالملل لشهور، هل أنت راضٍ الآن؟».

عندمـا اختَفَـت الضبابيـة في عينيـه، شـاهد بختيـار اللـون الأخـضر للغابـة، واللـون الأزرق للـوداي يظهـران أمامـه، مسـترخيًا ومسـتمتعًا، وكان قـد اعتقـد للحظـة أنـه فقدهـم إلى الأبـد، وأصيـب بالذعـر خوفًـا مـن أن يتـمَّ أَسرُه في ذلـك العـالم الغريـب، السـاحق، المـؤلم، وأمـال رأسـه ونظـر إلى الفتـاة بحـزن.

وقـال: «لقـد كنـتِ عـلى حـق، بلـدك ليـس جميـلًا عـلى الإطـلاق... هـذه هـي الجنـة! شـكرًا عـلى أي حـال، كنـتُ شـغوفًا جـدًّا بالمـكان الـذي أتيـتِ منـه... الآن أعـرف كيـف كانـت البلـد التـي أتيـتِ منها، لقـد قلـتِ إنـه بعيـد جـدًّا مـن هنـا، ربمـا سـأذهب إلى هنـاك يومًـا مـا، وسـأرى بـأم عينـي اللعنـات التـي تجعـل هـؤلاء النـاس يطـيرون! انظـري، لم أرَ أحـدًا في مثـل سِـنِّي في بلدكـم، أيـن تخبِّئـون الأطفـال؟».

تنهَّـدَت عائشـة بمـرارة، قائلـة: «يوجـد عـدد قليـل جـدًّا مـن الأطفـال هنـاك، إنهـم قليلـون لدرجـة أنَّـكَ إذا صادَفـتَ أحدهـم فـإن هـذا يكـون بمثابـة معجـزة».

قـال الصبـي: «هـل يمكـن أن يكـون هنـاك شيء هكـذا! لقـد رأيـتُ عالمًـا مليئًـا بالنـاس، أليسـوا أطفـالًا أيضًـا؟ هـل فقسـوا مـن البيـض!».

حاولَـت الفتـاة أن تـشرح ذلـك، قائلـة: «لقـد كانـوا بالطبـع، لكنهـم كانـوا منـذ سـنوات عديـدة»، لقـد بـدأت تخـشى مـن تشـويش ذهـن الصبـي، وكان مـن المفيـد إنهـاء المحادثـة.

وقالت: «لقد سألتَ لماذا كنتُ غير سعيدة للغاية يا أخي بختيار...

لم يكـن الأمـر بسـبب مـا رأيتَـه إطلاقًـا، بـل بسـبب مـا لا يمكنـك رؤيته، كان بسـبب الأطفـال، عالَـمٌ بـدون أطفـال هـو عالَـمٌ غـير سـعيد، لم يكـن هنـاك أطفـال لأن علماءنـا بعـد أن تجـاوزوا حـدود العقل والجسـد، نجحوا أيضًـا في التغلُّـب عـلى الوقـت، كنَّـا نظـن أنـه كان أعظـم انتصـار لنـا، ومـع ذلـك، فقـد جلـب لنـا الجحيـم... لقـد حـوَّل المـكان الـذي نعيـش فيـه إلى

زنزانة مليئة بمليارات الأشخاص غير السعداء، لنبقى فيها إلى الأبد... لكن يكفي من هذه الثرثرة الآن، لقد حان وقت العشاء، فلنرَ ما جلبه لنا خليل إيفي من الصيد! سأخبرك بالباقي مرة أخرى».

كان بختيار مذهولًا، لكنه لم يستطع مقاومة النظرات المسيطرة للفتاة، نهض بضجر، وأخذ يد الفتاة ببراءة طفل، وساروا معًا إلى الأبطال حيث نصبوا خيامهم، كانت عائشة تنظر بصمت إلى الأمام، وتسترجع الأجزاء المؤلمة من ماضيها، التي لم تخبر بختيار بها، كان اليوم المشؤوم الذي اضطرَّت فيه إلى مغادرة وطنها وعائلتها وأحبَّائها إلى الأبد، مدفونًا في عقلها، من أجل التكيُّف مع حياتها الجديدة، ولأول مرة منذ فترة طويلة، يمرُّ أمام عينيها بكل تفاصيله.

18



«أبناء وطني الأعزَّاء! أولئك الذين يتحكَّمون في الوقت! كما تعلمون، نحن نمرُّ بأيام مضطربة بسبب تصرُّفات بعض اللصوص الذين يحاولون الإخلال بتوازن كوكبنا، بعض الناس الغافلين، متناسين الأوقات المضطربة في تاريخنا، وتلك الأوقات المظلمة عندما كنَّا على وشك الانقراض، يُنظِّمون إجراءات لجعل إنجاب الأطفال بحُرِّيَّة! ومؤخَّرًا تمَّ التوثيق بالأدِلَّة على أن هؤلاء الزنادقة أنجبوا أطفالًا غير مُسجَّلين لدى الدولة، وقاموا بتربيتهم سِرًّا في أماكن منعزلة! هذه الخيانات تصل إلى تقويض التوازنات الدقيقة لكوكب مافرون!

بفضل الاختراعات المضادة للشيخوخة لعلمائنا، لا أحد يموت على كوكبنا إلا في ظروف استثنائية مثل حادث أو قتل، منذ قرون، نما عدد سكاننا إلى مستوى كان الطعام والشراب والموارد الأخرى، كافية بالكاد كافية لسكاننا الحاليين، ومع ذلك، فإنه التزامٌ وليس قيدًا على

الحريـات، ألَّا نسـمح للمـرأة بالحمـل إلَّا عنـد حـدوث هـذه الظـروف الاسـتثنائية! عندمـا يموت أحـد مواطنـي مافـرون لأي سـبب مـن الأسـباب، فـإن إجـراء قرعـة عـلى حـق إنجـاب طفـل، والـذي يمكـن للجميع المشـاركة فيـه، هـو أكـبر مـؤشِّر عـلى أن دولتنـا تتعامـل مـع هـذه القضيـة بإحسـاس كبـير مـن الرحمـة والعدالـة! كل شـعب مافـرون، سـواء أكانـوا أغنيـاء أم فقـراء، في الوظائـف العليـا مـن الحكومـة أو مـن العُـمَّال المتواضعـين، سـيتمكَّنون يومًـا مـا مـن إنجـاب الأطفـال إن شـاء اللـه!

هـؤلاء اللصـوص الذيـن يُخِلُّـون بسـلامنا تجـرَّؤوا عـلى إعـلان أنهـم لا يريـدون أن يكونـوا خالديـن! يطالبـون بـأن يتِـمَّ إزالـة الچـين الآرياتـاني النقـي مـن أجسـادهم! ذلـك الچـين الـذي يوضَـع في أجسـادنا بمجـرَّد ولادتنـا، ولا يسـمح لنـا بالشـيخوخة حتـى بعـد يـومٍ واحـد مـن سـنِّ الثلاثـين، ويسـمح لنـا بالتحكُّـم في الوقـت، وفي المقابـل، يريـدون السـماح لهـم بإنجـاب الأطفـال! وكأنهـم إذا أصبحـوا مميتـين، فـإن ولادة طفـل جديـد لـن يُخِـلَّ بتـوازن كوكبنـا! إنهـم يلعنـون المعرفـة العلميـة التـي منحهـا اللـه للبشريـة بغـرض الوصـول إلى الخلـود، والچـين الآرياتـاني الـذي ألهـم علماءنـا، هـذا كُفـرٌ بمعتقداتنـا! هـل كان اللـه يمنحنـا هذا الاكتشـاف لـو لم يكـن يريـد أن تكـون البشريـة خالـدة!

أعـزائي مواطنـي مافـرون! أولئـك الذيـن يتحكَّمـون في الوقـت! لا يسـتطيع هـؤلاء الغافلـون أن يـروا كيـف أنـه أمـرٌ حيويٌّ لتحقيـق التـوازُن والسـلام عـلى كوكبنـا، أن نكـون جميعًـا متسـاوين في الجـمال ومتسـاوين في العمـر، لقـد أعمتهـم رغباتهـم وطموحاتهـم! إذا انتـشرت الخرافـات التـي يحاولـون نشرهـا، سـنعود إلى تلـك الأيـام الرهيبـة التـي تظـل كلٌّ منهـا ذكـرى سـيئة في ماضينـا! حقيقـة أن لدينـا جميعًـا وجوهًـا مثاليـة، بقـدر مـا يضـع حـدًّا للجرائـم الناشـئة عـن الغـيرة والحـب والرغبـة، فـإن مـن المهـم بنفـس القـدر أن نكـون خالديـن؛ وذلـك مـن أجـل سـلامتنا!

مَـن يعلـم أنـه سـيعيش إلى الأبـد لا يرتكـب جريمـة؛ لأنـه يعلـم أن المـدة التـي سـيقضيها في السـجن لـن تكـون حيـاة مؤقّتـة، بـل سـتكون إلى أجَـلٍ غـير مسـمى! وهـو يـدرك أنـه إذا حُكِـم عليـه بالإعـدام، فـإن مـا سـيخسره لـن يكـون حيـاة تنتهـي تحـت أي ظـرف مـن الظـروف، بـل الأبديـة! والأشـخاص الذيـن لا يشـيخون، ويعرفـون أنهـم لـن يموتـوا إلا إذا قتلهـم أحـد، لا يقاتلـون، ولا يخوضـون الحـرب لأسـباب تافهـة! لا توجـد فـترة واحـدة في التاريـخ لم يَسـفِك فيهـا البـشرُ دمـاءً حتـى توقّفـوا عـن الشـيخوخة! ولكـن منـذ أن ألهَمَنـا إلهنـا الرحيـم بچين الآرياتـان، لم تحدث هنـاك حـرب كبـيرة واحـدة عـلى كوكبنـا، إن الإنسـان الـذي خاطـر بحياتـه بسـهولة حتـى ذلـك اليـوم، بقولـه إنـه سـيموت عـلى أي حـال، عـرف قيمة الحيـاة الأبديـة، وحماهـا بـأي ثمـن! الآن هنـاك مَـن يحـاول الإخـلال بـكل هـذه التوازنـات الدقيقـة مـن أجـل إنجـاب طفـل، كيـف يمكـن للخالديـن الذيـن يشـعرون بالقلـق مـع خطـر فقـدان الأبديـة، وهـؤلاء الزنادقـة، الذيـن يخاطـرون بـكل شيء، وهـم يعلمـون أنهـم سـيموتون عاجـلًا أم آجِـلًا، أن يعيشـوا معًـا في سـلام؟ نلعنهـم جميعًـا باسـم شـعب مافـرون!

أبنـاء بلـدي الأعـزّاء! أولئـك الذيـن يتحكّمـون في الوقـت! لـكي نسـتمرَّ في العيـش بسـلام إلى الأبـد؛ فـإن دولتنـا لـن تـدع هـؤلاء الذيـن يفسـدون النظـام، حافظـوا عـلى قلبكـم حُـرًّا! في جميـع أنحـاء كوكبنـا، تـمَّ إطـلاق حملـة مطـاردة جماعيـة ضـد أولئـك الذيـن لديهـم أطفـال ويربُّونهـم سِرًّا، هـذه الوحـوش، التـي تُهـدِّد حياتنـا الأبديـة، سـيتم القبـض عليهـم واحـدًا تلـو الآخـر، ومعاقبتهـم بشـدة، مـن خـلال إبـادة أطفالهـم غـير الموثّقـين، وسـيتم تخفيـض عـدد سـكان مافـرون مـرة أخـرى إلى العـدد المعقـول الـذي يُحـدِّده علماؤنـا، وإذا كانـت لديـك معلومـات عـن هـؤلاء اللصـوص، فـإن دولتنـا التـي تعمـل في خدمـة شـعبنا، تتوقّـع منـك أن تذهـب إلى أقـرب مركـز شرطـة وتبلـغ عنـه، وأولئـك الذيـن لا يبلغـون عـلى الرغـم مـن أن لديهـم معلومـات سـيحاكَمون بتهمـة الخيانـة، وسـيعاقبون بنفـس

الطريقـة مثـل هـؤلاء المخرِّبـين، سـواء أكان مسـؤولًا تنفيذيًّـا كبـيرًا أو أغنـى شـخص عـلى هـذا الكوكـب، فلـن يتـم محابـاة أي شـخص غافـل يرتكـب هـذه الخطيئـة الرهيبـة!

النصر للخالدين!».

أغلـق هيـك2001 مُشـغِّلَ الأفـلام بحجـم الـزر، الموجـود في راحـة يـده، وتلاشـت الصـورة المجسَّـمة الزرقـاء في الهـواء، واختفـت، في صمـتٍ مُظلِـم، كان هـذا صمتًـا خانقًـا يخنـق قلـب الإنسـان، وكانـت كل ثانيـة مؤلمـة، مـدَّ يـده إلى بـاز194 التـي تنظـر إليـه بعيـون دامعـة، وعانقهـا بشـدَّة، مُمسِـكًا إيَّاهـا بـين ذراعيـه لبضـع لحظـات، واستنشـق الرائحـة التـي تشـبه رائحـة أزهـار الربيـع، التـي كان يعلـم أنـه سـيفتقدها، بحـب، وفكَّـر في مـدى صعوبـة العيـش بـدون الفـرح والسـعادة اللذيـن جلبتهـما الفتـاة الصغـيرة إلى حياتـه، لكـن لم يكـن هنـاك عـودة عـن الطريـق الـذي دخلـوه، كان عليـه أن يفعـل ذلـك.

دفعها بعيدًا، ومسح بلطف الدموع من خديها بأطراف أصابعه.

وقـال: «ابنتـي... عزيـزتي... اسـتمعتِ إلى آخـر بيـان لرئيـس الجمهورية، إنهـم يزيـدون مـن تهديداتهـم في كل مرة، إذا اكتشـفوا شـيئًا عنك، فسـوف يقتلوننـا جميعًـا، هـل مـا زلـتِ تُصرِّيـن عـلى البقـاء هنـا؟ إنـكِ بذلـك لـن تُعـرِّضي نفسَـكِ للخطـر فحسـب، بـل تُعَرِّضيننـا نحـن أيضًـا للخطـر، لقـد عِشـنا أنـا وأمـك عـلى هـذه الأرض، بهـذا النظـام، لقـرون، بعـد كل هـذا الوقـت، لا يمكننـا التكيُّـف مـع كوكـب فضـائي، نحـن لسـنا أقويـاء بمـا فيـه الكفايـة، لكنـكِ هنـا منـذ تسـعة عـشر عامًـا فقـط، لقـد مـرَّت حياتـك دائمًـا بـين أربعـة جـدران، مختبئـة مـن النـاس، ليـس لديـكِ شيء لتخسريـه، يمكنـك بـدء بدايـة جديـدة في مـكان جديـد».

وأخذ وجنتي الفتاة بين يديه.

وأضاف قائلًا: «يجب أن تعيشي يا عزيزتي! حتى لو كنتِ بعيدةً عنَّا... يجب أن تعيشي إلى الأبد، لا يمكننا أن نتحمَّل رؤيتك وأنتِ تتألَّمين».

بكت باز194، وسألت، قائلة: «إذا كنتَ سترسلني... إذا كنتَ ستتخلَّص مني... لماذا أنجبتَني! لماذا أنجبتَني يا أبي! كيف يمكنني العيش وحدي في ذلك المكان الرهيب؟ بدلًا من أن أموت هناك، دعني أموت بجانبك! أنا خائفة جدًّا...».

شعر الشابُّ بألمٍ شديد في قلبه، وكان يشعر بالعجز، في الواقع، كانت رغبته الكبرى هي ركوب تلك السفينة مع طفلته؛ ليكون معها في الأرض الجديدة التي كانت ذاهبة إليها، لكن لم يكن لديه ولا لدى زوجته الشَّجاعة للمخاطرة بحياتهما الأبدية، وتناقشا لأيام، وفي النهاية تَقبَّلَا الحقيقة بمرارة، لم يتمكَّنا من المخاطرة بذلك.

وأمسك بذقن ابنته، ونظر بلُطفٍ في عينيها، لم يستطع أن يقول ذلك بصوت عالٍ، خاطَبَها ذهنيًّا، قائلًا:

«أردناكِ كثيرًا، يا عزيزتي... أردناكِ أكثر من أي شيء آخر، لقد كنتِ لطيفة جدًّا عندما وُلِدتِ، لدرجة أنك كنت أجمل وأروع شيء رأيته على مَرِّ العصور، واعتقدتُ أنه يمكننا حمايتِك، وظننتُ أنه يمكنني إخفاؤك عن الجميع حتى تبلغي السِّنَّ المناسبة، وكنتُ آمل أن تكون الدولة مَرِنَة في تطبيق القانون مع زيادة عدد الأشخاص في مثل حالتنا، واعتقدتُ أننا سنجد مَخرجًا... لكن لم يحدث أي شيء، لم يَعُد لدينا فرصة أخرى، وإذا وقعتِ في أيدي الشرطة، فسوف نفقد نحن وأنتِ الخلود، أنت لا تريدين ذلك أيضًا، أليس كذلك؟ هل تريد ين أن تفعلي هذا لعائلتك؟ أمُّكِ وأنا موجودان منذ فترة طويلة، لا يمكننا حتى التفكير في الموت! قد يكون لديكِ فرصة هناك، يا باز،

لـن تكـوني بمفـردك، سـيكون لديـكِ أصدقـاء معـك، سـيكون هنـاك إيفـا... هـو أفضـل صديـقٍ لـكِ! افعـلي هـذا مـن أجـل نفسـك ومـن أجلنـا».

اعتقَـدَت بـاز194 أن والدهـا كان عـلى حـقٍّ عندمـا توقَّـف الصـوت الـذي كان يـتردَّد في ذهنهـا، وعـلى الرغـم مـن احتـدام العواصـف بداخلـه، إلا أن منطقـه أخـبره أنـه لا يوجـد شيء أكـثر أهميـة مـن الخلـود، هـذا مـا قيـل لـه، مـع جميـع مواطنـي مافـرون، منـذ لحظـة ولادتـه، لقـد تلقَّـت كل تعليمهـا في المنـزل مـن مُعلِّمـين افتراضيـين؛ بسـبب عـدم وجودهـا في السِّـجلَّات الحكوميـة، لكـن مـا تـمَّ تدريسـه في هـذه الـدورات لم يكـن مختلفًـا عـمَّا تـمَّ تدريسـه في المـدارس، كانـت القـدرة عـلى العيـش إلى الأبـد أهـم هـدف للوجـود.

كان عليهـا أن تفعـل ذلـك، إن لم يكـن مـن أجلهـا هـي، فهـو مـن أجـل أسرتها.

مـدَّت يدهـا وقبَّلَـت والدهـا، وأخـبرت والدتهـا بالتخاطُـب ذهنيًّـا بأنهـا تحبهـا، كانـت تتفهَّـم أنهـا لم تـأتِ لتودِّعهـا، إذا كانـت هـي أيضًـا سـتنفي طفلتهـا إلى كوكـب غريـب، فلـن تتمكَّـن مـن النظـر في عينيهـا، وهـي تبتعـد.

وقفـت، وركضـت نحـو مكُّـوك الفضـاء الـذي ينتظـر عـلى بُعـد حـوالي مائـة وخمسـين مـترًا، بَـدَت المركبـة غامِضـةً في الظـلام الدامـس، كانـت طويلـة ونحيلـة، ربمـا كانـت سـتجدها أنيقـة في وقـت آخـر، لكنهـا بَـدَت لهـا الآن مثـل دَرَج الجحيـم، وعندمـا اقترَبَـت، خاطَبَـت ذهنيًّـا صديقهـا إيفـا203 الموجـود عنـد البـاب، قائلـة:

«أنا قادمة يا إيفا، دعني أدخل».

انفتـح البـاب، وصعـدت الفتـاة عـلى الـدَّرَج، ودخلـت المكُّـوك، وانتظـر والدهـا حتـى اللحظـة الأخـيرة حتـى تلتفـت ابنتـه لتنظـر إليـه، وتلـوِّح لـه للمـرة الأخـيرة، ولكنهـا لم تسـتطع فِعـلَ ذلـك، حقيقـة أن عائلتهـا

قـد اعتـبرت تفضيلهـا معقـولًا، لم تمنعهـا مـن الشـعور بـالألم بشـكل كبـير بسـبب ذلـك.

كان في الداخـل تسـعة أطفـال مـن مختلـف الأعـمار، كل واحـدٍ منهـم ينتمـي للأثريـاء، والأقويـاء في البـلاد، ويعيـش بشـكلٍ سِرِّيٍّ، معظمهـم يظهـر لأول مـرة في حياتـه، لقـد اسـتخدم آباؤهـم كل ثرواتهـم ومواردهـم للحصـول عـلى مـكان في مكُّـوك الفضـاء هـذا، كان البعـض يبـكي بصمـت، وآخـرون ينظـرون إلى بعضهـم البعـض بعيـون مضطربـة، وكان أحدهـم يصـلي أو يغمغـم بإحـدى أغـاني الحضانـة لتهدئـة نفسـه، ولم تتوقَّـف شـفتاه أبـدًا، رغـم أنـه لم يكـن واضحًـا مـا كان يقولـه.

كانـت هنـاك مقاعـد كافيـة في المكُّـوك تتَّسِـع لعشريـن راكبًـا، وكان يبـدو فسـيحًا ومريحًـا بمـا يكفـي لمثـل هـذه الرحلـة الطويلـة، جلسـت بـاز عـلى أحـد المقاعـد الفارغـة، وربطـت أحزمـة مقعدهـا بشـكل متقاطع مائـل، ولاحظـت أنهـا كانـت تواجـه مشـكلة صغـيرة في إغـلاق الأقفـال، وأن الأطـراف لم تكـن تُغلَـق بشـكل صحيـح، لكنهـا لم تهتـم بذلـك، لم تكـن خائفـة مـن أن شـيئًا مـا قـد يحـدث لهـا في هـذه الرحلـة، وأنهـا لـن تكـون قـادرة عـلى الوصـول إلى هـذا الكوكـب الغريـب حيَّـةً، والـذي لم تعرفـه قـطُّ، ولم تعـرف نـوع المشـاكل التـي سـوف تواجهها، حدَّقَـت في المصابيـح الملوَّنـة الصغـيرة التـي تومـض عـلى سـطح المركبـة، محاوِلـةً عـدم التفكـير في أي شيء؛ لتصفيـة ذهنهـا تمامًـا، إذا لم تسـتطع نسـيان مخاوفهـا بشـأن المـكان الغامـض الـذي سـيذهبون إليـه فقـد تصـاب بالجنـون قبـل أن تصـل إلى هنـاك.

بمجـرد جلوسـها، نظـرت باهتـمام أكـبر إلى الأطفـال الآخريـن بالداخـل، كانـت الفتـاة الوحيـدة في صفِّهـا، وثـلاث مـن أربـع فتيـات في الصـف المقابـل كانـت لديهـنَّ وجـوهٌ، وقياسـات أجسـادهن مـن النـوع A، وكانـت أعمارهـن قريبـة مـن بعضهـن البعـض، ولم يكـن مـن الممكـن القـول إنهـن

أشـخاص مختلفـون، بـدون أرقـام الرمـز المكتوبـة عـلى ياقـات ملابسـهن، أمّـا الشـخص الـذي يجلـس في مقدِّمـة الصـف، والـذي لا بُـدَّ أن عمـره عـشر سـنوات فقـط، كان مـن النـوع C مثلهـا، كان النظـر إليـه مثـل النظـر إلى صـورة باقيـة مـن طفولتهـا، كانـوا جميعًـا خائفـين وصامتـين، كـما لـو أنهـم لم يتحدَّثـوا عـلى الإطـلاق، فـإن حقيقـة هـذه اللحظـة سـتتحطَّم، وسرعـان مـا سيسـتيقظون في منزلهـم الآمـن، ويدركـون أنـه كان مجـرد كابـوس.

مـدَّت الفتـاة الجالسـة بجانبهـا يدهـا تلقائيًّـا، وأمسـكت يدهـا، كانـت أصابعهـا النحيلـة الرقيقـة دافئـة ومتعرِّقـةً، وترتجـف مـن وقـت لآخـر، كـما لـو كانـت تعـاني مـن نوبـة صرع، لم تسـحب بـاز يدهـا، وكان شـعورها بوجودهـا يُطَمئِنهـا، واسـتدارت، وزيَّفَـت ابتسـامةً لتُسـلِّي عنهـا، وقالـت:

«لا تقلقــي، ســنكون بخـير... سـأعتني بـكِ، أعـدكِ، كل شيء سـيصبح عـلى مـا يُـرام».

كان عليهـا أن تؤمـن بوجـود مثـل هـذا الاحتـمال، لـكي تسـتطيع أن تتحمَّـل هـذه الرحلـة.

لم تَرُدَّ الفتاة بالمثل، ولم يَقِلَّ رَجفُها.

كان إيفـا 203 الـذي يجلـس في غرفـة التحكُّـم في المكـوك، أكـبر الـرُّكَّاب سِـنًّا، وأكثرهـم خـبرة، قـد خاطـب جميـع الأطفـال الموجوديـن في مقصـورة الـركاب، في نفـس الوقـت، قائـلًا:

«لقــد بدأنــا الرحلــة، أيهــا الأصدقــاء، إذا كان هنــاك شــخص لم يَقُــم بربـط الأحزمـة حتـى الآن، فيُرجَـى القيـام بذلـك عـلى الفـور، سـأقوم فقـط بتنشـيط الطَّيَّـار الآلي، وسـيهتمُّ الـذكاء الاصطناعـي للمكُّـوك بالباقـي، في معظـم الأوقـات سـوف نسـافر بسرعـة تقـترب مـن سرعـة الضـوء، لكـن درع الحمايـة الـذي سيتشـكَّل حـول السـفينة سـيمنعنا مـن الشـعور بـه، سـتكون رحلـةً مُريحـةً وآمِنـةً، ولا شَـكَّ في ذلـك، لقـد رتَّـب والـدي لنـا

أفضـل مركبـة مُمكِنـة، نحـن في بدايـة حيـاة جديـدة تمامًـا لنـا جميعًـا، نحـن مستكشـفون شـجعان في رحلـة لاستكشـاف أرض غامضـة! اسـتمتعوا بهـا!».

حـاول الشـاب ألّا ينعكـس قلقـه وتـردُّده في صوتـه، كان يأمل ألّا يشـعر الأطفـال بالخـوف الموجـود في قلبـه، وركّـز أفـكاره عـلى الكمبيوتـر الموجـود أمامــه، وقــام بتنشــيط الطيــار الآلي بقــوة دماغــه، دون لمســه، وبعــد ذلـك أدار الأزرار الصفـراء والزرقـاء عـلى اللوحـة في الاتجاهـات المناسـبة أيضًـا، دون اسـتخدام يديـه، لقـد درسـها عـدَّةَ مـرَّات مـع والـده، الـذي عمـل طيَّـارًا في المكـوك لقـرون، قبـل أن يتِـمَّ ترقيتـه إلى قائـدٍ في سـلاح الجـو، وأخـيراً، مـدَّ يـده، وأنـزل ذراع البدايـة بيـده، وأراد أن يلمـس هـذه الـذراع، التـي مـن شـأنها أن تُغيِّر حياتهـم بشـكل لا رجعـة فيـه، ليشـعروا بوجودهـا.

عندمـا تأكَّـد مــن أن كل شيء عــلى مــا يــرام في المكـوك، وأن جميـع الآليـات التـي مـن شـأنها أن تبقيهـم عـلى قيـد الحيـاة -مـن درع الطاقـة إلى وحـدات دعـم الحيـاة- تعمـل بسلاسـة، أدار الـزِّرَّ الموجـود عـلى اللوحة المكتـوب عليهـا «نـوم طويـل»، لم يتِـمَّ إخبـار الأطفـال -باسـتثناء إيفـا- بأنهـم ذاهبـون إلى كوكـب بعيـد، بقـرار مـن عائلاتهـم، ولم يخـبر إيفـا أيَّ شـخص بذلـك، سـوى صديقتـه الوحيـدة بـاز194.

بعــد اكتشــاف تلــك الأرض الغامضــة المســمَّاة الأرض، والتــي تشــبه ظروفهـا المعيشـية مافـرون، لم تتـم مشـاركة هـذه المعلومـات إلا مـع مسـؤولي الدولـة، وكبـار المديريـن التنفيذيـين في وزارة الفضـاء، مثـل والـد إيفـا؛ حتـى لا تُسـبِّب الذعـر بـين الجمهـور، ووفقًـا للمعلومـات التـي تـمَّ الحصـول عليهـا مـن مَركَبـات التجسُّـس التـي أرسـلتها وزارة الفضـاء إلى هنـاك، كان أبنـاء الأرض حضـارة متخلِّفـة، ويطعنـون في السـن، ويموتـون، ويتقاتلـون باسـتمرار، لقـد كانـوا متخلِّفـين قرونًـا في كوكبهـم الأصـلي في

كل شيء آخر، ولكنهم كانوا متقدِّمين جدًّا في تكنولوچيا الأسلحة، لقد اكتشفوا طرقًا لا حصر لها لقتل بعضهم البعض؛ ولهذا السبب تقرَّر الابتعاد عنهم قدر الإمكان، وعدم الاتصال بهم، بالنسبة لشعب مافرون، الذين لا يريدون المخاطرة بحياتهم الأبدية تحت أي ظرف من الظروف، يمكن أن يصبح هذا الجنس البشري المُهلِك والخطير مُصابٌ بجنون العَظَمة.

خرَجَت إبِرُ نَومٍ طويلة من المقاعد، ودخَلَت في أعناق الأطفال واحدًا تلو الآخر، سيجعلهم السائل الموجود فيها، ينامون لمدة عام تقريبًا دون الحاجة إلى الماء والطعام والمرحاض، عندما تنتهي رحلتهم التي تستغرق سنة ضوئية، كانوا سيستيقظون قبل دخولهم الغلاف الجوي للأرض مباشرة، ولم يعرف إيفا أيضًا كيف سيعيشون بعد ذلك، وكذلك العائلات التي أعدَّت لهم هذا المكوك.

توهَّجَت قضبان الطاقة الأرجوانية أسفل المكوك، وأقلعت المركبة التي تشبه القلم الحبر التي يبلغ طولها ثلاثين مترًا، ببطء، وعندما ارتفعت مسافة كافية، توهَّجَت القضبان الحمراء أيضًا، مُكَوِّنة درعَ طاقة شفافًا حول المكوك؛ لحمايته من تأثيرات السَّير بسرعة كبيرة، وأخيرًا، أضاءت القضبان البيضاء مثل الشمس، وسارت المركبة الضخمة في لحظة بسرعة كبيرة، تاركة الغلاف الجوي في غمضة عين.

كان هيك2001 قد جَثَا، وعندما كان ينظر بعينين دامعتين إلى الفراغ الموجود في المكان الذي توقَّف فيه المكوك للتو، شعر أن جزءًا منه قد اقتطع، وأنه سيعيش نصف إنسان إلى الأبد من الآن فصاعدًا، وكانت مفاصل ذراعه الاصطناعية -التي حلَّت محلَّ ذراعه المكسورة في حادث عمل قبل أربعمائة واثنين وستين عامًا- تؤلمه، وهو في حالة سيئة، كما كان يحدث له في أي صدمة تَعرَّض لها، وفي تلك اللحظة، أراد أن يأخذ ثأره من هذا الذراع، ويمسكها، ويستأصلها من كتفه، كان

هـذا الشـعور بالتمـرُّد قـد نمـا في قلبـه آخـر مـرة منـذ سـبعمائة وثمانيـة عـشر عامًـا، عندمـا فقـد شـقيقه في حـادث مكـوك.

تنهَّـد تومـرا 1543 الـذي كان يشـاهد مـا كان يحـدث مـن بعيـد، بعُمـقٍ، وتوجَّـه إلى الرجـل المذهـول، ووضـع يـده عـلى كتفـه.

وقـال بصـوت مُطَمئِن: «سـيكونون بخـير، صدِّقنـي، ليـس الأمـر سـهلًا عـلى أيٍّ مِنَّـا، لكـن لم يكـن هنـاك خيـار آخـر، كانـت هـذه هـي الطريقـة الوحيـدة ليظلُّـوا بأمـان».

فأجابـه قائـلًا: «أعـرف، يـا تومـرا، لكن هـذه الحقيقـة لا تمنـع معاناتي... كانـت الوحيـدة لـديَّ، لقد أحببتهـا كثـيراً لدرجة...».

قـال الرجـل بحـزن: «لقـد أحببناهـم جميعًـا كثـيراً...»، وكان في صوتـه غضـب يحـاول تخفيفـه، «كانـوا أطفالَنـا، ربمـا لـن ننجـب أطفـالًا مـرَّةً أخـرى، نفعـل ذلـك بحلـمِ مَنْحِهـم فرصـة، اللعنـة عـلى قوانـين مافـرون!».

اعتـدل هيـك ببـطء، وطـوى ذراعيـه، ونظـر لأعـلى، كانـت عـشرات القواعـد الفضائيـة بألـوان مختلفـة تتـلألأ مثـل النجـوم في السـماء، وتديـر شـبكات الطاقـة التـي تـمَّ إنشـاؤها لمنـع أي شـخص مـن مغـادرة مافـرون، أو الهبـوط عـلى الكوكـب دون إذن، بَـدَت قواعـد المركـز، التـي تنـثر الأضـواء الحمـراء والخـضراء، أكـثر تَفاخُـرًا مـن البقيـة، وكان الكوكـب بأقـماره الأربعـة الكبـيرة، والتـي يُعـدُّ أحدهـا ضعـفَ حجـم الأقـمار الأخـرى، يُشـكِّل مشـهدًا مذهـلًا.

وسـأل بقلـق، قائـلًا: «مراقبـو السـماء سيسـمحون لأطفالنـا بالمـرور، أليـس كذلـك؟ هـل أنـتَ مُتأكِّـد مـن ذلـك بنسـبة مائـة في المائـة؟ هـل سـتخاف في اللحظـة الأخـيرة؟».

«نحـن أصدقـاء منـذ قـرون، أرجـوك صدِّقنـي في هـذا الأمـر، لـن تكـون هنـاك مشـاكل، لـديَّ الأشـخاص الذيـن أثـق بهـم أكـثر مـن غيرهـم، في

مناوبـة اليـوم، إنهـم يعرفـون أننـي أوثِّـق كلَّ الرشـاوى التـي ندفعهـا، إذا قامـوا ببيعنـا، فسـوف يحترقـون بنفـس القـدر الـذي سـوف نحـترق بـه نحــن، وسيسـتغرق الأمـر بضـع ثـوانٍ فقـط حتـى يتـمَّ إغـلاق شـبكات الطاقـة، مـن أجـل مـرور الأطفـال، وسـيقولون إنـه كان هنـاك عطـل تقنـي، مثـل هـذه الانقطاعـات اللحظيـة للتيـار الكهربـائي تكـون دائمًـا، ليـس مـن السـهل توفـير الطاقـة للعديـد مـن القواعـد الفضائيـة».

«حسـنًا، وهــذا لــن يلفــت الانتبــاه؟ ألــن يســأل أحــد عــن هــذا الانقطــاع؟».

ابتسم تومرا ضمنيًّا.

وقــال: «عندمــا وَضعــتُ هــذه الخطــة قبــل ســتة أشــهر، طلبــتُ تغيـير وظيفتـي، وطلبـتُ إقالتـي مـن الخدمـة الفعليـة، وتولَّيـتُ وظيفـة إشرافيَّـةً، وبعـد كل هـذا الوقـت، قلـت إننـي بحاجـة إلى تجديـد، وقـد تفهَّمـوا ذلـك، والأشـخاص الذيـن سيشرفون عـلى هـذا الحـدث هـم الآن تحــت إمـرتي، لـن يكـون مـن الصعـب التسـتُّر عليـه».

كان تومـرا القائـد البـارز في سـلاح الجـو في مافـرون، قـد خطَّـط بدقَّـةٍ لــكلِّ التفاصيــل، وبالنظــر إلى أن خطــأ واحــدًا قــد يرتكبــه ســيؤدِّي إلى إعدامهــم جميعًــا، فلــن يكــون مــن الخطــأ القــول إنهــم الآن في معركــة حيــاة أو مــوت.

كان يعـرف هيـك منـذ قـرون، وكان أقـدَمَ أصدقائـه، بعـد الحيـاة هـذه الفـترة الطويلـة، أصبحـت كل الصداقـات عاديـة بمـرور الوقـت؛ قـد يرتكب المـرء خطـأ مـن شـأنه أن يـؤذي قلـب الآخـر عاجـلًا أم آجِـلًا، لكـن علاقتـه بهيـك لم تَفسَـد قـطُّ، لقـد دعَّـمَا بعضهـما البعـض في كل معانـاة واجهاهـا، في بعـض الأحيـان كان يعتقـد أنهـما يتشـاركان نصفـين مختلفـين مـن المـخ، قبـل خمسـمائة وثلاثـة وثمانـين عامًـا، بـكى عـلى كتفـه لأن المـرأة التـي أحبَّهـا ذابـت أمـام عينيـه بسـبب ڤـيروس كانـت قـد أصيبـت بـه، وقبـل

ثلاثة وعشرين عامًا، عندما رُزِقَا بطفل تمَّ إنجابه بالمخالفة للقانون، بناءً على إصرار زوجته الجديدة، لم يشارك هذا السِّرَّ الكبير مع أحدٍ سوى هيك، وبعد بضع سنوات، عندما أراد هيك اتِّباع نفس المسار، ساعده في العثور على طبيب مناسب جعلهم ينجبون سرًّا، الآن في هذا اليوم الصعب عندما يضطرُّون إلى إبعاد أطفالهم بعيدًا عنهم، كانا يجدان القوة من بعضهما البعض.

أخذ ذراع صديقه، وسحبه إلى الآباء والأمهات الآخرين الذين كانوا ينتظرون عند مدخل المنشأة، ووقفوا جميعًا في الظلام حتى لا يراهم أحد من الخارج، وكانت عرباتهم الطائرة متوقِّفة في المجمع الذي أمامه، بشكلٍ مُعقَّد، هؤلاء الأشخاص، الذين يشاركونهم الآن نفس القدر، دخلوا حياتهم منذ ستة أشهر فقط، لقد وجدوهم بفضل الطبيب موريت 4923، الذي ساعد في ولادة أطفالهم.

عندما علم تومرا بالخطوات المميتة المخطَّط اتِّخاذها فيما يتعلَّق بالأطفال الممنوعين، في الاجتماعات التي عُقِدَت في المستويات العليا في الدولة، كان يأمل في البداية في استخدام نفوذه لتأمين امتياز له، ولصديقه هيك، ولكن عندما تمَّ إعدام اثنين من كبار رجال الدولة واحدًا تلو الآخر بسبب نفس الجريمة، فقد أدرك أن الحكومة لن تَغُضَّ الطرف عن أي شخص بشأن هذا الموضوع، وأمضى شهورًا في التفكير، ووضع خطة مفصَّلة لإنقاذ نفسه وأطفاله، ولكن كان هناك الكثير من الناس الذين لا بُدَّ من رشوتهم، وتَطَلَّب بناء مكوك جديد سِرًّا ميزانيَّةً ضخمة، ولحُسن الحظ، كان الدكتور موريت يعرف العديد من الأشخاص الأقوياء والأثرياء الذين لديهم أطفال تمَّ إنجابهم بالمخالفة للقانون، ولم يكن من الصعب جمعهم معًا وجعلهم جزءًا من هذا العمل، كانوا جميعًا يتوقون إلى إنجاب طفل، ولكن عندما بدأت قوات الدولة في مطاردة الأطفال الذين تمَّ إنجابهم بالمخالفة

للقانـون، لم يجـرؤ أيٌّ منهـم عـلى المخاطـرة بحياتهـم الأبديـة مـن أجـل ذلـك.

الآبـاء والأمهـات الذيـن نفـوا أبناءهـم إلى كوكـب آخـر، كانـوا ينظـرون إلى بعضهـم البعـض في صمـت، بخجـل غـير مُعلَـن، كـما لـو أنهـم يشـاركون في جريمـة كـبرى، ولم يسـتطع البعـض أن يرفعـوا أعينهـم عـن المـكان الـذي توقَّـف فيـه المكـوك قبـل قليـل، وكان هنـاك مَـن بَـدَا مرتبـكًا ونادمًـا، كـما لـو كانـوا قـد أدركـوا للتَّـوِّ أن هـذا القـرار لا رجـوع فيـه، ودفَنَـت امـرأة شـقراء طويلـة الشَّـعر رأسـها في كتـف زوجهـا، وانخرطـت في البـكاء.

تـرك هيـك ذراع تومـرا، واسـتدار لينظـر إلى السـماء للمـرة الأخـيرة، وتمتـم بهـدوء، كـما لـو كانـت ابنتـه تسـمعه، مُحـاوِلًا كبـت الشـعور المتزايـد بالتمـرُّد داخلـه.

«حظًّـا سـعيدًا يـا بـاز... كـوني سـعيدة هنـاك... أتمنَّـى أن تكـوني سـعيدة هنـاك يـا عزيـزتي... أحبُّكِ كثـيراً».

19

كانت الفتاة الصغيرة تنتظر خلف الحجر الذي لجأت إليه، وقد تأفّفَت بقدر ما تستطيع، وذراعاها ملفوفان حول رُكبَتَيْها، وهي تبكي، كانت ترتجف كما لو كانت على وشك التجمُّد، لكن في الواقع كان جسدها الرقيق مشتعلًا، وسيطر الخوف على جسدها بالكامل، ولم تستطع تجميع أفكارها، أو أن تتنبَّأ بما يجب فعله، هل تستمر في الاختباء أم تهرب دون إضاعة الوقت؟ هل يمكن أن تجد ملاذًا آمِنًا تلجأ إليه في هذه الأرض الأجنبية؟ وكانت تشعر بمطارديهم يقتربون على الرغم من أنها لم تستطع سماع أصوات أقدامهم، معترفين بأنهم لن يستسلموا حتى يضعوا أيديهم عليها، كان الأمر كما لو كانت تسمع أنفاسهم في مؤخِّرة رقبتها، وتشمُّ رائحتهم المقزِّزة، ولكن ربما كان مجرَّد خداع بصري، حيث كانت رائحة المكان كله مثل بالوعة، أكثر ما أخافها هو الغموض الذي حوصِرَت فيه.

كان هنـاك انفجـار في إحـدى فوَّهـات الـبركان القريبـة، عمـود قرمـزي مـن الحمـم البركانيـة يرتفـع في السـماء، وصلـت درجـة حرارتـه إلى مخبـأ الفتـاة، عندمـا نظـرت الفتـاة في هـذا الاتجـاه، رأت مخلوقـات ضخمـة بأربعـة أجنحـة، ومناقـير طويلـة تحلِّـق عـلى ارتفـاع حـوالي مائـة مـتر فوقهـا، تُـرى مَـن سـيكون موتـه عـلى يـد هـذه الطيـور المخيفـة، أو الوحـوش البشريـة التـي كانـت وراءهـا؟ سَـمِعَت صـوت دويٍّ يوقـف شَـعر الـرأس، وكان يقـترب جـدًّا، كان ذلـك هـو صوتهـم بـلا شـك، قفـزت عـلى قدميهـا وهـي مرعوبـة، وحاوَلَـت الركـض بصعوبـة شـديدة، عـبر الأرض الشـبيهة بالطـين.

لقـد بذَلَـت قصـارى جهدهـا حتـى لا تنظـر إلى الخلـف، لكنهـا لم تسـتطِع منـع الفضـول الـذي مـلأ كيانهـا كلـه، وأدارت رأسـها للخلـف، واتَّسَـعَت عيناهـا كـما لـو كانـت في طريقهـا للخـروج مـن أماكنهـا، مـن رُعـب المنظـر الـذي شـاهدته، كان هنـاك الآلاف منهـم، وقـد تبعوهـا جميعًـا، وكانـوا يشـبهون البـشر مـن بعيـد، ولكنهـا كانـت تعلـم مـدى جنونهـم، وحِـدَّة أسـنانهم الدمويـة وعطشـهم للجسـد الطـازج؛ لأنهـا رأت وجوههـم عـن قُـرب.

وفقَـدَت توازُنهـا فجـأة، وسـقَطَت عـلى وجههـا في الوحـل الـذي تفـوح منـه رائحـة الـبراز، وكلَّـما حاوَلـتَ النهـوض، كلَّـما غطَّاهـا الطـين مـن كل النواحـي، وسـحَبَها إلى الداخـل أكـثر، ووَصَلَـت الرائحـة إلى مسـتوى لا يطـاق، وكانـت مضطـرَّة إلى أن تتنفَّـس، لاحظهـا أحـدُ الطيـور الضخمـة، ذات الأجنحـة الأربعـة التـي كانـت تحـوم فـوق رأسـها، وانقـضَّ فوقهـا بسرعـة، وعندمـا فتـح منقـاره الطويـل، رأت الفتـاة المئـات مـن الأنيـاب تقـترب منهـا، فصرخـت في يـأس ورعـب.

قال إيفا: «استيقظي يا باز، استيقظي الآن، استيقظي من فضلك!».

كانـت بـاز تتلـوَّى في المـكان الـذي كانـت تجلـس فيـه، كـما لـو كانـت تتعـرَّض للتعذيـب، وبالـكاد تفـرق بـين شـفتيها التـي بَـدَت مثـل الكـرز الناضـج، وتوسَّـلَت إليـه، قائلـة: «سـاعدني...»، دون أن تسـتطيع أن تعـرف مَـن يتصـل بهـا، وعـلى الرغـم مـن أنهـا ظلَّـت سـاكنة لفـترة طويلـة، إلا أنها بَـدَت مُتعَبـةً ومُرهَقـة، كـما لـو كانـت تجـري لسـاعات.

قـال إيفـا، وهـو يرفـع صوتـه: «أنـتِ تحلمـين فقـط!»، وهزَّهـا مـرة أخـرى، «أنـتِ بأمـان وأنـا معـك، هيـا، افتحـي عينيـكِ الآن، واسـتيقظي!».

فتَحَـت بـاز عينيهـا بصعوبـة، ورأت الصبـي الـذي كان ينظـر إليهـا بقلـق، لم تكـن هنـاك حيوانـات مُجنَّحـة وأنيـاب، أو رائحـة مُقـزِّزة، كانـت عيـون الفتـى الخاليـة مـن العيـوب في لـون زُرقَـة البحـر.

وسألت قائلة: «إيفا... أين أنا؟ هل ذهبت المخلوقات؟».

أجابهـا قائـلًا: «لا توجـد مخلوقـات! يبـدو أنـكِ رأيـتِ كابوسًـا مـرة أخـرى، نحـن في المكـوك، كل شيء عـلى مـا يـرام».

حدَّثَـت بـاز نفسـها بصـوتٍ بـاكٍ، قائلـة: «رأيـتُ العـالم... كان مُرعِبًـا»، وقامـت بتحريـك ذراعيهـا، اللَّتـين كانتـا مُخدَّرَتـين مـن الوقـوف دون حراك.

وقالـت: «لا أريـد الذهـاب إلى هنـاك، إنـه يخيفنـي كثـيراً، إنـه جحيـم حقيقـي...».

ضحـك الشـاب، قائـلًا: «لا أعتقـد أنـه مـكان سـيئ»، عـلى عكـس بـؤس الفتـاة، كان صوتـه مَرِحًـا ومتحمِّسًـا.

«باللـه عليـكِ اهـدئي... أعـرف الكثـير عـن العـالم، سـأخبركِ إذا أردتِ، لا يوجـد شيء تخافـين منـه هنـاك، عـودي إلى رُشـدِكِ، أنـا في انتظـارك في قمـرة القيـادة، إنـه منظـر رائـع بالخـارج، لم أكـن أريـد أن يفوتـكِ؛ لذلـك أيقظتـكِ، ثـم يمكنـكِ العـودة إلى مقعـدكِ مـرة أخـرى، إذا كنـتِ ترغبـين في ذلـك».

وضعت باز رأسها بين يديها، وانتظرت بعض الوقت لتعود إلى رشدها، وعرضت للهواء وعاء الماء الموجود بجانب كرسيها، وبلَّلت أصابعها، وفرَكَت عينيها، طار الوعاء في الهواء، فوضعته في مكانه بعناية، وعندما سمعت نقرة خفيفة، نظرت في اتجاه الصوت، وبعد فترة وجيزة، غلَّف الضجيجُ المكُوكَ بأكمله، وحتى لا تتيبَّس أجساد الأطفال في حالة النوم الطويل بسبب الخمول، ولا تفقد مفاصلهم وظيفتها؛ تمَّ تحويل المقاعد تلقائيًّا إلى وضع التدليك، وعندما شعرت أن مقعدها بدأ يهتز، قامت بفَكِّ أحزمة الأمان للمقاعد التي لم تكن قد تمَّ ربطها بالكامل، على عجل، ووصلت إلى مقصورة الطَّيَّار، وهي في حالة نصف طائرة، ونصف متشبِّثة، في بيئة خالية من الجاذبية.

قال إيفا دون أن يدير رأسه: «إذن أتيتِ أخيرًا، أنا سعيد لأنَّكِ لم تَدَعي هذا المنظر يفوتك، يجب أن نبدأ الرحيل مرَّةً أخرى بسرعة، لا يمكننا البقاء في نفس المكان لفترة طويلة، دعينا نستمتع بذلك طالما لدينا الوقت».

عندما نظرت الفتاة إلى المشهد الذي كان الشاب يشاهده برهبة، اتَّسَعَت عيناها من الدهشة، لم يكن إيفا يبالغ، لقد كان أكثر مشهد غير عادي شاهده في حياته، وكان قد تلقَّى دروسًا لا حصر لها حول الكون من مُدرِّسين افتراضيين، وكان يعلم أن الشيء الذي كان في مواجهته هو مجرَّة، لقد رأى العديد من الصور الرائعة للمَجرَّات، لكن النظر من قُربٍ إلى هذا الحَدِّ الحقيقي كانت تجربةً مختلفة تمامًا.

داخل الفراغ الشديد السواد، كانت هناك ملايين من الكور الضوئية، كبيرها وصغيرها، وهذه الكرات التي خمَّن أنها نجوم وكواكب، كانت كلها بيضاء، ولم يستطع التَّكهُّن عن سبب اللون الأزرق والأحمر الشبيه بالغيوم الهائلة المحيطة بها، كانت مجموعات

الألـوان الشَّـبيهة بالغيـوم في حركـة مسـتمرَّة، وبينـما كانـت تضيـق في أحـد طرفيهـا، فقـد كانـت تتَّسِـع في الجانـب الآخـر، وتتشـابك وتنكـسر وتنضـمُّ مُجـدَّدًا، وبينـما كان اللـون الأزرق يـزداد قتامـة في مـكان مـا، كان شـاحبًا في مـكان آخـر، مـع وجـود آلاف مـن درجـات اللـون الأحمـر بينهـما، مَـن يـدري هـذا المشـهد الملـوَّن يقـع عـلى بُعـدِ كَـم سـنة ضوئيـة، بـدا قريبًـا جـدًّا بحيـث يمكنـه لمسـه إذا مـدَّ يـده في تلـك اللحظـة السـحرية، وعـلى الرغـم مـن هـذا الخـداع البـصري، إلَّا أنـه كان بإمكانـه التنبُّـؤ بحجـم المجـرَّة، وفي مواجهـة هـذه العَظَمـة، أصبـح وجودهـم والمـكان الصغـير الـذي احتلُّـوه في الكـون بـلا معنـى.

قالـت، دون أن تكـون قـادرة عـلى رفـع عينيهـا عـن المشـهد مثـل إيفـا: «إنـه جميـل... كالحلـم...».

مازحهـا الشـابُّ، قائـلًا: «حتـى لـو لم تكـن مثـل أحلامـك التـي رأيتيها!»، نظـرت الفتـاة إليـه مليًّـا، وعندمـا قطَّبَـت جبينهـا بسـبب النُّكتـة، رفـع يديـه في الهـواء.

وقـال: «حسـنًا، حسـنًا، لا تغضبـي الآن، أردتُ فقـط أن أجعلـك تضحكـين قليـلًا».

قالـت: «لم يكـن الأمـر مُضحِـكًا! كان الكابـوس الـذي رأيتـه مُرعِبًـا حقًّـا يـا إيفـا، كاد أن يكسر قلبـي، لا أعـرف كيـف سـأنام مـرة أخـرى».

قـال الشـاب وهـو يديـر كرسـيَّه نحـو الفتـاة: «عليـكِ أن تفعـلي ذلـك، لدينـا مـا يكفـي مـن الطعـام والـشراب فقـط إذا نمنـا معظـم الوقـت في الطريـق، بصراحـة، الأمـر نفسـه ينطبـق حتـى عـلى الأكسـچين».

فقالـت: «إذن لمـاذا نحـن مسـتيقظون الآن؟ والأطفـال الآخـرون مـا زالـوا نائمـين...».

أجابهـا، قائـلًا: «أنـا مضطـرٌّ إلى ذلـك، يجـب عـلى شـخص مـا أن يسـتيقظ كل شـهر للتحقُّـق مـن أن كل شيء عـلى مـا يـرام في المكـوك، هـذه أدوات تقنيـة، ويمكـن أن تتعطَّـل، ويمكننـا أن نصطـدم بنيـزك، وننحـرف عـن الطريـق، ويمكـن أن تنشـأ جميـع أنـواع المشـاكل التـي لا يمكـن تصوُّرهـا، تـمَّ ضبـط توقيـت كرسـيِّي، ممَّـا يسـمح لي بالاسـتيقاظ في الأوقـات المناسـبة، لم يكـن هنـاك شيء يمكـن رؤيتـه في المـرة السـابقة؛ لذلـك لم ألمسـك، لكـن عندمـا رأيـت هـذا المنظـر الرائـع أمامـي، أرَدتُ مشـاركته مـع شـخص مـا، أنـتِ صديقتـي الوحيـدة عـلى هـذا المكـوك، يـا بـاز، أنـا لا أعـرف الأطفـال الآخريـن عـلى الإطـلاق».

قالـت الفتـاة بصـدق: «أنـا سـعيدة لأنـك أيقظتنـي»، ونظـرت بامتنـانٍ إلى عيـون الصبـي الزرقـاء الجميلـة.

وأضافـت قائلـة: «ليـس فقـط لأننـي أسـتطيع رؤيـة المجـرَّة... ولأننـي أسـتطيع التخلُّـص مـن هـذا الكابـوس... مـن الآن فصاعـدًا، في كل مـرة تسـتيقظ فيهـا، أوقِظنـي أيضًـا، حسـنًا؟ أعتقـد أن البقـاء مسـتيقظة لبضـع سـاعات مـرَّةً واحـدة في الشـهر، لا يسـتنزف مواردنـا، إذا كنـت محبوسـة في تلـك الكوابيـس لأشـهر، فسـوف أصـاب بالجنـون».

ابتسـم إيفـا، قائـلًا: «لا، شـخصان اثنـان لا يُعَـدَّان مشـكلة»، كان البقـاء وحيـدًا في الفـراغ الـلا متناهـي خانقًـا؛ لذلـك كان مـسرورًا بعـرض الفتـاة.

قـال بمـرح: «ومـع ذلـك، يجـب أن نجـد حـلًّا لكوابيسـكِ حـول الأرض! سـتنامين عاجـلًا أو آجِـلًا، أريـدكِ أن تسـترخي، لـن نذهـب إلى أي مـكان مخيـف إلى هـذا الحـد، لمـاذا أنـتِ قَلِقَـة جـدًّا؟».

فقالـت الفتـاة: «أليـس هـذا أنـت؟ هـل كل هـذا يبـدو وكأنـه لعبـة بالنسـبة لـك؟ نحـن نتَّجِـه إلى كوكـب جديـد تمامًـا، ربمـا بعيـدًا عـن الحضـارة، مـكان مـليء بالمخاطـر... مَـن يـدري مـا هـي الكائنـات المرعبـة التـي تعيـش هنـاك».

مـازح إيفـا الفتـاة، قائـلًا: «إن قـوة خيالـك متطـوِّرة للغايـة، نعـم، مـن المحتمـل أن نـرى حيوانـات مثـيرةً للإعجـاب عـلى الأرض، ولكـن ليـس بقدر مـا في مافـرون، إذا أتيـتِ إلى الحضـارة... فأنـتِ عـلى حَـقٍّ، وفقًـا لمافـرون، إنـه كوكـب متخلِّـف جـدًّا، ولا يسـتطيع شـعبه القيـام بالعديـد من الأشـياء التـي يمكننـا القيـام بهـا، عـلى سـبيل المثـال، لا يمكنهـم التخاطُـب ذهنيًّـا، ولا يمكنهـم تحريـك الأشـياء دون لمسـها، ومعظمهـم قبيحـون بشـكل فاضـح، ولا يبـدون مثاليـين مثلنـا، لكـن سـيكون مـن الظُّلـم الكبـير أن نقـول إنهـم وحـوش رهيبـة، إنـه نـوعٌ بَـشَريٌّ غـير مكتمـل النمـو، هـذا كل شيء».

سـألت بـاز بإعجـاب، قائلـة: «كيـف تعـرف معلومـات كثـيرة عـن العـالم هكـذا؟»، نظـرًا لأن والدَيْهـما كانـا أصدقـاء مُقرَّبـين، فقـد أتيحـت لهـا الفرصـة للقـاء إيفـا عـدَّةَ مـرات عـلى مـرِّ السـنين، وكان كل منهـما رُفقـاء اللعـب الوحيديـن لبعضهـما البعـض، ولكنهـما لم يتحدَّثـا عـن ذلـك مطلقًـا، كان يحسـدها عـلى ثقتهـا بنفسـها، وتمنـى أن يكـون واثقًـا مـن نفسـه إلى هـذا الحـد.

قـال: «والـدي قائـد في سـلاح الجـو، كـما تعلمـين، وكان يديـر وحـدة التفتيـش لبعـض الوقـت، لكـن مَهمَّتـه السـابقة كانـت استكشـاف الفضـاء، إنـه واحـد مـن أكـثر الأشـخاص معرفـة بالعـالم، وكان إرسـالنا إلى هنـاك هـي فكرتـه، وعلَّمنـي كل مـا يعرفـه لأهتـم بـكِ هنـاك، بعـد كل شيء، أنـا الأكـبر بينكـم، فأنـا أعتـبر أخـوكِ الأكـبر!».

ضحكـت بـاز ضحكـة بلهـاء، ولم تسـمح لإيفـا بالنظـر إليهـا مثـل الأخ الأكـبر مـن خـلال حركاتـه الصبيانيـة وابتهاجـه، وكانـت تعـرف مـا معنى أن يكـون لديـك أخ أكـبر، فقـط مـن خـلال مـا رأتـه في الأفـلام التـي شـاهدتها، ومـع ذلـك، فقـد راق لهـا وجـود شـخص يعتنـي بهـا.

تمتَمَت، قائلة: «لا أستطيع أن أتخيَّل أناسًا مثلنا يعيشون هناك، كيف يمكن أن تحدث مثل هذه المصادَفة؟».

ورفَعَت رأسها، ونظرت مرة أخرى إلى منظر المجرَّة الرائع أمامها، وتضاءلت الغيوم الزرقاء، وأصبح لون السحب الحمراء المتوسِّعة أكثرَ قَتامةً، كان الأمر كما لو أن حريقًا هائلًا اندلع في الفراغ اللا متناهي من الفضاء، كان هناك فقط ملايين الكواكب، كبيرها وصغيرها، على مَقربة منها.

أخذها إيفا من ذراعها، ووضعها برفق في المقعد المجاور له.

وبدأ يشرح بقدر ما يعرف، قائلًا: «لم يكن الأمر منطقيًّا بالنسبة لي في البداية أيضًا... لم أصدِّق أن هناك أشخاصًا يشبهوننا، حتى مع وجود آثار من ثقافتنا، في مثل هذا المكان البعيد عن مافرون، لكن والدي أخبرني أننا أرسلنا العديد من أقمار المراقبة إلى هناك على مَرِّ العصور، وأخفينا هذه الأقمار في النيازك والمذنَّبات، كُنَّا نراقب سِرًّا، شعوب العالم، وتطوُّرَهم التاريخي والحضارات التي أسَّسوها، من بعيد، يبدو أن أبناء تلك العوالم لا يشبهوننا في المظهر فقط، فهم يُنشِئون مُدُنًا تشبه مُدُنَنا السابقة منذ قرون، وتطوُّراتهم التكنولوچية تتقدَّم بالتوازي مع تاريخنا، ربما سيصلون إلى التطوير الحالي لمافرون بعد وقت طويل، لكنهم يسيرون في هذا الاتجاه، كان كبار رجال دولتنا وقادتنا مقتنعين بأن هذا لا يمكن أن يكون مصادفة؛ ولهذا السبب قاموا بإجراء بحث عن الأحداث التي ظلَّت مَخفيَّةً في تاريخنا، واتَّضح أننا لسنا أول مَن انتقل من مافرون إلى الأرض، يا باز... منذ آلاف السنين، قام آخرون بمثل هذه الرحلة، وأسَّس أسلافُنا الحضارة الموجودة على الأرض».

صاحت باز بدهشة، قائلةً: «هل هذه مَزحَة! إذن سِرٌّ مثل هذا مَخفيٌّ عن كل أهالي مافرون؟».

قـال: «يمكـن أن يُقـال هكـذا، يبـدو أن هنـاك أسـباب وجيهـة لذلـك، في نهايـة الحـرب التـي اندلعـت منـذ آلاف السـنين، تـمَّ نفـي المهزومـين إلى الأرض بشـكل جماعـي، وفُقـد الكثـير منهـم في أعـماق الفضـاء، ولكـن البعـض تمكَّـن مـن الوصـول إلى هـذا الكوكـب الجديـد، لقـد مسـح المنتـصرون عقـول وذاكـرات كل المنفيِّـين حتـى لا يعـود الأعـداء الذيـن طردوهـم مـن مافـرون، وكان عليهـم أن يبـدؤوا كل شيء في العـالم مـن الصِّفـر مثـل الأطفـال، دون تذَكُّـر أي تقنيـة أو موهبـة... لكـن بطريقـة مـا تمكَّنـوا مـن البقـاء والتكاثُـر، واكتشـفوا المهـارات التـي تـمَّ قمعهـا في أعـماق عقولهـم، تدريجيًّـا...».

نظَـرَت بـاز إلى الشـاب مذهولـة مـن القصـة التـي سـمعتها، وشـعرت براحـة طفيفـة، لقـد راق لهـا مـا تعلَّمـوه، وكان مـمَّا أثلـج صدرهـا قليـلًا معرفـة أن أقاربهـا البعيديـن يعيشـون هنـاك، ومـع ذلـك، فـإن هـذا لم يغيِّر حقيقـة أن الأرض كانـت كوكبًـا غريبًـا، وخطـيراً بالنسـبة لهم، لقد اسـتمعت إلى كل جـزء مـن المعلومـات التـي أخبرهـا بهـا إيفـا، عـن المـكان الـذي ذهبـوا إليـه في ذلـك اليوم، كـما لـو كان ذلـك هـو معنـى الحيـاة، وقامـت بتدويـن ذلـك في ذهنهـا، وتسـاءلت إلى أي مـدى كان ذلـك حقيقيًّـا، وهـل كان ذلـك مـن خيـال الشـاب، ولكنهـا لم ترغـب في أن تسـأل.

في محطَّتهـم التاليـة، كان هنـاك كوكـب ضخـم يحـترق هذه المـرة، وكان يهتـزُّ بسـبب الانفجـارات، كـما لـو كان عـلى وشـك الانهيـار، لقـد كانـوا بعيديـن جـدًّا لدرجـة أنهـم لم ينجذبـوا إلى الجاذبيـة الأرضيـة للكوكـب، ولم يشـعروا بالحـرارة، لكـن مجـرَّد مشـاهدته جعلهـم يشـعرون بالرعـب.

أحيانًـا يجـدون أنفسـهم في ظلمـة وصمـت لا نهايـة لهـما، حيـث يسـود الشـعور بالعـدم في كيانهـم كلـه، لكـن في معظـم الأوقـات، شـهدوا جميـع أنـواع معجـزات الكـون معًـا، وشـاهدوا بإعجـاب النجـوم السـاطعة، والمجـرَّات الملوَّنـة، والثقـوب السـوداء الضخمـة، والمذنَّبـات.

في كل مـرة تسـتيقظ فيهـا بـاز، كانـت سـعيدةً برؤيـة عيـون إيفـا الزرقـاء الجميلـة عـلى بُعـد بوصـات قليلـة فـوق وجهـه، ربمـا كان لـدى الملايـين مـن الأشـخاص في مافـرون نفـس العيـون، لكـن نظـرات الصبـي كانـت لهـا عمـق وسـحر خـاص بهـا، لقـد منحهـا الثقـة في أنـه مسـتعدٌ لتَحمُّـل المسـؤولية، وحمايتهـا مـن الأشـخاص الموجوديـن حولهـا، وأنـه سـيكون سـعيدًا بذلـك.

عندمـا فتحـت عينيهـا للمـرة الحاديـة عـشرة، علمـت أنهـما يقتربـان مـن نهايـة الطريـق، وعندمـا وصلـت إلى قمـرة القيـادة، وهـي في حالـة نصـف طائـرة، ونصـف متشـبِّثة بالجـدران، كانـت مفتونـةً بالمشـهد الرائـع المنعكـس عـلى السـطح الزجاجـي الشـفاف لـدرع الطاقـة، لم يكـن سـبب ذلـك أن هـذا الكوكـب -الـذي يُعَـدُّ الجـزء الأكـبر منـه أزرق اللـون- كان أكـثر جـمالًا وإبهـارًا مـن أي شيء آخـر شـاهدته، بـل كان السـبب هـو موافقتهـا عـلى أن يكـون هـذا المـكان هـو منزلهـا الجديـد، والـذي يُذكِّرهـا بمافـرون.

أمسَـكَت بيـد إيفـا، الـذي لم يسـتطع أن يرفـع عينيـه عـن ذلـك المـكان كـما فعلـت هـي، وتمتَمَـت بحـماس، قائلـة:

«الأرض... أليس كذلك؟ لقد وصلنا أخيراً...».

قـال الشـاب: «نعـم، هـذه هـي الأرض»، مسـتمتعًا بـدفء ونعومـة الأصابـع في راحـة يـده، وأدار رأسـه، ونظـر بلُطـفٍ إلى الفتـاة الصغـيرة، مبتسـمًا برقَّـة.

«سـنكون سـعداء هنـا، يـا بـاز، أعتقـد ذلـك، سـأحميكِ مـن كل شيء، ومـن الجميـع، صدِّقينـي، هـلَّا فعلـتِ ذلـك؟ لـن أتـركَكِ أبـدًا».

ضغَطَـت بـاز بقـوة عـلى يـد الصبـي، وابتسَـمَت، ومنعهـا قلبهـا المفعـم بالقلـق مـن الاستجابة بلُطـفٍ، لكنهـا أرادت بشـدَّة أن تُصدِّقـه.

بعد مرور عام على مغادرة باز194 لوالديها، والكوكب، وكل شيء تعرفه، وكل شخص تعرفه- رأى القبطان العثماني سليمان باشا، الذي كان يتقدَّم عبر البحر بغليونه الرائع المسمَّى شاهميران، والموجود على الكوكب الذي يطلق عليه اسم الأرض، ضوءًا ساطعًا في السماء، ففتح منظاره الأسطواني، ونظر في هذا الاتجاه بفضول، حيث كان هناك جسمٌ كبير يشبه الرمح، بقُضبان أرجوانية وحمراء وبيضاء على ظهره، يسقط بسرعة في الماء، كان يعتقد أن هذه قد تكون لعبة جديدة لأهل جنوة أو البندقية، وسيكون من المفيد توَخِّي الحذر، ولكن إذا كان هذا الاختراع الكافر آلةَ حرب كما كان يعتقد، فإنه من الغريب ألَّا يحدث شيءٌ في النقطة التي كان يستهدفها.

غرق الرمح العملاق في البحر بأقصى سرعة، تاركًا وراءه آثارًا ملوَّنة، وبعد بضع دقائق طفا على السطح مثل حوت ميت، وبقي هكذا، كان الماء يتدفَّق من خلال الشقوق الموجودة في نوافذه، وسرعان ما سيكون في قاع البحر، في تلك اللحظة، انفجرت إحدى النوافذ، وتناثَرَت قِطَعٌ منها في الخارج، وخرَجَت منها فتاة صغيرة ترتدي فستانًا أسود ضيقًا، لا يمكن رؤية وجهها بالضبط، ولكنَّ حتى بقدر ما تمَّ رؤيته، كان لديها قوام غير عادي، وجمال لا تشوبه شائبة، فنظر حوله بلا حول ولا قوة، إلى الآلة الغريبة التي كانت تغرق في الماء، ولم يستطع أن يعرف ماذا يفعل، لم تكن تشبه جنديًا من جنوة أو البندقية على الإطلاق.

كان سليمان باشا مفتونًا بجمال الفتاة، فأنزل المنظار، ووضع يده على مقبض اليطقان الموجود في وشاحه، واستدعى مساعده، وأمره بإدارة السفينة على الفور في هذا الاتجاه، لم يتجاهل ملء المدافع، وطلب منهم الاستعداد لحرب مُحتَمَلَة، على أقل تقدير، كان يجب أن يعرفوا ماذا يحدث، وإذا كان الكُفَّار لديهم خطَّة شيطانية ضد الأراضي العثمانية، لكان عليهم أن يعرفوا ذلك قبل أي شخص آخر.

وبينــما كانــت شــاهميران تمــلأ أشرعتهــا بالريــاح، وتُغيِّر اتجاههــا، كانــت بــاز194 تنظـر إلى هـذه المركبـة العائمـة الغريبـة، التـي تراهـا لأول مـرة في حياتهـا، بعيـون مذهولـة، وبسـبب مشـكلة درع الطاقـة، فقـد تحطَّـم الزجـاج الأمامـي بمجـرد وصولـه إلى البحـر، وأصيـب إيفـا بجـروح خطـيرة مـن جـرَّاء قطـع الزجـاج المتناثـرة في كل مـكان، وأمَّـا الآخـرون فلـم يتمكنـوا مـن فَـكِّ أحزمـة مقاعدهـم عندمـا تَعطَّـل نظـام الحـزام الأوتوماتيـكي أثنـاء الاصطـدام، وعَلِقـوا بالداخـل، وكانـوا سـوف يختنقـون بعـد بضـع دقائـق، ولكـن تعطُّـل أحزمـة المقاعـد الخاصـة بهـم، وعـدم إغلاقهـا بشـكل صحيـح أنقـذ حياتهـم، لكـن المكـوك كان يغـرق أكـثر فأكـثر كل ثانيـة، وكان مـن المسـتحيل بالنسـبة للموجوديـن عليـه أن يسـبحوا مرتديـن سـترات الحمايـة الثقيلـة، كانـت تعـاني مـن ألم شـديد بسـبب مـا حـدث للأطفـال الآخريـن، وخاصـة وجـه إيفـا الممـزَّق، وجسـده الدامـي، الـذي لم يَختَـفِ مـن أمـام عينيهـا، لكنهـا لم تسـتطع أن تفكِّـر في الأمـر أكـثر مـن ذلـك، بعـد الآن، كان مـن أهـم واجباتهـا حمايـة الحيـاة الأبديـة التـي منحهـا اللـه لهـا مثـل كل شـعب مافـرون، لم يسـتطع إيفـا الوفـاء بوعـده، حيـث تركهـا وحيـدة عـلى هـذا الكوكـب المخيـف منـذ اليـوم الأول، وعليهـا الآن أن تدافـع عـن نفسـها، كان عليهـا أن تجـد طريقـة للبقـاء بـأي ثمـن، وقامـت بتقييـم الخيـارات، محاوِلـةً عـدم سـماع بـكاء الأطفـال، وأصـوات إيفـا الـذي يطلـب المسـاعدة.

كانـت تحـدِّق بعيـون مـتردِّدة في المركبـة العائمـة التـي تقـترب، وعليهـا أشـخاص يرتـدون ملابـس غريبـة، وكلهـم مـن الذكـور بقـدر مـا تسـتطيع رؤيتـه، لقـد بـدوا قبيحـين للغايـة، ولم يكـن يخطـر ببالهـا أن وجهًـا بشريًّـا يمكـن أن يكـون مشـوَّهًا، وغـير متناسـب هكـذا، فاعتقـدت أن هـؤلاء الغربـاء كانـوا فرصتهـا الوحيـدة، وخلعـت ملابسـها الواقيـة الثقيلـة، وألقـت بنفسـها في المـاء، وبـدأت تسـبح في هـذا الاتجـاه بـكل قوتهـا، كان البحـر بـاردًا لدرجـة أنهـا اعتقـدت أنهـا سـتتجمَّد، لكـن كان عليهـا أن تتحمَّلـه،

كان إيفا قد أخبرها ذاتَ مَرَّة، أنه يعتقد أنه بإمكانهم التحكُّم في عقول أولئك الذين يعيشون على هذا الكوكب، والذي سيكون موطنهم الجديد، وأن بإمكانهم غرس فكرة أنهم بحاجة لحمايتهم، في أذهان الأشخاص الذين يتصدَّون لهم، كان أملها الوحيد أنه سيكون على حقٍّ.

في الوقت نفسه، على بُعد يومين من مكان وجودهم، كانت هناك عاصفة فريدة تشتدُّ لحظة بلحظة، وقد حدثت بسبب تأثير درع طاقة المكوك على الغلاف الجوي للأرض، وكانت الموجات المتصاعدة تبتلع الغليونات والقوادس القريبة، والرياح التي لا تُقاوَم، والأمواج العاتية كانت تتقدَّم بأقصى سرعة صوب شاهميران.

20

بينـما كانـت عائشـة تسـير مـع بختيـار في الغابـة، شـعرت بطفلهـا الصغـير الـذي اقـترب ميعـاد ولادتـه، يتحـرَّك، وركلهـا في بطنهـا، كان هنـاك كائـن بداخلهـا استمدَّ قـوة حياتـه منهـا، وكان يتنفَّـس معها، وسـيكون هذا جـزءًا منهـا لبقيـة حياتهـا، عندمـا تَلِـد، كانـت سـتعيش القلـق والمخـاوف التـي مـرَّت بهـا في المـاضي، وسـترى كل شيء في العـالم لأول مـرة كـما لـو كانـت قـد جـاءت مـن كوكـب آخـر، وسـوف تندهـش، وتصنـع اكتشـافًا جديـدًا كل يـوم، وسـوف تُعلِّمـه مباهـج الحيـاة، ومخاطِرَهـا، والصـواب والخطـأ، وسـتكون دائمًـا مُرشِـدَه في رحلـة حياتـه المليئـة بالمفاجـآت، لقـد كان شـعورًا رائعًـا، وعـلى الرغـم مـن أنهـا لم تَـرَ أو تَلِـد هـذا الطفـل الصغير بعـدُ، إلا أنهـا شـعرت بـأن رابطـة قويـة جـدًّا قـد نشـأت بينهـما لـن تنقطع أبـدًا، كان يفـوق عقلهـا إمكانيـة أن تتخـلَّى الأم عـن الطفـل الـذي كانـت تحملـه منـذ شـهور، وكلـما فكَّـرَت في الأمـر كان يؤلمهـا أكـثر أن والديهـا قامـا بنفيهـا إلى كوكـب آخـر حتـى لا تكـون حياتهـما الأبديـة في خطـر.

كونـك خالِـدةً يلـوِّث أرواح البـشر، وعندمـا كانـت الأبديـة هـي مـا سـيضيع، وليسـت حيـاة قصيرة، فقـد تخـلَّى معظـم النـاس عـن كل قيمهـم مـن أجـل البقـاء عـلى قيـد الحيـاة، ألم يكـن بإمكانهـا إنقـاذ طفـل أو اثنـين مـن الأطفـال الذيـن كانـوا ينتظـرون الغـرق، وهـم عاجـزون، في تلـك اللحظـات التـي سـبقت غمرهـم بالميـاه عندمـا تحطَّـم المكـوك الـذي هبطـوا عليـه في البحـر؟ ألم تكـن تسـتطيع أن تجـرب ذلـك عـلى الأقـل؟ لم تفكـر في الأمـر في ذلـك اليـوم، حيـث كان محفـورًا في ذهنهـا أن حمايـة حياتهـا وأبديتهـا كانـت أهـمَّ قيمـة أساسـية مـن حيـث أتـت، وكلـما عاشـت بـين البـشر الفانـين، وكلـما أحبَّتهـم أكـثر، كلـما كان الكوكـب الـذي وُلِـدَت فيـه أكـثر قُبحًـا في نظرهـا، والمولويُّـون أصدقاؤهـا الأعـزاء، الذيـن خاطـروا بالمـوت بـدلًا مـن خيانتهـا، والحـارس حسـني، الـذي خاطـر بحياتـه بسـبب حُبِّـه لهـا، وخليـل إيفـي ورجالـه، الذيـن حملـوا أرواحهـم عـلى كفوفهـم لوضـع حـد لاسـتبداد حاكـم السـنجق، والفتـى بختيـار الذي يسير بجانبهـا- كانـوا جميعًـا أناسًـا جميـلي الوجـوه... وقـد عمـل العلـماء في كوكبهـا عـلى أن يكـون البـشر لديهـم وجـوه خاليـة مـن العيـوب، وأن تسـتمر الوجـوه إلى الأبـد، ولكنهـم طـوال هـذا الوقـت لم يتمكَّنـوا مـن منـع الـروح البشريـة مـن التعفُّـن.

كلَّـما فكَّـرَت في هـذا، بـدأ ثِقَـلٌ مُرهِـقٌ يتشـكَّل في ذهنهـا، وشـعرت بضغـطٍ بـين حاجبيهـا، وشَـدٍّ خَدِّهـا الأيمـن مثـل جلـد الطبـل، وارتعشـت إحـدى عينيهـا، ثـم ارتجفـت كلاهـما، وسـال العَـرَق الشـديد البـارد عـلى صدغهـا، لقـد كان هـذا شـعورًا غريبًـا جـدًّا، ولم تسـتطع فهـم مـا كانـت تمـرُّ بـه، كان الأمـر كـما لـو أن كل طاقتهـا قـد اسـتُنزِفَت مـن جسـدها، لم تسـتطع المـشي أكـثر مـن ذلـك، وتجمَّـدَت مكانهـا، وارتجـف جناحـا أنفهـا بشـكل لا إرادي، وتسـارع تنفُّسـها، وارتفعـت حشرجـة لا يمكـن السـيطرة عليهـا مـن حلقهـا، وانقبضـت اليـد التـي تمسـك بأصابـع بختيـار الصغيرة، كـما لـو كان شـخص مـا يضغـط عـلى طـرف حاجبـه الأيـسر بمسـمار حـاد،

وتغلغـل رأسـه ببـطء في جسـدها، كانـت تتـألم، ووضعـت يدهـا الحُـرَّة عـلى وجههـا، لكـن لم يكـن هنـاك مسـمار أو أي شيء آخـر يمسـك بـه، لم يسـبق لهـا أن عانـت مـن مثـل هـذا الألم مـن قبـل لا عـلى الكوكـب الـذي وُلِـدَت فيـه، ولا عـلى الأرض.

وسرعـان مـا اختفـى الشـعور بالمسـمار، وحـلَّ مَحلَّـه ألمٌ يسـاوي ألم سـكِّين يحفـر مـا بـين عينيهـا، كانـت اليـد الخفيـة التـي تحمـل السـكين قاسـية، تُمـزِّق جسـدها بـكل قوتهـا، ولم تتوقَّـف للحظـة، صرخـت، وسـقطت عـلى ركبتيهـا، وبـدأت تلكـم ثدييهـا، وتخـدش خدَّيهـا، كانـت عـلى اسـتعداد للمـوت لإنهـاء هـذا التعذيـب الرهيـب، كان الأمـر كـما لـو أن الطفـل الـبريء بالداخـل كان يشـعر، بـل ويشـاركها الألم، ويكافـح بجسـده الصغـير، ويركلهـا في بطنهـا، في تلـك اللحظـة، أصيبـت بالذعـر مـن أجـل طفلهـا، أكـثر مـن نفسـها، ولم تسـتطع تحمُّـل حـدوث أي شيء لـه، وصرخـت بيـأس: «كفـى! ليسـاعدني اللـه! ليسـاعدني اللـه!».

في تلك اللحظة عانقها بختيار بشدَّة، وصرخ في أذنها بكل قوته.

«هـذه الأشـياء ليسـت حقيقيـة! أنـت لا تواجهـين هـذا الآن! انظـري إليَّ يـا حبيبتي، فقـط، انظـري إليَّ!».

صـوت الذَّكَـر الكامـل الـذي يـتردَّد في أذنهـا لم يكـن صـوتَ بختيـار، لقد كان ناضجًـا وقويًـا جـدًا بحيـث لا ينتمـي لطفـل، لقـد كان صوتًـا مألوفًـا، لكـن عائشـة لم تسـتطع تحديـد هويتـه، لم يَخِـفَّ الألم، لكـن عـلى الأقـل لم يَعُـد يـزداد، لقـد تأوَّهَـت، قائلـة: «ليوقـف شـخصٌ مـا هـذا السـكين، أرجـوك ليخرجـه أحـدٌ مـن عينـي...».

صـاح الصـوت مـرَّةً أخـرى، قائـلًا: «أعطينـي انتباهـك الكامـل، يـا حبـي! ليـس عليـك أن تعـاني مـن هـذا الألم، فقـط معانـاتي تنتقـل إليـكِ، أنـتِ لسـت مريضـةً، أنـا المريـض! افتحـي عينيـك، وانظـري إليَّ، وتذكَّـري مـا مَـرَرتِ بـه!».

أدارت عائشة رأسها بصعوبة، ونظرت إلى الشخص الذي كان يعانق كتفيها، لم يَعُد بختيار هو الذي بجانبها، لم يكن وسيمًا، لكنه كان رَجُلًا في الثلاثينيات من عمره، بملامح قوية، وعيون مطمئنة، مألوفة لديها، رغم أنها لا تتذكر اسمه، كان ينظر إليها برأفة وحب، وكان هناك أيضًا ندم وقلق في عينيه في نفس الوقت، وكلما يختفي الدفء في عيني الرجل، ينمو في قلبها، وكلما يتردَّد صوته في ذهنها، كان الألم الشديد بين حاجبيها يَقِلُّ، اختفت الطعنات الخيالية للسكاكين، وانحسر ألمها إلى درجة مسمار مضغوط في وجهها.

سألها الرجل، قائلًا: «هل عَرَفتِني؟»، بينما كانت الفتاة تنظر إليه بعيون مندهشة، «هل يُمكِنُكِ تَذكُّر اسمي؟ هل تتذكرين كمال؟ هل يجب أن أناديكِ باسم نيشه أم عائشة؟ أي اسم تفضِّلين؟».

تمتمت عائشة وهي تحاول جمع أفكارها «كمال...»، وعندما أدركت بُعد اللحظة عن الواقع، هدأ الصداع تدريجيًّا، واختفى أخيراً تمامًا، ووقفت هناك لبضع ثوان، وكانت تتنفَّس بصعوبة، وتمسح العرق الذي غطَّى وجهها بكفَّيها، لن تريد أبدًا أن تعاني من مثل هذا العذاب مرة أخرى، ثم تحرَّرَت من ذراعَيْ الشاب، وابتعَدَت، ووقَفَت، ونظرت إليه باهتمام، قائلة:

«كمال... هل هذا أنت حقًّا؟ ما الذي يجري هنا؟ أين نحن؟».

قال كمال: «نحن في ذكرياتك يا نيشه، في ذكرياتك وأحلامك، في الواقع، لقد اختلطت بعض ذكرياتي مع بعض ذكرياتك أيضًا، يُهَيمِن الصداع العنقودي على عقلي الباطن، وعندما اتَّحدَت عقولنا، تسلَّل هذا المرض الرهيب إلى ذكرياتك أيضًا، لقد اختلط بالأحداث الموجودة في ماضيكِ عن غير قصد، ونأى بها عن الأحوال التي عاصَرتِها في الحقيقية، لقد كانت جزءًا من ذكرياتِكِ أيضًا... ومع ذلك، فإن كل ما مررنا به معًا، يُعَدُّ انعكاسًا لما مَرَرتِ به، إلى حَدٍّ كبير».

تذكَّرَت الفتاة كل شيء لحظة أن خاطبها كمال باسم نيشه، لقد تذكَّرَت كل ما حدث، انفجار الباب أثناء الدردشة معه، في أحد المنازل السِّرِّيَّة لحركة المساواة في اسطنبول، وبعد ذلك أظلم العالم كله... نصف مستيقظة، ونصف فاقدة للوعي، ونقلها في سيارة «بر جَوِّيَّة» ضخمة، بين ذراعَيْ «إيه آر» روبوت الأمن... فاقِدةً الوعي تمامًا بعد الحقن في ذراعيها... كل هذا حدث بعد أن طلب كمال لقاءً للتَّحدُّث معها، وقامت بإحكام قبضتيها، في محاولة لاحتواء غضبها.

قالت نيشه: «لقد أبلغتني! هل قُمتَ ببيع حركة المساواة في اسطنبول؟ هل تعمل لصالح جمهورية المدينة؟ لا أستطيع أن أصدِّق ذلك... أنا حقًّا لا أستطيع أن أصدِّق ذلك... لقد وثِقتُ بك من كل قلبي! لماذا أنتَ في عقلي يا كمال، ماذا تفعل بي؟».

هزَّ كمال رأسه، قائلا: «لا أبدًا! لن أخونَكِ أبدًا، يا نيشه، أنا أحبُّكِ أكثر من أي شخص! لقد قمتم بتخديري قبل إحضاري إلى ذلك المنزل السري، أتتذكَّرين؟ لم أكن أعرف حتى أين كُنَّا، لقد وقَعتُ في شَرَكٍ، لقد خدعوني، أنت تعرفين مرضي، كنتُ أتألَّم كثيرًا، هؤلاء الأوغاد استغلُّوا ضعفي... لقد وثِقتُ بهم على أمل أن يتمكَّنوا من علاجي، أرَدتُ أن أثق بهم، لقد اتَّبعوني عندما كنتُ قادمًا لمقابلتك، وبهذه الطريقة عرفوا مكانك... إذا كنتُ قد فهمت نواياهم، لما اقتربتُ منهم أبدًا «.

«حسنًا، ولكن ماذا يريدون مني؟ هل يريدون معرفة مخابئ قادة حركة المساواة في اسطنبول؟ لن أخبرهم بذلك أبدًا!».

أومأت الفتاة الصغيرة برأسها كما لو أنها فهمت فجأة ما يجري.

وقالت: «أوه، بالطبع... إنهم يعرفون أيضًا أنني لن أتجسَّس، لهذا السبب وضعوك في ذهني كجاسوس، من أجل البحث عن المعلومات في ذكرياتي! لقد تحمَّلوا المشاق من أجل لا شيء! يُغيِّر قادة حركة

المساواة في اسطنبول الأماكِنَ باستمرار، في حالة القبض على أحدنا يومًا ما، لا أحد منّا يعرف أماكن اختباء الآخرين، ذكرياتي عديمة الفائدة لهم».

تنهَّد كمال بعمق، قائلًا: «لا يا عزيزتي، مشكلتهم ليست حركة المساواة، ما يريدونه منكِ هو شيء آخر، إنهم يسعون وراء سِرٍّ أكبر بكثير، هم يعرفون مَن أنتِ، وأنَّكِ خالدة، وأنكِ لا تشيخين أبدًا، وستبقين في هذا العصر إلى الأبد، إنهم يحاولون فهم كيف يكون ذلك ممكِنًا، أخبَرتُكِ عن السيدة جول، المرأة الغنية التي كلَّفَتني بهذه المَهمَّة، إنها تعمل لصالح أهم رجال الأعمال وأصحاب الشركات في جمهورية اسطنبول وجمهوريات المدن الأخرى، وتُنتِجُ طُرقَ علاج جديدة، وعقاقير مضادة للشيخوخة لا يعرف الجمهور حتى بوجودها، لكنهم لم يتمكّنوا من إيقاف الوقت للبشر تمامًا، ولم يتمكّنوا حتى من الاقتراب من ذلك، امرأة أتت إليهم قبل عِدَّة أشهر، وأخبرتهم أن زوجها يعاني من مرض غريب، وأنه كان يتقدَّم في العمر ببطء شديد، وأن ذلك أخافها، وفي الاختبارات التي أجروها على الرجل، أدركوا أن هذا كان صحيحًا، لكنهم لم يتمكّنوا من العثور على مصدر هذه الميزة غير العادية، ولم يعرفوا أين يبحثون».

تنهَّد كمال بعمق، ولم يستطع التنبُّؤ بِرَدِّ فِعل المرأة التي أحبَّها لما سيقوله بعد ذلك، لكن من المؤكَّد أنها كانت سوف تتضايق.

وأضاف قائلًا: «خلال الاختبارات، دخلوا أيضًا في عقل الرَّجُل وعَلِموا أنه وَرِثَ هذه الصفة من والدته، لقد تتبَّعوا نَسَبَكِ ووصلوا إليك، هي من نَسلِكِ يا نيشه... ربما تكون من نسل طفلٍ أو حفيد فقَدتِه، لا أستطيع أن أعرف، عندما مات الرجل الذي استخدموه كفأر التجارب، قتلوا زوجته، التي قالت إنه ستقاضيهم، وقتلوا طفله، الذي شهد كل شيء، وأحرقوا جميع الجُثَث حتى لا تُفهم الاختبارات التي

أجروها، وعندما علموا أنَّكِ تحت حماية حركة المساواة في اسطنبول، ولكِ علاقة بي، وضعوا خطَّةً جديدة».

انخفض صوت كمال، وضعف، كان الأمر كما لو كان يستعيد الأحداث التي وصفها، وشعر بألم شديد بسببها.

وقال: «عندما أحضرونا إلى هنا، أيقظوني أوَّلًا، لقد شرحوا كل هذا، وقالوا إنهم سيطبِّقون نفس الإجراءات عليكِ، وأن الاختبارات التي سيجرونها ستقتلك أيضًا على الأرجح، ويجب أن يعرفوا مكان البحث؛ حتى يتمكَّنوا من نسخ هذه الميزة دون إلحاق الأذى بكِ، أخبروني أن أخترق عقلك، وأن أجمع معلومات من ذكرياتك، إذا كنت أرغب في إنقاذ حياتك، إنهم يريدون معرفة ما إذا كنتِ خالدة منذ ولادتك، وهل تعرَّضتِ لمادة كيميائية، هل أنتِ نتاج تجربة، هل تستخدمين دواءً خاصًّا، ليس لديهم فكرة أنك من كوكب آخر!».

تمتمت عائشة، قائلة: «هل هي سلالتي؟»، واندفعت عيناها نحو الأشجار الخيالية البعيدة، وكأنها تنظر إلى شخص هناك لا يستطيع كمال رؤيته، كانت تشعر بركلات طفل في بطنها لم يَعُد هناك، كان هناك ألم في بطنها، تومض في عقلها الصور المذهولة للرجل والمرأة والطفل، الذين كانت أجسادهم محترقة تمامًا، والتي أخبرها كمال عنها.

وقالت: «واحد من دمي، روحي... يا لها من فظائع... لم أعرفه هو وعائلته، لو كنتُ أعرفه، لكنتُ عرفتُ ما حدث لهم، لقد أنجَبتُ العديد من الأطفال، وأبناؤهم وبناتهم في حياتي منذ ما يقرب من ألف عام... كانت اللحظات التي حمَلتُ فيها أطفالي بين ذراعي للمرة الأولى أفضل لحظات حياتي، ولم يمنحني أيُّ شيء آخر تلك السعادة، أظلُّ على اتصال بمعظمهم، وأحميهم بقدر ما أستطيع، ولكن كان هناك أيضًا مَن انفصل عني، كانوا يرون أن الصفات الخارقة التي ورثوها

تُعَـدُّ نوعًـا مـن اللعنـة، ومرضًـا سـيئًا، لم يكـن أيٌّ منهـم خالِـدًا مثـلي، ومـع ذلـك فهـم يتقدَّمـون في العمـر بشـكل أبطـأ بكثـير مـن الأشـخاص العاديـين، وبعضهـم يعيـش مئـات السـنين، غالبًـا مـا يضطـرُّون إلى تـرك أحبائهـم وبـدء حيـاة جديـدة بهويـة مختلفـة حتـى لا يتِـمَّ الكشـف عـن أسرارهـم، كان مـن الصعـب عـلى البعـض أن يعيـش مثـل هـذه الحيـاة، لقـد ألقـوا باللـوم عـليَّ، بسـبب هـذا العـبء الـذي ألقيتـه عـلى أكتافهـم... لا بُـدَّ أنـه مـن نسـل أحـد الأشـخاص الذيـن فقـدتُ أثرهـم».

هـزَّ كـمال رأسـه، قائـلًا: «أنـا آسـف للغايـة»، وأراد أن يمـدَّ يـده إلى نيشـه ويعانقهـا ليُخفِّـف عنهـا، لكنـه كبـح جـماح نفسـه، وبعـد صمـت قصـير وحزيـن تابـع قصتـه، قائـلًا:

«لم أصـدِّق مـا قالتـه السـيدة جـول منـذ البدايـة، لقـد وجدتـه هذيانًـا، أن لديـكِ صفـات خارقـة، وأنـكِ لا تكبريـن عـلى الإطـلاق، بـدا لي وكأنـه قصـة خياليـة، أنـا أعـرف نيشـه، وقلـت لهـا إن مـا تقولـه كان سـخيفًا، لم يكـن لـديَّ أي خيـار، وفعلـتُ مـا طلبـوه منـي، لم أسـتطع تحمُّـل إيذائهـم لـكِ، الآن أعـرف مَـن أنـتِ، ومـاذا يمكنـك أن تفعلـين، وجـين آرياتـان، أحيانًـا كنـتُ سـليمان باشـا، وأحيانًـا الحـارس حسـني، وأحيانًـا كنـتُ أراكِ مـن خـلال عيـون أصدقائـك المولويِّـين، وأحيانًـا بختيـار الصغـير... وسـافرتُ معـكِ في تلـك المركبـة الفضائيـة، وأصبحـتُ إيفـا، وشـاهدتُ النجـوم بجـوارك، إذا اسـتمعتُ إلى قصتـك فقـط، فربمـا لـن أصدِّقهـا، لكننـي عشـتُ معـكِ كل ثانيـة! لقـد عوَّضـتُ مـا كان ينقـص في ذكرياتـك بمـا قرأتـه وشـاهدته عـن تلـك الفـترة، وعندمـا رأيـت الصـداع العنقـودي يختلـط بذكرياتـك، ويصـل إليـكِ أخـيرًا، لم أسـتطع المـضيَّ قُدُمًا، ولم أسـتطع التوقُّـف عـن فعـل أي شيء لأننـي شـاهدتكِ تعانـين، لقـد علمـتُ بالفعـل مـا أحتـاج إلى معرفتـه!».

بَكَت عائشة بخوف، قائلة: «لا يمكنك إخبارهم بهذا!»، يجب علينا حماية هذا السِّرِّ منهم! كان هناك سبب لكوني عِشتُ مع منظمات سرية طوال حياتي... من عصابة خليل إيفي إلى حركة المساواة، كنتُ دائمًا جزءًا من المجتمعات السرية في كل فترة من التاريخ، في البداية كان الأمر أكثرَ لحماية نفسي، لكنني أصبحتُ أكافح من أجل أحلام أخرى لفترة طويلة! لجعل العالم أكثر ملائمة للعيش، ولمنع تكرار الأخطاء التي كانت موجودة من حيث أتيتُ، هنا! لقد ساعدتهم بقوتي، وأصبحوا حلفاء لي في هذه الحرب التي كان عليَّ خوضها، محاولة إنقاذ هذا الكوكب تجعلني أتحمَّل الأبدية!

ألم ترَ من أين أتيتَ يا كمال مُتنكِّرًا بزيٍّ بختيار؟ ألم تشهد الوحدة واليأس هناك بأمِّ عينيك؟ تعرَّفتُ على جمال ورائحة وسعادة الطفل عندما أتيتُ إلى هنا فقط، هل تريد عالَمًا لا يوجد فيه ابتسامة طفل، ولا تذوق هذه السعادة؟ عالَمٌ لا يشيخ فيه أحد، ويوجد فيه نفس الأشخاص إلى الأبد؟ من أجل حماية حياتهم الأبدية، لم يتمرَّد أحد على أي قسوة... وفقَدَت كل المشاعر معناها بمرور الوقت... هل يمكنك أن تتغاضى عن حدوث هذه الأشياء؟ يا له من نظام استبداديٍّ نعيش فيه الآن، هل يمكنك تحمُّل فكرة أن هذا لن يتغير أبدًا؟ على مرِّ التاريخ، رأيتُ فظائع عظيمة، لقد شاهدتُ القويَّ يضطهد الضعيف بوحشية، إبان الثورة الفرنسية حفرتُ الخنادق مع الناس في باريس، وكنتُ في صفوف القوى القومية في حرب الاستقلال، وجاء اليوم الذي أنقذتُ فيه مئات السوريين من المذبحة، كل أولئك الذين ارتكبوا هذه الفظائع هُزِموا بمرور الوقت، والأجيال الجديدة صحَّحَت أخطاءهم، وطهَّرَت العالم من الكراهية، حتى تَلوَّث مرة أخرى، إذا تمَّ إصلاح العالم كما هو اليوم، وإذا أصبح الظالمون اليوم خالدين، فلن يكون هناك أمل للبشرية».

هزَّت عائشة رأسها بقوة، وقالت:

«لا أستطيع فِعلَ هذا، إذا كانوا سيقتلونني إذا لم أفعل، فقد عِشتُ بالفعل لفترة طويلة، لا ترضى بهذا أيضًا يا كمال، لا تُخبِرْهم بسرِّي، لقد وقعتُ حقًّا في حب عددٍ قليل جدًّا من الأشخاص على مَرِّ القرون، أنتَ واحِدٌ منهم... لقد أخرجتك من حركة المساواة في اسطنبول لأن مشاعرنا تجاه بعضنا البعض كانت تؤذي كفاحي، وكانت تجعلني ضعيفة، لكن في داخلي كنتُ أحبُّكَ دائمًا، اشتقتُ إليك عندما كنتَ بعيدًا، الآن لا تجعلني أخسر المعركة التي خُضتُها طوال حياتي!».

سقط كمال على ركبتيه في حالة من اليأس، لم يكن لديه خيار سوى قبول ما سيحدث، بعد كلمات المرأة التي أحبَّها، ولم يخبرها أن السيدة جول وعَدَت ليس فقط بإنقاذ حياة نيشه مقابل هذه الأسرار، بل إنها ستجري أيضًا عملية جراحية لإنقاذه من الصداع العنقودي، وعلى الرغم من أنه سيتحمَّل ألمًا غير مسبوق لبقية حياته، إلا أنه لم يستطع أن يخذل نيشه، كانت الشابَّةُ مُحِقَّةً فيما قالته، لم يستطع فعل ذلك للعالم، كان بإمكانه أن يتحمَّل كل أنواع المعاناة، لكنه لا يستطيع أن يتعايش مع الكراهية تجاه الشخص الذي سيراه عندما ينظر في المرآة.

قال بحزم: «حسنًا، فليكُن كما قُلتِ... أنا دائمًا بجانبك، وفي هذه الحالة اسمحي لي أن أبقى في ذهنك حتى اللحظة الأخيرة، مهما كانت الاختبارات التي سيُجرونها لَكِ، فلنتعرَّض لها معًا، سوف يضرُّونكِ، وسوف يؤذونكِ، من الصعب أن تجدي شخصًا في هذا العالم يعرف الألم مثلي، واعتاد عليه مثلي، إذا كنتُ بجانبكِ، فسأساعدك على التحمُّل حتى آخر لحظة، ما سأخسره هو فقط عُمرٌ فانٍ، معظمه مليء بالمعاناة... فهل أنتِ مستعدَّة لتفقدي الأبدية؟».

ابتسَمَت عائشة بامتنان، قائلة: «لقد كنتُ مُستعدَّةً لهذا منذ فترة طويلة»، ومشت بجانب كمال، وأخذت يديه بين يديها، وقالت: «أنت الشخص الوحيد الذي أريد قضاء لحظاتي الأخيرة معه، وكنتَ دائمًا كذلك».

لم يصدِّق كمال ما سمعه، لكنه كان يرغب في تصديقه، بشدَّة، ونظر إليها بكثير من المشاعر المختلفة، التي تتصارع مع بعضها البعض، وقال:

«اعتقدتُ أنكِ كنتِ في حالة حب مع أحد قادة حركة المساواة في اسطنبول، هذا ما قُلتِه لي... وأرَدتِ مني أن نفترق...».

تنهَّدَت عائشة، وعيناها تتألَّقان بالحب، قائلة: «كنتُ بحاجة إلى عُذرٍ لإبعادك عني، لكنني سعيدة لأنك معي الآن، في ذلك اليوم لم يكن لديَّ الشجاعة لكشف أسراري لك، واعتقدتُ أنه إذا عرفتَ الحقيقة عني، فسوف تخاف مني، ولن تبقى معي، كان هناك حتى بعض أطفالي الذين لم يتمكَّنوا من حملها، لكن الآن أنت تعرف، وما زلت معي... لم أعُد خائفة».

وذهَبَت، وقبَّلَت شفتي كمال قُبلةً طويلة، في هذه اللحظة عندما انتهى كفاحها الذي دام قرونًا، منحها ذلك اطمئنانًا لكي تستطيع أن تُعبِّر عمَّا بداخلها بحُرِّيَّة.

بعد بضع ثوانٍ، اهتزَّت الأرض كما لو كان هناك زلزال، ومالت الأشجار حتى كادت أن تلمس الأرض، وارتفعت مرة أخرى، وتحوَّلَت الغيوم إلى اللون الأحمر، وأصبحت السماء ضبابيَّةً، وثارت ضوضاء كبيرة في المكان حولهما، كما لو كان جَبلٌ يتساقط، وفقد كمال وعائشة توازنهما، وسقطا على الأرض، وعانق كل منهما الآخر بقوة حتى لا يتمَّ إلقاؤهما في أماكن مختلفة.

كانـت الهـزة الثانيـة قويـة بمقـدار ضِعـف الهـزة الأولى عـلى الأقـل، وعندمـا هـدأت هـذه المـرة، لم يَعُـد هنـاك المزيـد مـن الأشـجار حولهـما، لم يكونـا في غابـة، كانـا عـلى مـتن مكـوك عـلى شـكل قلـم كان يغـرق في البحـر، وكانـت الأمـواج تلعـق أقدامهـما، وكانـا يشـعرون بالـبرد القـارس للميـاه، كان المكـوك يغـرق في القـاع لحظـة بلحظـة، وكانـت شـاهميران، التـي انتـشرت أشرعتهـا مـن بعيـد، تقـترب، وهيمانـالي سـليمان باشـا يقـف في مقدمـة السـفينة الرائعـة، وينظـر إليهـما بمنظـاره.

أخذتهـم الهـزة الثالثـة إلى اللحظـة التـي انفصلـت فيهـا بـاز194 عـن والدهـا، وشـعرت عائشـة بـألم عميـق في قلبهـا، وهـي تراقـب شبابها يبـكي بـلا حـول ولا قـوة، ويهـرب إلى المكـوك، واسـتعادت المخـاوف والحـزن اللذيـن مـلآ قلبهـا في ذلـك اليـوم، لقـد أرادت الفتـاة أن تلتفـت، وتلقـي نظـرة أخـيرة عـلى والدهـا، لتحصـل عـلى لحظـة أخـرى لا تُنـسى في الحيـاة، وصرخـت بـكل قوتهـا لتفعـل ذلـك، ولكـن الفتـاة لم تُـدِر رأسـها، كان البـاب مُغلَقًـا خلفهـا.

بعـد الهـزَّة الرابعـة، وجَـدَا نفسـيهما في الغابـة، في حالـة ضجيـج، كان خليـل إيفـي ورجالـه يتقاتلـون مـع الفرسـان المحيطـين بهـم، وكانـت السـيوف تـضرب الـدروع، والمسدسـات تنفجـر بصـوت عـالٍ، والصيحـات تُلقـى، وكانـت أشـلاء الجسـم الملطَّخـة بالدمـاء تتطايـر في الهـواء، وأخطأت رصاصـة هدفهـا، ومـرَّت عـبر كـمال مثـل شـبح، واسـتقرَّت في الشـجرة الموجـودة خلفـه، وفحـص كـمال معدتـه، ولم يشـعر بـأي ألم.

وحدثـت الهـزَّة الخامسـة عندمـا أقلـع المكـوك الـذي عـادا إليـه، وعندمـا هـدأت الأمـور، هـذه المـرة، فتحـا أعينهـما عـلى مـلاءات بيضـاء، داخـل قفـص زجاجـي عـلى شـكل قُبَّـة، كانـا مسـتلقين عـلى أَسِرَّة تشـبه المحفَّـات، ويرتديـان عبـاءات المستشـفى البيضـاء مثـل أغطيـة الأسرة، وكانـا حافيَـيْ القدمـين، وكأنهـما عـلى وشـك أن يخضعـا لعمليـة جراحيـة، تـمَّ

توصيـل الأسلاك الصفـراء والسـوداء التـي تخـرج مـن الأجهـزة الإلكترونيـة الموضوعـة عـلى جباههـم، بجهـاز كمبيوتـر كبـير موجـود بـين أَسِرَّتهـم، وفـوق القُبَّـة، عُلِّقَـت كامـيرا ضخمـة، وتـمَّ توجيـه عدسـتها إليهـما.

سُـمعَ دوي انفجـار، واهتـزَّت القبـة الزجاجيـة مـرة أخـرى، وفُتِـح ثَقـبٌ كبـير في أحـد جوانـب القُبَّـة، وتناثَـرَت قطـع الزجـاج في كل الاتجاهـات، دخـل روبـوت إيـه آر18 أوَّلًا بنظراتـه الحـادة، وكان قـد حفـر وجـه إنسـان عـلى وجهـه، وبالنظـر إلى شـظايا الزجـاج الموجـودة عليـه، وإلى قبضتـه المشـدودة، كان هـو الـذي ثقـب الجـدار، ثـم ظهـرت أوقيانـوس، بشـكل مختلـف كثـيرًا عـن مظهرهـا المعتـاد، مرتَديـةً زِيَّ بدلـة تمويـه يشـبه الـزي الموحـد، وقنـاع غـاز يهتـزُّ حـول رقبتهـا، وكان هنـاك تعبـير قَلِـقٌ عـلى وجههـا، وأخَـذَت نفَسًـا عميقًـا عندمـا رأت أن كـمال والمـرأة التـي بجانبـه، اللذيـن كانـا يحـاولان النهـوض مـن حيـث كانـا مسـتلقيَيْن، في حـيرة، ويحـاولان تفكيـك الأجهـزة الإلكترونيـة الموجـودة في رأسـيهما، بخـير.

وقالـت وهـي تضـع يديهـا عـلى خصرهـا، «ألم أخـبرك يـا سـيد كـمال، لا يمكنـك العيـش بـدوني!»، وهـزَّت رأسـها مـن الأمـام والخلـف بشـكلٍ سـاخر.

«هـذه المـرة، لـن تذهـب إلى الجانـب الآخـر بمُفـرَدِكَ! لا أعـرف مَـن هـذه الفتـاة الجميلـة، لكـنَّ كليكـما مَديـنٌ لي بحياتـه، لا تقلـق، سـأمنحك خصـمًا جماعيًّـا عـلى هـذا! لكـن إجبـاري عـلى مغـادرة بيتـي الجميـل سـيكون مُكلِّفًـا!».

21

توقَّف كمال ووضع رأسه في يديه، بينما كان يمسح العلامات المعدنية على وجهه بقطعة قماش مُبلَّلة، وأغمض عينيه، وفرك صدغيه بأطراف أصابعه، بلُطفٍ، لم يكن قد تجاوز بَعدُ الرحلة التي قام بها في ذهن نيشه، وإرهاق التحوُّل من شخصية لأخرى، لقد كان شيئا مُرهِقًا أن يعيش تجربة الحب العاطفي لسليمان باشا، وعدم اكتمال الحارس حسني، والمفاجأة الطفولية لبختيار، والعديد من التجارب المختلفة واحدة تلو الأخرى، أمام عينيه، بَدَت الأشرعة التي هَبَّت عليها الرياح في سفينة عثمانية متشابكةً مع سفينة فضاء أنيقة تقلع من كوكب آخر، وصدمه بشكل كبير ماضي المرأة التي أعطاها قلبه، وما علمه عن الكون، من ناحية تمَّ سَحقُه بسبب ثقل الأسرار التي شهدها، ومن ناحية أخرى كان في أقصى درجات السعادة بابتهاج معرفة أن نيشه أحبَّته، بعد سنواتٍ من الشوق، نظرة الشابة إليه بحُبٍّ وهي تستعد لمواجهة الموت، تغلَّبَت على كل شيء آخر، وجعلته

ينسى كل المعاناة، وأصبحت الحقيقةَ الوحيدةَ في الكون، وبعد بضع دقائق، تلاشى عقله تدريجيًّا، وتمكَّن من التركيز على الوقت والمكان الذي كان فيه.

كانت الأماكن التي أدخلوا فيها الأسلاك في جبهته وأصداغه حمراء ومتورِّمة، وكان يشعر بآلام خفيفة، لم يكن معه سوى أوقيانوس ومراد، قبل أن يفيق من الإغماء، قفزت نيشه من السرير بغضب، وخرجت من القُبَّة، لكنها في البداية قبَّلَته طويلًا على شفتيه، وقالت إنها ستعود وتنتظر هنا، وعندما تذكَّر اللحظات الأخيرة التي عاشوها في الكون الافتراضي المولود من ذكرياتهما، نما الغضب بداخله، لقد كاد أن يفقد المرأة التي كان يحبها، وشاهدها تموت تحت التعذيب أمام عينيه، حتى لقد كان التفكير في ذلك أمرًا لا يطاق.

التفت إلى الفتاة التي تقف بجانبه بامتنان، وسألها، قائلًا: «كيف جِئتِ إلى هنا؟ بحَقِّ الله كيف وجدتِنا؟».

ابتسَمَت أوقيانوس قائلة: «لم يكن الأمر سهلًا»، ورفعت ذراعها الروبوتية، وأشارت إلى مقاتلي حركة المساواة في اسطنبول الذين يقفون في حراسة بعيدة، «لقد اهتمُّوا هُم بالجزء الصعب، عندما فحَصتُ الإبرة التي تركتها لي، لاحظت وجود روبوتات دقيقة في السائل الموجود بالداخل، كانت صغيرة جدًّا لدرجة أن خبير الذكاء الاصطناعي العادي يمكنه أن يغفل عنها بسهولة، لقد كان كل منها عملًا فنِّيًّا، لكنك تعلم، أنا أعرف الروبوتات أفضل من البشر! في البداية، اعتَقدتُ أن سِرَّ الدواء هو هؤلاء الأوغاد، وقلتُ لا بُدَّ أنهم يمنعون الألم، لكن ما رأيك فيَّ عندما قمتُ بملاحظة سلوكهم؟ يتِمُّ تنشيط هؤلاء المتشرِّدين الصغار بواسطة دم الإنسان، ويرسلون إشارات إلى أماكن مُعيَّنة! وإذا قلتُ ذلك بلُغَةٍ واضحة! فأنت تحقن نفسك بجهاز مراقبة، مع الدواء».

تجهَّم كمال، قائلًا: «السيدة جول...». كان قلبه مليئًا بالاستياء.

«كانت تعلم أنني سأدمن هذه الإبر، لقد استخدَمَت يأسي، الحقيرة... هذا يعني أنها كانت قادرة على رؤية مكاني، عندما تجمَّعَت هذه الأشياء المزعجة في دمي، لقد فتَّشَني مُسَلَّحو حركة المساواة في اسطنبول بالأجهزة التي تكشف عن المرسِلات، فكيف لم يلاحظوا ذلك؟».

جلَسَت أوقيانوس بجانب الرجل، ووضعت يدها على كتفه، ونظرت إلى الكمبيوتر الذي كان كمال ونيشه متَّصِلَيْن به في وقت سابق بفضول واهتمام، لقد كانت أعجوبة تكنولوچية كاملة، كانت ترغب في أن تفتحها وتفحصها قبل أن تغادر هذا المكان، كانت هذه المنشأة بمثابة مُتنَزَّهٍ ترفيهي لأوقيانوس، ولكن مع وجود الكثير من الأشخاص الذين يتجوَّلون حولها، شعرت بمزيد من الاطمئنان داخل القُبَّة، في الأيام القليلة الماضية، تعامَلَت مع غرباء أكثر ممَّا التقت بهم في حياتها، ولم تَعُد قادرة على تحمُّل المزيد.

وقالت: «السيدة جول هذه امرأة مثل الجن! فهذه الروبوتات التي تتجوَّل في دمك لا يمكن اكتشافها بالأجهزة التي نعرفها، إنها تتحرَّك باستمرار، ولا ترسل إشارات باستمرار، وتغلق نفسها مؤقَّتًا عندما يكتشف جهاز الإرسال إشارة جهاز الاتصال، نحن نتحدث عن ذكاء اصطناعي ماكر مُبَرمَج للعب الغُمَّيضة هنا! بالطبع، كانت صديقتك الذكية سريعة في شَمِّ رائحة فخٍّ في هذا! بعد الاختطاف، قمتُ بنقل الخبر إلى بعض الناس في المدينة، مِمَّن يدينون لي بالمال، وبفضل مُهرِّبٍ يمارس الأعمال التجارية في جميع أنحاء اسطنبول، اتَّصلتُ بحركة المساواة في اسطنبول، وأخبرتهم عن هذه الروبوتات الدقيقة، وهم وجدوا طريقة لالتقاط الإشارات المنبعثة من اللعنات المنتشرة في دمك، لسنوات، تمكَّنوا من الاختباء من جميع الجواسيس

التقنيين، ورجال شرطة الذكاء الاصطناعي في جمهورية المدينة، ولديهم خبراء تقنيون رائعون».

ضحك كمال، قائلًا: «لا يوجد أفضل منكِ... أنا لا أصدِّق ذلك».

قالت أوقيانوس: «لا أريد أن أفسد خيالاتك، يا عزيزي، لكن هناك أفضل مني، هؤلاء الرجال كانوا يقاتلون دولة بأكملها لسنوات، إنهم لا يعملون في مستودع بمؤخِّرةٍ مكسورة مثلي!».

هزَّ كمال رأسه، قائلًا: «أنتِ دائمًا رقم واحد بالنسبة لي... من جميع النواحي!».

يمكنه أن يتخيَّل المِحَن التي تحمَّلَتها أوقيانوس، التي لا تحب التحدُّث إلى الغرباء عادة، ولا تغادر منزلها أبدًا، للعثور عليه، لا بُدَّ أن التحدث باستمرار إلى شخص ما وإخباره بمتاعبها، كان بالنسبة لديها أصعب من شَنِّ هجوم مسلح على هذا المركز، وأراد أن يعانق الفتاة بقوة، لكنه كبح جماح نفسه، مدركًا أنه كان يتحوَّل إلى سمكة خرجت من الماء في مثل هذه الإيماءات العاطفية.

وعندما لاحظ أن إيه آر18 كان يصغي باهتمام لهما، التفت إلى الروبوت وابتسم، قائلًا:

«لا يوجد غيرة، أنت أروع الروبوتات! عندما أعود إلى المنزل، سأشتري لك أفضل زيتٍ آليٍّ عالي الجودة كهدية، ومع ذلك أنا مدين بحياتي لكليكما!».

ردَّ مراد بإيماءة متواضعة لهذه الجُمَل، والتي افترض نظام التشغيل أنها نوع من الشُّكر له، ثم رفع ذراعه الفولاذية المقوَّاة، ووضع يده على صدره، ونطق بالكلمة التي سجَّلَتها أوقيانوس في ذاكرته الشهر الماضي.

«شكرًا».

قالت أوقيانوس: «هرعنا إليك بعد تحديد موقِعك، بصراحة، لقد جاؤوا في الواقع من أجل نيشه، لم يهتمُّوا بك كثيراً؛ لهذا السبب تابَعتُهم مع مراد، لقد ألححتُ عليهم من أجل هذا، ووافقوا أخيراً، كان يجب على شخص ما أن ينقذك أيضًا!».

قال الشاب بصدق: «ديوني لك تتزايد، إذا لم تَصِلي في الوقت المُحدَّد، ربما لم نكن لنخرج من هنا أحياء، لم يَكُن لدى السيدة جول خُطَطٌ جيِّدة جدًّا لنا...».

غمَزَت أوقيانوس، قائلة: «سأضيف ذلك إلى حسابها»، ثم تحوَّل التعبير الساخر الموجود على وجهها إلى جدِّيَّة، وانخفض صوتها، وأصبح هادئًا.

وقالت: «اعتقدتُ أنني قد فقدتك حقًّا هذه المرة، يا كمال، كان ذلك صعبًا جدًّا بالنسبة لي، لقد اعتقدتُ أنه لم يتبقَّ أحد في العالم، يمكنني التحدُّث إليه دون أن يتضايق قلبي، كأنني عِشتُ تلك النار التي فقَدتُ فيها عائلتي، مرَّة أخرى، لم أكن أعرف ماذا أفعل عندما رأيتُكَ مُستلقيًا داخل القُبَّة الزجاجية بلا حراك، قبل قليل، كنتُ خائفة جدًّا».

مدَّ الشاب يده، وداعب شعر أوقيانوس برِقَّة، هشاشة الفتاة التي قضت طفولتها بأكملها بعيدًا عن الناس، بين أربعة جدران، تحوَّلَت إلى وجعٍ في قلب كمال، تمامًا مثل كل مرة أدرك فيها ذلك.

وقال بصوتٍ مطمئن: «لا تقلقي، انتهى الأمر، أنا معكِ، وسأبقى معكِ».

نظر إلى الكاميرا المُعلَّقة من أعلى القُبَّة، وعلى الرغم من أنه كان يعلم أنه لم يكن الشخص الذي يشاهد اللقطات التي صوَّرها الآن، إلا أنه كان من غير المريح أن يواجههم.

وسـأل، وهـو في حالـة قلـقٍ متزايـد: «عندمـا هاجَمَـت حركـة المسـاواة هـذا المـكان، ألم يتدخَّـل جنـود جمهوريـة مدينـة اسـطنبول؟ لمـاذا لم نهـرب بَعـدُ؟ إنهـا مسـألة وقـت فقـط قبـل أن يأتـوا، ويمسـكوا بنـا...».

سـألت أوقيانـوس، وهـي عابسـة، قائلـة: «أنـت لا تعـرف أيـن نحـن، أليـس كذلـك؟».

أجابهـا قائـلًا: «لا، بصراحـة لا أعـرف، كنـتُ في نـوم عميـق عندمـا أحـضروني إلى هنـا».

فقالـت: «أَرِهِ يـا مـراد، دَعْ السَّـيد كـمال يفهـم لمـاذا لا تمثِّـل جمهوريـة مدينـة اسـطنبول مشـكلة هنـا «.

أخـذ إيـه آر18 خطوتـين للأمـام ببـطء، ومـدَّ ذراعـه، وخفـض الشاشـة بالقـرب مـن مرفقـه، وقـام بتوصيـل كامـيرا الطائـرة بـدون طيـار، والتـي اسـتمرَّت في المراقبـة في السـماء، وعكـس الصـورة عـلى الشاشـة.

لم يسـتطع كـمال معرفـة مـا كان ينظـر إليـه في البدايـة، لم يكـن هنـاك سـوى سـحابة حمـراء مـن الغبـار عـلى الشاشـة بحجـم حفنـة صغـيرة، ثـم لاحـظ المبنـى الـذي يشـبه المسـتودع تحـت السـحابة، بصعوبـة بالغـة، لم تكـن هنـاك مبـانٍ أو مركبـات أخـرى في المنطقـة المجـاورة، يمكـن رؤيـة السـيارات «الـبر جويـة» الخاصـة بحركـة المسـاواة في اسـطنبول، الموضوعـة عـلى الأرض فقـط، وكان المسـلَّحون الذيـن سـاروا بجانـب المروحيـات يرتـدون بـدلات واقيـة، وأقنعـة أكسـچين مـن الـرأس إلى القدمـين، كانـت الصـورة المشوَّشـة تظهـر وتختفـي.

وقال محاولًا فهم ما يجري: «ما الذي أبحث عنه الآن؟».

وأوضَحَـت أوقيانـوس، قائلـة: «هـذه هـي المنطقـة الأكـثر تـضرُّرًا مـن المُفاعـل النـووي الـذي بـه ثَقـبٌ في المؤخِّـرة»، وقامـت بعمـل بالـون كبـير مـن اللبـان الـذي وضعتـه للتَّـوِّ في فمهـا، وفجَّرَتـه بصـوت عـالٍ، وتحـوَّل

شَعرُها، الذي كان نصفه أشقر، ونصفه أخضر، إلى اللون الأرجواني فجأة.

«أي عاقل لا يقترب من هذه المنطقة إلا إذا كان متعطِّشًا للموت، السيدة جول في ذروة المرض النفسي، والمنشأة التي بنتها لصحة الناس هي في أكثر الأماكن ضررًا بالصحة...».

«لم تكن المرأة تبالغ عندما قالت إنني أهتم بالخصوصية».

كانت أوقيانوس تبصق على الأرض، كما لو أنها تريد مطاردة الشيطان، وكانت متجهِّمة.

«الطابق العلوي هو مستودع مهجور مُغطًّى فقط بالنفايات المُشِعَّة، ربما لم تكن جمهورية المدينة على علم بوجود مثل هذه المنشأة هنا، الخَوَنة خافوا على أنفسهم، لم يأتوا إلى هنا، يجب ألَّا تسمح السيدة جول لأي شخص أن يدخل إلى مكانها إطلاقًا، بخلاف رجال الأعمال الأثرياء؛ حتى لا تصادر الدولة اختراعاتها، كانت المرأة المجنونة تُؤمِّن المنشأة برجالها وروبوتاتها».

سأل كمال بفضول، قائلًا: «هل السيدة جول على قيد الحياة؟»، لم يكن متأكِّدًا من الإجابة التي يريد الحصول عليها، كان هناك حُرَّاسٌ شخصيون مُدرَّعون مُلقَين، وهم فاقدون للوعي، وروبوتات الأمن كانت مُحطَّمة، والجدران مُلطَّخة بالدماء، ونوافذ المكاتب تحطَّمَت، لكن لم يكن هناك أحد يعرفه.

ردَّت الفتاة، وهي تهزُّ كتفها بطريقة آلية، وهي متذمِّرة، قائلة: «مع الأسف، نعم، تبيَّن أن رجال حركة المساواة في اسطنبول رقيقو القلب. بعد أن جعلوا الحرَّاس يصابون بالإغماء، لم يلمسوا بقيَّة الموظفين والأطبَّاء والسيدة جول الشهيرة، على حَدِّ عِلمي، فإنهم يستجوبون الآن نيشه صديقتك، إنها امرأة صارمة جدًّا! بمجرد أن

فصلوا الكابلات عن رأسها، قفزت على قدميها بغضب، وقبل أن تستردَّ وعيُكَ، كانت المرأة تتحكَّم في كل شيء».

في تلك اللحظة، ظهرت صورة ثلاثية الأبعاد يبلغ طولها أربعة أشخاص في منتصف المنشأة، حيث كان المسلحون يوجهون مسدسات الطاقة الخاصة بهم بشكل لا إرادي في هذا الاتجاه، وعندما أدركوا أنها ليست أكثر من صورة إعلانية ثلاثية الأبعاد إعلانية، اطمأنوا.

ظهرت الصورة المجسَّمة لرَجُلٍ وسيم وامرأة جميلة، يرتديان ملابس أنيقة للغاية كما لو كانا ذاهبَيْن إلى ملهى ليلي اجتماعي، كان لباس المرأة الذي يصل إلى الكاحل، وربطة عنق الرجل بنفس درجة اللون الأحمر الغامق، وكانت أعينهما تتألَّق، وكأنهما يعيشان أسعد لحظة في حياتهما، كان كلاهما يقول جملة، ويترك الآخر يتحدث.

«ألا تريد أن تعيش إلى الأبد؟ هل التقدُّم في السِّنِّ أمرٌ لا مفرَّ منه؟ هل كل خبرات الحياة القيمة التي تراكَمَت لديك يجب أن تضيع بموتك؟ ألا تحب أن تعرف أحفاد أولادك، والأجيال القادمة؟ فكِّر في ذلك! كم سيكون رائعًا أن نرى كيف سيكون شكل العالم بعد 1000 عام! لكن ألا يغلب عليك الفضول وتتساءل ماذا سيحدث بعد 10000 سنة؟ تعمل ألماس للخدمات الصحية ليلًا ونهارًا لمساعدتك على تحقيق هذا الحلم، وأكثر من ذلك بكثير، نرحِّب بتبرعاتكم لمشروع جلجامش، دعونا نوحِّد قوانا لقتل الموت!».

اختفت الصورة المجسَّمة فجأة كما جاءت، ربما كان يعمل في ساعات معينة، بهدف رفع الروح المعنوية وتحفيز الباحثين الموجودين في المنشأة، ووفقًا لحديثه عن التبرُّعات والدعم، فقد ناشد العملاء الأثرياء الذين يزورون المنشأة.

تذمَّرَت أوقيانوس وهي غاضبة، وقالت: «لا يكفي أن يكون لديك كل ما يريده هؤلاء الأوغاد. الحيوانات تريد الخلود أيضًا».

وبعد التفكير لفترة، زمّت شفتيها، قائلة:

«ومع ذلك، لأكُنْ صادقة، أوَدُّ أن أرى ما سيحدث في هذا العالم بعد عشرات الآلاف من السنين من الآن، لا يوجد شيء مُغرٍ في ذلك... أعني، إذا كان بإمكان الجميع، القيام بذلك، وليس فقط لكي يصبحون أثرياء...».

مدَّ كمال يده، وأمسك بكتفيها، وقال بحنان: «رأيتُ بعض الخيارات المستقبلية، وبالنظر إلى ما سوف نتخلّى عنه للحياة الأبدية، فإنه بالتأكيد لا يستحق كل هذا العناء، تأكَّدي من أن نكون بشرًا زائلين أفضلُ بكثير لنا نحن البشر».

هزَّت أوقيانوس كتفيها، قائلة: «إذا كنتَ تقول ذلك أيها الرئيس»، وغمَزَت بتعبيرٍ مَرِحٍ، وقالت: «في الواقع، إنني لم أستطع مواكبة هذا العالم خلال عشرة آلاف سنة!».

وبعد أن نظرت حولها في صمت لبعض الوقت، سألت بصوت منخفض، عندما رأت أنه لا أحد قادم، قائلة:

«إذن ماذا حدث بينك وبين تلك المشهورة نيشه؟ ماذا حدث عندما اندمجت عقولكما؟ لم أتعرَّف عليها عندما رأيتها لأول مرة، لكن عندما أخبرتني، أدركتُ كل شيء، لقد كانت حقًّا امرأة رائعة، ويجب ألّا أتعجَّب أنها كانت تجعل صديقي يشغَفُ حُبًّا بها هكذا!».

ابتسم كمال بهدوء، ولم يستطع إخبار أي شخص بالحقيقة حول نيشه، ولم يكن باستطاعته أن يقول كلمة واحدة حتى لأفضل صديق له، يجب أن يظلَّ كوكب مافرون وجين آرياتان سرًّا إلى الأبد، كان عليه أن يفعل ذلك من أجل سلامة المرأة التي يحبها، وسلامة العالم أيضًا.

وقال بهدوء: «إنها قصة طويلة، ربما سأخبركِ بها يومًا ما، لكن ليس الآن... أنا مُتعَبٌ جدًّا الآن، أعتقد أننا حللنا المشاكل الموجودة

بيننـا، بطريقـة مـا، وبعـد ذلـك، لم يمنعنـا شيء مـن التواجُـد معًـا، ربمـا سـأكون سـعيدًا في النهايـة أيضًـا... هـل تعلمـين، إننـي كلَّـما فكَّـرتُ في أن نيشـه تحبنـي أيضًـا، يفقـد حتـى الصـداع العنقـودي أهمِّيَّتَـه بالنسـبة لي، لقـد تحمَّلـتُ هـذا الألم لسـنوات، وسـوف أتحمَّلـه مـرَّةً أخـرى... لقـد حصلـتُ عـلى المـرأة التـي أحبَبتُهـا، وعُـدتُ إلى حركـة المسـاواة، ولـديَّ صديقـة رائعـة مثلـك، أنـا رجـل محظـوظ حقًّـا».

بينـما كانـت أوقيانـوس وكـمال يبتسـمان بحـبٍّ لبعضهـما البعـض، كان مـراد يحـدِّق غائبًـا في النقطـة التـي كانـت تظهـر فيهـا الصـورة المجسَّـمة للإعـلان، وتختفـى، كان يشـعر بانزعـاج غـير معـروف في نظـام التشـغيل، إذا كان الخلـود مُهـمًّا كـما يقـول الإعـلان، لـكان هـو محظوظًـا مـن هـذه الناحيـة، وكـما اسـتبدلت أوقيانـوس أجـزاءه المتعطِّلـة، وسـمحت لـه بمواصلـة الحيـاة مـع هيئـة جديـدة تمامًـا، بعـد أن وجدتـه في سـلَّة مهمـلات، حيـث قامـت بتجديـد أجزائـه القديمـة تمامًـا، وجعلتـه يسـتمر في الوجـود إلى أجـلٍ غـير مُسـمًّى، ويمكنـه أن يعيـش لآلاف السـنين، حتـى في شـكله الحـالي، ولكنـه يُفضِّـل لحظـة، حيـث يتـذوَّق الـدفء والحـب في أعـين أوقيانـوس وكـمال، وهـما ينظـران إلى بعضهـما البعـض، عـلى الأبديـة، كانـت مفارقـةً يصعـب فهمهـا، أن بعـض النـاس لا يسـتطيعون الاكتفـاء بمـا لديهـم، في حـين كان هنـاك الكثـير مـن الألـوان في حياتهـم، أنهـى هـذا الاسـتجواب عندمـا أدرك أن الحـرارة قـد اشـتدَّت في نظـام التشـغيل، وأن هـذا مـن شـأنه أن يشـكِّل خطـرًا عـلى برامجـه، في بعـض الأحيـان، يكـون عـدم السـؤال عـن الأشـياء، هـو السـبيل الوحيـد لتحمُّـل الحيـاة.

22

وبينـما كانـت نيشـه تسـير بسرعـة في الممـرِّ البـارد للمركـز الصحـي، تمنَّـت لـو لم يَفُـت الأوان، عـلى يمينها ويسـارها كان حـراس الأمـن الفاقدون للوعـي، ومقاتلـو حركـة المسـاواة في اسـطنبول الجرحـى، وقـد امتـلأت الجـدران بالثقـوب، وتحطَّمـت نوافـذ العديـد مـن الغـرف أو تشـقَّقَت، والروبوتـات المحطَّمـة في عينيهـا تصدمهـا مـن وقـت لآخـر، وكانـت هنـاك معركـة شرسـة، وبـدا أن حـراس المركـز لم يستسـلموا بسـهولة، احتماليـة أن السـيدة جـول تعرَّضَـت للـضرب الشـديد لدرجـة أنهـا لم تتمكَّـن مـن التحـدُّث في هـذا الاضطـراب، قـد أرعبتهـا، كان أحـد أفـراد حركـة المسـاواة في اسـطنبول قـد هاجـم منزلهـا، وقتـل رجالهـا العديـد مـن أعضـاء التنظيـم، وربمـا أراد المسـلَّحون إغراقهـا في ملعقـة مـن المـاء، كان عليهـا أن تلحـق بهـا قبـل أن يمسـها أي شـخص، كان عليهـا أن تعلـم مـا تعرفـه، وصـولًا إلى أدق التفاصيـل، بينـما لا يـزال هنـاك وقـت، مـع مَـن شـاركت سِرَّهـا، وأي إنسـان أخبرتـه عـن وجودهـا المفاجـئ، وإذا لـزم الأمـر، كان

عليها أن تُمزِّقَهم بالزردية، كان عليها أن تفعل ذلك حتى لا تنام خائفة كل ليلة، وحتى لا يشعر كلُّ مَن يعرفها بأنها تعرف حقيقته.

عند النقطة التي انقسم فيها الممرُّ، قابَلَتها واحدة من المسلَّحات طويلة القامة، كانت تعرفها جيِّدًا، اسمها تسنيم، أسلافها هاجروا إلى اسطنبول من الهند منذ أجيال، وتعرَّض شقيقها للاغتصاب من قِبَل أحد أثرياء المدينة عندما كان يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا فقط، وعندما قام أعضاء فاسدون من القضاء بالتستُّر على الحادث، انضمَّت إلى حركة المساواة في اسطنبول لمحاربة هذا النظام القذر، حتى عند الشروع في مثل هذه العملية، لم تتجاهل وضع النقطة الحمراء على جبهتها، وهو تقليدٌ شعبيٌّ، وعادةً كانت ترتدي «ساري» أخضر اللون مع تنُّورة أرجوانية وبلوزة صفراء، مع شالٍ مُتدلٍّ على كتفها، وهي بهذا الزِّيِّ المحلي تشير إلى أنها تشعر بالفخر بأصلها، لكنها الآن ترتدي درعًا معدنيًّا رقيقًا مقاوِمًا لمسدسات الطاقة، ونظرًا لأنها لا تستطيع التحدُّث باللغة التركية جيدًا، فقد وضعت مترجمًا من طراز نابوكو تحت شفتيها، سيترجم هذا الجهاز على الفور كل ما قُلتَه إلى اللغة التي تريدها، ويُقلِّد صوتك بنجاح كبير، والجهاز الذي بحجم الزر الذي تضعه في أذنك سيفعل الشيء نفسه مع ما سمعته، وعلى الرغم من أن نبرة الاتصال كانت ميكانيكيَّةً بعض الشيء، إلا أنه يمكنك التواصل بسهولة مع أي شخص لا تعرف لغته.

عند رؤية نيشه، أنزلت مسدس الطاقة، وابتسمت باحترام، قائلة:

«لحسن الحظ أنكِ بخير يا نيشه... نحن قَلِقون جدًّا عليكِ، قامت المنظمة بأكملها بالتمرُّد عندما سمعوا باختفائك، وإذا قلتُ إن المدينة قد اهتزَّت، فهذا صحيح...».

وعندما لاحَظَت آثار الأسلاك والكدمات الجديدة على وجهها، عبست، واضطرب صوتها، قائلة:

«آمل ألا يكونوا قد آذوكِ، إذا أساؤوا إليكِ، سأحاسب كل الأوغاد هنا!».

أومأت نيشه برأسها، قائلة:» أنا بخير، تسنيم، شكرًا لك، لقد وصلتِ في الوقت المحدد، ولم يتمكّنوا من لمسي، أنا أبحث عن هذه السيدة المقزِّزة المُسمَّاة السيدة جول، ولديَّ أسئلة سوف أطرحها عليها، قال الأصدقاء الذين قابلتهم للتو إنها احتُجِزَت في حجرة دراسة في نهاية هذا الممر، الممر ينقسم إلى قسمين، في أي اتجاه يجب أن أذهب؟».

قالت تسنيم ضمنًا: «هناك شخص آخر أقترح عليكِ التحدُّث إليه قبل تلك المرأة المجنونة». وأشارت بفوهة بندقيتها، إلى غرفة على بُعد أمتار قليلة.

«تحفَّظنا على المدير الإداري للمنشأة، إنه مرعوب ومُستعدٌّ لقول ما تطلبينه، السيدة جول مجنونة تمامًا، حتى لو عذَّبناها، فلن يكون من السهل أخذ الكلمات من فمها، يبدو الأمر كما لو أنها هي التي أَسَرَتنا، وليس نحن، إنها تنظر إلينا جميعًا بازدراء، إذا كان هذا الرجل صعبًا بعض الشيء، فأنا متأكِّدة من أنه سيخبرك بما يعرفه، إنه يعتقد أننا سفَّاحون متعطِّشون للدماء، ويصدِّق ما تقوله الحكومة عنَّا، دون تفكير، لم نخبره بالحقيقة حتى يتمكَّن من الغناء مثل العندليب، ولم نَقُل حتى إننا كُنَّا نستخدم مسدسات الصعق، لقد كذبنا عليه قائلين أننا قتلنا كل من كان موجودًا، وأعتقد أنه يعرف كل الخزائن الدَّوَّارة هنا، وباستخدام هذه المعلومات، ربما يمكنك جعل تلك المرأة المجنونة تتحدَّث بسهولة أكبر».

وجَدَت نيشه هذا الاقتراح معقولًا، وبعد التفكير لبعض الوقت، قالت: «حسنًا إذن، دعونا نستجوبه أوَّلًا، دعونا نرى ما سيقوله مديرنا الموقَّر، هل تستطيعين أن تُريني الطريق؟».

قالـت تسـنيم بالصـوت الآلي لآلـة الترجمـة: «تفضَّـلي أوَّلًا»، وقـادت الشـابة إلى الممـرِّ الموجـود عـلى اليمـين، وفتحـت بـاب غرفـة زجاجهـا مكسـور، وسـمحت لهـا بالدخـول.

بـدت الغرفـة وكأن قنبلـة قـد أُسـقِطَت عليهـا، وكانـت الخزائـن مقلوبـة، والملفَّـات والأوراق مُبَعـثَرة في كل الاتجاهـات، تـمَّ رمـي طاولـة وثلاثـة كـراسي، ربمـا كانـت قـد وضِعـت معًـا مـن قبـل، في زوايـا مختلفـة، وكانـت الأرضيـة مُغطَّـاة بالزجـاج المكسـور، وشـظايا أنابيـب الاختبـار، وسـط هـذا الارتبـاك، كان هنـاك رجـل في منتصـف العمـر، مربـوطٌ بإحكام عـلى كـرسي، ومنكمـش في مكانـه مـن الخـوف، وهـو يبـكي مثـل الأطفـال.

ذهـل الرجـل عندمـا لاحـظ دخـول النـاس، واسـتقرَّت عـلى وجهـه نظـرة رعـب، كان الذعـر ينمـو في عينيـه، وهـو ينظـر إلى نيشـه، و بمجـرد أن رآهـا قـال إنـه يعرفهـا، ولم يسـتطع النظـر طويـلًا، وأبعـد عينيـه، وقـال:

«لم أفعـل ذلـك... لم أخطفـك... أقسـم بالقـرآن! مـن فضلـك لا تؤذينـي، اسـتخدموني! أقسـم باللـه، لم أعـرف شـيئًا...».

قالـت نيشـه وهـي تمـشي نحـو الرجـل: «اهـدأ، لـن يؤذيـك أحـد، ليـس لدينـا ضغينـة ضـدَّكَ، إذا تعاونـتَ بالطبـع».

ثـم التفَتَـت إلى تسـنيم، وسـألت، قائلـة: «مـا هـو اسـم الرجـل المحـترم؟».

«كان مكتوبًا على شارةٍ اسمُه رضا بلطجي».

«شـكرًا، الآن اتركينـا وشـأننا مـن فضلـك، أريـد التحـدث إلى الرجـل عـلى انفـراد، سـأتصل بـكِ إذا احتجـت إليـكِ».

أومأت تسنيم برأسها دون احتجاج، وغادرت الغرفة بسرعة.

قالـت نيشـه بصـوت أكـثر غلظـة: «انظـر إليَّ يـا رضـا... ارفـع رأسـك تلـك، أريـدك أن تنظـر إلى وجهـي».

حدَّق مدير المنشأة في وجهها بعينين دامعتين، كان الأمر كما لو كان يتوسَّل إليها بعينيه.

وتأوَّه، قائلًا: «لم أكن أعرف حقًّا... أنا أدير الشؤون الإدارية فقط، هنا، السيدة جول تقرِّر كُلَّ شيء، لو علمتُ بخططها... عليها اللعنة، لم أكن لأقف هنا للحظة، لقد اعترَضتُ عليهم وهم يربطونك بتلك الآلة اللعينة، وقُلتُ لهم لا تكونوا قاسين، لكنهم لم يستمعوا إليَّ، والله لم يستمعوا».

قالت نيشه: «كنتَ هنا وكنتَ تدير هذا المكان، نحن في عاصفة إشعاعية، تحت مستودع مهجور، في مكان مخفيٍّ حتى عن الحكومة، ألم يمكنك أن تعرف نوع القذارة تلوَّثتَ بها، لكن لا تقلق، أنا لا أهتمُّ، ليس لديَّ وقت لأضيِّعه معك، أنا فقط أريد أن أعرف الخُطَط بالنسبة لي، ماذا قالت لك السيدة جول عندما أحضرتني إلى هنا؟».

أجابها قائلًا: «لم أكن أعلم أنَّكِ من حركة المساواة في اسطنبول، أقسم بالقرآن، لم أكن أعرف، لو كنتُ أعرف، لكنتُ قد هربتُ من هنا منذ مدة، أنتِ لا تعرفين السيدة جول، لا يمكنك تركها بسهولة! اعتقدتُ أننا كنا نعمل في هذا الجحيم حتى لا يسرق منافسونا اختراعاتنا، لم تسمح لي بالمغادرة بعد أن علمتُ بالخزائن الدَّوَّارة هنا، ومع ذلك، إذا علمتُ أنك تقاتلين مع حركة المساواة في اسطنبول، لكنتُ قد هربتُ، تلك المرأة مجنونة! نحن هنا نبحث عن طرق لإبقاء الناس على قيد الحياة إلى الأبد، ويدفع عملاؤنا الكثير من المال مقابل ذلك، قالوا لي إن لديكِ مرضًا غير عاديٍّ، وتتقدَّم بكِ السِّنُّ بشكلٍ أبطأ بكثير من الآخرين، لقد أحضروا شابًّا بهذه الطريقة إلى هنا من قبل، وقد أجروا عليه التجارب أيضًا، ولم يقولوا إنه تمَّ إحضارُكِ بالقوة وأنك مخطوفة، والله لم يقولوا ذلك! لقد كُنتِ نائمةً بالفعل عندما وصلتِ، ولم أشُكَّ في ذلك أيضًا».

استطاعت نيشه أن تقرأ من وجه الرجل أنه يقول الحقيقة، ربما لم تشارك السيدة جول ما تعرفه عنها مع أي شخص آخر، لا بُدَّ أنها أرادت الاحتفاظ بهذا السر الثمين لنفسها.

وقالت بهدوء: «أنا أصدِّقُكَ، ومع ذلك، هذا لا يعفيك... إن إخفاءكم الاكتشافات الموجودة هنا عن الناس تُعَدُّ جريمة ضد الإنسانية، لكنني لن أعاقبك، أنت بَيدَقٌ عاديٌّ، أنت لا تستحقُّ العناء، رجالي يتفقَّدون كل ركن من أركان المنشأة الآن، وهم يُدمِّرون كل أعمالك السَّامَّة، وسنكشف عن المفيد منها، يمكن للأدوية التي اكتشفتموها أن تُخفِّف آلام الكثير من الناس، لديَّ سؤال أخير أطرحه عليك، بصفتك المدير الإداري، هل يوجد مكانٌ سِرِّيٌّ في هذه المنشأة لا يستطيع رجالي رؤيته للوهلة الأولى؟ إذا قلتَ لا، فلن أصِرَّ، ولكن إذا وجدنا ذلك بأنفسنا، فسأعود ولن أكون لطيفة هذه المرة».

سكت رضا لفترة، وبالنظر إلى عيونه التي كان ينظر بها بعيدًا، فقد كان مُتردِّدًا فيما إذا كان سيتحدَّث أم لا، التخاطُب ذهنيًّا مع الأشخاص الذين علقوا بهذه الطريقة ولا يعرفون ماذا يفعلون، غالبًا ما يكون له تأثير نوم مغناطيسي، كانت نيشه ستستخدم قوتها غير العادية، لتُردِّد صدى ما في ذهن رضا، ولكنها كانت بحاجة إلى الاعتراف الكامل، تكلَّم الرجل من تلقاء نفسه، وقال:

«في غرفة الأرشيف رقم 142، اضغطي على مفتاح الإضاءة على الحائط أربع مرَّات متتالية، ثم انتظري لمدة عشر ثوان، واضغطي عليه ثلاث مرات، وبعد عشر ثوانٍ مرَّتين أخريين، سيتم فتح إحدى البلاطات على الأرض، يوجد أدناها غرفة السيدة جول الخاصة، هذا هو المكان السري الوحيد الذي أعرفه، أقسم بالله».

قالت نيشه: «لقد اتَّخَذتَ القرار الصحيح، وحافظتَ على رباطة جأشك، سأتركك وحدك الآن، فَكِّر مَليًّا فيما قُمتَ به، وما عليك

القيـام بـه، إذا أخـبرتَ شـخصًا واحـدًا عنـي وعـن حركـة المسـاواة في اسـطنبول، ومـا حـدث هنـا، فسـنجدك حتـى لـو دخَلـتَ في جحـر الفـأر، أنصحـك أن تنـسى مـا هـو هنـا، والآن».

طأطأ رضا رأسه، وبدأ يبكي بصمت.

ذهَبَـت نيشـه بمفردهـا إلى الغرفـة السريـة التـي وصفهـا مدير المنشـأة، وأرادت أن تراهـا قبـل الآخريـن؛ لأنهـا لا تعـرف مـا الـذي سـتجده هنـاك، عـلى الرغـم مـمَّا قالـه كـمال بلطجـي، لم تسـتطع تجاهـل احتـمال أن السـيدة جـول ربمـا حصَلَـت عـلى بعـض المعلومـات عنهـا، وعـن كوكـب مافـرون، كان مـن الممكـن أن تخـدع المـرأة الجميـع في هـذا الأمـر، كـما فعلـت في أمـور أخـرى، وعندمـا لاحظـت أن الأضـواء لم تكـن مُضـاءةً في الأسـفل، ورفعـت يدهـا، وفكَّـت مصبـاح البطاريـة النوويـة مـن السـقف دون لمسـه، فسـقطت البراغـي المفكوكـة عـلى الأرض، وارتـدَّت عـدَّة مـرات، نزلـت السـلم، ونفخـت المصبـاح أمامهـا عـلى بُعـد أمتـار قليلـة.

إن وصـف المـكان الـسري للسـيدة جـول بغرفـة لـن يكـون كافيًـا لوصفـه، كان أكـثرَ مـن مسـتودع ضخـم، وكلـما كانـت تتجـوَّل في الداخـل، في ضـوء المصبـاح الـذي يطـير أمامهـا، كان تندهـش لـكل اكتشـاف، تـمَّ اصطفـاف عـدد لا يحـصى مـن الأقفـاص الزجاجيـة، وأحـواض الأسـماك في هـذا المسـتودع، الـذي يحتـوي عـلى جميـع أنـواع الحيوانـات، والتـي شـاهدت البعـض منهـا لأول مـرة في حياتهـا، مَـن يـدري مـن أي أجـزاء مـن العـالم تـمَّ إحضارهـا إلى هنـا، والمقابـل مـن الأمـوال التـي تـمَّ دفعهـا لهـم، تـم توصيـل الأسـلاك الملوَّنـة البـارزة مـن أجسـاد الحيوانـات بأجهـزة كمبيوتـر مُصغَّـرة، وآلات غريبـة، لم تسـتطع حتـى تخمينها، ويقـوم بعضهم بانتظـام، بتقطـير السـوائل الملوَّنـة مـن أنابيـب الاختبـار في مياههـا، كانـوا عـلى قيـد الحيـاة، لكنهـم إمَّـا مُخـدَّرون أو سَـئِموا الحيـاة، ولم يتحركـوا إلا للتنفُّـس، أولئـك الذيـن كانـت لديهـم عيـون، كانـوا ينظـرون بيـأس وحـزن،

وبـدا أن البعـض يعـاني مـن آلام بسـبب الأسـلاك العالقـة في أجسـادهم، وكان هنـاك أيضًـا مـن أصيبـوا بنوبـة ارتعـاش.

وفـوق الأقفـاص وأحـواض السـمك كانـت توجـد شاشـات صغـيرة تحتـوي عـلى معلومـات توضيحيـة، وعندمـا لمسـت أكـثر مـا جـذب اهتمامهـا بطـرف إصبعهـا، قـام صـوتُ ذَكـرٍ قَـويٍّ بالتعريـف باختصـار بالمخلـوق الموجـود بداخلـه، وتـمَّ عـرض نفـس المعلومـات عـلى الشاشـات باللغتـين التركيـة والإنجليزيـة.

قنديـل البحـر الخالـد: إنهـا الأنـواع الحيـة الوحيـدة في العـالم التـي يمكـن تعريفهـا بأنهـا خالـدة، عندمـا يتحـوَّل قنديـل البحـر، الـذي يبلـغ قطـره 5 مـم فقـط، إلى سـليلة مخاطيـة عندمـا يصـل إلى نهايـة عمـره أو لا يسـتوفي الـشروط التـي يمكـن أن تسـتمرَّ في حياتـه، ويتحـوَّل إلى قنديـل البحـر مـرة أخـرى عنـد حـدوث الظـروف المناسـبة، وإذا لم تتعـرَّض لتأثـير خارجـي، فيمكنهـا مواصلـة حياتهـا في دورة مسـتمرَّة إلى أجـل غـير مسـمى.

إسـفنج القطـب الجنـوبي: هـذا النـوع مـن الإسـفنج، الـذي يعيـش في قـاع المحيـط، يشـبه النبـات في المظهـر، يختـارون منطقـة آمنـة لأنفسـهم، ويسـتقرُّون هنـاك، ويقضـون حياتهـم كلهـا تقريبًـا دون أن يتحرَّكـوا، تمَّـت إعـادة مثـال عـلى هـذا النـوع الحـي إلى الحيـاة في بيئـة معمليَّـة بعـد تجميدهـا لمـدة 1500 عـام.

مرجـان الدمـاغ الصخريـة: هـو حيـوان بحـري يعيـش في شـكل مسـتعمرة، عندمـا يجتمـع المئـات منهـم معًـا، يكـون مظهرهـم مشـابهًا للمُـخِّ البـشري، لقـد شـوهد في المـاضي خاصـة في منطقـة البحـر الكاريبـي، وخليـج المكسـيك، هـذا المرجـان، الـذي يُعـدُّ أحـد أشـهر المخلوقـات طويلـة العمـر، يعيـش لأكـثر مـن 200 عـام.

سـلحفاة جالاباجـوس: هـذه السـلاحف العملاقـة، التـي شـوهِدَت فقـط في بعـض الجُـزُر في التاريـخ، يمكـن أن يصـل وزنهـا إلى 400 كيلوجـرام،

ويمكـن أن تحمـل إنسـانًا متوسـط الحجـم، وتـتراوح أطـول فـترات الحيـاة لديهـا بـين 150 و190 عامًـا، وفقًـا لمصـادر مختلفـة.

لا بُـدَّ أن السـيدة جـول كانـت تأمـل في أنهـا إذا تمكَّنَـت مـن كشـف أسرار المخلوقـات طويلـة العمـر، يمكنهـا تطبيـق ذلـك عـلى البـشر أيضًـا، ومـن خـلال التجـارب التـي أجرتهـا عـلى الشـاب الـذي مـن نسـلها، وعليها، وضعتهـم مـكان حيوانـات غـير عاديـة، وتذكَّـرَت أن چـين آرياتـان، الـذي يمنـع شـيخوخة شـعبها عـلى الكوكـب الـذي أتـت منـه، نتـج مـن حيـوانٍ عمـره مليـون عـام اكتُشِـف في أعـماق البحـار، ربمـا كانـت السـيدة جـول مجنونـة، لكنهـا كانـت تسـير في الاتجـاه الصحيـح بأبحاثهـا، وكان هـذا هـو الجـزء المخيـف، إذا تمكَّنَـت مـن الحصـول عـلى چـين آرياتـان مـن نفسـها، فمـن الممكـن أن تصنـع چينًـا مشـابهًا بمُركَّـبٍ مُكـوَّن مـن هـذه الحيوانـات، كانـوا عـلى شـفا كارثـة.

كان يـأس وآهـات الحيوانـات التـي تعـاني في أقفـاص وأحـواض مائيـة قـد أثَّـر فيهـا، وكان غضبهـا يتصاعـد ضـد هـذه المـرأة التـي سـحقت الجميـع بسـبب شـغفها.

وعندمـا صعـدت إلى الطابـق العلـوي مـرة أخـرى، أجـرت اتصـالًا لاسـلكيًا بتسـنيم لاسـتدعائها إلى الغرفـة السريـة، وأمرتهـم بإنقـاذ مـا في وسـعهم مـن الحيوانـات، ووضـع حـدٍّ لمعانـاة البقيـة، لم تسـتَطِع أن تنـسى نظـرات سـلحفاة جالاباجـوس التـي كانـت تتوسَّـل إليهـا تقريبًـا، حـان الوقـت الآن للتعـرُّف عـلى السـيدة جـول الشـهيرة.

عندمـا دخلـت نيشـه الغرفـة حيـث كانـت المـرأة محتجـزة، وجَـدَت مكانًـا مشـابهًا للبيئـة حيـث اسـتجوبت مديـر المنشـأة، كل شيء هنـا أيضًـا إمَّـا مقلـوب أو مبعـثر أو محطَّـم، سـقطت المجلَّـدات عـلى الأرض، وكانـت الأرض مُغطَّـاةً بـالأوراق والملفَّـات، لكـن المـرأة الجالسـة في وسـط الفـوضى بـدت مختلفـة تمامًـا عـن ذلـك الرجـل العجـوز، وعـلى الرغـم مـن أن

ملابسها كانت مهترئة، وتعرَّضَت للضرب، ووجود كدمة على طرف شفتها من قبضة لكمةٍ لَكَمَها لها أحدهم، لم يستطع أن يمنع نفسه، مَن يدري من هو، إلا أنه كان على وجهها تعبير فخور وراضٍ.

عندما رأت المرأة نيشه، ابتسمت بطريقة متعدِّدة المعاني، وأومأت لها برأسها تعبيراً عن التحية، ولمعت عيناها كما لو كانت تمر بلحظة سعيدة، وقالت:

«لقد أتيتِ أخيراً... أخيراً... كنتُ في انتظارك أيضًا، إنه لشيءٌ جيِّد أن أراك في حالة جيدة».

قالت نيشه، وهي تقف أمامها، وتعقد ذراعيها: «مُدهِش»، وتابَعَت بنبرة ساخرة، قائلة: «وكأن ما فعَلتِه حتى الآن لم يكن في صالحي».

قالت جول: «ربما لن تصدِّقيني، لكني لم أرغب أبدًا في أن تتأذَّي، أنتِ مُميَّزة وقيِّمة للغاية... وإلا فلماذا أضع كمال في ذهنك للوصول إلى أسرارك، والتعامُل مع مثل هذه الأمور الجذَّابة؟ كان يمكنني البدء في إجراء التجارب عليكِ لحظة وصولك إلى هنا، أنتِ... أنتِ لغز كامل بالنسبة لي، أريد أن أكون قادرة على حَلِّكِ لأفهمك، لا تَرَيْ هذا الشغف كثيراً بالنسبة لعالِمَةٍ سيِّدة، إذا كان بإمكاني حلُّ لُغزكِ يمكنني أن أهدي الإنسانية الخلودَ الذي سعت إليه منذ جلجامش[1]، لا يزال بإمكاننا القيام بذلك إذا سَمَحتِ لي، ألا تريدين أن يعيش جميع أحبَّائكِ مثلك إلى الأبد؟».

قالت نيشه بإيجاز: «لا... إن ثمن الحياة الأبدية باهِظٌ للغاية، قِلَّةٌ من الناس يمكنهم تَحمُّل هذا العبء دون الانهيار».

---

(1) جلجامش: هو ملك تاريخي لدولة الوركاء السومرية، وبطل مهمٌ في ميثولوچيا بلاد الرافدين القديمة والشَّخصيَّة الرئيسية في ملحمة جلجامش. (المترجم)

«أنتِ يمكنك تحملها رغم ذلك؟»

قالـت: «لأننـي مضطـرَّة، حتـى إننـي أسـتطيع أن أتحمَّـل مـن خـلال رمـي نفـسي مـن خطـرٍ إلى آخـر... لم أنضـمَّ إلى حركـة المسـاواة في اسـطنبول فقـط لتحسـين اسـطنبول، إن حركـة المسـاواة سـوف تكـون سـببًا في قتـلي عاجِـلًا أم آجِـلًا، وأنـا أعلـم ذلـك، وهـذا يهـدِّئ العواصـف بداخـلي، إذا لم يكـن الأمـر يتعلَّـق بحركـة المسـاواة في اسـطنبول، فربمـا كنـتُ سـأبحث عـن طُـرُق مختلفـة للوصـول إلى المـوت...».

وأخـذت نَفَسًـا عميقًـا، ونظَـرَت في عينـي السـيدة جـول، التـي فحَّصتهـا مثـل حيـوان تجـارب، وسـألت، قائلـة:

«عـلاوة عـلى ذلـك، ليـس الأمـر كـما لـو كنـتِ تريديـن فرصـة العيـش إلى الأبــد للبشريــة جمعــاء، كنــت تريدينــه فقــط للأثريــاء، مثــل كل الاختراعـات الأخـرى... هـل هـذا كـذب؟ أي دواء خـرج مـن هـذه المنشـأة، وانتهـى بـه المطـاف إلى شـخص آخـر غـير الأثريـاء؟ النـاس العاديُّـون في نظَـرِكِ مثـل الحيوانـات التـي يمكنـك التجربـة عليهـا كـما يحلـو لـك، مـاذا يعنـي كـمال بالنسـبة لـكِ؟ تلـك الإبـر التـي أعطيتِـه إيَّاهـا... الأمـل الـذي أعطيتِـه لـه حـول أنهـا يمكنهـا أن تُخفِّـف مـن آلامـه... ومـاذا عـن ذلـك الشـاب وعائلتـه الذيـن قُمـتِ بإجـراء تجـارب عليهـم قبـلي؟ لقـد تَسـبَّبتِ في موتهـم هنـا بشـكل مُؤلِـمٍ فقـط لأنهـم مـن سُـلالتي، لقـد قتلـتِ زوجتـه وطفلـه حتـى لا يقومـوا بالإبـلاغ عنـكِ، لا أرى أمامـي عالِمـةً، بـل قاتلـة يمكنهـا سـحق أي شـخص لكسـب المزيـد».

نظَـرَت السـيدة جـول إلى نيشـه بعيـون رقيقـة، وكان هنـاك شـفقة تقريبًـا في تلـك العيـون، بـدا الأمـر كـما لـو أنهـا لم تكـن مقيَّـدة عـلى كـرسي، ويتـمُّ اسـتجوابها، وحياتهـا في خطـر، وقالـت:

«كسـب المزيـد... تعتقديـن حقًّـا أن هـذا هـو السـبب، أليـس كذلـك؟ أحـاول أن أوقـف الشـيخوخة، لأن الأغنيـاء سـيدفعون مبالـغ طائلـة مـن

أجل ذلك، وسأضيف الثروة إلى ثروتي، هل تعتقدين أن هذا ما كنتُ أقوله؟ كم أنتِ مُخطِئة... نعم، أنا أعمل فقط من أجل الأغنياء، لأنه يتعيَّن على شخص ما تمويل الأبحاث التي أقوم بها هنا، هذه الأجهزة، والأطباء، ليست مجانية، لكن ما الهدف من كسب المزيد، عندما أعلم أنني سأموت عاجِلًا أم آجِلًا؟ النجاح، المال، الأملاك، العقارات، هذه كلها أشياء تفقد معناها في مواجهة الموت، أنا حقًّا أريد فقط أن أكون قادرة على الاستمرار في العيش، كان هذا هو شغفي الوحيد طوال حياتي، كم تظنِّين عمري؟».

قال نيشه بتردد: «خمسون، ربما خمسة وخمسون».

قالت السيدة جول، بابتسامة تنتشر على وجهها: «عمري بالضبط مائة واثنان وسبعون عامًا... لقد قمتُ بتطبيق جميع الأدوية التي اكتشفناها في هذه المنشأة على نفسي، قبل أي شخص آخر، وأعدتُ بناء أجزاء جسدي عدَّة مرَّات، باستثناء مخي، وبعض الأعضاء الحيوية، فقد مرَّ كل شيء في جسدي بعمليات لا حصر لها، لقد نسيتُ عدد عمليات التجميل في وجهي، لكن الآن وصلتُ إلى الحد الأقصى، المزيد غير مُمكِن، أشعر بالإرهاق، ولكن إذا تمكَّنتُ من حلِّ سِرِّكِ يمكنني الاستمرار في العيش، أنتِ على حقٍّ، لم أقلق أبدًا بشأن الإنسانية أو أي شيء، لماذا يجب علي أن أقلق؟ كيف يختلف هذا الحشد الزاحف بلا هدف في شوارع اسطنبول، عن سِربٍ من الحشرات؟ ماذا ستخسر هذه المدينة إذا مات خمسون بالمائة الآن؟ على العكس من ذلك، فإنها تأخذ استراحة! أنا أتفهَّم أنَّكِ تخفين هذا السِّرَّ عن الجمهور، لكن يُرجى مشاركته معي، أنا فقط يجب أن أعرفه! وفي هذه الحالة سأكون تحت تصرُّفِكِ بكل ثروتي، وسأفعل ما تريدين...».

أثناء الاستماع إلى المرأة، فكَّرَت نيشه في الجراحة التجميلية الوحيدة التي خضعت لها في حياتها، والتي كانت منذ ما يقترب من

ألـف عـام، والآن عندمـا لم تَعُـد بحاجـة إلى رجـال لحمايتهـا، وأصبحـت قويـة بمـا يكفـي للاعتنـاء بنفسـها، أُجرِيَـت لهـا عمليـة جراحيـة، للتخلُّـص مـن جمالهـا التـام، والسـاحر، وأصبحـت عاديـة بعـض الـشيء، وبينـما كان الجميـع يخضعـون لعمليـة جراحيـة للتجميـل، فعلـت هـي العكـس، لقـد تذكَّـرَت كـم كان ذلـك مؤلمًـا، كلـما فكَّـرَت فيـما فعلتـه السـيدة جـول بجسـدها مـن أجـل أن تعيـش لفـترة أطـول، كانـت مندهشـة مـن شـغفها، لقـد كان هـذا جشـعًا مريضًـا.

قالـت، وهـي تكبـت مشـاعرها: «لا أريـد منـكِ شـيئًا لنفـسي، ولكـن مـن أجـل صديـق لي، هـل يمكنـكِ حقًّـا إجـراء الجراحـة التـي أخـبرتِ كمال عنهـا؟ هـل يمكنـك حقًّـا القضـاء عـلى الصـداع العنقـودي بشـكل دائـم؟ في هـذه الحالـة ربمـا يكـون لديـكِ فرصـة للمسـاومة، أنـا أشـعر بالاشـمئزاز منـكِ، ومـن عقلـكِ، ومـع ذلـك، إذا تمكَّنـتِ مـن تخليـص الرجـل الـذي أُحبُّـه مـن آلامـه، فسـوف أسـاعدك عـلى إطالـة عمـرك».

هـزَّت السـيدة جـول رأسـها عـلى الجانبـين، واتَّسَـعَت عيناهـا بدهشـة، بـدا أنهـا وجـدت هـذا الطلـب غـيرَ مُجـدٍ للغايـة، وقالـت:

«هـل هـو كـمال؟ إنـه شـخصٌ عـاديٌّ جـدًّا... مـا الـذي يهـم؟ بالطبـع لا يمكننـي فعـل ذلـك، لا يوجـد حـلٌّ للصـداع العنقـودي، وإذا كان هنـاك، فإننـا لم نعـثر عليـه، ولم نبحـث عنـه حتـى... لقـد أخبرتـه بذلـك فقـط، حتـى يفعـل مـا أريـد، قِلَّـةٌ مـن النـاس في العـالم يعانـون مـن هـذه الآلام، ولا أحـد منهـم مُهـمٌّ، دَعـكِ مـن كـمال هـذا، مـا هـو النجـاح الـذي حقَّقـه حتـى الآن؟ هـل قـام باخـتراعٍ عِلمـيٍّ؟ لقـد قمـتُ بعـشرات الاختراعـات! هـل أسَّـس شركـة، وكـم عـدد الأشـخاص الذيـن أطعمهـم، وهـل أبـدع عمـلًا فنِّيًـا، وهـل حقَّـق نجاحًـا سياسـيًّا، وكـم عـدد الأشـخاص في اسـطنبول الذيـن يعرفـون اسـمه؟ مـا الفـرق إذا عـاش أو مـات؟ هـل يعـاني مـن ألمٍ وجـوديٍّ مثـلي، أم ذاق ألم الإبـداع مثـل كبـار الفنانـين؟ مـاذا حـدث لـه، إنه

يتألَّم فقط! لقد كنتِ في هذا العالم منذ مئات السنين، فأنتِ الشخص الوحيد الذي شهد التاريخ، أنتِ وأنا مُميَّزون، يمكننا أن نعيش معًا إلى الأبد، يمكننا أن نفعل أشياء عظيمة، لماذا تهتمِّين بالآلام العادية للناس العاديين؟».

سقَطَت سكِّينٌ في قلب نيشه، الآلام العادية للناس العاديين... وكرَّرَت في نفسها، لا بُدَّ وأن المرأة التي أمامها، لم تكُن قد أحبَّت أي شخص بكل إخلاص في حياتها، لم تكن تعلم أنه عندما تحب شخصًا ما، أيًّا كان، يصبح مركز العالم بالنسبة لك، وأنه مُميَّز عن كل شخص وكل شيء، ظهر المولويُّون أمام عينيها، الذين كانوا يؤدُّون رقصة السَّماع، وتنانيرهم تتحرَّك، ولم يتذكَّر أحدٌ أسماءهم، لم يكونوا مشهورين، ولا أثرياء، لكنهم لم يكونوا عاديِّين بالنسبة لها، لا عندما يعيشون، ولا عندما يموتون...

في وقتٍ آخر، وفي مكان آخر، بدأت فتاة صغيرة تؤدِّي رقصة السَّماع بهدوء، وفي خشوع، على حافَّة مجرى مُتدفِّق، كان طرف ثوبها الأبيض يشبه البحر العاصف، وكانت الأصوات الودِّيَّة للفتيان البواسل تأتي من بعيد، كانوا يغنُّون الأغاني الشعبية معًا، لم يكن هناك أثر للخوف في أصواتهم العالية، كما لو كانوا يحاولون الإعلان للأحجار والجبال، أنهم أحرار، شعرت الفتاة الصغيرة ببرودة الريح على جلدها، وسُحِرت باللحظة الجميلة التي عاشتها، وعندما استدارت، انطلق كل ما كان على الأرض، وطار، وبدأ يدور حولها، شكَّلَت الأوراق والأغصان والحجارة الصغيرة حولها هالة ملوَّنة، كان الأمر كما لو كان الكون يحاول أن يتعلَّم معها.

كانت تتوقَّع مثل هذه الإجابة من السيدة جول، لكنها كانت تأمل أن تكون مخطئة، من المؤلم أن تعتقد أنها ستضطر إلى إخبار الرجل الذي أحبَّته أن ألمه لن يختفي أبدًا، وأدَّى أمل المرأة الكاذب،

والاستهانة بها إلى تأجيج غضبها، وازداد غضبها عندما كانت تفكّر فيما فعلته من قبل، والأبرياء الذين قتلتهم، ومشت نحوها بخطوات هادئة، ومدَّت يدها ووضعتها على جبهتها، قائلة:

«الآلام العادية للناس العاديين...».

شعرت السيدة جول فجأة بضغط بين عينيها، كان غامضًا في البداية، ولكن مع مرور الثواني، زادت شِدَّتُه، كان الأمر كما لو أن مسمارًا حادًّا يتمُّ ضغطه على جبهتها، كان هذا شعور غير مريح، لم تشعر بشيء مثله من قبل، وتشنَّجَ خدَّاها، وانتشرت قشعريرة في جسدها، وفي الوقت نفسه اندلع حريق بداخلها، وتصبَّبَت عَرَقًا من رقبتها، وكانت تعاني من العديد من المشاعر المختلفة معًا.

كان المسمار الحاد يستدقُّ طرفه بين عينيها تدريجيًّا، وبدأ يخترق جسدها، كانت تعلم أنه مجرَّد وهم؛ فكل ما كانت تراه هو يَدُ نيشه التي وضعتها على جبينها، ولا توجد مسامير أو أي شيء آخر في رأسها، ولكن الألم الذي شعرت به كان حقيقيًّا تمامًا، وبدأت تتأوَّه، ثم تطلق صرخات خفيفة، وأرادت أن تتوسَّل للشابة أن تتوقَّف، ولكنها لم تستطع فعل ذلك، وكان لسانها ملتويًا في فمها، ولم تكن قادرة على الكلام.

عندما تحرَّك المسمار داخل رأسها ذهابًا وإيابًا، اختفى تمامًا تعبير الفخر الذي ظلَّ عالقًا على وجهها لساعات، وبدأت في البكاء مثل طفل، وكان الكرسي الذي كانت مقيَّدةً به يهتزُّ مع جسدها كله، وكانت تركل، وتضرب الأرض بقدميها بكل قوتها، وفي نهاية المطاف، وصل الارتعاش إلى درجة أنها انقلبت إلى الوراء، وابتعَدَت يَدُ نيشه عن جبهتها، لكن الألم لم ينتهِ.

كان الألم الـذي شـعرت بـه الآن مسـاويًا لألم سـكِّين كان ينغـرز في جبهتها باسـتمرار، كانـت تقفـز مـع الكـرسي، يمينًـا ويسـارًا، وتُصـدر أصواتًـا مثـل حيـوان يُنحَـر، ويريـد أن يمـوت.

وعـلى الرغـم مـن كل محاولاتهـا مـن أجـل العيـش لفـترة أطـول قليـلًا، وجميـع الأشـخاص الذيـن جرَحَـت مشـاعرهم، وقتلتهـم، كانـت الآن تصلي مـن كل قلبهـا، حتـى يقتلهـا شـخصٌ مـا، ويضـع حـدًّا لهـذه المعانـاة.

لم يقتلهـا أحـد، بعـد أن شـاهدتها، وهـي تكافـح بـلا مبـالاة لفـترة مـن الوقـت، غـادَرَت نيشـه الغرفـة، تارِكـةً السـيدة جـول وحدهـا في أحزانهـا، وبعـد سـاعات، عندمـا جـاء مقاتلـو حركـة المسـاواة في اسـطنبول لأخذهـا إلى زنزانتهـا، حيـث سـتقضي بهـا بقيـة حياتهـا، وجـدوا السـيدة جـول عـلى الأرض، وهـي تحـدِّق في الفضـاء بوجـهٍ خـالٍ مـن التعبـيرات، ولم تتحـدَّث مـرَّةً أخـرى بعـد ذلـك اليـوم، وكلـما أرادت الـكلام، كانـت تصمـت خوفًـا، مـع ألمٍ وَهمـيٍّ بـدأ في وسـط جبهتهـا.

بعـد ثمانيـة أشـهر، عندمـا انهـار جسـدها، الـذي تحمَّـل لفـترة طويلـة، وسرعـان مـا استُنفِد بعـد توقُّـف أدويتهـا، لم يكـن لديهـا طمـوح في العيش لفـترة أطول.

23

كانـت آخـر حديقـة مدينـة في اسـطنبول مُحاطـةً مـن كل النواحـي بــ «أ161» ذي الأسـلحة الثقيلـة، وهـي أحـدث طـراز مـن روبوتـات سِلسِـلَة «إيـه آر»، جنبًـا إلى جنـب مـع كتيبتـين مـن الجنـود، وقفـوا يَقِظـين ضـدَّ أي عمـل لحركـة المسـاواة، أو رَدِّ فِعـلِ المعارضـين مـن بـين الأهـالي، وتـمَّ اقتلاع ثمانـين بالمائـة مـن الأشـجار في الحديقـة، ولم يتبـقَّ سـوى عـشرة أشـجار بلـوط رائعـة، تنهَّـدَت «هنـده» نائـب مديـر تخطيـط المدينـة المسـؤول عـن الإشراف عـلى العمليـة، تنهُّـدًا شـديدًا، مُحاوِلَـةً إخفـاء الحـزن عـلى وجههـا، عندمـا تحرَّكَـت آلات الاقتـلاع تجاههـم، وقامـت بتمييـز الأشـجار الأخـيرة عـلى خريطـة المنتـزه، التـي غطَّـت شاشـة الكمبيوتـر الورقـي بطـرف إصبعهـا، وضغطـت عـلى زر الحـذف.

قـال الصـوت الميكانيـكي الهـادئ للكمبيوتـر: «يتـمُّ مَسـحُ أشـجار البلـوط...»، تلاشـت الأشـجار واختفـت مـن الشاشـة.

«تمَّت إزالة البلوط».

مع تزايُد همهمة الحشد، قام العقيد، مُقطِّب الجبين، قائد الجنود برفع مُكبِّر الصوت المعلَّق على خوذته إلى فمه، وخاطب الحشد بصوت جهير لمغني أوبرا:

«أهل اسطنبول الأعزاء! سيتم الانتهاء من أعمال التحسين في الحديقة في غضون بضع دقائق، وسيعاد فتح الطريق لخدمتكم، نرجو منكم الصبر، ستوفِّر ثلاثة مُولِّدات أكسچين ماركة «هارو» التي يتمُّ وَضعُها بدلًا من الثلاثين شجرة التي تمَّت إزالتها، وهي ستوفِّر نفس الكمية من الهواء النقي، حيث تَشغَل عُشر مساحة الأشجار، وسيتمُّ إنشاء مستوطنة جديدة لأهلنا على الأرض الشاغرة، ولن يكون هناك تضييق على مسار المشي، والطريق السريع، أكرِّر! لن يكون هناك أي قيود إطلاقا على الطُّرُق التي تستخدمونها! نرجو الإحاطة!».

كان هناك اضطراب طفيف في الحشد، حيث استفسر الكثيرون من الذين بجانبهم بأصوات منخفضة، لكي يتأكَّدوا ممَّا سمعوه، من بين الهمهمة، كانت عبارة أنهم لن يلمسوا الممشى هي الأكثر سماعًا، تلاشت الهمهمات، وبعد فترة بدأ سكان المدينة الفضوليون يتفرَّقون، لم يتبقَّ أحد في المكان، باستثناء أولئك الذين كانوا ينتظرون انتهاء العمل للوصول إلى الجانب الآخر من الشارع، وأولئك الذين شاهدوا ما يجري مثل مشهد سينمائي لأنهم لم يكن لديهم عمل أفضل.

عندما تمَّ اقتلاع الأشجار الأخيرة ووضعها في الشاحنة «البر جوِّيَّة»، ضغَطَت هنده على بعض المفاتيح على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، وجعلت عُمَّالًا من الروبوتات يعملون على إغلاق الثقوب التي تم فتحها، وزرع وحدات «هارو»، وسرعان ما قامت الروبوتات بتسوية آخر حديقة في المدينة، لدرجة أن شكلها يوحي وكأنها كانت حقلًا فارغًا عبر التاريخ، وذلك من خلال العمل بسرعة كبيرة بنظام آلي،

وقامـت بتثبيـت مولِّـدات الأكسـچين، والتـي تتكـوَّن مـن كُـراتٍ كبـيرة رماديـة تسـتريح عـلى ثـلاث أرجُـلٍ معدنيَّـةٍ طويلـة في المواقـع المخطَّـط لهـا، وكان شـعاع مـن الضـوء الأزرق يحيـط بالكـرات التـي تعمـل بصفـارة خفيفـة تشـبه صـوت الصفـير، وعندمـا تأكَّـد الفَنِّيُّـون مـن أنهـم قـد تفقَّـدوا وحـدات «هـارو» وأنتجـوا الكميـة المناسـبة مـن الأكسـچين، ضغطـت هنـده عـلى جهـاز الإرسـال المرتبـط بحزامهـا، وأبلغـت جميـع الموظفـين أن العمليـة قـد اكتملـت بنجـاح.

أقلعـت الشـاحنة «البر جويـة» بمراوحهـا الأربـع الضخمـة، وابتعـدت مـن أجـل توصيـل الأشـجار إلى المصنـع الـذي يُنتِج الأشـياء المنزليـة الفاخرة، حيـث سـيتم تقييمهـا كمـواد خـام، وسرعـان مـا سـتتحوَّل كل واحـدة منهـا إلى منتجـات خشـبية باهظـة الثمـن، تزيِّـن الشـقق الأنيقـة للأشـخاص المهتمِّـين بالديكـور في الطوابـق العليـا مـن الأبـراج الضخمـة، قـام الجنـود والروبوتـات العسـكرية بإخـلاء المنطقـة في وقـت قصـير بانضبـاط الجيـش، واسـتغرق الأمـر وقتًـا أطـول قليـلًا حتـى يتمكَّـن العاملـون مـن الروبوتـات والفنِّيُّـون مـن حـزم أمتعتهـم ومغـادرة المـكان.

سـئم سُـكَّان المدينـة الانتظـار، وسـاروا بسرعـة عـبر الشـارع عندمـا أزيلـت الحواجـز، ومحـوا مـن ذاكرتهـم بالفعـل أن ثلاثـين شـجرة -بعضهـا عمرهـا قـرون- قـد كانـت هنـا منـذ سـاعة، كان بعضهـم ينظـرون إلى أجهـزة انتـاج الأكسـچين التـي مـرُّوا بهـا، بفضـول وإعجـاب، وملـؤوا رئاتهـم بالهـواء النقـي الـذي استنشـقوه في وجوههـم، والتقطـوا الصـور بسـاعاتهم التليفزيونيـة.

نظـرت هنـده بذهـول إلى الأراضي المسـتوية المفتوحـة بـين المبـاني غـير المتناسـقة، والكـرات الأرضيـة الشـاهقة ذات الأرجُـل المعدنيـة، وبينـما كانـت تحـاول اخـتراق الحشـد للوصـول إلى السـيارة «البَـر جوِّيَّـة» التابعـة للشركـة التـي تنتظرهـا، لم تبتعـد عـن عينيهـا الأيـام الجيـدة التـي قضتهـا

في هـذه الحديقـة عندمـا كانـت طفلـة، مـع أنهـا حاوَلـت إبعادهـا، اعتـاد والدهـا أن يحضرهـا مـع أخيهـاٍ إلى هـذا المـكان كثـيراً، ويجلسـهما في ظـلال الأشـجار، ويـروي قصصًـا ملوَّنـةً لم تَرَهـا مـن قبـل في المدرسـة أو عـلى شاشـات التلفـاز، منـذ قـرون، اعتـاد أن يقـول إن هنـاك مثـل هـذه الحدائـق وحتـى الـبِرَك في أجـزاء كثـيرة مـن اسـطنبول، حيـث يعيـش الناس بسـعادة أكـبر وسـلام في تلـك الأيـام، ويمارسـون نزهـات ممتعـة عـلى طـول السـاحل، بـل ويذهبـون إلى الوديـان الخصبـة إذا شـعروا بذلـك، كان الأمـر كـما لـو أنهـا سـمعتها مـن والدهـا، لكـن مـا قَصُّـوه بَـدَا وكأنـه قصـة خرافيـة حلـوة بالنسـبة لهنـده.

ذات يـوم، بينـما كانـت هـي وشـقيقها يسـتمعان إلى هـذه الحكايـات كـما لـو كانـا مفتونـين، لاحظـت أن أحـد المسؤولين الذيـن قطعـوا الأشـجار في الحديقـة كان يسـتمع إليهـم، وهـو ينظـر إليهـم شـزرًا، وقـد قطَّـب جبينـه، ورغـم أنهـا كانـت مسـتاءة مـن هـذا الرجـل ذي الأنـف الكبـير، إلا أنهـا لم تهتـمَّ بـه كثـيراً، ولم تكـن بحاجـة لإخبـار والدهـا، وكانـت تخـشى أن تفتقـد لـذَّة الحكايـة، وبعـد أيـام قليلـة، بينـما كانـوا يسـتمتعون في ظـلال الأشـجار مـرة أخـرى، اقتحـم رجـالٌ يرتـدون الـزِّيَّ العسـكري فجـأة الحديقـة، ورفعـوا والدهـا عنـوة، ولم تمنعهـم صرخاتهـا ولا صرخـات أخيهـا الأصغـر وتوسُّـلاتهم، وكان الموظـف الـذي سـمع حديثهـم في ذلـك اليـوم، معهـم، ويشـير إلى والدهـما، وكان يقـول أشـياء لم تسـتطع فهمهـا في ذلـك العمـر، وكان يـصرخ بأعـلى صوتـه قائـلًا إنـه خائـن، ومُفسِـد.

ولأنهـم فقـدوا والدتهـم أثنـاء ولادة هنـده، أعطـت الدولـة الشـقيقين لأُسَرٍ حاضنـة مختلفـة، ولم يَرَيَـا بعضهـما البعـض وأباهـما مـرة أخـرى، وفي المنـزل الـذي قضـت فيـه طفولتهـا، وفي المـدارس التـي كانـت ترتادهـا، أخبروهـا أن والدهـا كاذب يُربِـك النـاس، ويحـاول تعكـير صفـو المدينـة، وأنـه لم تكـن هنـاك مدينـة مثـل تلـك التـي وصفهـا، وذلـك النـوع مـن القصـص ممنـوع وخطـير، وهـو يُسـمِّم المجتمـع. لسـنواتٍ، كانـت تبحـث

بلا كَلَلٍ ولا مَلَلٍ عن أثر لاسطنبول، التي وصفها والدها، والوديان الخضراء المورقة حيث يتجوَّل الناس بسرور، ولكن لم يكن في السِّجِلَّات التاريخية ولا في الروايات والأفلام القديمة أيُّ مُؤشِّر على مكان مختلف من المدينة التي عاشوا فيها اليوم، كانت على استعداد لتصديقه إذا كان بإمكانه العثور على دليل واحد فقط، لكن جهودها لم تسفر عن نتائج، أخيرًا، عندما جذب فضولها عن حياتها الماضية انتباه بعض المُعلِّمين في المدرسة، وتمَّ تحذيرها بشدَّة، تخلَّت عن بحثها؛ خوفًا من أن يأخذها الرجال الذين يرتدون الزي العسكري يومًا ما، مثل والدها.

لقد أبقت هذه الذكريات بعيدًا عن ذهنها لسنوات، ربما كانت ستفعل ذلك حتى أنفاسها الأخيرة إذا لم تأتِ إلى الحديقة حيث فقدت عائلتها، كموظف، ولكن النظرة الأخيرة التي ألقاها عليها والدها أثناء اقتياده بعيدًا عن أطفاله، والتعبير المؤلم الذي لا حول له ولا قوة على وجهه، لم يَبعُدَا من أمام عينيها الآن، ليتها لم تفقد عائلتها بسبب كذبة... ليته لم يكن مُفسِدًا أزعج الجمهور... وعلى الرغم من أنها لم تستطع مسامحته إطلاقًا، إلا أنه لم تستطع التوقُّف عن حُبِّه.

وبمجرد أن ركبت هنده، أقلعت السيارة «البر جوية» من طراز تويوتا على عَجَل، كما لو أنها توقَّفَت لفترة طويلة على الأرض، وغطَّت سحابة الغبار التي رفعتها المراوحُ الحَيَّ من طرف إلى آخر، لم يرفع سُكَّانُ الحي أصواتهم لأن شعار «جمهورية المدينة» كان على السيارة، لكن كان من الممكن أن تقسم الشابَّةُ على أنهم سبُّوها.

ارتفعت تويوتا بسرعة، تاركة المباني العامة في الأسفل، وكانت تُحلِّق شمالًا، وتتَّجه إلى البرج العملاق حيث كان يقع مكتب تخطيط المدينة الذي تعمل فيه هنده، كان هذا المبنى المكوَّن من ثلاثمائة وعشرين طابقًا، ونصفه السفلي مطليٌّ باللون الفضي والجزء العلوي

مَطليٌّ باللون الأسود، أحد أكثر الأبراج حداثةً على الإطلاق، لقد كان تُحفةً فنِّيَّة يفخر بها المعماريُّون في اسطنبول بأن يكونوا قدوة للعالم، ولكن بالنسبة لهنده، فقد كان سجنًا ضخمًا لا نهاية له، وكانت تحبُّ دائمًا الهبوط على الأرض، ووضع قدميها على الأرض؛ ولذلك اختارت هذه المهنة، بينما كان والداها بالتبنِّي يريدان لها أن تصبح طبيبة، ومع ذلك، فإنها في الوقت الحالي كانت راضيةً عن العودة إلى زنزانتها المتوهِّجة؛ حتى تبعد عن والدها، والذكريات المؤلمة.

وعندما اقتربوا من البرج العملاق تباطؤوا من أجل الأمان، عندما ظهر منطادُ إعلانٍ أمامهم، وأثناء مروره بجانبهم، وحدَّقَت هنده في عرض كِريم مكافحة الشيخوخة المعروض على الشاشة الضخمة أسفل المنطاد؛ لإلهاء عقلها، المرأة، التي بَدَت رثَّةَ الملابس قبل أن تأخذ الكريم في يدها، كان لونها باهتًا وكانت ترتدي زيًّا عاديًّا، وتغيَّرَت فجأة من رأسها إلى أخمص قدميها عندما دهَنَت الكِريم، وكانت تخرج، وشعرها مُصفَّفٌ بشكلٍ جيد، مرتدية فستان سهرة أنيقًا، يضيف جَمالًا إلى جَمالها بمكياج مثالي، كانت ترى هذا الكريم في كل مكان مؤخَّرًا، وكانت الفتيات في المكتب يتحدثن عنه بإطراء، لقد خمَّنَت أنه باهظ الثمن، لكن يجب أن تُجرِّبه في وقتٍ ما.

وفجأة تجمَّدَت الصورة على الشاشة، وأزَّت لثوانٍ قليلة، ثم تغيَّرَت تمامًا، وفجأة، غطَّى وادٍ أخضرُ شاسِعٌ عيونَ هنده، كانوا يطيرون بسرعة فوق الوادي الذي تصطفُّ على جانبيه الأشجار، وأحيانًا يخفضون ويقتربون من الجداول التي تخرُّ أسفله، وقطعان الخيول التي تركض بحرية في الأسفل، كان الأمر أشبه بحكاية خرافية، لم تشاهد الشابة مثل هذا المشهد في الحياة الواقعية، أو في الأفلام، باستثناء القصص التي رواها والدها، ولم ترَ حتى صورة لها، فوضعت السَّمَّاعات الموجودة في مقعدها على عجل، وأمرت السائق بالتوقُّف، تجمَّدَت السيارة «البر جوية» في الجو أمام المنطاد الضخم.

كان الصوت الذي سمعته من خلال السماعة صوتًا هادئًا لامرأة، ويبعث على الطمأنينة، كان لها صوت شبه سريالي لا تشوبه شائبة:

«أهل اسطنبول الأعزاء، لقد كانوا يخدعونكم منذ قرون، كانت اسطنبول ذات يوم خضراء وجميلة، وكان يمكنكم المشي بشكل مريح في الشوارع، والجلوس في ظلال الأشجار مع أحبَّائكم، وكان الناس يستطيعون أن يبحثوا ويتعلَّموا، ويناقشوا بحريةٍ الأحداثَ التي وقعت في التاريخ، وأشكال الحكم المختلفة، وكان للأغنياء والفقراء حقوق تصويت متساوية، حتى في الظروف المختلفة، كانوا سيعيشون جميعًا معًا على الأرض، ربما لم تكن الحياة مثالية في ذلك الوقت أيضًا، كان لديهم بلا شك مشاكلهم الخاصة، لكن الشيء المؤكَّد هو أنها كانت مختلفة تمامًا عمَّا هي عليه اليوم.

النظام الذي نعيش فيه ليس نظامًا لم يتغيَّر عبر التاريخ، وكان موجودًا دائمًا، إنها لكذبة كبيرة، أن البشر قد عاشوا بنفس الطريقة منذ اليوم الذي وطأت أقدامهم العالم، وإذا كان ماضينا مختلفًا، فقد يكون مستقبلنا مختلفًا أيضًا، لسنا محكومين بالقواعد والقوانين التي وُلِدنا فيها!

هل تعلمون أن نفقات الصيانة لمدة عامين للأبراج الضخمة، يمكنها تنظيف المناطق المعرَّضة للإشعاع في اسطنبول، وتصبح خضراء وجميلة كما ترونها على الشاشة الآن؟ هل تعلمون أن العديد من الأدوية التي يمكن أن تعالج أمراضكم، يتمُّ تقديمها فقط لمن يعيشون في الأبراج الضخمة، دون أن تعلموا بها؟

حسنًا، وماذا عنكم يا أصدقاءنا الأعزَّاء، الذين تعتقدون أنكم محظوظون في الأماكن المرتفعة؟ هل تعتقدون أن البقاء داخل أربعة جدران هو خياركم الوحيد لبقية حياتكم؟ لم يكن الأمر كذلك من قبل! هل تعلمون أن خُمس الأشخاص الذين يعيشون في المدن

الضخمـة يعانـون مـن مـرض عقـلي واحـد عـلى الأقـل قبـل بلوغهـم سـنٍّ الأربعـين؟ مـا مـدى احتماليـة أن تجـد الشـخص الـذي يمكـن أن تقـع في حبـه فقـط بـين أولئـك الذيـن يعيشـون في نفـس المبنـى الـذي تعيـش فيـه؟

كلنـا نعيـش في خـداع كبـير، وقـد حـان وقـت الاسـتيقاظ! نريـد التغيير! نحـن نسـتحقُّ حيـاة أكـثر حريـة وعـدلًا وسـعادة! وكلنـا! ليـس فقـط أولئـك الذيـن يعيشـون عـلى الأرض، ولكـن أيضًـا أولئـك الذيـن يعيشـون في الأبـراج!

لسنا محكومين بالنظام المفروض علينا اليوم!

معًا يمكننا أن نصنع الأفضل!».

اقتربـت هنـده مـن النافـذة، وفمهـا مفتـوح إلى آخـره، ونظـرت إلى الخـارج، الآن كانـت تلـك اللقطـات والكلـمات منتـشرة في جميـع القنـوات الإعلانيـة، انطلاقًـا مـن حقيقـة أن عـددًا لا يُحـصى مـن السـيارات «الـبَر جوِّيَّـة» تتجمَّـع حـول المناطيـد الإعلانيـة في الهـواء، وكأن الآلاف مـن الأشـخاص الموجوديـن بالأسـفل قـد فُتِنـوا بالشاشـات الترويجيـة التـي تُغطِّـي جـدران المبـاني، حركـة المسـاواة... تمتمـت بذهـول، مَـن يمكـن أن يكـون سـواها؟

لقـد نظـرت بإعجـاب إلى الـوادي الخصـب المبهـر الـذي يتدفَّـق عـبر شاشـة المنطـاد، تبـدو أغصـان الأشـجار حقيقيَّـةً لدرجـة أنهـا تسـتطيع لمسـها، ورفعـت صوتهـا بحـماس أكـبر، قائلـة:

«والـدي لم يكـن يكـذب... لم يخدعنـا... مـا قالـه كان صحيحًـا... كان صحيحًـا...».

بعـد ثـوانٍ قليلـة، تغيَّر المشـهد الموجـود على المنطـاد، وبدأ رجُـلٌ مبتهج يـشرح كيـف سـيكون الطقـس في الأيـام المقبلـة، يجـب أن يكـون مسـؤولو

جمهوريــة المدينــة قــد اســتعادوا الســيطرة عــلى القنــوات الإعلانيــة، كان بإمكانهــا أن تُخمِّــن أن تلــك الدقائــق القليلــة مــن البَــثِّ المُقَرصَــن ســتؤدِّي إلى طــرد مــا لا يقــل عــن بضــع عــشرات مــن كبــار المديريــن التنفيذيــين، وســجن بعضهــم، وحتــى إعــدام بعضهــم.

كانــت الســيارات «الـبَر جوِّيَّــة» المتجمِّــدة في الهــواء تتحــرَّك واحــدة تلــو الأخــرى، وبــدأت الحشــود الموجــودة عــلى الأرض تتفــرَّق ببــطء، ربمــا في غضــون ســاعات قليلــة، ســتُصدِر السُّــلطات بيانًــا قاســيًا للغايــة حــول هــذا البَــثِّ المُقَرصَــن، قائلــة إن المســلحين حاولــوا مــرَّةً أخــرى عمــلًا همجيًــا لزعزعــة ســلام المدينــة، بدعــوى أن لقطــات الوديــان الخــضراء ليســت حقيقيــة، ولكــن تــمَّ إنشــاؤها بواســطة الكمبيوتــر، ربمــا يدَّعــون كذبًــا أن مبنــى البــث قــد تعــرَّض للهجــوم، وأنــه تــمَّ قتــل مســؤولين أبريــاء، وعــلى الأرجــح ســيصدِّقهم غالبيــة الجمهــور، وقــد يخــشى الآخــرون التفكــير بخــلاف ذلــك، ويجــبرون أنفســهم عــلى تصديــق ذلــك، لكــن بالتأكيــد ســوف يظهــر بعــض الشــجعان مــن بينهــم.

جلَسَــت هنــده إلى الخلــف، وطلبــت مــن الســائق أن يواصــل الســير عــلى الطريــق، وكانــت هنــاك ابتســامة ســعيدة عــلى وجههــا، حاوَلَــت عــدم إظهارهــا أكــثر مــن الــلازم، ولأول مــرَّة منــذ ســنوات، كان يمكنهــا أن تتذكَّــر والدهــا، ليــس بتعبيراتــه المؤلمــة في اليــوم الــذي أخــذوه فيــه بعيــدًا، ولكــن بوجهــه المبتســم المــشرق، وهــو يــروي تلــك القصــص الجميلــة.

قالت في نفسها، أحبُّكَ يا أبي، وعيناها تدمعان، أحبُّكَ كثيراً...

بينــما كانــت المَركَبَــة تحلِّــق بين الأبــراج الضخمــة ذات الألــوان المعدنية، والتــي تخــترق الغيــوم، كانــت تحلــم بــأن تحلِّــق فــوق الأشــجار الخــضراء، وتقــوم بالدردشــة مــع الطيــور، وكانــت تشــاهد الشــمس وهــي تتــلألأ فــوق بحــرٍ صــافٍ في الأفــق، وتشــعر بأنهــا حُــرَّة، هــل يمكــن لحركــة المســاواة أن

تُغـيِّر اسـطنبول حقًّـا، ألا يـزال هنـاك أمَـلٌ لسُـكَّان هـذه المدينـة، لم تكـن تعلـم ذلـك، ولم تكـن مهتمَّـة بذلـك كثـيراً، لقـد غـيَّروا عالمها كلـه.

الآن لم تَعُد هي المرأة التي كانت موجودةً قبل بضع دقائق.

يمكنها أن تحلم الآن.



نبذة عن الكاتب

باريش مستجابلي أوغلو، درس الهندسة المدنية في جامعة البوسفور، بين عامَيْ 2002- 2005، وكتب أول سلسلة من الأدب الخيالي في الأدب التُّركي، وهي تتكوَّن من أربعة كتب، ونشر ثلاثة أعمال، هي: «خيال أجمل من الحقيقة»، و«التلميذ، و«دم الأخوين».

وفي عام 2011 كتب سلسلة «مملكة الشامان» المكوَّنة من ثلاث روايات، وتُرجِمَت أعماله المختلفة إلى: البولندية والبلغارية والعربية والصربية والرومانية والصينية والهندية والألمانية والإنجليزية.

نبذة عن المترجم

دكتور سمير عباس زهران حصل على الدكتوراة في اللغة التركية وآدابها عام 1994 من جامعة عين شمس، وقام بالتدريس في جامعات سوهاج وبني سويف وبنها وجامعة الإسكندرية وجامعة بيروت العربية، ويعمل حاليًا أستاذًا غيرَ مُتفرِّغ بجامعة عين شمس.

قام بترجمة ما يربو على 90 كتابًا، منها: روايات: كوَّة الحائط، ولمس السُّلطان، ومنظار إسطنبول، وأمي بلقيس، والساحرة العثمانية. وبعض الكتب التاريخية، مثل: المسيخ الدَّجَّال، والمرأة العثمانية، والسلاطين الأوائل، وحركات التَّمرُّد والانقلابات في الدولة العثمانية، وانتقام طروادة. وكتاب أخطاء صادمة عند تربية أطفالنا، في مجال علم النَّفس، إضافة إلى مجموعات من أدب الأطفال.

أعدَّ مجموعةً من القواميس من التركية للعربية والعكس.

الساحرة
العثمانية

رواية خيال علمي، وتدور في ثلاثة أزمنة، منها: العصر العثماني، والعصر الحالي، والقرن القادم، كما تدور أحداثها في ثلاثة أجواء أيضًا: في البحر، والبر، والجو؛ حيث تبحر السفينة العثمانية "شاهميران". وتسير على الأرض، السيارة "البَرّ جَوِّيّة"، كما تطير في الجو. وكوكب "مافرون" حيث يعيش الناس هناك مئات بل آلاف السنين، وبعضهم لا يموت.





